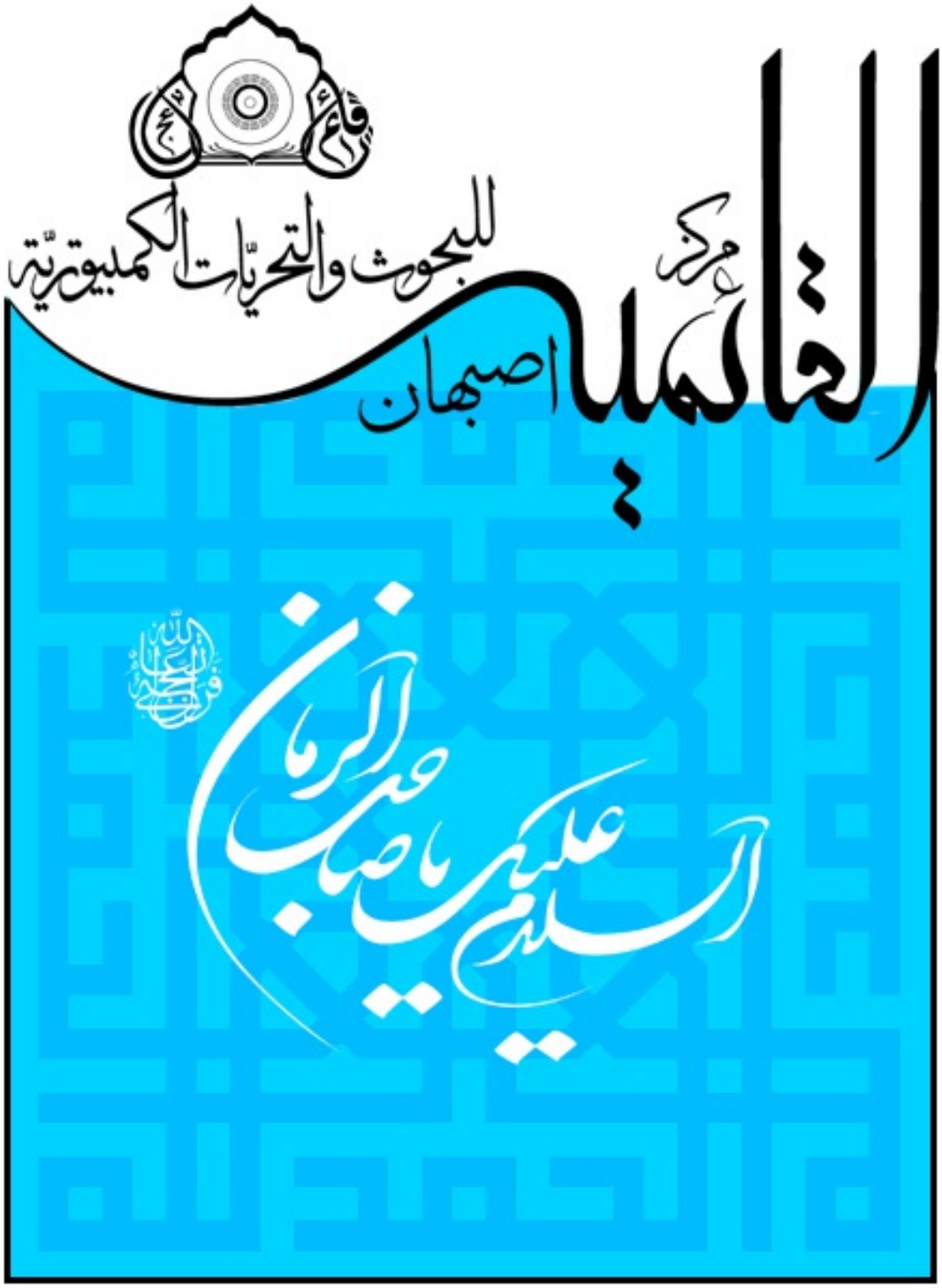

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

الرحلة السرية للعقيد الروسي عبدالعزيز دولتشين إلى الحجاز

سنة ١٨٩٨ - ١٨٩٩م

عبدالعزيز دولتشين

الرياض العربية للموسوعات

بسم الله الرحمن الرحيم

الرحلة السرية للعقيد الروسی

نویسنده:

دولتشین، عبد العزیز

ناشر چاپی:

الدار العربیة للموسوعات

ناشر دیجیتالی:

مرکز تحقیقات رایانه‌ای قائمیه اصفهان

الفهرس

الفهرس ----- ۵
الرحلة السرية للعقيد الروسى ----- ۱۲
اشارة ----- ۱۲
حياة الرحالة العقيد الروسى عبد العزيز دولتشين ----- ۱۲
تمهيد ----- ۱۵
اشارة ----- ۱۵
قائمة الحجاج المسلمين (ما عدا حجاج روسيا) من ۱۶ تموز (يوليو) ۱۸۹۰ إلى أول تموز ۱۸۹۴ ----- ۲۴
قائمة السفن التى دخلت مرفأ جدة بالحجاج من ۱۶ تموز (يوليو) ۱۸۹۰ إلى أول تموز ۱۸۹۴ ----- ۲۴
قائمة الادلة و الوكلاء (بموجب تقرير القنصل فى جدّة) عن سنة (۱۸۹۳) ----- ۲۴
يوميات الرحلة إلى مكة المكرّمة ----- ۳۰
الفصل الأول سرى الرحلة إلى الحجاز ----- ۶۵
الحدود ----- ۶۵
طوبو غرافية السطح ----- ۶۵
النباتات و الحيوانات ----- ۶۶
المناخ ----- ۶۶
السكان (خارج المدن) ----- ۶۷
التجارة و الصناعة عند السكان الرحل ----- ۷۰
الوضع السياسى فى الحجاز ----- ۷۰
التقسيم الإدارى ----- ۷۲
القوات المسلحة ----- ۷۳
ميزانية الحجاز ----- ۷۴
النفقات فى السنة ذاتها: ----- ۷۵
الفصل الثانى حركة الحج فى الحجاز ----- ۷۵

خصائص ظروف المواصلات ۷۵
القافلة و الرکب ۷۵
البدو و عملیات النهب و الإعتداء ۷۶
المحملان السوری و المصری ۷۸
سبل الحجاج فی الحجاز ۷۹
الطریق من جدّة إلی مکة و منها إلی عرفات ۷۹
السبل بین مکة و المدینة المنورة ۸۰
الطریق بین المدینة المنورة و ینبع ۸۴
مسیرة المحمل السوری ۸۵
مسیرة المحمل المصری (من المدینة المنورة إلی الوجه) ۸۶
الفصل الثالث مکة المکرّمة و المدینة المنورة و غیرهما من النقاط الآهلة فی الحجاز و أهمیتها ۸۶
مکة المکرّمة ۸۶
اشارة ۸۷
موقع المدینة ۸۷
البیوت ۸۷
المبانی العامة ۸۷
الشوارع ۸۸
السکان ۸۸
أشغال سکان مکة ۹۰
النظام النقدی ۹۱
تجارة الرقیق ۹۲
الظروف الصحیة فی مکة. الماء ۹۳
حالة البیوت ۹۴
حالة الشوارع و البازارات ۹۴

المسلخ ----- ۹۴
المقبرتان ----- ۹۵
الظروف المناخیة فی مکة ----- ۹۵
المستشفی و الصیدلیات ----- ۹۵
السلطات الاداریة و القضائیة فی المدینة ----- ۹۶
البرید و البرق ----- ۹۶
مدینة الطائف ----- ۹۶
المدینة المنورة ----- ۹۷
اشارة ----- ۹۷
الشوارع ----- ۹۷
البیوت ----- ۹۸
سکان المدینة و أشغالهم ----- ۹۸
الظروف الصحیة فی المدینة المنورة ----- ۱۰۰
حالة البیوت ----- ۱۰۰
حالة الشوارع ----- ۱۰۰
المسلخ ----- ۱۰۰
المقبرة ----- ۱۰۱
الظروف المناخیة ----- ۱۰۱
المستشفی ----- ۱۰۱
المدارس الدینیة فی المدینة المنورة ----- ۱۰۱
المکتبات ----- ۱۰۳
سلطات المدینة ----- ۱۰۳
البساتین فی ضواحی المدینة المنورة ----- ۱۰۴
المدینة المنورة بوصفها منفی ----- ۱۰۴

ینبع. موقع المدینة و البیوت ----- ۱۰۵
اشارة ----- ۱۰۵
السکان و أشغالهم ----- ۱۰۵
الظروف الصحیة فی ینبع ----- ۱۰۵
الظروف المناخیة ----- ۱۰۶
الإسعاف الطبی ----- ۱۰۶
سلطات المدینة ----- ۱۰۶
جدّة ----- ۱۰۷
الفصل الرابع عن الحج عموما ----- ۱۰۷
ما هو الحج ----- ۱۰۷
المسجد الکبیر فی مکة ----- ۱۰۷
الآیات القرآنیة المتعلقة بالحج ----- ۱۱۰
شعائر الحج ----- ۱۱۲
إن أداء الحج یقتضی أداء ثلاث شعائر هی: ----- ۱۱۲
زیارة الآثار فی ضواحی مکة ----- ۱۱۴
اشارة ----- ۱۱۴
السجود أمام قبر النبی صلی اللّه علیه و سلم فی المدینة المنورة ----- ۱۱۴
المسجد الکبیر فی المدینة المنورة ----- ۱۱۴
زیارة الآثار الأخری فی ضواحی المدینة المنورة ----- ۱۱۵
الفصل الخامس حج المسلمین الروس ----- ۱۱۵
عدد الحجاج المسلمین الروس سنة ۱۸۹۸ ----- ۱۱۵
أصناف الحجاج ----- ۱۱۶
الأسباب الرئیسیة التی تحمل علی الحج ----- ۱۱۶
مقدار المبلغ الضروری لأجل الحج ----- ۱۱۷

الاستعدادات للسفر ----- ۱۱۷
الحصول على جوازات السفر ----- ۱۱۷
الخروج من حدود روسيا ----- ۱۱۸
القسطنطينية بوصفها نقطة متوسطة هامة ----- ۱۱۸
السفر إلى جدّة ----- ۱۱۹
النزول فى جدّة أو فى ينبع ----- ۱۲۰
الرأس الأسود ----- ۱۲۰
الانتقال إلى مكة ----- ۱۲۱
الوصول إلى مكة و الإقامة ----- ۱۲۱
الإقامة فى مكة قبل الإنطلاق إلى عرفات ----- ۱۲۲
الإنطلاق إلى عرفات ----- ۱۲۲
الإقامة فى عرفات ----- ۱۲۲
المزدلفة ----- ۱۲۳
منى ----- ۱۲۳
العودة إلى مكة و رحيل الحجاج ----- ۱۲۵
الانتقال إلى المدينة المنورة ----- ۱۲۵
الإقامة فى المدينة المنورة ----- ۱۲۶
الذهاب إلى ينبع ----- ۱۲۶
الإقامة فى ينبع ----- ۱۲۷
المحجر الصحى فى الطور ----- ۱۲۷
المحجر الصحى فى بيروت ----- ۱۳۲
زيارة القدس و دمشق و القاهرة ----- ۱۳۳
تأثير الحج فى مسلمينا ----- ۱۳۳
تأثير حجاجنا فى سكان الحجاز ----- ۱۳۵

تأثیر سائر الأمم الأوروبیة ----- ۱۳۵
الفصل السادس الحجاج من الدول الأخری ----- ۱۳۶
القشغریون ----- ۱۳۶
الفرس ----- ۱۳۶
الاتراک ----- ۱۳۷
السوریون ----- ۱۳۸
المصریون ----- ۱۳۸
المغاربة ----- ۱۳۸
الافغان ----- ۱۳۹
سکان الهند ----- ۱۳۹
الماليزيون ----- ۱۳۹
سکان الساحل الشرقی من افریقیا ----- ۱۳۹
سکان الجزیرة العربیة ----- ۱۴۰
الفصل السابع الکولیرا فی الحجاز ----- ۱۴۱
اشارة ----- ۱۴۱
طابع أوبئة الکولیرا المحلیة ----- ۱۴۱
الأوبئة المعروفة فی القرن الحالی ----- ۱۴۲
الأسباب التی تساهم فی نشوب و اشتداد الأوبئة فی الحجاز ----- ۱۴۳
ماذا تمّ فعله حتی الآن للتجهیز بالمرافق الصحیة ----- ۱۴۴
ما هی التدابیر الصحیة الضروریة الأخری ----- ۱۴۵
اشارة ----- ۱۴۵
فی منی: ----- ۱۴۵
عند عرفات: ----- ۱۴۶
فی مکة: ----- ۱۴۶

فی المدینة المنورة: ۱۴۷
فی ینبع: ۱۴۷
فی جدة: ۱۴۸
فی نقاط صعود الحجاج إلی البواخر: ۱۴۸
طبقة الحجاج المعدمة ۱۴۸
التدابیر التی ینصح بها الدکتور المختص ۱۵۰
الملاحق ۱۵۲
اشارة ۱۵۲
الملّا میرزا علیم ابن دام الله میرزا رحیم طشقندی یصف طریق الحج ۱۵۲
وصف بوابات کعبة الله و الأماکن المقدسة حیث یمکن أن یقبل [الله] صلوات المؤمنین ۱۵۴
منطقة المسلمین المقدسة فی الجزیرة العربیة مقتطفات من ذکریات الحاج سلیم غیری سلطانوف ۱۵۶
مکة مدینة المسلمین المقدسة مقتطفات من ذکریات الحاج عیشایف ۱۶۷
الفصل الأول مدینة جدّة ۱۶۸
الفصل الثانی من جدّة إلی محطة حدّة ۱۶۹
الفصل الثالث محطة حدّة و الوصول إلی مدینة مکة ۱۷۰
الفصل الرابع مدینة مکة ۱۷۳
الفصل الخامس شریف مکة. المحکمة. الحجاج و الأدلة ۱۷۷
الحج (من وجهة نظر روسیة) ۱۷۷
فهرس المحتویات ۱۸۰
درباره مرکز تحقیقات رایانه‌ای قائمیه اصفهان ۱۸۵

الرحلة السرية للعقيد الروسى

اشارة

نام كتاب: الرحلة السرية للعقيد الروسى

نويسنده: دولتشين، عبد العزيز

موضوع: سفرنامه

زبان: عربى

تعداد جلد: ۱

ناشر: الدار العربية للموسوعات

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ۱۴۲۸ ه. ق

نوبت چاپ: اول

الرحلة السرية للعقيد الروسى عبد العزيز دولتشين إلى الحجاز سنة ۱۸۹۸-۱۸۹۹م

alrhlah alsriah lla'kid alrousi a'bd ala'ziz doultshin ila alhjaz snah ۱۸۹۸-۱۸۹۹m

تأليف: عبد العزيز دولتشين تاريخ النشر: ۰۱/۰۹/۲۰۰۷

الناشر: الدار العربية للموسوعات

النوع: ورقى غلاف كرتونى، حجم: ۲۴×۱۷، عدد الصفحات: ۴۰۶ صفحة الطبعة: ۱ مجلدات: ۱

اللغة: عربى

http://www.neelwafurat.com/itempage.aspx?id=lbb۱۵۷۶۴۴-۱۱۹۴۰۵&search=books

موضوع: دولتشين، عبدالعزيز. سفرها - عربستان سعودى

محل انتشار: بيروت = الدار العربيه للموسوعات = ق۱۴۲۸. = م۲۰۰۸. = ۱۳۸۷

صفحه: ۴۰۶ ص .: مصور، جدول

توضيحات: عربى

كتابنامه: كتابنامه به صورت زيرنويس

شناسه ها: عربستان سعودى - سير و سياحت - قرن م۱۹ = سفرنامه ها = عنوان

رده بندى كنگره: DS،۲۰۷/د۹ر۳

شماره ديويى: ۹۱۵/۳۸۰۴۲د۷۸۶ر

حياة الرحالة العقيد الروسى عبد العزيز دولتشين

ولد عبد العزيز دولتشين فى ۲۴ حزيران (يونيو) ۱۸۶۱ فى عائلة ضابط فى الجيش الروسى. و كانت هذه العائلة التترية المحترمة تتمتع بتأثير كبير بين أبناء قوميتها؛ و قد شغل والد المؤلف مناصب هامة فى إدارة مناطق الاورال الجنوبية فى روسيا. إن انتماء الوالد إلى فئة النبلاء و مهنته العسكرية لم يؤثرا فى روح التقوى الإسلامية السائدة فى العائلة.

بعد التخرج من مدرسة الامبراطور بافل العسكرية المتميزة فى بطرسبورغ، خدم عبد العزيز دولتشين خمس سنوات فى قلعة دينابورغ

غير بعيد عن دفينسك، و تعلم فى سنوات ۱۸۸۷- ۱۸۹۰ فى صفوف اللغات الشرقية لأجل الضباط لدى الدائرة الآسيوية فى وزارة الخارجية . و هذه الصفوف أعطت الجيش الروسى و الديبلوماسية و العلم سلسلة من المستشرقين الممارسين اللامعين.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۶

و أمام الضابط المسلم الشاب الذى امتلك فى نهاية التعليم ناصية اللغات العربية و التركية و الفارسية و الانجليزية و الفرنسية، ناهيك عن لغته القومية و اللغة الروسية، انفتحت آفاق رائعة أمامه للترقى فى الميدان العسكرى و الديبلوماسى الروسى. و لكن دولتشين، بحكم طبعه، لم يسع وراء الوظائف العالية. فإن هذا الضابط الهادئ، المتوازن، الرصين، العملى، و حتى المتحذلق نوعا ما، الذى لا يتميز بالغرور راح بهدوء من بطرسبورغ إلى وظيفة غير كبيرة فى أعماق آسيا الوسطى، فى ناحية قره قلعة، غير البعيدة عن عشق آباد. و أثناء إقامته هناك سبع سنوات، تفهّم جيدا القضايا التى تشغل بال الناس القاطنين فى الأراضى الخاضعة لادارته، و امتلك ناصية اللهجات المحلية، و درس اخلاق السكان المحليين و طبائعهم و عاداتهم و فولكلورهم. و بحكم عمله، تقابل غير مرة مع رئيس مقاطعة ما وراء قزوين أ. ن. كوروباتكين الذى سرعان ما صار وزيرا للحربية. و قدّر كوروباتكين كفاءة النقيب المسلم. و هناك جملة من الوقائع توحى بانه نشأت بينهما علاقات صداقة؛ و عندما وردت مسألة ضرورة ترشيح ضابط فى الجيش الروسى لأداء فريضة الحج و تفهم ما إذا كانت هذه الممارسة تشكل خطرا على مصالح روسيا العسكرية و السياسية فى الشرق، تذكره كوروباتكين.

حالف الترشيح أقصى التوفيق. فبما أن دولتشين كان مسلما، فقد اعتبر إمكانية إداء فريضة الحج كمنحة من القدر، و مهمة المأمورية كفرصة لمساعدة الآلاف من اخوانه فى الإيمان، من المسلمين من رعايا روسيا، مساعدة فعلية من إداء فريضة الحج، الأمر الرئيسى على الأغلب فى الحياة الروحية لكثيرين منهم، و ادائها فى ظروف و شروط لائقة بالبشر. و مع ذلك ظل من رعايا الامبراطورية الاوفياء كليّا، ظل مخلصا لقسم الضابط. و عن حق و صواب اعتبر تلبية الحقوق المشروعة لأبناء دينه فى اداء فريضة الحج انعكاسا لعناية الدولة برعاياها، الأمر الذى يوطد الدولة نفسها فى آخر المطاف.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۷

تجدر الإشارة إلى أن دولتشين لم يكن يعرف حاجات المسلمين البسطاء القاطنين فى أراضى روسيا و حسب. فإن مضمون يومياته يدل على انه كان يعرف أيضا عددا من الشخصيات الإسلامية العائشة فى روسيا. و من معارفه، الشخصية المحافظة نوعا ما، حميد اللّه آخون، الذى كان يتمتع بجزيل الاحترام بين المسلمين القاطنين فى بطرسبورغ؛ و عطا للّه بايازيدوف، المذكور سابقا، مؤلف جملة من المطبوعات تشكل بمجملها بيانا فريدا لمسلمى روسيا الذين يشاطرون الأفكار الإصلاحية.

و يذكر دولتشين بين معارفه القريبين كبار أصحاب مصانع النسيج التتر من عائلتى اكتشورين و دبردييف، الذين تبرعوا بمبالغ كبيرة لتلبية الحاجات الدينية و لعبوا دورا ملحوظا فى حياة روسيا السياسية؛ و الدكتور دالغات الذى خدم فى سنة ۱۸۹۹ لدى القنصلية الروسية فى جدّة، و الذى صار فيما بعد شخصية إسلامية هامة تقدمية الاتجاه، و اشترك فى مؤتمر مسلمى روسيا الذى انعقد فى بطرسبورغ فى حزيران (يونيو) ۱۹۱۴.

فى هيئة الأركان العامة للجيش الروسى التى مضى دولتشين إلى مكة بتكليف منها، كان يوجد تقليد علمى جدى. فقد كانت دراسة بلدان الشرق الأدنى تحظى باهتمام كبير. إن ازدهار النشاط العلمى المتعلق بقيام الضباط الروس بوصف مختلف مناطق الامبراطورية العثمانية كان يرتبط باسم الشخصية العسكرية و رجل الدولة البارز الليبيرالى الاتجاه ن. ن.

أوبروتشيف (۱۸۳۰- ۱۹۰۴) الذى عيّن فى سنة ۱۸۸۱ رئيسا لهيئة الاركان العامة. و بمبادرته شرعت اللجنة العسكرية العلمية لدى هيئة الاركان العامة بإصدار «مجموعات المواد الجغرافية و الطوبوغرافية و الاحصائية عن آسيا». و نحو بداية الحرب العالمية الأولى صدرت ۸۷ من هذه المجموعات ۸ منها (۴، ۱۱، ۱۹، ۲۰، ۴۹، ۶۲، ۶۶، ۸۴) مكرسة للشرق الأدنى .

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۸

و إذا كانت «يوميات» دولتشين تدل على مبلغ عمق الانطباع الذى تركته فى شعوره الدينى مراسم الحج ، فإن «تقريره» يبيّن إلى أى حد تفهم بدقة و اهتمام القضايا المطروحة أمامه.

و قد استفاد دولتشين فى عمله من مصادر متنوعة باللغات العربية و التركية و الاوروبية، فضلا عن ملاحظاته و مراقباته الشخصية. و علاوة على المعلومات المفصلة عن الحج عموما، بما فى ذلك ترجمة آيات من القرآن تتحدث عن الحج إلى مكة، و وصف المراسم و الشعائر بالتفصيل، حلل دولتشين بدقة و عناية القضايا المتعلقة بحج المسلمين من رعايا روسيا و كذلك بالحجاج من الدول الأخرى، و تناول الوضع الصحى الوبائى فى الحجاز، و ساق قائمة الإجراءات الصحية، الضرورية برأيه، و أعطى وصفا مفصلا عن مكة و المدينة و سبل الحجاج. إن باب «معلومات أولية عن الحجاز» ينطوى على معلومات فى غاية التنوع من وصف النباتات و الحيوانات إلى مواد تتعلق بالميزانية و التقسيم الأدارى.

و تضمن «التقرير» معلومات طريفة و مفيدة ذات طابع عسكرى و سياسى و اثنوغرافى و تاريخى و اقتصادى تتعلق بالجزيرة العربية و الحج فى أواخر القرن التاسع عشر. كذلك عكس «التقرير» جملة من القضايا التى اثارت الاضطراب بين المسلمين من رعايا روسيا. و من هذه القضايا، الدعاية لنزوح المسلمين من روسيا إلى البلدان الإسلامية. و بتأثير هذه الدعاية نزح، مثلا، من القرم إلى تركيا، مئات الناس.

بعد العودة، أعد دولتشين خلال بضعة أشهر «التقرير» للطبع؛ و فى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۹

سنة ۱۸۹۹، بحث إمكانية مأمورية جديدة إلى القسطنطينية لأجل مواصلة دراسة المسائل المتعلقة بحج المسلمين من رعايا روسيا .

و لكن مهمة أخرى كانت بإنتظاره. فقد ارسلوه من جديد إلى آسيا الوسطى، و هذه المرة للاطلاع على نشاط المحاكم الشعبية. فإن ادراج منطقة ما وراء قزوين، و أقليم تركستان، و كازاخستان فى قوام الامبراطورية قد تطلب كذلك ادماج النظام القضائى القائم فى هذه الإنحاء فى النظام القضائى لعامة روسيا. و قد تبدت نواقص النظام القضائى المحلى، مثلا، فى سياق البحث عن أسباب انتفاضة انديجان و تحليل عواقب تطبيق لائحة سنة ۱۸۸۶ بصدد إدارة أقليم تركستان. و قد عهد إلى دولتشين، الخبير البارع فى شؤون هذا الاقليم، بتفهم مجمل هذه القضايا فى مطرحها. و هذه المرة أيضا أدى المهمة بنحو باهر، الأمر الذى يدل عليه «تقرير النقيب دولتشين عن المأمورية إلى اقليم تركستان و مناطق السهوب للاطلاع على نشاط المحاكم الشعبية» (سانت بطرسبورغ، سنة ۱۹۰۱)؛ و هذا التقرير لا يزال إلى الآن على جانب من الأهمية بوصفه مصدرا تاريخيّا فريدا .

بعد العودة من آسيا الوسطى، كلفوا دولتشين بوظيفة نقيب تحت

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۰

الصفحة الأولى من يوميات دولتشين

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۱

تصرف رئيس هيئة الاركان العامة، مع استمراره فى دراسة قضايا تركستان. و تدل مواد أرشيف المستشرقين فى فرع لينينغراد لمعهد الاستشراق لدى اكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفييتى (المجموعة رقم ۷۰) على سعة اهتماماته. فإن هذه المجموعة تحتوى تسجيلات مؤلفات فولكلورية (الملف رقم ۴۹) و وثائق تتعلق بخدمة المسلمين فى الجيش الروسى (الملف رقم ۷) و بالخدمة الدينية و الممارسة الإدارية فى المناطق الإسلامية (الملفات رقم ۶، ۸، ۹، ۱۰، ۱۳، ۱۴، ۱۶، ۲۰، ۲۹) و مشاريع الرى فى تركستان (الملف رقم ۴۰). و هناك عدد كبير من الترجمات و من المقتطفات من الكتب، و من ملاحظات المؤلف الشخصية، و كلها تتعلق بتاريخ الإسلام و العالم العربى الإسلامى و الشعوب الإسلامية القاطنة ضمن حدود روسيا (الملفات رقم ۳۳- ۳۹، ۴۱- ۴۳). و يحلل دولتشين أعمالا تتحدث عن الإسلام (الملف رقم ۴۷). أما بأى احترام كانت الطائفة الإسلامية فى روسيا تعامله، فتدل عليه الرسالة التذكارية المقدمة له فى يوم

بلوغه الأربعين من العمر (الملف رقم ۷۹). و هذه الرسالة ننشرها فى هذا الكتاب على سبيل التبيان.

و فى حياة دولتشين مرحلة خاصة ترتبط ببناء جامع بطرسبرج حيث كان رئيسا للجنة بنائه. و قد جرى ارساء أساس الجامع فى ۳ شباط (فبراير) ۱۹۱۰. إن بناية الجامع التى لا تزال اليوم من أبرز آثار الهندسة المعمارية فى لينينغراد كانت محسوبة لأجل ۳۰۰۰ من المصلّين. و قد أخذ دولتشين على عاتقه قسما كبيرا من العمل على تنظيم البناء و جمع الأموال من أجله؛ و كان قد صار فى هذه الأثناء عقيدا. (راجع الملف رقم ۶۱- ۶۴). و إلى هذه الحقبة من الزمن ترقى الصورة التى يبدو فيها دولتشين مع خان خوى سيّد اسفنديار و التى التقطها المصور الشهير من بطرسبوغ كارل بولّا على حاجز كاتدرائية بطرس و بولس فى بطرسبورغ.

و بموجب فرمان من القيصر نيقولاى الثانى، كان دولتشين قد كوفئ

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۲

بوسام ستانيسلاف (الملف رقم ۸۰)، كما أن أمير بخارى منحه و سام النجمة الذهبية من الدرجة الثالثة.

فى سنة ۱۹۱۶، صار دولتشين برتبة لواء أمين سر هيئة الأركان العامة، و ترأس العمل المتعلق بجمع الوثائق التى تهيئها هذه الدائرة البالغة الأهمية فى بنية الجيش الروسى. و لكن، بعد سنة، فى أيار (مايو) ۱۹۱۷، حل محل الفريق ماناكين فى منصب رئيس القسم الآسيوى فى هيئة الأركان العامة . و قد بقى فى هذا المنصب بعد ثورة اكتوبر، و على الأقل حتى ۴ آذار (مارس) ۱۹۱۸ .

بعد ثورة اكتوبر (تشرين الأول) ۱۹۱۷، تعاون دولتشين بهمة و نشاط مع حكومة العمال و الفلاحين، إذ رأى فى العديد من تصريحات ممثلى السلطة الجديدة إمكانية تحسين حياة المسلمين فى تركستان.

و اهتم كثيرا بمسائل الرى فى تركستان، و ساعد فى شراء المطبوعات الضرورية (الملف رقم ۵۶، ۵۸)، و قام بدور الخبير، و عكف على دراسة و حل المسائل المتعلقة بإصدار كتب التعليم باللغات المحلية (الملف رقم ۵۵)، و وضع خطة من الإجراءات لمكافحة الملاريا فى تركستان، و عمد إلى وضع موجز تاريخى عن القوات المسلحة البشكيرية (الملف رقم ۴۶). و تدل الوثائق على أن دولتشين كان فى أواخر سنة ۱۹۱۹ يشرف على هيئة أركان القسم الشرقى الخاص لدى أكاديمية الأركان العامة (الملف رقم ۵۴).

و من المؤسف انه لم يتسنّ لنا أن نعثر على مواد تتعلق بمصير العقيد عبد العزيز دولتشين لاحقا.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۳

تمهيد

اشارة

إن أوصاف المدينتين المقدستين فى الجزيرة العربية، مكة المكرّمة و المدينة المنورة، تشغل، لأسباب مفهومة، مكانا كبيرا فى المؤلفات التى وصلت إلينا من أدب التاريخ و الجغرافية عند العرب و سائر الشعوب الإسلامية. فإن مؤلفات جغرافية شهيرة عديدة، و منها «سفر نامة» تأليف ناصر خسرو (۳۹۴- حوالى ۴۸۱ هجرية/ ۱۰۰۳- ۱۰۸۸) قد ظهرت بمثابة أوصاف للحج إلى مكة. كما ظهر نوع خاص من المؤلفات مكرس لفضائل المدينتين المقدستين. و فى هذا الصدد لفت العلماء الأوروبيون من زمان بعيد الإنتباه إلى الامكانية الفريدة التى توفرها المصادر من هذا النوع لبعث تاريخ مكة المكرّمة و جغرافيتها التاريخية. فمن سنة ۱۸۵۷ إلى سنة ۱۸۶۱ أصدر فرديناند فوستنفلد سلسلة من أربعة مجلدات اسمها «أخبار مدينة مكة» ، و ختمها بمؤلف النهروالى (توفى سنة ۹۹۰ ه/ ۱۵۸۲ م). و يحتوى كتاب أوغست رالى «المسيحيون فى مكة ...»

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۴

عرضا لانطباعات رحالة أوروبيين زاروا هذه المدينة بدءا من سنة ۱۵۰۳ (لودوفيكو بارتيما) و انتهاء بسنة ۱۸۹۴ (جرفه- كورتيليمون).

إن المواد التى استرعت انتباه صاحبى هـذين الكتابين ترتبط فى المقام الأول بمكة و المدينة مباشـرة، و لكنها تتسم بأهمية خارقة على صعيـد دراسـة الحـج بالذات، و دوره التاريخى الثقافى و الاجتماعى السياسـى فى المجتمع الإسـلامى. إن دراسة مختلف المصادر من هـذا النوع بمجملهـا، و منهـا مثلا الوصف الشـعرى للحـج بلغـة «الحميادو» من وضع مؤلف مغربى مجهول فى القرنين السادس عشـر و السابع عشـر تتيح لنا أن نرى فى الحج شكلا للوحدة فى الإيمان التى توحّد ملايين المسلمين على اختلاف بلدانهم و تقاليدهم القومية و الثقافية. و باعتبار الحج عنصرا محوريّا، تتيح لنا هذه الدراسة أن نرى تاريخ الشعوب الإسلامية فى وحدته.

و إن المؤلف يود لو يعتبر هذا البحث قسطا فى بناء صرح جليل لهذا التاريخ.

و هـذا الكتـاب الـذى نضـعه بين أيـدى القراء يرتكز على وثائق و مواد فريـدة و عسـيرة المنال من الارشـيفات و المكتبات السوفييتيـة: أرشـيف المستشـرقين و مكتبـة فرع لينينغراد لمعهد الاستشـراق لدى أكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفييتى، أرشـيف الدولة العسـكرى التاريخى المركزى (موسـكو)، أرشـيف الدولـة التاريخى المركزى (لينينغراد)، مجموعات المخطوطات و الوثائق لدى أكاديمية العلوم فى جمهوريـة أوزبكسـتان الاشتراكيـة السوفييتيـة (طشـقند)، أرشـيف الدولـة المركزى للأسـطول البحرى الحربى (لينينغراد)، أرشـيف سياسـة روسـيا الخارجيـة، أرشـيفات مكتبـات أخرى فى (لينينغراد)، أرشـيف سـياسة روسـيا الخارجيـة، أرشـيفات مكتبـات أخرى فى لينينغراد و موسكو و تبيليسى.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۵

يعود مكان الصدارة فى هذا الكتاب إلى المواد المتعلقة برحلة العقيد فى الجيش الروسـى، عبد العزيز دولتشين إلى مكة و المدينة سنة ۱۸۹۸. و لكى يحصـل القـارئ على تصور عن كـل طيف الآـراء و التقييمـات المتواجـدة فى روسـيا على تخوم القرنين التـاسع عشـر و العشـرين بصدد الحج، جمعنا فى الملاحق سلسـلة من المواد، فى عدادها انطباعات عن الحج، أصدرها حجاج بسطاء من منطقة الفولغا و الاورال الجنوبى و تركستان تبرز أولوياتهم و إهتماماتهم و تعطى تصورات عن العقائد الشعبية العديدة بصدد الحج؛ نظرة إلى الحج من كاتب تقـدمى إجتماعى إسـلامى و من معاون فى القنصـلية الروسـية فى جـدّة مفعم بالروح الأوروبيـة؛ رأى كاتب إجتماعى مفعم بالشوفينية و روح الدولة الكبرى فى حج المسـلمين من رعايا دولة روسيا، و أخيرا، و ثيقة رسمية لوزارة الداخلية فى إمبراطورية روسيا تتعلق بتنظيم حج المسلمين.

يعرب المؤلف عن خالص الامتنان لنوريه بكياشـيفا على العون الكبير الـذى قـدمته فى مجال دراسـة الوثائق، و كـذلك للـدكتور عبد الجبـار عبـد الوحيـدوف و الـدكتور حميـد اللّه حكمت اللاـيف على العون فى إعـداد المخطوطات من مجموعـة اكاديميـة العلوم فى جمهورية أوزبكستان الاشتراكية السوفييتية لأجل النشر.

إن القرار غير العادى نوعا ما بإرسال الضابط فى الجيش الروسى، المسلم من حيث الأصل و التربية، العقيد دولتشين، قد اتخذ فى وضع تعاظم فيه كثيرا دور العامل الإسـلامى فى سياسة روسيا الداخلية و الخارجية. و قبل أن نشرع فى عرض المواد التى فى منالنا و المتعلقة بحيـاة دولتشـين و نشـاطه، نحـاول أن نرسم إطار السـياسة الخارجيـة و الداخليـة الـذى اتخـذ فيه هـذا القرار، و خصائص العلاقات بين الطوائف

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۶

و العلاقـات بين المسـلمين فى روسـيا على تخوم القرنين التاسع عشـر و العشـرين، و القضايا الناشـئة لمناسـبة حـج المسـلمين من رعايا روسيا.

النصف الثانى من القرن التاسع عشـر هو مرحلة تعاظم نفوذ روسـيا فى الشرق الأوسط و فى آسيا الوسطى بسرعة وحدة. و قد شهد عام ۱۸۹۸ ضم أقليم تركسـتان إلى روسيا. فقد التحق بقوام الامبراطورية الروسية- علاوة على الشعوب الإسلامية التى كانت تعيش فيها من قبـل- الملايين و الملايين من المسـلمين ممن حافظوا على بنيـة علاقاتهم فى إطار العالم الإسـلامى. و مع خانـة (إمارة) بخارى و خانة

(إمارة) خوى، بلغ عدد الرعايا المسلمين فى الإمبراطورية ۱۶ مليون نسمة. و من حيث الجوهر لم يبد السكان المحليون مقاومة بوجه القوات المسلحة الروسية. و فى غضون ۳۵ سنة (۱۸۴۷ - ۱۸۷۹) من العمليات الحربية التى جرت هنا، خسرت روسيا، بموجب المعطيات الرسمية، زهاء ۴۰۰ قتيل . إن تخفيض ضريبة الأرض إلى النصف، و إعفاء السكان من الخدمة العسكرية، و توظيفات الرأسمال الكبيرة، و مستوى احترام الإدارة الروسية لعادات السكان المحليون و تقاليدهم الدينية، و منافع التجارة المحلية من اتساع الإتصالات مع روسيا- كل هذا خفف كثيرا فى عيون السكان المحليين من عواقب توسع القيصرية الاستعمارى. و بموجب استنتاجات لجنة التفتيش برئاسة المستشار السرى غيرس (سنة ۱۸۸۲)، بدأ فى سنة ۱۸۸۶ تطبيق لائحة إدارة أقليم تركستان. و قد نصت هذه اللائحة على مساواة حقوق السكان المحليين بالحقوق التى كان يتمتع بها السكان الروس ضمن حدود الامبراطورية، و على تطبيق نظام قضائى مستقل، و تخفيض عدد موظفى الإدارة فى الأقضية؛ و أخيرا على تطبيق

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۷

«مبدأ الانتخاب» عوضا عن تعيين مدراء النواحى. و كان يبدو أن التهدئة قد تحققت فى المنطقة. و لكن نشبت فتنة انديجان فى ۱۸ أيار (مايو) ۱۸۹۸؛ و فى سياقها ذبح ۲۰ جنديّا روسيّا و جرح ۲۲ جنديّا، و قطع رأس مستوطن روسى. قامت هذه الفتنة تحت شعار الجهاد، و ترأسها الزعيم الصوفى المحلى ايشان محمد على صابر أوغلى، الذى قام قبل ذاك بقليل بالحج إلى مكة الذى استقبل، كما بيّن التحقيق، رسلا من اسطمبول. و فى عداد المشتركين فى الفتنة كان خمسة من مدراء النواحى، و قضاة انتخبهم السكان المحليون. و فى سياق المحاكمة، ذكر محمد على صابر أوغلى فى عداد دوافعه فساد الأخلاق، و الانحراف عن مقتضيات الشريعة، و الغاء الزكاة و قوانين الأوقاف، و أخيرا، منع الحج.

و بالفعل وضعت الخزينة يدها على الأراضى المسماة بأوقاف السواد («قره وقوف») التى اعتبرت وثائق ملكيتها غير شرعية؛ و مرارا منعت السلطات الحج بسبب وباء الكوليرا و وباء الطاعون.

إن تحليل هذه الأحداث، و كذلك الاضطرابات التى وقعت قبل ذاك فى سنة ۱۸۷۲ (فى منطقة نهر قره‌سو) و فى سنة ۱۸۹۲ فى طشقند، قد بيّن الدور الكبير الذى لعبه ذوو المكانات الدينية (الايشانات) فى تنظيمها.

و لم تستطع السلطات أو لم تشأ أن ترى فى هذه الاضطرابات بداية لحركة واسعة معادية للاستعمار تجلت بعد بضعة أعوام فقط فى الكثير من التمرد و الانتفاضات التى شملت عددا من المراكز الهامة فى تركستان.

فى أواخر القرن التاسع عشر، اشتد الصراع بين الدول الاستعمارية على السيطرة فى منطقة الخليج العربى و حوض البحر الأحمر . أدّى هذا

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۸

الصراع، و على الأخص بصدد بناء سكة حديد بغداد، انجذبت روسيا أيضا. و ظهرت فى الخليج العربى السفن الحربية و التجارية الروسية .

و قد حاولت الأطراف المتصارعة هنا الإستفادة فى مصلحتها من بأس روسيا و نفوذها. و من الأدلة الطريفة على محاولات الديبلوماسية الالمانية من هذا النوع رسائل ادوارد غلازر الاختصاصى فى تاريخ جنوب الجزيرة العربية و ثقافتها، و عميل المخابرات الالمانية الكبير كما يتضح من هذه الرسائل التى أرسلها فى خريف ۱۸۹۸ إلى وزير الخارجية فى روسيا ميخائيل مورافيوف. و هدف هذه الرسائل و محورها الرغبة فى إستثارة تدخل روسيا فى شؤون الجزيرة العربية إلى جانب تركيا، الأمر الذى كان من شأنه أن يؤدى فى آخر المطاف إلى تقارب فرنسى روسى المانى ذى وجهة معادية للانجليز. و فى المانيا كانوا يخشون خارق الخشية من أن توافق روسيا على اقتراح بتقسيم الإمبراطورية العثمانية إلى مناطق نفوذ من إحالة جميع الأراضى العربية إلى إنجلترا. هذه المقترحات تقدم بها فى كانون الثانى (يناير) سنة ۱۸۹۸ رئيس وزراء بريطانيا العظمى سولسبيرى. و قد كان من شأن تطبيقها أن يؤدى إلى انهيار سياسة القيصر

الالمـانى «البغداديـة» كلها. و قـد حسب سولسبيرى، إذ تقـدم بإقتراحاته، أن تحول المانيا دون تعزيز مواقع روسـيا فى الشـرق الأوسـط تعزيزا جوهريّا و أن تعود الأراضى العربية إلى إنجلترا. و لكن الديبلوماسية

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۹

الروسـية درست و تفهمت فحوى مقترحـات غلاـزر، فرفضت تطبيقهـا ، كمـا رفضت الموافقـة على مقترحـات سولسـبيرى. و من جراء ذلك، قامت فى الصـحافة الإنجليزية و بخاصة فى الصـحافة الإنجلو- هندية حملة واسـعة ضد روسـيا فى خريف سنة ۱۸۹۸ و فى ربيع سنة ۱۸۹۹؛ و قد اتهمت الحكومة الروسية بالإعداد لاحتلال سلطنة تاجورا، و بارسال العملاء إلى الجزيرة العربية و منطقة الخليج .

و فى روسـيا تفـاقم الحـذر من سـياسة المانيا فى الشـرق الأدنى. و قـد قـدروا فى روسـيا كل عمق نفاق «السـياسة الإسـلامية» التى كان ينتهجها القيصـر الإلمانى غليوم الثانى الـذى أرسل إلى القيصـر الروسـى نيقولاى الثانى رسالة بتاريخ ۲۰ تشـرين الأول (اكتوبر) ۱۸۹۸ كتبها أثناء إقامته فى القسـطنطينية: «تذكر أننا أنت و أنا قد اتفقنا فى بيترهوف على ألّا ننسـى أبدا أن من الممكن أن يصـبح المسلمون ورقـة كبيرة للغايـة فى لعبتنا إذا ما وجـدنا أنفسـنا فجأة، أنت و أنا، فى حالـة حرب مع دولـة معروفـة تـدس أنفها فى كل مكان» . و قد فهموا فى بطرسـبورغ أن محاولـة المانيا لاسـتغلال الأمزجـة الإسـلامية ضد إنجلترا موجهة أيضا ضد روسـيا التى يعيش فيها الملايين و الملايين من المسـلمين. و إلى هـذا أشار، مثلا، نشـر الترجمة الروسـية فى سـنة ۱۹۰۲ فى برلين لكتـاب الكاتب الإجتماعى الإسـلامى التوحيدى مير على من الهند «حياة و تعاليم محمد أو روح الإسلام»؛ و فيما

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۰

بعد، فى عشية الحرب العالمية الأولى و فى سياقها، صدرت فى برلين نداءات إلى مسلمى آسيا الوسطى تدعوهم إلى الجهاد.

و بما أن روسيا كانت ترى فى الخليفة التركى عدوّا حربيّا دائما، فقد كانت تنتهج بالطبع حيال الإسلام سياسة حذرة قوامها تأمين حرية الاعتقاد و حريـة ممارسـة الشـعائر الدينيـة لأجل السـكان المسـلمين، و الاعتماد على رجال الـدين المسـلمين ذوى التفكير التقليدى، و تحويل الائمة و المفاتى من حيث الجوهر إلى موظفين حكوميين، و كذلك الموقف السـلبى من أغلبية حركات التجديد فى الإسـلام، و النضال ضد الدعاية الإسلامية التوحيدية و الدعاية التركية التوحيدية.

فى سنة ۱۷۸۷، صـدر فى بطرسـبورغ نص القرآن بأمر من الامبراطورة ايكاتيرينا الثانيـة. و هـذا النص أعده الملّا عثمان إبراهيم و زوّده بالتعليقـات. و قـد اعيـد طبع النص مرارا عديـدة فى بطرسـبورغ ثم فى قـازان. و قـد صـدرت إحـدى الطبعـات على حساب الخزينـة و خصـيصا «لأجل التوزيع على الشعب القرغيزى القيساقى». و بموجب فرمان بتاريخ ۱۵ كانون الأول (ديسمبر) ۱۸۰۰ ألغيت القيود على إصـدار المطبوعات الدينية الإسـلامية فى روسـيا؛ و فى سـنة ۱۸۰۲، افتتحـت فى قـازان أول مطبعـة إسـلامية. و فى سـنة ۱۸۲۹ صادق الامبراطور نيقولاى الأول على نموذج تصـميم و واجهـة لأجل بناء مساجد كان ينبغى تخصـيص امكنة لائقة لها فى المقامات السـكنية الإسـلامية. و فى سنة ۱۸۳۳ صـدر فرمان يطالب جميع مسـلمى روسـيا بالتقيـد الدقيق بمقتضـيات دينهم و عقائده و بمعاقبة المخالفين معاقبـة صارمة. و من السـهل مواصـلة تعداد الوقائع من هذا النوع؛ و لكن هذه المتطلبات لم تكن تمنع الدعم الرسـمى لرسالة الكنيسـة الأرثوذكسـية فى حقل التبشـير و الدعوة إلى اعتناق الدين المسـيحى شـرط عدم جواز أعمال العنف و التطرف التى كان من شأنها أن تؤدى موضوعيّا إلى الاخلال بالاستقرار فى الامبراطورية الروسية.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۱

أدت سـياسة روسـيا حيـال الإسـلام إلى تعـاظم التعاطف معها فى صـفوف الشـعوب الإسـلامية. و إننا نجـد دليلا طريفا على ذلك فى «تقرير» دولتشين الذى أورد قول المدرّس السيّد على ظاهر المشهور فى الحجاز:

«إيماننا صحيح؛ و لا ريب فى هذا؛ و لكن لا وجود للعدالة فى الدول الإسلامية؛ يجب البحث عن العدالة عند الروس» . و فى هذا كان اخصام روسـيا يستشـفون خطرا على مصالحهم. و فى سنة ۱۸۷۳ اتهمت الجريـدة الإنجليزية» Pall -Mall Gazette «روسيا بدعم

الهيئات الدينية الإسلامية إذ رأت فيه مكائد ضد إنجلترا . و فى سنتى ۱۸۷۳ و ۱۸۷۴ غالبا ما كان الشاه الإيرانى نصر الدين يردد «إن الروس أخطر من الإنجليز لأن المسلمين يكرهونهم أقل مما يكرهون الإنجليز» .

على تخوم القرنين التاسع عشر و العشرين تبدت بكل وضوح فى أوساط المسلمين من رعايا روسيا أيضا التغيرات فى وعى الشعوب الإسلامية الدينى، و نشوء الاتجاهات المتصلة بتعاليم المهدى و البعث الإسلامى و تطور الميول الإصلاحية فى الفكر الدينى و الفكر الاجتماعى السياسى. و فى عداد الوقائع من هذا النوع يسترعى الانتباه ظهور «فوج فايسوف الربانى» فى سنة ۱۸۶۲، الذى أسسه بهاء الدين فايسوف (۱۸۰۴- ۱۸۹۳) و الذى دام حتى سنة ۱۹۱۸، عندما قتل ابن مؤسس الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۲

بطرسبرج، الجامع الكبير، نسخة من لوحة لرسام مجهول، سنوات العقدين الثالث و الرابع من القرن العشرين

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۳

الحركة عنان الدين فايسوف الذى واصل قضية والده. إن ايديولوجية هذه الحركة التى كانت تحظى دوريّا بواسع الانتشار بين السكان المسلمين فى منطقة الفولغا كانت ترتبط سواء بتقاليد الطريقة «النقشبندية» أم بأفكار البعث. و قد طالب زعماء هذه الحركة فى مؤلفاتهم و فى ممارستهم سواء بالخضوع التام لأحكام القرآن، أم بالامتناع المطلق عن الاتصال مع سلطات الدولة و مع ممثلى الإسلام التقليدى. و قد احيل الفايسوفيون إلى المحاكمة بسبب الامتناع عن إداء الخدمة العسكرية، كما إن مؤسس الحركة توفى أثناء سجنه فى مستشفى الأمراض النفسية فى دائة قازان.

و رغبة فى نيل الدعم من جانب الرأى العام الروسى تراسل ابنه و تلاقى مع ليون تولستوى .

إن انتشار الأمزجة المهدية التى كتب عنها دولتشين قد مس كذلك أراضى الامبراطورية الروسية. فقد كتبت جريدة «سانكت- بيتر بورغسكيه فيدوموستى» (العدد ۶۴ لسنة ۱۸۸۳) فى رسالة «من القفقاس» إن مسلمى القفقاس يتحدثون دائما عن قرب مجيء المهدى و أن أنباء

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۴

الجرائد عن المهدى السودانى «صبّت النار فى لهيب التوقعات الشعبية، و أن المسلمين تتبعوا بانتباه و توتر الأحداث التى تتطابق مع تعاليم الكتب الإسلامية». و يستفاد من أقوال ن. ب. أوستروومو‌موف الذى استشهد بأحاديثه مع المسلمين أن الحجاج المسلمين من رعايا روسيا الذاهبين إلى مكة و المدينة كانوا يحاولون أن يروا فى الطريق المهدى الذى كان قد بدأ العمل فى السودان و أن ينحنوا أمامه ...» . و فى سنة ۱۸۸۸، جاء إلى مدينة أوفا البشكيريان تشوفاشوف و عبدالوف، و صرح الأول إنه «النبى المهدى» و أعلن الثانى إنه «رسول النبى». و قال الاثنان أنهما جاءا إلى أوفا ليخاطبا المفتى و العالم الإسلامى كله. و قد اعتبروا الإثنين مجنونين .

و من جراء اليقظة القومية و الثقافية للشعوب الإسلامية القاطنة فى روسيا ظهرت فى أوساط المثقفين القوميين جماعة من الكتاب الإجتماعيين و السياسيين ممن كتبوا من مواقع إصلاحية. و أبرزهم كان رئيس تحرير الجريدة الروسية التترية «بيريفودتشيك»/ «الترجمان» (مدينة بختشى سراى) إسماعيل بك غاسبرينسكى (۱۸۵۱- ۱۹۱۴) الذى كان غالبا ما يتحادث مع ليون تولستوى أثناء إستراحته فى غاسبرا، و إمام سانكت بكرسبورغ عطا للّه بايازيدوف (توفى سنة ۱۹۱۱)، و الكتاب الإجتماعيون و السياسيون أحمد بك اغايف، و دولت قيلدييف، و سليم غيرى سلطانوف . و قد عرضوا فى مقالاتهم و كراريسهم أفكارا قريبة

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۵

جدّا من أفكار كبار المصلحين المسلمين من أمثال سيّد أحمد خان (۱۸۱۷ - ۱۸۹۸)، و جمال الدين الأفغانى (۱۸۳۹ - ۱۹۰۹)، و محمد عبده (۱۸۳۴ - ۱۹۰۵). إن انتقاد الموقف الذى وقفه أرنست رينان فى محاضراته فى جامعة السوربون لم يظهر فى مقالة الأفغانى المنشورة فى» Journal des debats «و حسب، بل ظهر كذلك فى كراس بايازيدوف «موقف الإسلام من العلم و غير المسلمين» (سانكت بطرسبورغ، ۱۸۸۷). و كانت قضية إصلاح التعليم من عداد القضايا الرئيسية التى تناولها الجدال بين المسلمين

التقدميين («الجديداتين») و المسلمين

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۶

المحافظين («القديماتيين»). و قد تعاون المسلمون التقدميون مع الأحزاب المعارضة، و رحبوا فيما بعد بأحداث سنة ۱۹۱۷. و بالمقابل استثار نشاطهم حذر السلطات الرسمية و ارتيابها، و انتقاد و غضب الشوفينيين المفعمين بروح الدولة الكبرى. و قد كتب أحدهم، و هو ن.

أى. ايلمينسكى (۱۸۴۲ – ۱۸۹۱): «المتعصب بدون التعليم الروسى و اللغة الروسية أفضل نسبيًا من التترى المتمدن على الطريقة الروسية، و الاريستقراطى اسوأ من هذا الأخير و ذو التحصيل الجامعى اسوأ أيضا» . و قد وافقه فى الرأى ف. تشيريفانسكى، عضو «المداولة الخاصة فى شؤون الإيمان»، و مؤلف عدد من البحوث كان بهاؤها بمثابة تحذير من «خطر فادح» مزعوم يتهدد بلدان أوروبا من جانب العالم الإسلامى . و لكن الآراء من هذا النوع لقيت الرد و الصدّ سواء فى الصحافة الديموقراطية الروسية أم فى بحوث المستشرقين الروس الحقيقيين .

و من قلق الأوساط الحاكمة بصدد الوضع فى المناطق الإسلامية من الامبراطورية الروسية، نبعت ضرورة جمع المعلومات الموضوعية بشأن مجموعة القضايا المتعلقة بدور الإسلام فى الحياة الإجتماعية و السياسية للسكان المسلمين فى روسيا، بما فيها قضية حج المسلمين من رعايا روسيا. و بناء على أمر من محافظ تركستان س. م. دوخوفسكى،

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۷

انشئت فى سنة ۱۸۹۸ لجنة خاصة لدراسة أحوال و نشاط رجال الدين المسلمين فى أقليم تركستان. و قد نشر التقرير عن نشاط هذه اللجنة فى سلسلة «مواد فى الإسلام» التى شرعت تصدرها فى عام ۱۸۹۸ هيئة أركان الدوائر العسكرية التركستانية. و فى هذه السلسلة وردت أيضا مقالة عن الحج بقلم الملازم ياروفرافسكى .

و تدريجيًا أخذت قضية الحج إلى مكة تكتسب المزيد و المزيد من الأهمية؛ و فى المقام الأول اعتبروا الحج سبيلا لتسرب أفكار الجامعة الإسلامية إلى روسيا. و فى ذلك الوقت كانوا يقيّمون الحج، لا فى روسيا و حسب، بل أيضا فى الدول الأوروبية الاخرى، كظاهرة دينية سياسية قبل كل شىء، علما بأنهم كانوا غالبا ما يربطون الاضطرابات فى المستعمرات الإسلامية السكان بأمر من مكة . ففى ۲۴ تشرين الأول (أكتوبر) ۱۸۷۸ (كانت تدور رحى الحرب الروسية التركية ۱۸۷۷ – ۱۸۷۸) أفاد مراسل وكالة رويتر من القسطنطينية أن «رئيس لجنة «الهلال الأحمر» راح إلى مكة بذريعة مراقبة تطبيق التدابير الصحية نظرا لاقتراب عيد الأضحى. أما هدف سفرته الحقيقى، فكان يتلخص فى تبادل الآراء مع الحجاج من الهند و افغانستان و آسيا الوسطى الذين كان من المتوقع

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۸

الصلاة فى الجامع الكبير بمدينة بطرسبرج

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۹

أن يصلوا إلى مكة بأعداد كبيرة فى الشهر المقبل و فى التأثير فيهم بروح ملائمة للسياسة الانجليزية و معادية لروسيا («غولوس»، سانكت بطرسبورغ، سنة ۱۸۷۸، العدد ۲۸۹). و دون تقييم موضوعية هذا الخبر، تجدر الإشارة إلى انه يدل على الأقل على رأى الصحفى من وكالة رويتر بصدد احتمال تأثير الحج العسكرى السياسى.

إن مؤلفات المؤرخين و الجغرافيين المسلمين القروسطيين تبيّن أن ممارسة الحج الثابتة قد قامت على امتداد قرون عديدة عند السكان المسلمين فى الأراضى التى دخلت فيما بعد فى قوام روسيا. فإن إبن بطوطة، مثلا، يرى أن اسم مدينة استراخان نفسه يرتبط بإعفاء هذه المدينة من الضرائب لأن حاجّيا تقيّيا كان يعيش فى هذه الإنحاء . و قد لعب الحج دورا كبيرا جدّا فى انتشار الممارسة الدينية و العادات القائمة فى سائر مناطق العالم الإسلامى إلى هذه الأراضى. و من الأمثلة على ذلك، نشاط شيخ الطريقة النقشبندية زين اللّه

رسولييف (۱۸۳۳- ۱۹۱۷) . و لا ـ ريب فى أن الحج كان أيضا قناة بالغة الشأن لإيصال مخطوطات مؤلفات هامة جدّا للشخصيات الإسلامية الكبيرة إلى الأراضى الداخلة فى قوام الامبراطورية الروسية، الأمر الذى كان ييسر فعلا تبادل الأفكار و النظريات فى العالم الإسلامى. و كان الحجاج يتمتعون بين مواطنيهم بعمق الإحترام. و من الأمثلة على ذلك، وصف لقاء فريق من الحجاج فى مدن آسيا الوسطى من وضع أ. فامبيرى. اللقاء فى غموشتيبه: «انتشر نبأ وصولنا فى كل مكان: النساء و الأولاد و حتى الكلاب تدفقوا فى حيرة غريبة من الخيام لكى يلقوا نظرة إلى الحجاج المقتربين، و ينالوا بلمسهم، جزءا من الأفضال و المكافآت الناجمة عن

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۰

الأمر الربانى عن الحج ... غريب! الشبان و الشيوخ، دون تمييز فى الجنس أو اللقب، الجميع رغبوا فى لمس الحجاج الذين نزل عليهم غبار المدينة أو مكة المقدسة. احكموا على دهشتى حين اندفعت نساء رائعات الجمال و حتى فتيات إلى معانقتى! لقد تملكنا التعب و العذاب من جراء مظاهر الاحترام هذه». ثم جاء: «أما فى بوابة خوى، فقد استقبلنا بضعة اتقياء من سكان خوى و قدموا لنا الفواكه المجففة و الخبز. من زمان بعيد لم يتوافد إلى خوى مثل هذه الكثرة من الحجاج. كان الجميع ينظرون إلينا بدهشة؛ و من جميع الجوانب كانت تصل إلى مسامعنا هتافات:

«أهلا و سهلا! آه، أنت صقرى! أنت أسدى!». و قد تأثرت بالغ التأثر حين اندفع الناس يبوسون يدى و قدمى- أجل!- و الشراريب المتدلية من حزامى». و حين غادر الحجاج خوى، «تراكض كثيرون من السكان وراءنا حوالى نصف ميل: كانت مشاعر التقوى تثير الدموع من عيونهم؛ و قد سمعنا هتافاتهم اليائسة: «من يعرف متى تسعد خوى مرة أخرى من إيواء مثل هذا العدد من الرجال الاتقياء ضمن جدرانها» .

نحو أواخر القرن التاسع عشر، تكونت ثلاثة طرق رئيسية لحج الحجاج من رعايا روسيا .

۱- فى منطقة ما وراء القفقاس (أرمينيا و أذربيجان و جورجيا) و القسم الشمالى من إيران عبر كرمنشاه و مدينة خانقين الواقعة قرب الحدود مع تركيا، فى اتجاه بغداد، نحو كربلاء و النجف، ثم عبر رمال الجزيرة العربية إلى مكة و المدينة.

۲- عبر سمرقند و بخارى و مزارى شريف و كابول و بيشاوار فى أفغانستان و من ثم إلى بومباى (الهند)، و منها بحرا إلى جدّة و ينبع.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۱

۳- عبر أوديسا و سيباستوبول (لأجل المناطق الداخلية فى روسيا و سيبيريا) و عبر باطوم لأجل سكان آسيا الوسطى و منطقة ماوراء قزوين، عبر القسطنطينية و السويس و جدّة و ينبع. كذلك شرعوا يستغلون السكة الحديدية الجديدة عبر فيينا و القسطنطينية.

كتب ياروف- رافسكى أن «الطريق الأول بين الطرق المذكورة ينطلق عليه على الأغلب المنتمون إلى الشيعة من مسلمى منطقة ماوراء القفقاس و منطقة ماوراء قزوين الذين يعطون من بيئتهم، على ما يبدو، العدد الأكبر من الحجاج، أى نحو ۱۲- ۱۵ ألف شخص. و ليس من النافل الإشارة إلى أن حج مسلمى ماوراء القفقاس قد استقر برسوخ بفضل من يسمونهم «بالجاويشية» الذين يقومون حصرا بتكوين و توديع قوافل الحجاج لقاء أجر معين. إن «الجاويشية» يتمتعون بكبير التأثير بين السكان و يشبهون فى الطريق ربان السفينة بحكم العادة؛ بعض منهم أحيانا من السكان المحليين و بعض آخر من الأتراك و العرب القادمين الذين يتسربون بلا عائق إلى أراضى الامبراطورية الروسية؛ و كل سنة يجوبون فى الوقت المناسب فى قرى الاقليم، و يدعون بجميع الوسائل إلى الحج، ثم يعينون أماكن تجمع الحجاج، و يقودونهم أخيرا عبر الحدود، بدون أية مصاعب على ما يبدو، دفعات كل دفعة من ۷۰ فارسا و أكثر غير مزودين عادة بأية جوازات سفر. ثم يتجمع الحجاج الذين يقودهم الجاويشية، بعد عبور الحدود الإيرانية، لأجل مواصلة السير بصورة مشتركة، إلى نقطة من النقاط المختارة سلفا تبعا لامكنة اقامتهم؛ و هذه النقاط هى عادة:

۱- تبريز- لأجل سكان الأقسام الجنوبية من محافظة يريفان و محافظة ايليزابتبول.

۲- أردبيل- لأجل سكان القسم الجنوبى من محافظة باكو.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۲

اسطنبول، على تخوم القرنين التاسع عشر و العشرين.

النقطة الرئيسية فى طريق انطلاق الحجاج الروس إلى الجزيرة العربية

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۳

۳- خوى- لأجل سكان القسم الغربى من محافظة يريفان و منطقة قرص.

۴ - ۵- انزلى و بلفروش- لأجل الذاهبين بحرا من مدينة باكو الأقسام الشمالية من محافظة باكو و من منطقة داغستان (مدينتى بتروفسك و دربند).

و تبعا لنقاط التجمع المذكورة، تنقسم جميع الطرق التى يسلكها الحجاج فى إيران إلى خمس فئات:

۱- تبريز- بيناب- «صاين قلعة»- كرمنشاه.

۲- خوى- تبريز- كرمنشاه.

۳- أردبيل- زنجان- همدان- كرمنشاه.

۴- أنزلى- رشت- زنجان- كرمنشاه.

۵- بلفروش- طهران- قم- كرمنشاه.

و من كرمنشاه التى تتسم بالتالى بأهمية خاصة بوصفها عقدة تقاطع جميع الطرق البالغة الشأن من حدود الامبراطورية الروسية إلى الجزيرة العربية الخاضعة لتركيا، يمضى الحجاج فى طريق واحد عبر ماهيدشت، و غورون آباد، و قريند، و سريبول، و كافى شيرين إلى مدينة خانقين الحدودية، ثم عبر شهرابان و بعقوبة إلى بغداد أو إلى مدينة الكاظمية الواقعة بالقرب من بغداد؛ و من هناك يتفرقون إلى كربلاء و النجف و غيرهما من الأماكن.

فى الاتجاه الثانى، عبر سمرقند و بخارى إلى افغانستان، مع قطع الطريق من بيشاوار إلى بومباى بالسكة الحديدية، يمضى كل سنة من مناطق آسيا الوسطى ۴- ۷ آلاف من الحجاج. و هؤلاء يفضلون هذا الاتجاه رغم كل طول الطريق و غلائه و صعوبته، و ذلك أساسا، بسبب السهولة المتوفرة لهم لتحاشى جميع المتطلبات المتعلقة بجوازات

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۴

السفر، ثم لأنه الطريق الذى تكوّن على امتداد القرون و الذى تقع عليه، فيما تقع، مدينة مزار شريف حيث مقام الإمام على (صهر النبى محمد) الذى يملك، كما يقول المسلمون، قوة عجيبة لشفاء العميان و الخرس.

و من مزارى شريف يمضى الحجاج عبر طش كورغان، و غى باغ، و شاريقار، و كابول، و غزنى، و قندهار و كته، ثم بالسكة الحديدية إلى مرفأ كاراتشى و منه بالباخرة إلى بومباى؛ و يمضى الآخرون عبر جلال آباد إلى بيشاوار، و منها بالسكة الحديدية إلى بومباى.

و أخيرا الطريق الثالث، و هو الأسهل و الأقصر، ينطلق من مرافىء البحر الأسود إلى القسطنطينية و السويس، و يستفيد منه جميع التتر و سنّيو القفقاس و القرغيز القاطنون فى غرب المنطقة من رعايا الامبراطورية الروسية؛ و جميعهم يقدمون كل سنة بين الفين و ثلاثة آلاف حاج؛ و بينهم يتواجد فى الوقت الخالى من الاوبئة، نظرا للمراقبة الشديدة هنا، عدد من حملة جوازات السفر؛ أما فى السنوات غير الملائمة (حين تمنع الحكومة الحج)، فإنه يتبين أن الأغلبية الساحقة منهم مزودة بأوراق تركية و فارسية و بخارية قديمة يحصلون عليها لقاء ثمن باهظ فى باطوم و اوديسا» .

و لتبيان ما كان يتوقع الحجاج فى طرقهم إلى مكة، نورد فى «ملاحق» هذا الكتاب ملاحظات سفر لحجاج قاموا برحلاتهم فى مسيرات مختلفة.

تشير جميع مصادرنا إلى أن الحجاج من رعايا روسيا كانوا يفضلون، كما من قبل، استعمال جوازات السفر التركية و الفارسية و البخارية القديمة، و حتى جوازات السفر الصينية. و مرد ذلك إلى التعقيدات البيروقراطية التى كانت ترافق الحصول على جوازات السفر فى روسيا، و إلى المنع الدورى (مثلا، فى سنوات ۱۸۹۲- ۱۸۹۵،

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۵

و منذ النصف الثانى من سنة ۱۸۹۶ إلى سنة ۱۹۰۰) من إعطاء جوازات السفر للحجاج نظرا لخطر الأوبئة فى الشرق. إن غياب الوثائق الرسمية لم يقلل عدد الحجاج من رعايا روسيا، و لكنه جعلهم رهنا بشتى ضروب الانذال الذين كانوا يأخذون منهم مبالغ ضخمة من النقود لقاء جوازات السفر. و إن الرسم الكاريكاتورى الذى أخذناه من مجلة المسلمين التقدميين «الملّا نصر الدين» الصادرة فى تفليس يسخر من جشع «الشطار» الذين يبتزون الأرباح من طموح آلاف الحجاج غير المجربين و سعيهم المشكور إلى زيارة مكة المكرّمة و المدينة المنورة. و قد كتب ياروف- رافسكى: «يتشكى جميع الحجاج على الخصوص من ابتزاز الأموال الرهيب فى عموم افغانستان. فعن حق دخول الأراضى الافغانية، و عن الحصان، و عن الأشياء، و غير ذلك، مثلا، كانوا يتقاضون فى مزارى شريف من كل حاج روبية و أكثر، و فى وزير آباد روبيتين، و فى باميان و قاضى آباد و طوشزار روبية، و فى شاريقار ۹ روبيات، و فى كابول ۲/ ۱ ۵ روبيات، و فى جلال آباد روبية، الخ .. و فضلا عن هذه الأتاوى، لم يكن من النادر أن يصبح الحجاج ضحايا الكذب و الخداع و الابتزاز فى بومباى من جانب من كانا يقولان عن نفسيهما أنهما وكيلا حجاج بخارى، سليمان خوجا (و هو من مواليد انديجان) و يوسف على (من مرغلان). و يقول الحجاج أن سليمان خوجا الذى أرسل منذ عشر سنوات إلى بومباى مع أوراق من أمير افغانستان بصفة دليل و وكيل لأجل الحجاج يبتز من كل منهم بضعة روبيات عن المسكن، و عن أركابهم على متن باخرة، و خلافه، ناهيك بانه يجبرهم بالقوة على شراء الطحين و الرز و القمح من بائع يعرفه و منه وحده مؤكدا لهم أنهم سيبيعون كل ما اشتروه بربح فى جدّة. صحيح أن نقل بضعة أكياس من الطحين و الرز من بومباى بالباخرة مجانى، و لكن ثمن هذا الطحين أو الرز أو القمح فى جدّة مثل ثمنه فى بومباى و أحيانا أرخص.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۶

و فى باطوم أيضا حيث يعيش الفارسى خوجا على يتعرض حجاجنا لابتزاز الأموال و عمليات التعسف لأنهم لا يحملون جوازات سفر؛ فإن خوجا على لا يفعل غير أن يبيع من حجاجنا، بواسطة يولداش و كولداش من بخارى، تذاكر هوية فارسية قديمة و أوراقا بخارية قديمة. و تعتبر القسطنطينية النقطة التالية بعد باطوم من حيث ابتزاز الأموال و غير ذلك من عمليات التعسف. ففيها يتعرض حجاجنا، حتى و أن كانوا يحملون جوازات سفر، من قبل مختلف الادلة، لاساليب متنوعة، منها أخذ جوازات السفر منهم لأجل إجراء معاملة الفيزا فى القنصلية العامة الامبراطورية و لأجل تسليمهم بموجبها تذاكر تركية. و بعد أن يتقاضى الادلة النقود عن هذا و ذاك، يعطون الحجاج التذاكر عند سفرهم بالذات، و يعيدون لهم جوازات السفر بدون فيزا القنصلية. و بما أن كلفة جواز السفر الروسى مع فيزا القنصلية تبلغ ۱۲ روبلا و ۶۰ كوبيكا، فإن هذا قد أدى إلى خسارة تكبدتها الخزينة تتراوح بين ۲۰۰ و ۳۰۰ ألف روبل كل سنة .

أما فيما يتعلق بعدد الحجاج، فإن المصادر تعطى الأرقام التالية:

عدد الحجاج الإجمالى:

سنة ۱۸۰۷- ۸۳۰۰۰

سنة ۱۸۵۴- ۵۰۰۰۰

سنة ۱۸۵۶- ۱۲۰۰۰

سنة ۱۸۵۸- ۱۶۰۰۰۰

سنة ۱۸۱۴- ۷۰۰۰۰

سنة ۱۸۵۵- ۸۰۰۰

سنة ۱۸۵۷- ۱۴۰۰۰

سنة ۱۸۶۵- ۹۰۰۰۰

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۷

سنة ۱۸۸۴- ۴۶۲۸۰

سنة ۱۸۹۱- ۴۴۹۰۰

سنة ۱۸۹۳- ۸۶۴۸۹

سنة ۱۸۸۸- ۱۰۰۰۰۰

سنة ۱۸۹۲- ۵۳۹۶۲

و بالاعتماد على تقارير القنصل الروسى فى جدّة ليفيتسكى، يسوق الملازم ياروف- رافسكى المعطيات التالية .

ثم كتب ياروف- رافسكى: «مع الانتقال إلى عرض التقرير عن الحجاج المسلمين من رعايا روسيا و بخارى بوجه الحصر، يلفت القنصل فى جدّة الإنتباه إلى «المطوّفين» أو «الأدلة» الذين مضوا فى سنة ۱۸۹۴ إلى بخارى و تركستان لأجل دعوة مسلمينا إلى الحج. فمن مكة، مثلا راح دليلان من أبناء مكة هما سعيد حسن كوتشوك، ابن سعيد حمود، و عبد اللّه كوتشوك، ابن خوجا- سريمساك، و من المدينة سيد محمد (و هو من مواليد بخارى)، ابن معصوم خوجا.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۸

قائمة الحجاج المسلمين (ما عدا حجاج روسيا) من ۱۶ تموز (يوليو) ۱۸۹۰ إلى أول تموز ۱۸۹۴

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۹

قائمة السفن التى دخلت مرفأ جدة بالحجاج من ۱۶ تموز (يوليو) ۱۸۹۰ إلى أول تموز ۱۸۹۴

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۴۰

قائمة الادلة و الوكلاء (بموجب تقرير القنصل فى جدّة) عن سنة (۱۸۹۳)

الرقم/ الادلة فى مكة/ الوكلاء فى جدة/ لأجلى أى حجاج

من مواليد مكة

۱/ على محمود شكرى/ محمد غيريتلى/ من انديجان

۲/ على بيرينجى/ محمد غيريتلى/ من اوش

۳/ الشيخ محمد أصغر/ الشيخ حسين/ من خوى

۴/ أ- سيد أحمد مؤذن/ من مواليد طرابلس الشركس

أحمد غوريانى

من مواليد جدة

ب- خليل دوبى/ محمد صالح بانغاش

۵/ سليمان مداح/ الشيخ حسين من طرابلس

عباس عبد الرفاشين/ حميد بحرى الجدى/ تتر القوم

من ذرية بنى (من مكة)

من ذرية سنانى من مكة/ محمد صالح بانغاش

۶/ إبراهيم سلسيلة/ محمد صالح بانغاش

إبراهيم ميره/ لا وكيل/ من داغستان

۷/ من ذرية اشجى من مكة/ خوجا موسى من قشقار/ من قوقند

۸/ من ذرية على سروجى/ عبد الرسول من/ القرغيز

من مكة/ مواليد اليمن/ و تتر قازان

۹/ سيد عبد القدير أصله/ محمد دهاقينى من/ من نامانغان

داغستانى/ مواليد جدة

۱۰/ سيد محمد كوتشك/ محمد جان/ من بخارى

من بخارى/ من مواليد خوجند/ سمرقند

و خوجا موسى من/ طشقند

قشقار/ مرغلان

خوجند

تركستان

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۴۱

جميع أدلة الحجاج ينقسمون إلى فئتين: «المطوّفين» أو الأدلة و وكلائهم، و على رأسهم شيخ مع وكيله. و الشيخ، مثله مثل الأدلة، يعين بفرمان خطى من شريف مكة، بينما الوكلاء يختارهم الأدلة.

و مع تقديم قائمة بالأدلة و الوكلاء لأجل رعايا روسيا و بخارى، يفيد القنصل أن حسن غونغ (و هو من مواليد مكة) يعتبر شيخ جميع الأدلة فى جدة، و أن على أخضر (و هو أيضا من مواليد مكة) و كيله. و فى المدينة لا وجود لشيخ الأدلة.

إن بعض الأدلة، و منهم مثلا المشار إليهم فى هذه القائمة بالرقم ۳ و ۹ و ۱۰، كانوا، بعد سنة أو سنتين، يمضون بأنفسهم إلى روسيا و بخارى لأجل جمع الحجاج. و كان آخرون، و منهم مثلا، الوكيل المشار إليه بالرقم ۸، يرسلون من طرفهم شخصين أو ثلاثة سواء لأجل بيع الماء من بئر زمزم و المسابح و التمر و غير ذلك أم لأجل الدعوة إلى الحج.

و بما أن مسلمى آسيا الوسطى من رعايا روسيا، و كذلك التتر و الافغان و القشقار و قسم من الفرس كانوا معروفين فى جدّة عموما بأنهم بخاريين، فمن المستحيل تعيين العدد الحقيقى من الحجاج من رعايا روسيا و رعايا بخارى.

فى سنة ۱۸۹۱ بلغ مجمل الحجاج من رعايا روسيا و بخارى القادمين إلى مكة عبر افغانستان و الهند زهاء ۱۲۶۹ شخصا و عبر القسطنطينية ۷۸۴ شخصا. و فى سنة ۱۸۹۲ وصل إلى الحج عبر الطريق الأول ۳۰۴۳ شخصا و عبر الطريق الثانى ۸۰۴ أشخاص. و فى سنة ۱۸۹۳ وصل إلى الحج عبر بومباى ۴۳۲۸ شخصا، و عبر السويس ۱۸۰۸ أشخاص؛ و فى سنة ۱۸۹۴، بلغ عدد الحجاج من بلادنا ۳۳۴۹ شخصا منهم ۲۹۳۱ جاؤوا عبر الهند و ۴۱۸ عبر السويس.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۴۲

الرقم/ الادلة فى المدينة/ الوكلاء فى ينبع/ لأى حجاج

۱/ محمد على (من بخارى)/ لا/ من بخارى

۲/ سيد شافى (من المدينة المنورة)/ وكلاء/ القرغيز و التتر

و من أصل ۳۳۴۹ شخصا لم يستجوبوا فى القنصلية الامبراطورية فى جدة سوى النصف أى ۱۷۹۵ شخصا تبين أن بينهم من:

انديجان/ ۴۵۶/ تركستان/ ۴

قوقند/ ۲۴۲/ خوجند/ ۲

مرغلان/ ۳۵۲/ بخارى/ ۱۷۹

نامانغان/ ۲۰۴/ داغستان/ ۲۰

أوش/ ۶۸/ الشركس/ ۳۰

سمرقند/ ۲۷/ الذين صرحوا

التتر/ ۴۶/ بأنهم من رعايا

طشقند/ ۸۰/ روسيا فقط/ ۸۵

و إذا أمعن المرء فى هذه القائمة، لا يصعب عليه أن يلاحظ أن منطقة فرغانة التى اكتسبت شهرة سيئة بالانتفاضة فى شهر أيار (مايو) ۱۸۹۸ تعطى ثلاثة أرباع مجمل عدد الحجاج عندنا فى أقليم تركستان.

و من حيث نوع الاشغال يشكل الزراع بالطبع العنصر المهيمن- فإن عددهم ۱۲۵۰ شخصا.

و من حيث العمر ينقسمون جميعهم كما يلى:

من ۲۰ إلى ۳۰ سنة ۲۹۴

۳۱- ۴۰ ۳۵۹

۵۱- ۶۰ ۴۴۳

۶۱- ۷۰ ۲۲۷

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۴۳

۷۱- ۸۰ ۶۸

۸۱- ۹۰ ۱۱

العمر غير الواضح ۳۹۳

المجموع ۱۷۹۵

جميع هذه الأرقام بعيدة عن الواقع لأن تعيين عدد المسلمين من رعايا روسيا الذين يمضون إلى الحج كل سنة، و تعيينهم بدقة كافية من مجمل عدد الحجاج المذكور آنفا، يبدو، فى الظروف الراهنة، مستحيلا تماما لأنهم، بأغلبيتهم الساحقة، يمضون بدون أية جوازات سفر.

و يستفاد من المعطيات المتوافرة عند القنصلين فى بغداد وجدة أن عدد الحجاج السنيين و الشيعيين من رعايا روسيا لا يقل تقريبا بالأجمال عن ۱۸- ۲۵ ألف شخص .

من المقطع المذكور يتبين أن صاحب المقالة يربط مباشرة انتفاضة انديجان بعدد سكان منطقة فرفانة الذين قاموا بالحج. و للمقارنة نسوق هنا جدولا من «تقرير» دولتشين .

عدد الحجاج فى سنة ۱۸۹۸ يبلغ:

من روسيا: القرغيز ۲۵۰

التتر ۱۰۰

سكان ماوراء القفقاس ۱۰۰

من تركستان الصينية ۲۰

الفرس ۸۰۰۰

الأتراك ۱۰۰۰۰

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۴۴

السوريون ۴۵۰۰

المصريون ۵۲۴۵

البدو المصريون ۱۵۰۰

من سكان: طرابلس ۶۰۰

تونس ۲۰۰

الجزائر ۲۰۰

فاس- المغرب ۳۰۰

الهند ۱۰۰۰

ساحل افريقيا

الغربى ۲۰

سكان مكة وضواحيها حتى ۴۰۰۰۰

سكان الجزيرة العربية:

المدينة ۳۵۰۰

اليمن ۴۰۰۰

عمان ۳۰۰

عدن ۲۰۰

نجد و غيرها ۴۰۰۰

الافغان ۲۰

الماليزيون ۱۵۰۰۰

الحاصل حوالى ۱۰۰۰۰۰

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۴۵

و من تقرير القنصل الروسى فى جدة براندت ينجم أن متوسط عدد الحجاج من رعايا روسيا ۸- ۱۰ آلاف شخص فى السنة، علما بأنه فى سنة ۱۹۰۱ أعطى الرقم ۶۰۰۰ و فى سنة ۱۹۰۲ الرقم ۱۶۰۰۰ و فى سنة ۱۹۰۳ الرقم ۴۷۴۱ .

إن أداء فريضة الحج، كما سبق أن قلنا، كان محفوفا فى ذلك الوقت بخطر نقل أوبئة الطاعون و التيفوس و الكوليرا المشؤومة العواقب إلى داخل الامبراطورية الروسية، علما بأن هذه الأوبئة كانت تزهق ملايين الأرواح فى الشرق الأوسط و فى آسيا الوسطى. و آنذاك مثلا- نسبوا نشوب وباء الطاعون فى محافظة استراخان إلى الحج. و فى كانون الثانى (يناير) ۱۸۹۷، انشئت لدى وزارة الداخلية لجنة خاصة لمكافحة عدوى الطاعون برئاسة الأمير أ. ب. اولدنبورغسكى. و كان من صلاحية هذه اللجنة البت فى مسألة تنظيم حج المسلمين من رعايا روسيا. كان أعضاء اللجنة يدرسون التقارير عن الحج من السفارة الروسية فى القسطنطينية و القنصليات فى جدة و

مشهد و بغداد . و إلى جدة أرسل فى مأموريات كل من الأطباء سوكولوف و دالغات و تولانوف و تاكايف؛ و هؤلاء أرسلوا بدورهم التقارير إلى اللجنة .

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۴۶

و لكن لأجل تقييم الحج من جميع جوانبه السياسية و الدينية (و بخاصة بالارتباط مع الأحداث فى انديجان) و الطبية الوبائية، كان ينبغى الحصول على معلومات شاملة و صادقة من مصدرها الأول. و فى هذا الصدد بالذات، كما تبين مواد أرشيف الدولة العسكرى التاريخى المركزى ، نشأت فكرة إرسال ضابط مسلم من الجيش الروسى إلى مكة. و قد وقع الاختيار على عبد العزيز دولتشين، الذى قدّره وزير الحربية نفسه أ. ن. كوروباتكين رفيع التقدير. و فيما بعد سنتحدث عن شخصية دولتشين و نتائج نشاطه الأساسية. أما هنا، فتجدر الإشارة إلى أن تقريره المطبوع فى المطبعة العسكرية لهيئة الاركان العامة مع الختم «سرى» احتوى كمية كبيرة من المعلومات الموضوعية و المختارة اختيارا موفقا لأجل اتخاذ مجموعة من القرارات الصحيحة بصدد القضايا المتعلقة بحج المسلمين من رعايا روسيا. و قد حاول دولتشين أن يستبعد المخاوف القائمة و يبدد الأوهام بصدد الحج، و أوصى فى حال غياب خطر وبائى فعلى، لا بالتخلى عن جميع الموانع و حسب، بل أيضا بتسهيل السبيل من روسيا إلى مكة أمام الحجاج.

إن الصيغة الأولى للوثيقة التى اعدتها فى هذه المسألة وزارة الداخلية تقيدت أجمالا بهذا الاتجاه. و قد اعتبر الحج ظاهرة دينية محضة، و ظاهرة هامة بالنسبة للسلطات فى المقام الأول من حيث

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۴۷

عواقبها على الصعيد الصحى الوبائى. و ورد اقتارح بتقليل الرسوم على جواز السفر لأجل مجموعات الحجاج الذاهبين بغير السكة الحديدية بحيث يحصلون على الأغذية بأسعار رخيصة، و المساكن للمنام و الراحة، و الاسعاف الطبى. و كان من المرتأى أيضا اقرار سعر مهاود لتذاكر السكة الحديدية من أجل الحجاج و تنظيم إيصالهم إلى جدّة بواسطة سفن الشكة الروسية للملاحة و التجارة . و قد أدى بحث هذه الوثيقة من قبل السلطات فى الوزارات و المحافظات المعنية إلى ظهور عدد من الصيغ فيها بصدد «التعصب الإسلامى» و بصدد تأثير الحج، غير المرغوب فيه برأى السلطات، فى الوضع السياسى و الإجتماعى فى المناطق الإسلامية من الامبراطورية. و فى هذا المجال على الأخص انعكس فى الوثيقة المعنية موقف عدد من محافظى المناطق الإسلامية و شهادة الخبير، عضو المداولة الخاصة فى شؤون الدين المذكور آنفا، ف. تشيريفانسكى؛ و هذه الشهادة نسوقها كليًا بوصفها ملحقا لهذه المطبوعة. و قد استثار الاقتراح بصدد سفر و عودة جميع الحجاج عبر مرافئ البحر الأسود و اسطمبول مجادلات كبيرة. فإن هذا الإجراء الذى يسهل الرقابة ضد الأوبئة كان يتناقض مع محاولات معارضة دعاية الجامعة الإسلامية التى كانت عاصمة الامبراطورية العثمانية مركزها. و تم شطب الاقتراح بصدد الاسعار المهاودة لتذاكر السكة الحديدية من أجل الحجاج. و لكن حتى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۴۸

بعد كل هذا، تبين «القواعد الموقتة بشأن حج المسلمين» و الوثيقة المرافقة لها الصادرة عن وزارة الداخلية أن حج المسلمين و حج المسيحيين الارثوذكسيين إلى القدس قد وضعا من حيث الجوهر فى شروط متساوية. و إن تطبيق هاتين الوثيقتين سهل كثيرا حج المسلمين من روسيا، مما أدى إلى ازدياد عدد الحجاج المسلمين إلى ۱۶ ألف شخص فى سنة ۱۹۰۲.

إن الاهتمام بحج المسلمين باعتباره ظاهرة إجتماعية و سياسية و دينية قد استمر فى صفوف الجمهور القارئ الروسى. و أكبر عدد من المطبوعات فى هذا الموضوع قد ظهر بالطبع فى المجلات و الجرائد الروسية الصادرة فى تركستان. ففى سنة ۱۹۱۰ نشرت مجلة «آسيا الوسطى» الصادرة فى طشقند ترجمة وصف مكة من الكتب المعروف الذى وضعه سنوك خورغونيه؛ و فى طشقند أيضا صدرت فى سنة ۱۹۱۳ الترجمة الروسية لكتاب أ. راللى «مكة فى أوصاف الاوروبيين» (الأصل- «المسيحيون فى مكة ...»). صحيح أن ميل ازدياد الحجاج من رعايا روسيا قد أخلت به الأوبئة و تعرجات السياسة الداخلية و الخارجية ، و لكنه استمر، على ما يبدو، حتى الحرب

العالمية الأولى و الثورة فى روسيا.

و ختاما بضع كلمات عن حج المسلمين فى عهد السلطة السوفييتية.

قبل أغلاق حدود الاتحاد السوفييتى الجنوبية بصورة تامة فى أوائل

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۴۹

الثلاثينيات استمر الحج من مناطق آسيا الوسطى و ما وراء القفقاس، و إن يكن قد قل على الدوام من حيث العدد. و قد جعلت سياسة ستالين المعادية للدين من المستحيل عمليّا على أغلبية السكان المسلمين، لا الحج و حسب، بل أيضا أداء الشعائر الدينية اليومية و الاسبوعية. و قامت دعاية جادة ضد الدين .

فى سنوات الحرب العالمية الثانية، حين تطلبت المحن الشاقة توطيد قوى المجتمع بأسره لأجل صد العدوان و حين حاول النظام الستالينى أن يكتسب مسحة أكثر حضارة فى عيون المجتمع العالمى، طرأ تغير على السياسة الرسمية حيال الدين. فقد فتح من جديد قسم من الجوامع و الكنائس المسيحية و البيع اليهودية؛ و فى أوائل ۱۹۴۵ استؤنف حج المسلمين من الاتحاد السوفييتى. و الفريق الأول من الحجاج ترأسه المفتى ايشان باباخان. و مذ ذاك يقوم بالحج كل سنة ۲۰- ۲۵ شخصا.

و الفرق تشكلها مباشرة الادارات الدينية و تتألف أساسا من الائمة الخطباء و نشطاء الجوامع. و فى السنوات ال ۴۵ المنصرمة، قام بالحج ۸۵۰- ۹۰۰ شخص، الأمر الذى لا يتطابق أبدا مع مجمل عدد المسلمين فى أراضى الاتحاد السوفييتى .

أدت سياسة البيرويسترويكا (التغيير، إعادة البناء) إلى انعتاق الحياة الدينية فى الاتحاد السوفييتى. تبنى و تفتتح الجوامع الجديدة و المراكز التعليمية الإسلامية (مثلا فى باكو و اوفا). و نظرا لتسهيل قواعد الخروج

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۵۰

و الدخول بصورة مبدئية، تتكشف إمكانيات جديدة لنمو عدد الحجاج المسلمين من الاتحاد السوفييتى نموّا كبيرا جدّا، و قد كان الطابع غير العادى للعلاقات الديبلوماسية بين الاتحاد السوفييتى و المملكة العربية السعودية و استحالة تحويل الروبل السوفييتى إلى العملات الأجنبية بمثابة عقبة خطيرة فى هذا المجال. و قد أدى تطبيق سعر خاص للروبل بالنسبة للعملات الصعبة القابلة للتحويل فى سنة ۱۹۸۹ إلى ازدياد كلفة حج المسلمين السوفييتيين من ۳۵۰۰ روبل إلى ۱۶ ألف روبل (و هذا مبلغ يوازى زهاء خمسة مداخيل سنوية متوسطة).

رغم ذلك وصل فى عام ۱۹۹۰ إلى جدة ۱۵۲۵ حاجّا من خمس مدن سوفييتية (طشقند و قازان و باكو و مينير النيى فودى و موسكو) و ذلك بطائرات ارسلتها خصيصا شركة «ايروفلوت» السوفييتية. و قد ساعدت السلطات السوفييتية الحجاج فى قضية شراء الأشياء الضرورية للسفرة و الهدايا التذكارية. و بمساعدة السلطات الرسمية تم تذليل العديد من الصعوبات الناشئة فى تنظيم الحج.

إن فرح المسلمين السوفييتيين بسبب الحج الأول الحر حقّا قد عكرته فاجعة هلاك العديد من أخوانهم فى الدين فى النفق قرب مكة المكرّمة.

صحيح انه لم يلحق أى أذى بالمسلمين السوفييتيين، إلا- أن الحجاج و أخوانهم فى الوطن قد تلقوا نبأ الكارثة و كأنهم فاجعتهم هم أنفسهم.

لا ريب فى أن عدد الحجاج من الاتحاد السوفييتى سيزداد من سنة إلى أخرى؛ بيد أن التغير النوعى لن يحدث، أغلب الظن، إلا بعد حل مسألة تحويل الروبل إلى عملة صعبة، و فى هذه الحال سيكون عدد الحجاج متناسبا مع عدد المسلمين فى البلاد. و من شأن البرامج الموجودة اليوم للتعاون بين الهيئات الإسلامية فى الاتحاد السوفييتى و المنظمات الإسلامية العالمية أن تسهم بقسطها فى حل القضايا القائمة.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۵۱

يوميات الرحلة إلى مكة المكرّمة

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۵۳

يوميات الرحلة إلى مكة المكرّمة فى ۲۶ شباط (فبراير)، سافرت إلى استخاباد بناء على برقية من المحافظ؛ و بعد عودتى فى ۲۸ شباط، شرعت أهيئ الشؤون و الكتب لأجل التسليم. و فى ۳ آذار (مارس) جاء الملازم الأول بوبلافسكى ليحل محلى،- و هو رجل لا يفهم البتة اللغة المحلية؛ و سيكون حاله صعبا و على الأخص فى البداية. و فى ۵ آذار انهيت عملى، و فى ۶ منه ودعت عائلتى و زملائى فى الخدمة و رحت إلى قيزيل أرواط. وصلت قبل انطلاق القطار بنحو ساعتين. توقفت عند براور. نقلوا الامتعة إلى المحطة الحديدية على عربة يجرها يحمور. ركبت القطار و فى الطريق أخذت أحدق بكآبة فى جبال كابت داغ حيث كنت أعرف كل مضيق و كل قمة؛ و ودعت بالفكر الآوولات (القرى) الواقعة بمحاذاة السكة. كنت أحب أبناء السهوب المتوحشين هؤلاء ، و هم أيضا كانوا دائما يعربون لى عن مودتهم. هل

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۵۴

أراهم من جديد! من قازاندجيك انبأت سلفا فيسكوفنيكوف بوصولى إلى كراسنوفودسك. كل ذلك اليوم و جميع الأيام السابقة بعد وصول البرقية، شعرت بأقصى الأرهاق و الضيق النفسى، و فقدت الشهية، و تملكنى الأرق.

أهذا احساس مسبق أم مجرد أسف على مفارقة الأولاد لزمن طويل؟

فى الساعة السابعة صباحا من ۷ آذار وصلنا إلى كراسنوفودسك.

و فى القطار تقابلت مع الملازم فى قوات القوزاق فولكوداف الذى كان فى طريقه إلى منشوريا؛ و بناء على نصيحته قررت أن اسافر فى رحلة مباشرة على باخرة للشركة الشرقية لكى أكسب يوما واحدا. فى المحطة الحديدية قابلت شيشكيفيتش. رحب مع فولكوداف إلى الرصيف. فى مقر الشركة عرفنا أن السفينة «ميريديان» ستنطلق فى الساعة ۱۲ ظهرا. بقى فولكوداف ليأمر بنقل الأمتعة، ورحت أنا إلى آل شيشكيفيتش حيث قابلت مع مدفعيين قوزاقيين اثنين آخرين. تناولنا الفطور بمرح و فى بداية الساعة

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۵۵

الثانية عشرة رحت مع شيشكيفيتش على عربة إلى الرصيف و وعدت مدام شيشكيفيتش بالذهاب مع الضيوف لتوديعنا. فى الطريق تقابلنا مع شرطى؛ و هذا الشرطى قال لى أن الباخرة ستنطلق الآن و أنهم ينتظروننى وحدى.

حين اقتربت من الرصيف سمعت الصفارة الثالثة. بفضل تلطيف الربان، و أساسا بفضل جهود فولكوداف انتظرونى ساعة و نصف ساعة. و قد تبين أن العميل أمر بانطلاق السفينة فى الساعة ۱۰ عوضا عن الساعة ۱۲ و أرسل فولكوداف رجلا- يفتش عنى فى كل مكان، و أرسل مرارا الرسل إلى رئيس القضاة الذى كنت أنوى الذهاب إليه، و لكنى لم أذهب لأنه كان فى اسخاباد. ما أحلى أن يكون للمرء مثل هؤلاء الرفاق.

خرجنا من كراسنوفودسك فى الساعة الحادية عشرة و النصف.

الربان و معاوناه شبان و لطيفون جدّا. الثلاثة جميعهم روس. «ميريديان» باخرة مروحية شاحنة، فى مؤخرتها عدد قليل من المقصورات لأجل الركاب. الباخرة نظيفة و جديدة. عند الرحيل قال الربان انه من المحتمل أن تهب ريح مقابلة قوية لأن البارومتر يسقط بشدة. ورحت أنام. كان البحر هادئا نسبيّا. استيقظت فى الساعة الثالثة ليلا بسبب تموج قوى و ضجة غير عادية. كانت تهب ريح غريبة قوية، و كانت الباخرة تغطس بشدة؛ و عندما ارتفعت مؤخرتها، احدثت المراوح ضجة منفرة جدّا.

كنت متمددا؛ و كلما كنت أقوم بأقل محاولة للوقوف كان يتملكنى الدوخان و الغثيان. و كان فولكوداف بالذات يعتنى بجميع الذين يعانون من التموج. حاول فولكوداف بالحاح اقناعى بأكل المزيد؛ السيدات من المقصورة المجاورة نقلوا بعضهن إلى المتن، و نقلوا

بعضهن الآخر إلى مقصورة أخرى؛ و حمل إلىّ قشرة من الخبز الأسود و نصحنى بأكلها مع الماء، و قال أن هذه وسيلة تركية مجربة، و جاءنى أيضا بأقراص النعناع.

فى ۸ آذار (مارس) استمر التموج طوال اليوم كله، و واصلت التمدد، و واصل فولكوداف العناية بالجميع.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۵۶

فى ۹ آذار استيقظت مع فولكوداف (فقد أنزلنا فى مقصورة واحدة) فى الساعة الرابعة صباحا؛ كان التموج ضعيفا. و فجأة توقفت الباخرة، فظننا أن الربان يستدل بمنارة بتروفسك و لكن تبين أننا قد دخلنا المرفأ و نقف إلى حاجز الأمواج. سررت جدّا لنهاية الطريق البحرى. فى نحو الساعة الثامنة رحت مع فولكوداف إلى المدينة. كان البرد هنا منفرا جدّا (۱۵ درجة مئوية تحت الصفر بسلّم ريومور). و عندما رحت كان اللوز قد ازهر فى قره قلعة، أما هنا فكادت أذنى تتجمدان من البرد.

رحت إلى مركز البرق و أرسلت برقية إلى أخى فى فيتبسك طلبت فيها منه أن يذهب إلى بطرسبورغ كما أرسلت برقية ثانية إلى أمى عن مغادرتى و ثالثة إلى قره قلعة عن الوصول إلى بتروفسك .

فى الساعة الثالثة بعد الظهر تقريبا سافرت فى قطار للركاب إلى بسلان.

فى ۱۰ آذار (مارس)، حوالى الساعة الواحدة ليلا، انتقلت إلى القطار الذاهب من فلاديقفقاس إلى روستوف؛ و نظرا للزحمة انتقلت إلى مقعد من الفئة الأولى دافعا بقية ثمن التذكرة حتى بطرسبورغ. بقى رفيقى الدائم فولكوداف فى مينيرالنى فودى، و واصلت أنا السفر بصحبة ۴ عقداء- آمر الفوج الثانى من الفرقة ۲۸، آمر ت. ب. ۲۰ ، آمر الفوج القوزاقى غ. م. ، و مهندس متقاعد. إنهم أناس ودودون جدّا و لبقو المعاملة، و لا يتبجحون بمناصبهم.

فى الثانى عشر من آذار، وصلت فى الساعة الرابعة بعد الظهر إلى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۵۷

موسكو حيث كنت أحسب أن أجد فى محطة نيقولايفسك برقية أخى من فيتبسك. و لكن بسبت تسرعى للحصول على هذه البرقية، نقلت فى البدء أمتعتى إلى محطة بطرسبورغ، و رحت إلى المدينة لشراء بعض الحاجيات. بدا لى غريبا جدّا ركوب العربات الزحافة التى لم ارها منذ ۷ سنوات: بالكاد تجلس على الأرض، من جميع الجهات تلوح رؤوس الخيل. و هذا، بسبب انعدام العادة، منظر مخيف نوعا ما. عدت إلى المحطة الحديدية إلى أصحابى [.....]** فى الساعة السادسة و النصف، و رحت اسأل عن البرقية؛ و تبين لما فيه دهشتى أن البرقية ليست من فيتبسك بل من موسكو؛ و قد اتضح لى فيما بعد أن أخى تلقى برقيتى حين كان ينوى الذهاب إلى عيادة فى موسكو لمعالجة أخت زوجته التى ظهرت على وجهها أكزيما.

و كان من المؤسف جدّا أنى لم اسأل قبل ذاك عن البرقية. فى الساعة الثامنة مساء رحت بالقطار السريع إلى بطرسبورغ.

فى ۱۳ آذار، الساعة ۸ و الدقيقة ۵۰ صباحا وصلت إلى بطرسبورغ و ودعت رفاق الطريق اللطفاء و اتجهت إلى زاوية جادة نفسكى و شارع كازافانايا لأفتش عن غرفة صغيرة. و فى اليوم ذاته لبست معطفى العسكريورحت اقدم نفسى لرئيس هيئة الأركان العامة و أعرف متى يستقبلنى مدير الوزارة. كان اليوم غير موفق، لم احرز شيئا، و ارجأت الزيارة إلى الغد.

فى ۱۴ آذار رحت فى الساعة الحادية عشرة و النصف إلى رئيس هيئة الأركان العامة. استقبلنى البواب بالقول أن المراجعات قد انتهت. رحت إلى غرفة الاستقبال العامة و أنا موطد العزم على احراز شىء ما. تلقيت ردّا قاطعا من جانب عقيد مكلف بهذا الأمر، فانتظرت ذهاب هذا العقيد الغاضب، و خاطبت جنرالا و أوضحت له أنى أريد أن اقدم نفسى اليوم حتما لرئيس هيئة الأركان العامة.

أصغى الجنرال بكبير الإنتباه و قادنى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۵۸

رأسا إلى الجنرال ساخاروف . و هذا الأخير أعجبنى خارق الأعجاب بمنظره البسيط و اللطيف (فى الصورة يبدو سمينا بشكل منفر)؛ و

عرفت منه أن الجنرال كوروباتكين يستقبل اليوم فى الساعة الثالثة، و لكنه سيتأخر، أغلب الظن، لأنه سيكون فى مجلس الدولة. نحو الساعة الثالثة رحت إلى ديوان وزارة الحربية. جمهرة من الزوار أغلبهم من النساء، ميدان غنى للمراقبة- فما أكثر ما تراه هنا من نماذج! و بما أن الجنرال كوروباتكين قد حزر بانه سيتأخر لاستقبال الزوار، فقد استقبل جنرال مترهل أصحاب الطلبات. و الشيوخ من هذا الطراز ظهروا دفعة واحدة من مكان ما بكثرة كثيرة. أغلب الظن انه كانت هناك جلسة فى المجلس. بقى من الراغبين فى انتظار وصول كوروباتكين ۶ أشخاص. و أخيرا، حوالى الساعة الخامسة، رنّ جرس، فتحرك الجميع، و صعد الكسى نيقولايفيتش [كوروباتكين] و راح إلى مكتبه و خرج منه فى الحال نحونا فى غرفة الاستقبال. لم آره منذ كانون الأول (ديسمبر) ۱۸۹۷؛ كان اشحب بقليل من ذى قبل، و لا غرابة نظرا لعمله الجهيد. فى البدء اقترب من زائرتين ملحافتين بشكل لا يطاق، ثم اقترب منى؛ و سأل متى وصلت أنا؛ و قال انه لا وقت عنده الآن و طلب أن آتى غدا فى الساعة الثانية عشرة إلا ربعا إلى شقته. إن جميع ذوى الرتب العالية الذين نظروا إلىّ بتعال قبل وصول الجنرال قد تغيروا كليّا عند ذهابى، لما فيه دهشتى؛ فقد رأوا كيف استقبلنى الكسى نيقولايفيتش، و لذا مشيت ببعض الاعتزاز أمام صفهم.

فى أسفل سألتنى إحدى الزائرتين المذكورتين آنفا و البواب عما إذا حالف التوفيق مهمتى؛ اجبت أنى لم آت طالبا. فى المساء رحت إلى السيرك.

يجب اعتبار اليوم موفقا. و لكن ما عسى أن يقول الكسى نيقولايفيتش غدا؟

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۵۹

فى ۱۵ آذار، نحو الساعة الثانية عشرة، جئت إلى الجنرال فى شقته، على رصيف غاغارين؛ دعانى مباشرة إلى فطور عائلى تحادثنا خلاله عن رحلتى المقبلة. نظرات الكسى نيقولايفيتش خارقة الطرافة.

كان لطيفا و محتفيا جدّا؛ و قال لى عند خروجى انه يأمل فى أن يرانى مرة أخرى عند رحيلى و طلب أن آتى إليه مساء بعد الساعة الثامنة، حين يكون عادة حرّا. و من الجنرال رحت إلى الكسى غيورغييفيتش غوليكوف، و تقابلنا كالأخوة؛ و قد سررت جدّا لأنه شفى من المرض الخطير الذى أصيب به. ينصح الأطباء بالانتقال إلى الجنوب. تناولت الغداء، كما فى الماضى البعيد، عند ميلبريت، و رحت مساء إلى الصالة الكبرى فى الكونسرفاتوار لحضور عرض قدمته فرقة خاصة من أوبيرا موسكو؛ كانوا يعرضون أوبيرا «فاوست»، و لكن العرض كان ضعيفا جدّا، زلذا لم يحدث فى نفسى لا لحن زيبيل و لا لحن ميفيستوفل المشهور ذلك الانطباع الذى استحوذ علىّ عند مشاهدتى الأوبيرا فى مسرح ماريينسكى.

فى ۱۶ آذار رحت صباحا لتدبير بعض الأمور. كنت فى جزيرة فاسيلييفسكى، و اضطررت إلى الذهاب فى شارع كاديتسايا لينا. كم و كم من الذكريات بعثتها هذه الأنحاء فى نفسى! فهنا أمضيت أفضل سنى حياتى: أولا سنتين فى مدرسة الامبراطور بافل التى أتذكرها دائما، على نقيض الجمناز، بارتياح خاص؛ و هنا كان العمل و كان النوم الآمن، و الرفاق الطيبون. و لكم استغرقنا آنذاك فى هواية المسرح و المطالعة! بعد خمس سنوات، تأتى لى من جديد أن أعيش فى هذه الانحاء بالذات بسعادة، و أن يكن فى أجواء مغايرة تماما. و قد حظى المدعو [ى.] بقسط كبير من السعادة.

حين عدت إلى منزلى نحو الثالثة، علمت بوصول أخى، و لكنى لن أجده: فقد انتظرنى زمنا طويلا ثم راح يتنزه. بعد فترة من الوقت عاد أخى. عاد علىّ اللقاء بمتعة كبيرة إذ أننا لم نتقابل منذ أكثر من سبع

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۶۰

سنوات. و لك ذلك النهار، و المساء، و الليل مرت فى الأحاديث. إلّا أنى غبت لوقت قصير لإذ رحت إلى دالغات و كوروباتكين لتوديعهما. و دعنى الكسى نيقولايفيتش كأخ، و طلب أن أكتب له، و عانقنى للوداع.

فى اليوم التالى، فى السابع عشر، استغرقت طوال الصباح كله فى أمورى و تدبير شؤونى المالية. و عند العودة إلى المنزل، قدمت لأخى

۳۰۰ روبل و طلبت منه أن يقبلها كتسديد لتلك المبالغ العديدة التى غالبا ما كان يقرضنى اياها بينما كان غالبا ما يحتاج هو نفسه إلى النقود. رفض أخى قطعا. آنذاك طلبت منه أن يرسل المبلغ إلى أمنا إذا كان هو لا يرغب فى أخذه. فوافق على هذا الطلب، و قبل النقود. فى المساء رحنا إلى السيرك، و لكن السيرك لم يوفر المتعة لا لى و لا له، كما يخيل إلىّ.

فى ۱۸ آذار رحت صباحا مع أخى إلى حميد اللّه آخون أثناء الحديث، و قد آخذ احتياطيّا من بعض الألبسة. و طلب منى آخون أثناء الحديث، و قد عرف انى مسافر إلى مصر، أن اقترح على الفقهاء المصريين، المعروفين بمستواهم العلمى الرفيع، حل مسألتين خارقتى الأهمية بنظره، هما التاليتان، فقد قرأ فى كتاب «حوار البياع» (لربما أخطأت فى الاسم) أن من يلبس قبعة، لا بحكم الضرورة، بل لمجرد أن يشبه الكفار، إنما هو كافر، و أن الذين يحزمون الخصر بحزام رقيق دقيق و يعلقون الصلبان (الأوسمة) فى كل مناسبة هم بلا ريب كافرون. و طلب آخون أن استوضح هذه المسألة. و هذا واسع الدلالة. و من الأسئلة علمت انه يوجد فى أوديسا آخون (إبراهيم) يحكى عنه الجميع بصورة سلبية جدّا، و يتهمونه «بسلخ جلود» الذاهبين إلى الحج.

أنقضت بقية الوقت على معاملات جواز السفر. عرجت لفترة و جيزة على بايازيدوف، و التقيت هناك باراغانسكى؛ يبدو أنهما فتحا مطبعة بالشراكة. و قد أعطى هو أيضا تقديرا سيئا عن إبراهيم، آخون أوديسا.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۶۱

فى ذلك اليوم سافرت فى الساعة ۸ مساء مع أخى فى قطار سريع لسكة تسارسكويه سيلو: هو حتى دفينسك ، و أنا بدون مناقلة إلى أوديسا.

ركبنا فى مقصورة من الدرجة الأولى، و نمنا الليل بصورة مريحة، رغم أنى نمت قليلا جدّا. و هذا يحدث لى منذ سفرى إلى اسخاباد؛ المهم الّا افقد أعصابى نهائيّا!

فى ۱۹ آذار وصلنا فى الساعة ۷ صباحا إلى محطة بطرسبورغ فى دفينسك؛ نزلنا أنا و أخى من القطار و احتسينا الشاى ثم تفارقنا. و عند ما رأيت المحطة الحديدية التى سبق أن عرفتها جيدا أثناء خدمتى مدة خمس سنوات فى اللواء الثانى فى دينابورغ ، و عندما رأيت من نافذة عربة القطار المدينة و القلعة، تدفقت فى خاطرى طائفة من الذكريات؛ و بجهد و صعوبة قمعت انفعالى الداخلى. حوالى الساعة الرابعة كنا فى فيلنو .

– و هى أيضا مكان أتذكره. و هنا تقابلت مع بانسوبوف فأعطانى بطاقة لقريبه الذى يملك «تكية» فى مكة المكرّمة. فى هذه السنة سافرت من بطرسبورغ إلى الحج ۵ عائلات تترية من مدينة قاسموف. و كذلك أعطى بانسوبوف تقييما سيئا عن إبراهيم آخرن، و أوصى، عند الاقتضاء، بحسن خلفا (المعلم– لقب مشرف تترى– أ. ر.). بعد فيلنو، قلما رأيت الثلج، و لكن الضباب الشديد كان منتشرا على الدوام و ظل منتشرا حتى رحيلى من أوديسا. و معى سافر من بطرسبورغ فى مقصورة واحدة حتى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۶۲

محطة رازدلنايا شيخ، ملاك اقطاعى من بيسارابيا ؛ و تبين انه محادث بشوش و ودود جدّا.

فى ۲۰ من آذار، سرنا طوال الوقت كله، و وصلنا فى هذه الأجواء إلى أوديسا فى الساعة ۸ مساء. فى الطريق من المحطة الحديدية إلى الفندق [...]*، اقتنعت حقّا بنظافة المدينة، و انارتها الجيدة، وجودة حال الطرق. الغرف فى الفندق فاحشة الغلاء. غرفة صغيرة فى جناح فى الحوش– روبل واحد و ۵۰ كوبيكا؛ ناهيك عن ۱۵ كوبيكا للنور و ۲۰ كوبيكا للسماور، و غير ذلك.

۲۱ آذار. رحت أولا إلى إبراهيم آخون. يبدو محتالا قديما و محنكا. و ليس من الصعب على امثاله أن «يسلخوا جلود» البشكير السذج و القرغيز الذين لم يغادروا يوما ديارهم. و منه عرفت أن [تيمور] اكتشورين و زوجته و ابنيه و بناته الثلاث و [عب ..] دبردييف راحوا إلى مكة. هذا النبأ كان معزيا لى. أنا أعرف من زمان الشيخ و ابنه يعقوب.

بناء على توجيه آخرن وجدت حسن خلفا و كلفته ببضع مهام. اشتريت لباسا مدنيا، و لبسته، و وضعت اللباس الرسمى جانبا لأرسله

إلى أخى.

بسبب انعدام عادة ارتداء اللباس المدنى، يبدو الحال مزعجا جدّا: فقد اشتريت قبعة (رخوة) و بياضا. و من جراء الضباب الكثيف لم ار أو يكاد المدينة و لم أكوّن تصورا كاملا عنها.

فى ۲۲ آذار انتقلت فى الساعة ۸ صباحا إلى باخرة تابعة للشركة الروسية ، متجهة رأسا إلى الاسكندرية. و لحسن الحظ كانت الباخرة من أكبر (۷۸۰۰ طن) و أجدد بواخر الشركة. اسم الباخرة «الامبراطور نيقولاى الثانى». انزلونى فى مقصورة منفردة من الدرجة الأولى. زينة

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۶۳

المقصورات و غير ذلك من الغرف فاخرة. ثمن التذكرة ۹۸ روبلا. جاء إلى وداعى حسن خلفا ثم آخون. فى الساعة العاشرة تماما، ابتعدت الباخرة عن الرصيف و خرجت من المرفأ ببالغ البطء، و اتجهت صور البوسفور. كان التموج ضعيفا. فى الحادية عشرة، دعونا إلى الفطور.

اشتد اضطراب الموج، لذا راحت السيدة الوحيدة الجالسة معنا بعد تناول الصحن الأول بالذات. الفطور وفير جدّا- يتألف من ۳ صحون عدا المتبلات و النقل. نحو نهاية الفطور كان تمايل الباخرة من مقدمتها إلى مؤخرتها قد ازداد؛ بصعوبة بقيت جالسا إلى النهاية؛ ثم رحت إلى مقصورتى و تمددت. تملكنى غثيان قوى. مرة أو مرتين ظننت أنى سأتقيأ، و لكن انتهى كل شىء بخير و سلام. لم أستطع بالطبع أن انهض لتناول الغداء؛ و فى المساء شربت الشاى و أنا متمدد. أخذت الباخرة تهتز نوعا ما؛ يبدو أن التموج خفيف. حوالى الساعة ۱۰ مساء اغفيت.

۲۳ آذار. استيقظت فى الساعة ۳ صباحا. لم أشعر بإضطراب الموج. القيت نظرة عبر الكوة. التموج كبير. خرجت إلى المتن. الريح قوية، لا يمكن الوقوف. اضطراب الموج، رغم هذا، ضعيف جدّا.

حوالى الساعة الثانية، دخلنا البوسفور. ضفتاه و عرضه تذكر جدّا بالفولغا قرب نيجنى . الضفتان عاليتان القدر نفسه، تليتان، مزروعتان، مكسوتان بالشجيرات و بأشجار نادرة من السرو. و غالبا ما نرى بقعا رملية صفراء. الضفتان، على العموم، جميلتان جدّا. تقع العين على ثكنات حجرية دفاعية مهملة. على بعد نحو ۷ فرستات عن المدخل، انشئت

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۶۴

على الضفتين بطاريات زهاء ۳۰۰ ساجين . فى المزاغل تبدو مدافع من عيارات كبيرة، قرابة ۱۱ بوصة. الاستحكامات متعددة الطوابق، و تقع فى أماكن مختلفة، و لذا يمكن اطلاق نيران متقاطعة. على متراس خندق كان جنود فى طرابيش حمراء و أشرطة حمراء على السروايل. قرب أحد الحصون توقفت الباخرة و انزلت زورقا مضى عليه إلى الضفة معاون الربان و عدد من البحارة لكى يأخذوا رخصة بالعبور لاحقا. بعد عودة الزورق، واصلت الباخرة سيرها. و من هنا إلى القسطنطينية تحتفظ الضفتان بالطابع نفسه الذى تتميز به الضفة اليمنى من نهر الفولغا قرب نيجنى أو قازان؛ و هما مكسوتان كليّا بالمبانى و المنشآت. الصف الأدنى من المبانى ينتصب قرب الماء بالذات؛ و لكثير من المنشآت و الابنية بوابات لأجل عبور الزوارق إلى داخلها. و بين البنايات بنايات جميلة جدّا من حيث الهندسة المعمارية. و بما أنى تعودت رؤية هذه الصفوف المتواصلة من البنايات، لم الاحظ كيف اقتربنا من القسطنطينية؛ و قد وصلنا إليها حوالى الساعة الرابعة نهارا. الانطباع الأول- كثرة من أصحاب القوارب فى طرابيش حمراء و لغط رهيب. و ما أن انزلوا السلالم حتى تدفق جمع غفير فى الطرابيش إلى المتن: من ضباط فى البوليس التركى و على صدورهم كتابة «قانون»، و أدلة، و سواقى زوارق، و وسطاء لمختف الفنادق. (توقفت الباخرة عند مدخل «القرن الذهبى» علة بعد نصف فرستا من الساحل). كان المنظر جميلا إلى حد أننى قررت عدم النزول إلى الضفة اليوم، و مشاهدة الجمهور و المدينة من البوسفور.

تقف الباخرة قرب مدخل البوسفور؛ إلى يميننا بيره (القسم الأوروبى) و إلى يسارنا اسطنبول (القسم التركى)، و إلى ورائنا سكوتورى.

عرض البوسفور مقابل القسطنطينية فرستا و نصف أو

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۶۵

فرستان. و منظر بيره هو أيضا يذكر جزئيًا بمنظر نيجنى من نهر الفولغا، و لكن للمبانى طابعا مغايرا تماما؛ فهى عبارة عن بنايات عالية جدّا و منتصبة فى خطوط متوازية ضيقة ذات نتوءات و شرفات مختلفة (و مثل هذه المبانى رأيت فى اللوحات عن المدن الإيطالية القديمة). إن اسطنبول عبارة عن كثرة من منشآت أصلية بين أشجار السرو، و فوقها تهيمن القبة الهائلة لجامع آياصوفيا؛ و هى على العموم خارقة الروعة و الجمال و الاصالة.

حول الباخرة تغلى الحياة غليانا؛ فإن كثرة من البواخر و الزوارق تنقل الجمهور إلى سكوتورى و عبر البوسفور. و حول باخرتنا، يصطف أصحاب الزوارق مثل الحوذيين. و من الباخرة يفرغون الطحين فى ۴ مراكب دفعة واحدة.

اتفقت مع رفيقى فى الباخرة على الذهاب غدا معا إلى الصفة، و عدت إلى مقصورتى و نمت.

۲۴ آذار. فى الساعة ۷ صباحا، اعتزمنا أنا و رفيقى الذهاب إلى المدينة، علما بأننا اتفقنا على الاستغناء عن الدليل؛ و هذه المهمة أخذها رفيقى على عاتقه. أما أنا، فقد تعهدت بأن أقوم بدور المترجم. لم ينزلوا سوى السلم الأولى من الفئة الثالثة، و كان له درابزون من جانب واحد فقط؛ أسرع رفيقى نزولا بجرأة و قفز إلى زورق. أما أنا، فقد خفت وعدت القهقرى لأن درجات السلم رطبة و مزعجة جدّا؛ و بعيدا فى الأسفل، تضطرب هوة البحر ناهيك عن السلم المتأرجح. رأى البحار المناوب عجزى فساعدنى على الخروج و النزول فى الزورق. وصلنا إلى الضفة و إذا بنا فى الجمرك، فتفحصوا جوازى سفرنا، الأمر الذى استغرق نصف دقيقة من الوقت. خرجنا من الجمرك و إذا بنا فى شارع بيره الساحلى.

لقد قرأت الكثير من أوصاف القسطنطينية؛ و جميع الرحالة يصفونها

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۶۶

اسطنبول، تصدير بدفورد ۱۸۶۲

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۶۷

بأنها مدينة جميلة جدّا من البحر و لكنها قذرة و غير جذابة فى الداخل؛ و يكتبون عن الامتيازات التى تتمتع بها كلاب الشوارع، و غير ذلك و هلم جرا. و نحن المسلمين من اتباع روسيا، لا نصدق بطيبة خاطر كل ما يمس الجوانب الرديئة فى هذه الأوصاف، و نحن مستعدون لكى ننسب هذا إلى نفور المسيحيين من الاتراك، و الخ ..

أول ما أذهلنى فى شوارع القسطنطينية، إنما هو وفرة الزبالة و وفرة نوع خاص من الكلاب التى تتصرف على الأرصفة كما فى بيوتها. و غالبا ما تقع العين على بيوت خشبية متعددة الطوابق. فماذا يحدث هنا إذا ما نشب حريق فى شارع بمثل هذا العرض التافه؟ إن ضيق الشوارع يمكن تفسيره، و لكن كيف يجوز فيها مثل هذا القدر من الزبالة، مثل هذا القدر من الوحل، مثل حال الطرق هذا، مثل هذه الهندسة المعمارية المنفرة؟

إن أى رئيس للبوليس فى اية مدينة فى روسيا يستحوذ عليه الرعب من مثل هذه الأوضاع.

صعدت مع رفيقى إلى الشارع الرئيسى فى بيره، و سرنا فى هذا الشارع، و نزلنا إلى جسر يوصل بين بيره و استنبول (ما افظع أرضية هذا الجسر الخشبية!)، و استأجرنا قرب الجسر حصانين للركوب بمبلغ مجيديتين و رحنا عبر اسطنبول كلها إلى مقبرة أيوب الواقعة عاليا فى الجبل فى ناحية القرن الذهبى. المنظر من هذا المرتفع عجيب: فى أسفل، القرن الذهبى مع كثرة من السفن؛ فى البعيد، بيره و غالاتا؛ مقابر فى كل مكان؛ ادغال أشجار السرو و السفوح الخضراء المرحة المكسوة بأولى زهور الربيع. منظر عجيب، فلا يرغب المرء فى الرحيل. بعد أن نزلنا من الجبل سيرا على الأقدام، امتطينا الحصانين و رحنا أولا بمحاذاة السور البيزنطى القديم (و هو انشاء حجرى وطيد جدّا مع خندق ملبس بالحجر هو أيضا)، و اجتزنا الشارع البازارى فى اسطنبول و نزلنا قرب السوق المسقوفة؛ و بعد مشاهدتها

رحنا إلى آياصوفيا. لقاء مشاهدة هذا

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۶۸

الجامع، أخذوا منا، لما فيه دهشة رفيقى الذى كان غير مرة فى هذه الانحاء، مجيدية واحدة فقط. من الخارج يبدو جامع آيا صوفيا غير جميل؛ و زجاج نوافذه مدمر؛ و المبنى مصبوغ باللون الأصفر بصورة سيئة. فى الداخل، مبنى رائع، جليل، مهيب، فيه رواق مذهل من الأعمدة و قبة بديعة. على الجدران، دروع عليها كتابات، الأمر الذى يتنافى مع روح الصرح العامة. فى الجامع تطير الحمائم، و توسخ بالطبع. الانطباع عميق. بعد مشاهدة الفوارات الجميلة الواقعة قرب الجامع و التركية الصنع (و غالبا ما تقع العين على الفوارات فى الشوارع)، عدنا عبر الجسر نفسه إلى بيره و تخلينا عن الحصانين. بعد تناول الغداء و التنزه كثيرا فى الشوارع عدنا إلى الباخرة.

فى شوارع القسطنطينية، تقع العين على عدد كبير من العسكريين، من جنود و ضباط؛ و فى كل مكان تسير دوريات، و فى كل مكان، تنتصب المخافر. الجنود طويلو القامة جدّا، و لكن بدون الهيئة اللازمة، و فى معاطف سوداء نمساوية، و غالبا ما تكون البستهم قذرة. و لكنهم، على ما يبدو، يحفظون السلاح بصورة جيدة جدّا. رأيت فصيلة من الخيالة- الأحصنة جيدة؛ رأيت تدريب مفرزة- جميع الأساليب و الحركات يؤدونها بنحو ممتاز و باجتهاد.

فى القسطنطينية، يلاحظ الزائر فى الحال الأهمال و الاستهتار و القذارة فى كل مكان. مثلا. تراموايات الخيل سيئة، الأحصنة سيئة كذلك؛ تنطلق أحصنة التراموى بخبب فى شارع منتعش جدّا. و قد تدهس شخصا ما، بينما الحوذى منصرف فى هذه الأثناء، و قد تخلى عن الأزمّة و الكابح، إلى لف سيجارة ليدخنها. هذه هى انطباعاتى المرتكزة بالطبع على مراقبات عابرة فقط.

يجب أن أضيف أيضا انه لا يوجد فى القسطنطينية نظام نقدى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۶۹

معين، و أن عملات جميع البلدان قيد التداول، و انه لا يوجد بريد معين، و أن لكل دولة بريدها.

۲۵ آذار. منذ الصباح، نظرا لرحيل الباخرة، أخذ أصحاب الزوارق يتدافعون بزوارقهم؛ و بدأ قبول بريد جميع الدول و وصول الركاب. و أخيرا فى الساعة ۱۰، رفعت الباخرة مراسيها و انطلقت إلى بحر مرمره. من بعيد تمتعنا من جديد بمشاهدة القسطنطينية و الجزر.

البحر هادئ تماما. رأيت على المتن الرأسى مسلمين يقومون بالاويله (صلاة الظهر باللغة التترية- أ. ر.). بعد نهاية الصلاة، اقتربت من جماعة منهم و عرفت أنهم من سكان قشغر، و أنهم ذاهبون إلى مكة.

سافروا فى الثانى من شعبان، و عبروا مضايق تيريك داوان فى ۱۱ يوما.

فى كراسنوفودسك وجههم المدعو عبيد اللّه إلى سيباستوبول. و قد تشكوا من أن المدعو صدرا و المدعو غيراى قا ابتزا الأموال منهم هناك لقاء تأمين الفيزا لجوازات سفرهم، إذ أخذا من كل منهم ۱۳ روبلا. أنوى التعرف عليهما بنحو أقرب حين تسنح الفرصة.

فى الساعة ۱۰ مساء عبرنا الدردنيل- عرض هذا المضيق يتراوح بين فرستا و نصف فرستا و ۳ فرستات. ضفافه عالية. البحر هادئ تماما. الطقس بارد دائما.

۲۶ آذار. فى الساعة ۴ صباحا وصلنا إلى أزمير. الضواحى جبلية جدّا؛ الذرى تذكر بجبالنا كوبت داغ. على مسافة ۷- ۸ فرستات من أزمير، توجد فى مكان ضيق بطارية عصرية المنظر. المدينة من البحر جميلة جدّا؛ فى الجبل المجاور، تظهر انقاض سور قلعة تشبه كثيرا «قلاعنا»، و لكنها حجرية. المرفأ مجهز جيدا و فيه سد للامواج. ما أن توقفت الباخرة، حتى انقض فى الحال سرب كبير من أصحاب الزوارق كانوا، على ما يبدو يكبحونهم حتى تلك اللحظة، و إذا ازدحام غير عادى، و هرج و مرج شديدان. لم أذهب إلى المدينة، و اكتفيت بمشاهدتها من

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۷۰

الباخرة. فى الساعة الرابعة اقلعنا و اتجهنا إلى بيريوس فى اليونان. الطريق تقع دائما بين جزر عالية، متناثرة بصورة كثيفة جدّا فى البحر

(أرخبيل).

فى أزمير (اركبوا؟) فى مقصورات الدرجة الأولى نحو ۲۰ شخصا؛ أنهم سياح انجليز و المان ذاهبون إلى آثينا؛ بينهم عجوزان أو ثلاث عجائز طاعنات جدّا فى السن؛ فماذا يدفعهن إلى التسكع فى الدنيا و تحمل كل مصاعب السفر؟ و كما فى القسطنطينية، تقترب السفن الأجنبية فى أزمير من الساحل بالذات، و لكن سفننا الروسية وحدها تتوقف على بعد نصف فرستا من الساحل،- و هذا منغص كبير للركاب و للشحن و التفريغ. اليوم تحادثت طويلا مع الحجاج من قشغر. أخذوا تذاكر السفر من سيباستوبول إلى القسطنطينية، و أعطوهم التذاكر من القسطنطينية إلى جدة رأسا. سألت الربان عن كيفية نقلهم لاحقا. يبدو أن الشركة الروسية للملاحة و التجارة قد اتفقت مع السكك الحديدية المصرية و مع شركة ملاحة عربية. يستقبل (عملاء؟) خاصون الحجاج فى الاسكندرية و يركبونهم فى السكة الحديدية؛ و فى السويس ينقلونهم من جديد إلى باخرة.

اليوم تحادثت طويلا مع الحجاج من قشغر، و على رأسهم الحاج أمين الذى يسافر للمرة الثالثة إلى مكة و الذى يذهب هذه المرة لكى يبقى هناك على سبيل الإقامة الدائمة. عددهم جميعا ۱۳ شخصا، أكثرهم شيوخ. قال هذا الحاج أن نحو الفى شخص يذهبون سنويّا من قشغر (اقليم) إلى مكة حين لا تقيم روسيا العوائق. و فضلا عنهم يذهب عدد غير كبير نسبيّا من الصينيين المسلمين (الدونغان).

يسلك الحجاج الطرق التالية: ۱- الطريق الأغلى، و لكن الطريق الأسرع و الأنسب- تيريك- داوان إلى أوش و سمرقند (هؤلاء الحجاج قطعوا الطريق بين أوش و سمرقند على أحصنة البريد و فى السكة الحديدية إلى كراسنوفودسك، ثم إلى باكو و باطوم و القسطنطينية)، و الخ ..

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۷۱

۲- فى الاتجاه ذاته إلى سمرقند، و منها عبر كابول إلى بيشاور على ظهور الخيل، وم بيشاور إلى بومباى فى السكة الحديدية، و من ثم إلى جدّة على بواخر إنجليزية.

۳ و ۴- يذهبون كذلك إلى كابول دون دخول أراضى روسيا، عبر قونجوت (الطريق ۳) و باداخشا (الطريق ۴) (ليست باداخشان) .

السفر فى الطرق الثلاثة الأخيرة لا يكلف غالبا، و ما لا يزيد على ۱۰۰ روبل، و لكنها تحفل بمصاعب كبيرة و تتطلب وقتا كثيرا؛ و الذاهبون فى هذا الاتجاه يمضون عادة على خيولهم بالذات حتى بيشاور حيث يبيعونهت بربح؛ و عادة يشتريها الأمير المعظّم فى كابول لأجل خيالته.

و فى البلدان التى تقع على طريق الحج و يقطنها المسلمون يلقى الحجاج من السكان الدعم المادى. و البواخر الإنجليزية أكثر تكيفا لحاجات المسلمين؛ فهناك مقصورة خاصة يستطيعون فيها أن يهيئوا بأنفسهم طعامهم، الأمر الذى لا يتوفر فى بواخر الشركة الروسية؛ و هذا ما اقتنعت به شخصيّا حين سألت رؤساء الباخرة عن هذا بطلب من الحجاج.

۲۷ آذار. حوالى الساعة ۹ صباحا، وصلنا إلى بيره (بيرايوس).

دخلت الباخرة مكلأ مغلقا. ازدحام أصحاب الزوارق و خلافهم من الناس أكبر مما فى القسطنطينية و أزمير. برفقة ۳ ركاب نزلت إلى الساحل، و أخذنا نحن الأربعة عربة، و رحنا نشاهد أنقاض الاكروبول. بيره بلدة مغبرة جدّا و لكنها نظيفة؛ الطريق إلى الاكروبول طريق حسن جدّا ينطلق بموازاة خط للتراموى البخارى. على جانبى الطريق حقول متواصلة؛ سنابل الشعير أخذت تظهر و تتنامى. فى كل مكان تقع العين على أشجار الزيتون. غالبا ما نرى آلات لرفع الماء، عاملة بالأحصنة أو بالبغال؛ يبدو أن كل شىء يتطلب السقاية. المحلة تحيط بها جبال بلا حياة من

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۷۲

طراز جبالنا فيما وراء قزوين. إذا كانت اليونان كلها هكذا، فليست البتة بلادا زراعية.

أنقاض الاكروبول على صخرة عالية تتألف من عدد من أروقة الأعمدة المرمرية شبه المنهارة و المدمرة. الأعمدة خفيفة جدّا بالفعل؛ و

خطوط الهندسة المعمارية خارقة الأناقة رغم أنها مستقيمة، و لكن كل هذا لم يثر فى نفسى كبير الأعجاب و التهليل؛ فإن آثار سمرقند، مثلا، تعجبنى أكثر؛ فى أسفل الصخر، آثار مسرحين- مدرجين. المكان لأجل الاكروبول اختير برائع التوفيق؛ إذا نظرنا من أسفل، فلا بدّ أن يظهر كل هذا بشكل جميل جدّا على خلفية لازورد السماء.

من الاكروبول يلوح منظر عجيب على الضواحى قرب السفح:

(من الشمال) تقع آثينا التى تبدو جميع مبانيها و شوارعها كأنما على راحة الكف، فى الجنوب، على بعد ۱۰- ۲۰ فرستا، تظهر بيره؛ ثم تنبسط مياه الخليج الزرقاء. تبدو آثينا مدينة أنيقة، مرتبة، نظيفة.

عدنا نحو الساعة الواحدة إلى الباخرة؛ و قد تفضل ربان السفينة و ارجأ الفطور إلى الساعة الواحدة (عادة فى الساعة الحادية عشرة).

أقلعنا فى الساعة الثانية نهارا، و انطلقنا من جديد بين الجزر. البحر هادئ تماما. السماء صافية. الآن يتعين اجتياز أكبر مرحلة؛ فى الليل تدخل الباخرة أحد مرافئ جزيرة كريت، أغلب الظن، لكى تتلقى البريد، نظرا للمضاعفات المحلية .

۲۸ آذار. فى الصباح، عبر المنام، سمعت كيف رموا المرساة و كيف اقلعنا من جديد بعد قليل؛ أغلب الظن أننا كنا فى كريت. قمت

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۷۳

كالعادة فى الساعة السادسة صباحا. البحر هادئ تماما. نمضى بمحاذاة ساحل كريت الشمالى. الجزيرة، أو، من الأفضل القول، السواحل التى سرنا بمحاذاتها- من الجهة الشمالية و الشرقية- جبلية جدّا؛ الجبال تشبه جبال كوبت داغ؛ و هناك قمم كثيرة لا تزال مكسوة بالثلج؛ ارتفاعها، كما قال الربان، حوالى ۸۰۰۰ ارشين ؛ الثلج يبقى حتى حزيران (يونيو).

من جديد تحادثت زمنا طويلا- مع الحجاج من قشغر، علما بأنى تعلمت مراسم الحج على يد الحاج أمين. يتبين من أقوال هؤلاء الحجاج أن الطريق من قشغر إلى أوش يستغرق عادة ۱۰ أيام، بينما قضوا هم بسبب الفصل غير المناسب من السنة ۱۷ يوما. و إذا مضى الحجاج على خيولهم بالذات من قشغر إلى سمرقند إلى بلخ ۱۰ أيام؛ و إلى كابول (من بلخ) ۱۵ يوما، و حتى بيشاور ۱۵ يوما آخر. فى السكة الحديدية إلى بومباى- ۶ أيام. أما فى الباخرة، فقد قضى الحاج أمين شهرين بكاملهما، لأنه اضطر إلى البقاء فى المحجر الصحى فى كمران. و من الحجاج عرفت أيضا انهم ينزلون فى مكة فى فنادق خاصة (تكيات)، متجمعين حسب القوميات؛ فهناك تكيات قشغرية، و قرغيزية، و كازاخية، و الخ ..

اليوم، البحر هادئ تماما طوال الوقت. رفاقى هم: خوروشيفيتش- الصحفى المشهور فى إحدى جرائد أوديسا، تجوب كثيرا جدّا، و كدس خبرة؛ كان كذلك فى سالخالين؛ لا يزال شابّا؛ و هو محادث مستطاب جدّا؛ انه ذاهب إلى فلسطين حيث سيبقى شهرا، و من هناك يسافر عبر إيطاليا التى يحبها خارق الحب إلى إسبانيا و يبقى فيها للصيف.

ستظهر مقالاته عن ساخالين فى طبعة منفردة فى سانت بطرسبورغ.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۷۴

و كان هناك ملاك عقارى بولونى من محافظة بودوليا يقوم كل سنة برحلة فى البحر إلى الاسكندرية و هو يفكر فى الذهاب هذه المرة إلى دمشق و بعلبك. و قد تجوبت معه فى القسطنطينية؛ و كان هناك جنرال فى مصلحة السكك الحديدية لا يضيع عيثته الجنرالية، رغم انه أخذ يغير ملابسه تدريجيّا و يلبس البسة مدنية. الباقون ركبوا فيما بعد، و جميعهم حجاج. فى الوقت الحاضر يوجد ۱۲ روسيا و ۱۰ أجانب. مقصورات الدرجة الثالثة كلها مليئة بالحجاج الروس الذاهبين إلى القدس.

۲۸ آذار. اليوم، كما قال الربان، إذا ناسب الطقس فلا بد أن نصل إلى الإسكندرية فى نحة الساعة الرابعة بعد الظهر؛ و بالفعل لا يزال الطقس بديعا؛ الحرارة تزداد، الشمس تدفئ كما فى منطقتنا فيما وراء قزوين. ها أنا لليوم الثانى أشعر بأنى غير سليم تماما، و ذلك، أغلب الظن، من وفرة المآكل على مائدة الباخرة؛ فيما بعد، كما أعتقد، لن يدللنى الطريق بهذا.

فى السنة الماضية، فى مثل هذا الوقت، كنت اتجوب فى جبال قطاعى، و اعكف باجتهاد على الإحصاء، و لم يخطر البتة فى بالى أنى

بعد سنة سأكون بعيدا جدّا عن الأنحاء التى تعودت عليها جيدا فى هذه السنوات السبع لما فيه دهشتى.

حوالى الساعة الثالثة اقتربنا من الإسكندرية. منظر المدينة من البحر عملى. كثرة السفن [....]* الأخرى، و [....]** الأنيقة.

اقترب منا موظف من المرفأ، و ركض على السلم إلى أعلى بقدر من المهارة و الخفة بحيث ينبغى الظن انه ليس من أهل البلد بل إنجليزى.

رسونا رأسا إلى الرصيف (و هذا للمرة الأولى بعد أوديسا). على الرصيف كثرة من العرب فى قمصان بيضاء طويلة جدّا. ما أن مدوا الجسور حتى تدفقت كثرة من الحمالين (الشيالين باللجهة المحلية).

كنت قد تعرفت فى الباخرة على قرغيزى من جوار أورنبورغ؛ كان

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۷۵

لا يزال شابّا؛ و كان يعيش على الدوام فى مكة؛ و الآن يعود إلى هناك بعد أن أقام فى مسقط رأسه؛ و فى مكة عنده زوجة و حماة.

هذا القرغيزى الذى يعرف أهلى أعجبنى كثيرا إلى حد أنى قررت أن أجعله معاونا موقتا لى. اسمه الحاج سلطان.

يبدو انه توجد فى الإسكندرية أيضا عصابة من نهابى الحجاج؛ و منذ بادئ بدء وقعت فى مخالب صاحبنا الحاج مصطفى، المولود فى كريت. و دعت ربانا اللطيف، و فارقت آخر شىء روسى- السفينة.

و حين دبر الحاج سلطان شؤون الحجاج من قشغار مع حوذيين للنقل، و رحت معه إلى الجمرك؛ و هناك أخذوا جواز سفرى، و فتشوا الحقيبة، و فتشونى أنا أيضا بخشونة، و اطلقوا سراحى قائلين أنى سأتلقى جواز السفر غدا من قنصلنا. قال الحاج مصطفى شيئا ما عن إمكان الحصول على جواز السفر فى وقت أسرع، اليوم بالذات إذا أعطيت بخشيشا، و لكنى رفضت. رحنا إلى المدينة؛ المنظر أوروبى تماما، الأرصفة بديعة، من البلاط؛ عمارات متعددة الطوابق، بينها جامع غنى فخم، و اتماما [لكل شىء، تمثال؟] محمد على فى الساحة. أخذنى الحاج مصطفى إلى فندق سىء يخص حسن كريدلى؛ الغرفة سيئة و لكن المفروشات على الطريقة الأوروبية. ۸ قروش فى اليوم. رحت أشاهد المدينة. كثيرون من المتنزهين (اليوم يوم الجمعة)، فى البسة على أحدث موضة، أذهلتنى المقاهى الشاسعة من طاولاتها الصغيرة فى الشارع، و فيها يلعبون فى النرد و جزئيّا فى الورق بكل حمية. بعد أن شبعت من المشاهدة عدت إلى غرفتى فى الفندق. فى المساء رحت اتسكع من جديد. لباس النساء المحليات غريب؛ فهن ملفوفات بكليتهن بالأسود؛ على الجبهة خشبة صغيرة لدعم الحجاب. تسترعى الإنتباه و فرة مرضى العيون و العميان. الجنود المحليون (العرب) يحافظن على النظام- البستهم حسنة مع [.....]* على الكم؛ جميعهم سود العيون حليقو

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۷۶

الذقون، فى قمصان ذات قبات ناصعة البياض. واضح أن الهيئة جيدة.

رأيت أيضا جنودا إنجليز- فى معاطف حمراء و قبعات صغيرة، و عصى فى الأيدى، منظر مفرط فى الاباء.

فى كل مكان نسمع النطق العربى و الصيحات باللغة العربية. نمت فى الساعة العاشرة، بعد أن تعبت جدّا من المشى الطويل.

۳۰ آذار. فى الصباح رحنا إلى القنصلية الروسية لأخذ التذكرة. لم يكن القنصل موجودا؛ كان السكرتير، و كان لا يعرف اللغة الروسية اطلاقا. المفروشات حقيرة، و لكن صورة الامبراطور الكسندر الثالث الرخيصة تستلفت النظر. بعد قليل جاء القنصل؛ و هو رجل لطيف جدّا من الظاهر. حين علم أنى بحاجة إلى جواز سفرى، أرسل معى قواسا إلى الجمرك. عدت إليه مع جواز السفر و سألته بخصوص التعليمات عن العمل لاحقا. و أوضح لى القنصل انه، نظرا لمنع المسلمين من رعايا روسيا عن الحج، كتب إلى المحافظ المحلى بسحب جوازات السفر من جميع المحمديين من رعايا روسيا، و إرسالها إليه لكى لا يسلمهم إياها بعد ذلك و لكى يعيدها إلى روسيا. و هذا تدبير ساذج جدّا! إذن، يعيد إلىّ جواز سفرى لأنه لم يرد فيه ذكر مكة! الحمد للّه.

ثم، بموجب تعليمات الحاج مصطفى أيضا، أخذت تذكرة إلى جدّة فى وكالة شركة المانية؛ أخذوا منى عن تذكرة الدرجة الأولى

إلى السويس فى السكة الحديدية و عن التذكرة فى الباخرة ۱۰ جنيهات استرلينية أى ۹۴ روبلا و ۷۰ كوبيكا، بدون الطعام!

حوالى الساعة الرابعة انطلقنا بالسكة الحديدية من الإسكندرية.

دبرت للحاج سلطان مكانا فى الدرجة الثانية. نسيت أن أذكر أنى اشتريت فى الإسكندرية ردائين طويلين ب ۳ جنيهات استرلينية، و طربوشا و شالا حريريّا لأجل العمامة، و حذاء لأجل الاحرام و قطعتين من القماش الأبيض للغرض نفسه، و زنّارا لأجل النقود.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۷۷

قبل حلول الظلام سرنا طوال الوقت فى أرض محروثة جيدا جدّا:

فى كل مكان، أشجار البلح؛ لا وجود لأية قطعة صغيرة فارغة.

مزروعات ممتازة من الشعير الذى نضج و القمح بسبيل النضوج؛ السواقى و المضخات لأجل رفع الماء من السواقى. المنظر يشبه نوعا ما ضواحى سمرقند، و لكن الأشجار أقل بكثير. تقع العين على قرى، تشبه كثيرا القرى الكردية أو النهورية- البيوت الطينية نفسها، و التراكم نفسه، و الذر نفسه. شكل الإنشاءات السكنية مقبب. كما ذكرتنى بالنهوريين أدوات حراثة الأرض- الزوج نفسه من الجواميس مقرون إلى محراث شبيه بالمحراث التركمانى. كذلك يظهر تأثير الأزمنة الحديثة- تقع العين على لوكوموبيل صغير لأجل آلات رفع الماء (القوى العادية- الجواميس)، البنايات فى القرى ذات نوافذ و أعلى. أساليب تسييل الماء رائعة- بالخراطيم إلى أسفل. فى جميع القنوات الكبيرة، كثرة من الزوارق الشارعية. و عدد السكك الحديدية يكفى. أكبر المرافئ، و عددها خمسة،- الإسكندرية، روزيتا، دمياط، بور سعيد، السويس- تربطها السكة الحديدية بالقاهرة. يبدو السكان هنا فقراء.

السكة الحديدية ذاتها تختلف كثيرا عن سككنا. العربات متعبة جدّا، أبوابها جانبية؛ الدرجة الأولى اسوأ من درجتنا الثانية؛ يقلع القطار دون أى صفير أو جرس؛ العوارض تشبك بدبوس كأسين مقلوبتين من الحديد الصب موصولتين فيما بينهما. البساطة [.....]* غير مفهومة بالنسبة لنا و لا- تصدق: لا حراس على الخطوط؛ للقاطرة مصباح بسيط واحد فقط لا ينير السكة اطلاقا؛ كذلك لا وجود لمصابيح الإشارة و للأسهم؛ لا وجود للمكابح فى العربات؛ هيئة الخدمة تتألف بكاملها من شخص واحد لا يظهر إلا مرة واحدة لكى يأخذ التذكرة (و هذا حسن أحيانا)؛ و لا يعلنون اسم المحطة و وقت التوقف. خلاصة القول أن

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۷۸

الراكب متروك كليّا لشأنه. إذا كنت نائما أثناء المناقلة، إذا تأخرت عن القطار، فلا- تلم إلا- نفسك. فى الليل، انتقلنا فى إحدى المحطات إلى قطار ذاهب من القاهرة إلى السويس. و أخيرا وصلنا إلى السويس فى الساعة الخامسة صباحا. فى جميع المحطات، باعة كثيرون يعرضون الماء (يصيحون: مى، اكوا) و الفواكه و البيض، و خلافها.

۳۱ آذار. السويس، مدينة صغيرة تقع على نحو ۴ فرسخات من المرفأ الموصول بالمدينة بسكة حديدية. البيوت متعددة الطوابق.

الشوارع كبيرة و عريضة و مستقيمة، بضعة متاجر جيدة. بازار محلى، و خلاف ذلك كما يجب.

نزلنا عند الحاج على، من مواليد بخارى. الغرفة كما فى الإسكندرية. هنا تلاقيت مع عبد اللّه دبردييف. اللقاء مستطاب جدّا لى! للبواخر عادة التصرف تصرفا غريبا خبيثا: فى الإسكندرية أكد لنا العميل أن الباخرة «ماغنت» ستقلع عند الظهر يوم الخميس (أول نيسان- ابريل)؛ أما العميل المحلى، فى السويس، فقد قال أنها ستقلع يوم السبت. نصح دبروييف بتغيير التذكرة بأخرى من شركة «الخديوية» التى ستقلع باخرتها يوم الجمعة؛ وافقت، و أعطيت التذكرة لتغييرها. بسبب الملل، تجوبت فى المدينة كلها، و رغبت فى بلوغ الهدف المنشود بأسرع وقت! المهم ألّا يخدعونا يوم الجمعة أيضا! اليوم مساء قررت السفر إلى بور سعيد لادبر شؤونى المالية و أعود يوم الجمعة. يبدو أن شركات- الخديوية، و المانية و تركية- تهتم بالتحقق من الحجاج. كثيرون ينتظرون الباخرة. رأيت بضعة أشخاص من الفرس و القفقاسيين. اليوم، كما يقولون، أقلعت باخرة واحدة من الشركة الخديوية و على متنها نائب الخديوى و حاشيته المؤلفة من ۵۰ شخصا.

أول نيسان (ابريل). اليوم فى الساعة ۱۰ صباحا، تلقيت أمتعة الحاج سلطان و سافرت بالسكة الحديدية إلى بور سعيد. ضواحى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۷۹

السويس، التى لم أرها عندما جئت إلى هنا، لأننا عبرناها ليلا، صحراء لا تفرح البتة، تشبه نوعا ما ضواحى المحطة الواقعة بين جبل و كراسنوفودسك، و لكن بدون اية نباتات تقريبا [...]*. بين الفينة و الفينة تظهر القناة (قناة السويس). فى الساعة الواحدة نهارا وصلت إلى الإسماعيلية و عرفت برعب انه يتعين الانتظار ۳ ساعات فى هذه المحطة.

بين الإسماعيلية و بور سعيد تخص السكة الحديدية شركة قناة السويس؛ و هى سكة ضيقة الخط، ذات عربات صغيرة جيدة و مريحة، و محطات غارقة فى الخضرة و لها واجهات تطل على القناة، و مؤخرات تطل علة السكة الحديدية.

انتقلت إلى محطة سكة السويس و ركبت عربة غير كبيرة. و فورا شعرت بأن حالى اشهل؛ ففى كل مكان فرنسيون لطفاء و لغة أعرفها. من لا- يعرف العربية أو الإنجليزية ينزعج فى مصر و على الأخص عندما يرى فى جميع الأماكن الرئيسية بريطانيين متغطرسين متعجرفين. تمر السكة قليلا- فى الإسماعيلية و تطل على القناة، و تمضى طوال الوقت كله بموازاتها على بعد ۵۰ ساجينا . و للقناة العرض نفسه تقريبا. الضفاف ملبسة بمعظمها بالحجر. فى كل مكان علامات، سواء على الماء أن على اليابسة؛ غالبا ما تقع العين على آلات ضخمة جدّا لاغتراق الطين؛ الطين المنتزع من القاع يوضع فى عربات صغيرة و ينقل من هنا، و ذلك، أغلب الظن، لتحاشى زيادة الأعباء على الضفاف. من الإسماعيلية إلى القنطرة، ينطلق ماء الشرب بموازاة الضفة فى انبوبين من الحديد الصب قطر الواحد منهما حوالى ۶ بوصات؛ و إلى القنطرة تصل ساقية كبيرة و تنطلق طوال الوقت كله حتى بور سعيد بالذات بين السكة الحديدية و القناة؛ تقع العين على حبسات تمرر الماء إلى الجانب الآخر من السكة الحديدية.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۸۰

مستوى الماء فى الساقية أعلى بكثير من مستوى الماء فى القناة. لا أعرف كيف يتجنبون الرشح. على الساقية ادغال القصب. رأينا سفنا كثيرة، بخارية و شراعية، سائرة فى القناة.

العربات الحديدية مقسومة إلى مقصورات صغيرة، كل منها لأربعة أشخاص. كانت من نصيبى رفقة طريفة: عربى لا يعرف غير اللغة العربية، إنجليزيان، لا يعرفان هما أيضا غير لغتهما، و أنا. نادرا ما كان الإنجليزيان يتحادثان؛ كنا نسافر و نلزم الصمت. وصلت إلى بور سعيد فى الساعة السابعة مساء، و نقلنى الحوذى إلى فندق الشركة الخديوية؛ صاحبه يونانى لا يعرف غير اللغة اليونانية، فكان لا بد من التفاهم بالإيماءات و الحركات أكثر مما بالكلام، أكلت فى المطعم المجاور و رحت أنام فى غرفتى بالفندق.

۲ نيسان (ابريل). منذ الصباح أخذت افتش فى المتاجر عن سرير متنقل و لكنى لم أجد، و هذا مفهوم؛ فمن ذا الذى يحتاج هنا إلى سرير من هذا الطراز. تجوبت فى المدينة كلها، و رحت إلى الحى العربى، و تسكعت على رصيف المرفأ، و شاهدت المدينة الميناءية مع جميع خصائصها. البيوت عالية، حجرية؛ الشوارع مستقيمة؛ فى وسطها طريق مزفتة لأجل العربات؛ المقاهى كبيرة. للقسم العربى الطابع ذاته، و لكنه أكثر تواضعا؛ النوافذ مغلقة فى كل مكان بشعيريات خشبية كثيفة.

المدينة قذرة نوعا ما. فى وسط المدينة، جنينة صغيرة فيها تمثال نصفى لدى ليسبس. من الرصيف إلى المقبرة العربية، يعمل تراموى تجره الأحصنة، فاستفدت منه. و هنا أيضا بساطة مدهشة: الحوذى و قاطع التذاكر فتيان فى الثامنة عشر أو التاسعة عشرة من العمر. دائما يقفز إلى العربة شبان عرب و يطلبون نقلهم. الطلب حيث لا وجود لقامة المراقب الإنجليزى الرهيبة يلبى بطيبة خاطر و مجانا.

فى آخر الرحلة، نزلت و رحت اتسكع؛ و فجأة لحق بى قاطع

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۸۱

التذاكر و طلب بخشيشا؛ سألته: لما ذا؟ ارتبك- و قفل راجعا. يا للبساطة القروية المدهشة! نحو الساعة التاسعة، رحت إلى مكتب «كريدى ليونه» و انجزت شؤونى المالية. و حتى ذاك تأتى لى أن اتسكع أيضا فى المدينة لكى اقضى الوقت حتى الساعة الثالثة و

الربع، وقت اقلاع القطار. فى طريق العودة، وصلت الإسماعيلية فى الساعة ٧ مساء، و عرفت برعب أن القطار لن يقلع إلى السويس إلا فى الساعة الواحد ليلا. حاولت أن أنزل فى غرفة لأجل الركاب، و لكن إنجليزية رهيبة قالت لى بلغة رهيبة أن هذا لا يجوز، فكان لا بدّ من التسكع من جديد بدون هدف، خائفا على نقودى فى جيوبى. الإسماعيلية محلة نظيفة، كلها بساتين و جنائن؛ لم أر أحدا من أهل البلد. فى كل مكان حول البلدة صحراء رملية. و فى آخر المطاف عثرت قرب المحطة الحديدية على رفقة طريفة من الحجاج الذاهبين إلى مكة- ۳۶ شخصا بالاجمال- أقاموا بشكل مخيم بانتظار القطار. الشيوخ يجلسون بمهابة على المخدات؛ الشبان ينفخون النار بجتهاد تحت سماوارات غير كبيرة، و يهتمون بالنارجيلات. اقتربت، تحادثت. فى البدء سألوا عن موعد اقلاع سفينة الشركة الخديوية إلى جدّة، افرحتهم إذ قلت لهم: غدا، مع انه خطرت فى بالى فكرة: المهم أن لا تخيب الباخرة غدا أملى و أملهم. يتبين من اقوال الحجاج أنهم من أماكن مختلفة: بغداد، بلاد العجم، و هناك حاج من خراسان (مشهد):

يتحادثون فيما بينهم بالتركية و بالفارسية- و أكثر بالفارسية. الحاج من مشهد أمضى فى الطريق ۶ أشهر، الباقون حوالى ۴ أشهر. راحوا إلى القدس على ظهور الخيل، ثم إلى يافا بالسكة الحديدية. من يافا أخذوا تذاكر من الشركة المصرية الخديوية إلى جدّة. نزلوا فى بور سعيد، و الآن يمضون إلى السويس. و صلوا بنفس القطار الذى وصلت به أنا.

طريقهم عبر القدس، كما ستفاد من اقولهم، الطريق الرئيسى بالنسبة للحجاج الفرس؛ كذلك يمضون عبر أزمير. و بعض يذهب برّا عبر

سوريا؛ هذه السنة جاء عدد كبير جدّا من الفرس. يفكرون فى العودة برّا عبر سوريا (عن طريق المدينة المنورة) بالانضمام إلى قافلة سلطان.

۳ نيسان (ابريل). وصلت اليوم فى الساعة الخامسة صباحا إلى السويس؛ و اهتممت صباحا بأمورى؛ و منذ الساعة ۱۲ امضيت النهار كله مع عبد اللّه دبردييف؛ مع عبد اللّه يذهب رشيد قاضى، ملّا (إمام) محافظة توبولسك، و هو رجل واسع الإطلاع و محنك جدّا. ناقشنا مسألة الحج إلى مكة و مسألة ضرورة تنظيم الحج. الجميع يعتقدون: إذا مدت الحكومة يد المساعدة، فإن المسلمين (الروس) سيجمعون النقود بالاشتراك؛ و هم يرون من الضرورى تأسيس «خانات للقوافل» فى كل من أوديسا و سيباستوبول و القسطنطينية، و على رأسها راع محترم. و الجميع يدركون ما يتعرض له الحجاج فى السفن من ظروف رهيبة منافية للاصول الصحية. و قد وافقوا على مناقشة هذه المسائل بمزيد من التفصيل بعد وصولنا إلى الهدف.

سألت الحاج سلطان عن الاضطرابات فى مكة سنة ۱۸۱۲ و عن الهجوم على القناصل. عرفت ما يلى. انشأت الحكومة التركية فى مكة مستشفى فيه غرفة للتعقيم. إلا أن البدو، أصحاب الجمال، الذين يستأجر منهم الحجاج الجمال لأجل الذهاب إلى عرفات و جدّة و غيرهما استاؤوا من احتمال اخضاع امتعتهم للتعقيم؛ و خوفا من انتقاص مداخيلهم هاجموا المستشفى بأعداد كبيرة و دمروا المبنى. طلب الأطباء العون من الوالى، فرفض تقديم العون قبل وصول الأوامر من القسطنطينية. فى اليوم نفسه عرف البدو أن القناصل يمضون من جدّة إلى البساتين المجاورة، فاتجهوا إليها، و انفصل عن جمعهم ۴ أشخاص، و هؤلاء دخلوا غرفة القناصل و اطلقوا على كل قنصل طلقة من الفرد. لقى القنصل الإنجليزى مصرعه فى الحال، و أصيب الآخرون بجراح متفاوتة الخطورة، و أصيب القنصل الروسى فى خده.

فى سنة ۱۸۹۲، كما يروى الحاج سلطان، تطابق و باء الكوليرا مع موسم الحج و كان رهيبا. كان الموتى متمددين مجموعات كبيرة متراصة، و لم يتسنّ الوقت لدفنهم. بدأت الوفيات بأعداد كبيرة فى عرفات، و بلغت اوجها فى منى. و فى تلك السنة كان تدفق الحجاج كبيرا جدّا.

فى جدّة، كما يعتقد رشيد القاضى، لم ينشب و باء الطاعون، بل نشب مرض هندى ما محلى غير معد.

أمضى القاضى ۲۶ يوما فى المحجر الصحى فى الطور، ما ۴ أشخاص فقط من أصل ۸۰۰۰.

فى المساء رحت اتنزه مع عبد اللّه دبردييف، و دخلناHotel Europe (فندق أوروبا) حيث كان ينزل ضباط بحرى تركى من معرف عبد اللّه.

و تبين أن الضابط إنسان لطيف جدّا و انه يعرف اللغة الروسية جيدا و تعلم فى سانت بطرسبورغ، و ذاهب إلى مكة.

و اليوم رحت أصلى الجمعة فى الجامع. حجاجنا تذهلهم جدّا لا مبالاة المسلمين المحليين. فأثناء صلاة الجمعة يبقى قسم كبير من الجمهور فى الدكاكين و فى المقاهى. و فى الجامع يسود الهوان و التشوش. يبدو أن المصلين ينتمون إلى شيع مختلفة- أبو حنيفة، الشافعى، المالكى- و لا وجود للرزانة و للمهابة الاحتفالية الصارمة، الملازمة لجوامع روسيا.

غدا تقلع باخرة الشركة الخديوية «الرحمانية»، و عليها يسافر دبردييف القاضى و شركاهما. باخرتنا» Magnet «، كما يقولون، تقلع بعد غد، و هذا يعنى البقاء أسبوعا بكامله فى مصر بلا هدف.

۴ نيسان (ابريل). فى الساعة ۷ صباحا رحت إلى الميناء لأودع دبردييف. تقع الميناء على بعد ۵ فرستات تقريبا من المدينة. انشئت

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۸۴

جزيرة اصطناعية مرفقة ببضعة مكلآت محجوزة بحواجز أمواج. الطريق بالسكة الحديدية تستغرق ۱۵ دقيقة. تبين لى أن «الرحمانية» باخرة متوسطة الحجم و مرتّبة جيدا. الحجاج المسافرون على هذه الباخرة لا يحصى لهم عدد، و أغلبهم من السوريين و الفرس. بعد أن شاهدت «الرحمانية» من الرصيف فقط، رحت أشاهد» Magnet «التى سأسافر عليها. مشاهدة الباخرة افسدت نهارى كله؛ فلمار من قبل سفينة احقر و اقذر، و اقل جاذبية. على الرصيف، القذر و النتن إلى أقصى حد، عدد كبير جدّا من الحجاج الذين ينتظرون اقلاع الباخرة؛ و قد حل قسم منهم فى خيام حقيقية و قسم آخر فى خيام مرتجلة. جميعهم عرب و فرس.

كيف اتسعت» Magnet «الصغيرة لهم جميعا؟ عدت إلى المدينة و عكفت على العمل قبل أن يأتى درويش أفندى و يعرقلنى. سبق أن تعرفت عليه فى الباخرة «الامبراطور نيقولاى الثانى». إنه بنظرى تركى صرف نموذجى- عديم الحركة، يحب الهدوء، متدين جدّا، قليل التطور، ودود. ولد فى سمسون و يقول إنه حاكم هذه المدينة. قوله موضع شك!

۵ نيسان (ابريل). اليوم رحت منذ الصباح إلى الرصيف مع الحاج سلطان و درويش أفندى، أمام الباخرة جمع غفير جدّا ينتظر فى الشمس اللافحة، السماح بركوب الباخرة التى يحرس رجال الدرك المصريون الصارمون جدّا الجسر إليها. حاولت الاقتراب من الجسر، لم يسمحوا.

أخيرا بعد نصف ساعة تقريبا، أمر المسؤولون بتمريرى وحدى أنا.

سررت جدّا حين وجدت نفسى فى الظل. تبين أن المسؤولين هم باشا مصرى منظره صارم جدّا، و ضابط مصرى شاب منظره لطيف و ناعم جدّا، و عميل شركة الملاحة هذه، و كائن آخر فى كربوش تبين، من الاسئلة، انه اخو نائب قنصلنا (فى السويس) و كاتبه فى الوقت نفسه.

و عداهم، كان بين المسؤولين صاحب الفندق لايواء الحجاج المدعو الحاج على. طلبوا منى جواز السفر، تهيج اخو نائب القنصل، قال شيئا

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۸۵

ما. أوضح الحاج على انه يجب التأشير على جواز السفر عند قنصلنا، و لهذا الغرض أخذوا منى مجيديتين. تم التأشير بسرعة تثير الشكوك؛ فبعد ربع ساعة أعادوا لى جواز السفر و عليه التأشيرة و توقيع نائب القنصل، فى حين أن مقر القنصلية فى المدينة!

سمحوا بصعود الركاب إلى الباخرة فبدأ شىء رهيب. الباخرة ترسو على بعد نحو ۵ ساجينات عن الرصيف و يوصله بها لوحان ضيقان؛ الجمع يدفع بقوة من الخلف؛ يمررون الركاب واحدا واحدا؛ فحص جواز السفر يستغرق بعض الوقت. فى الجمع أولاد و نساء. الجنود

يصدّون الجمع بالقوة مستعملين العصى، رغم انى لاحظت أنهم كانوا حريصين جدّا على الأولاد و النساء. الركاب الذين يصعدون إلى الباخرة يعمدون إلى تدبير أمورهم بأسرع وقت، فارشين الحصر و اللباد.

«Magnet»

باخرة صغيرة عتيقة جدّا، و قذرة جدّا. درجتها الأولى إنما هى مسخرة، و بدون مبالغة أقول أنها ليست أفضل من الدرجة الثالثة فى السفينة «الامبراطور نيقولاى الثانى». و لكن يوجد بياض حقير للفراش. الدرجة الأولى فى مؤخرة الباخرة، الدرجة الثانية فى مقدمتها، و لكن الشيطان وحده يعرف ما هذا. و الواقع أنهم أخذوا منى لقاء الدرجة الأولى بدون طعام ۹۴ روبلا و ۷۰ كوبيكا. فما ارهب هذا الاستثمار الوقح!

استمر المشهد الفظيع، مشهد صعود الركاب إلى الباخرة، ثلاثة ساعات و نصف الساعة. خرجت إلى المتن قبل اقلاع الباخرة، فتملكنى الرعب من ملء الباخرة؛ حسبى القول انهم حشروا الركاب على جوار العنابر و المتن، و على مقصورات الدرجة الأولى و الثانية و على سلوقية الربان و فى جميع الممرات، و كذلك فى الزوارق،- و فيها استقر العرب و الفرس البارعون فى التسلق. و لم يتسن لى أن أذهب إلى الحاج سلطان فى الدرجة الثانية إلا بمصاعب لا تصدق، و بمضايقة الناس باستمرار.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۸۶

هذا الموقف من الناس، و بخاصة من ركاب المقصورات، لم يتسنّ لى يوما أن أرى نظيرا له! هذا مرعب، هذا مثير للغضب! إذا كان كل شىء يتحقق على هذا النحو، فلا بدّ من الدهشة إذا لم تنشب شتى الأوبئة بين الحجاج. صاننا الرب من البلايا! فى كل مكان ينصبون السماورات و يشعلون النار تحتها، و يدخنون، و يطبخون، و الخ؛ الإنارة بالكاز.

تحادثت مع مختلف الحجاج؛ الفرس يفضلون الطريق عبر القدس لكى تتسنى لهم زيارة كربلاء و بغداد و القدس. و كثيرون يمضون عبر بندر و بوشير (بوشهر). من خراسان نحو ۵۰ شخصا.

۹ نيسان (ابريل). حوالى الساعة ۱۱ صباحا وصلنا إلى جدّة و رسونا فى وسط الخليج بين مدينة جدّة و محلة الرأس الأسود؛ فى كل مكان شعاب، صخور بحرية. جدّة مدينة جميلة من البعيد. بعد فترة و جيزة جاء من جهة المدينة زورق و فيه تركى يرتدى معطفا، و حافى القدمين؛ و قد تبين انه عضو فى لجنة الحجر الصحى؛ سرعان ما عاد و اعدا بإرسال الزوارق لنقل الركاب إلى الشاطئ؛ رفعوا على الصارية راية تشير إلى استدعاء الزوارق. ذلك اليوم امضيناه كله عبثا فى الرسو، مع انه كان من الممكن الاستراحة من العاصفة التى عانيناها.

۱۰ نيسان (ابريل). منذ الصباح ظهر من جانب الرأس الأسود اسطول من الزوارق المنطلقة بالأشرعة. الطقس مناسب. اقتربت الزوارق. بدأ الهرج و المرج العادى. ظهر عضو لجنة الحجر الصحى الذى جاء أمس. فى آخر المطاف، جاء دورنا. اقترب زورقان، أحدهما نزل فيه الركاب، و الثانى و ضعوا فيه امتعتهم. زورق الأمتعة رفع الشراع و جر زورق الركاب صوب الرأس الأسود. كان بين الركاب عدد كبير جدّا من النساء من المغرب. أخذن يغنين أغنية رخيمة جدّا، رنانة جدّا، حركت نياط قلبى إلى حد أنى بكيت. كل شىء- الطقس، و البحر، و المحلة المحيطة- اثار حالة من الاجلال. كانت الزوارق تتلوى طوال

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۸۷

الوقت بين الصخور البحرية مصطدمة فى بعض الأماكن فى القاع بالصخور التحتمائية. استمر الانتقال زهاء ساعتين. و اخيرا، على الشاطىء، رأينا بضع عشرات من الخيام، و عددا كبيرا من الشقادف و الجمال و الحمير، و رصيفين حقيرين مصنوعين من الواح خشبية و مظللة من فوق بحصائر. لم تقترب الزوارق من الشاطىء، بل توقفت. و طلبوا من كل منا أن يدفع نصف مجيدية لأجل المحجر الصحى. رفض بعض الركاب الدفع؛ أما أنا، فقد دفعت تجنبا للانتظار المضنى تحت أشعة الشمس الحارقة؛ و نقلونا إلى الرصيف، و هنا طلبوا مرة أخرى نصف مجيدية لأجل المحجر الصحى، ثم أخذوا منا جوازات السفر و أجبرونا على دفع النقود أيضا، و أطلقوا

سراحنا. شغلنا خيمة من خيام المحجر الصحى. القيظ لا يطاق. كتمة الهواء يستحيل تحملها. الخيام موزعة بغير انتظار، بصورة ضيقة جدّا، محاطة بحواجز، استقرت فيما وراءها سرية و خفر فى خيام أيضا. لا يسمحون بالخروج من المكان المحجوز.

ثم تبين أنهم لن يرسلونا إلى أبعد إلا غدا صباحا برقية خفر. الانتظار الممل. اليوم ساء حالى جدّا. ألم فى البطن، و عطش لا يروى؛ لا أستطيع اطفاءه بشىء؛ حاولت احتساء الشاى، و القهوة و الليموناضة (الفاترة)، و لكن عبثا. الماء يستجلبونه من جدّة فى شخاتير؛ طعمه مالح. تعذبت كثيرا. فى هذه الأثناء تعرفت على متصرف تركى (؟) من اليمن، ذاهب هو أيضا إلى مكة. رجل مطلع و لطيف جدّا. احتاج رفيقى المريض [...]* تلطف جدّا و أرسل إلى المحجر الصحى؛ أما هنا، فلا وجود لأى طبيب. بين الخيام بازار؛ كثيرون يذبحون لأنفسهم الخرفان بين الخيام. التربة رمل بحرى. لقضاء الحاجة يذهبون إلى شاطئ البحر.

بفضل الرمل، لا يتلوث الشاطئ.

هنا يعيش القنصل الفارسى. خيمته فخمة، مفروشة بمفروشات جيدة، و منارة مساء إنارة ممتازة، تقع الخيمة خارج الحاجز و تثير انطباعا

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۸۸

قويّا؛ فى خيمة أخرى يعيش معاونه؛ و قد انتقل إلى هنا مؤخرا من ينبع.

جميع المثقفين من الحجاج الفارسيين يتجمعون عند القنصل؛ القنصل يقدم لهم القرى ببالغ اللطف. توعكت تماما. أخاف أن لا أستطيع غدا السفر.

جدّة يحميها الحجر الصحى، رغم أنى رأيت كثرة من تجار المسابح و الشالات و غير ذلك، و قد جاؤوا من جدّة لبيع بضائعهم. الماء أيضا من جدّة. و إلى جدّة يرسلون أيضا الناس لنقل البرقيات. وقع سوء تفاهم بصدد الماء المجلوب. بعد انفاق الماء، راح شختور إلى جدّة لجلب الماء. حل المساء، و لكن الماء لم يصل. الحجاج جميعهم مع الاوعية ينتظرون على الرصيف. الساعة ۹ مساء، طلبوا الذهاب إلى المتصرف لطلب المساعدة منه. رحت. أوضح المتصرف أن الشختور تأخر بسبب انقطاع الريح، و انه سيأتى حتما بعد ساعة. و لكن الشختور لم يأت نحو منتصف الليل، و لم يأت فى صباح اليوم التالى، فى وقت ارتحال الحجاج.

۱۱ نيسان (ابريل). لم انم طوال الليل كله. آلام رهيبة فى بطنى.

بجهد كبير نهضت و وصلت إلى الحمار المهيأ لى. استعجلنا أنا و درويش أفندى للسفر بأسرع وقت طالما كان الطقس باردا نوعا ما، و ركبنا حمارين و اتجهنا اثر طابور من الحجاج ظاهر فى البعيد. ضاع الحاج سلطان. أعتقد انه سيلحق بنا؛ كان معه مسدسى و الماء. لحقنا بالطابور، و هو من المغاربة؛ هؤلاء لا يعرفون كلمة من لغتنا. نمضى صامتين وراءهم. ندهش لكونهم جميعهم يسيرون بلا طرق؛ نبدأ نخشى على مصيرنا. معى حقيبة فيها كل رأسمالى؛ و ليس معى أى سلاح. أعرف أن الطريق خطر جدّا. و المرافقون اللّه وحده يعلم من هم. أخذ الأفندى يبكى. بعد السير طويلا فى الجبال، نطل على طريق متساو، مسطح، و لكنه طريق غير كبير، لأنه لا وجود للتلغراف. أفكر فى الوصول إلى أول مقهى؛ و المقاهى، كما يقول الحاج سلطان، تسعة؛ و هناك ننتظر الحاج سلطان، و لكن لم نجد أى مقهى. نصادف جماعات من البدو

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۸۹

المسلحين من الرأس إلى أخمص القدمين. فجأة يطلق المرافقون النار فى الهواء؛ مع جميعهم تقريبا بنادق رش [...]*. نسير منذ ۵ سنوات؛ أنا ملتف بثوب الاحرام، مكشوف الرأس؛ أخذ عطش رهيب يعذبنى.

جف فماى كله. لا أستطيع تحريك لسانى. أطلب من الأفندى الليمون الحامض أو أقراص النعناع. يخاف أن يتوقف لكى يسحب هذه الأشياء فيتأخر. الطريق يستمر بين صخور جرداء؛ أحيانا تقع العين على ادغال عالية من الشوك. ابدأ أفكر فى المجازفة و التوقف فى مكان ما تحت دغل؛ احزر أن الطريق الكبير إلى شمالنا. فى عينى تتلاعب حلقات ضاربة إلى الأحمر. أخيرا اقنع الأفندى بإعطائى

ليمونـة؛ و حين راح ليجلبها تنحيت جانبا قليلا، و إذا بى أرى غير بعيـد إلى الشـمال بنايـة بيضاء. اسأل. يقولون: هذا مركز حراسة. اعد رفقتى بمجيديهٔ إذا أخذونى إلى هناك. الجميع يسـتديرون. يحمل لى الأفندى ليمونهٔ؛ أبلعها فى الحال و انتعش. بعد ربع ساعهٔ نصـل إلى البنايـهٔ- مركز يحرس طريق مكـهٔ. يسـرع شـيخ حاملا بندقيهٔ. و حين يعرف فحوى الأمر، يدعونى بلطف إلى الجلوس فى الظل، و يضع سماور على النار، و يقدم على العموم آيات الضيافهٔ الاخويهٔ حقّا.

ننتقل إلى داخل البنايـهٔ المشـيدهٔ بصورهٔ عقلانيـهٔ جـدّا بحيث تتسع لأجل ۸ أشـخاص. الجنود و الشـيوخ جميعهم اتراك، شبان لطفاء. نقضـى هنا ساعتين مسـتطابتين مع احتساء الشاى. الماء يستجلبونه من بئر على بعد ۳ فرسـتات. طعمه مالح نوعا ما. يروون أنهم شاهدوا بـأم عيونهم فى الأيـام الأـخيرهٔ قرب المخفر كيف نهب البـدو الحجاج. يبـدو أن هؤلاء الرحل يزرعون الرعب فى قلوب الجميع. أخيرا وصل الحاج سـلطان؛ و بالحاح الساقـهٔ الـذين لم يوافقوا البتهٔ على الانتظار هنا حتى هبوط القيظ، مضـينا إلى أبعد. الآن كنا فى الطريق التلغرافى الكبير الواقع طوال الوقت بين الجبال، و لكنه متساو و مريح جدّا.

الرحلهٔ السريهٔ للعقيد الروسى، ص: ۹۰

بمحاذاهٔ الطريق، ينطلق التلغراف المركب جيـدا جـدّا على أعمـدهٔ حديديـهٔ. الطريق مناسب تماما للحركهٔ على العجلات. حتى المحطهٔ التاليهٔ- البحيرهٔ- اضـطررنا إلى السير فى أقصى القيظ. كل ۳- ۴ فرسـتات تقع بنايات مخفريهٔ. فى البحرهٔ مقر أركان الطابور. وصـلت إلى البحرهٔ بالكـاد حيّا، و قلت فى نفسـى انه لن يتسـنى لى مواصـلهٔ السير. تبين أن المقهى كوخ ردىء من القصب يأوى إليه الناس و حميرهم. الماء مالح نوعا ما. تقابلت مع بضعهٔ ضباط أتراك؛ أنهم أناس ودودون بسطاء.

الجميع حاولوا انعاشـى و تعزيتى. من جديد الح الساقهٔ على الانطلاق بأسـرع وقت، و لكن الضـباط هدأوهم ببالغ السـرعهٔ. هنا سـمعت بين الناس شتى الاشاعات و المخاوف عن هجوم البدو: اليوم سـلبوا أحد الحجاج ۵ ليرات، و قتلوا آخر و أخذوا ۴۰ ليرهٔ. فى حضورى جاء جندى و أبلغ الضـباط أن رفيقه الذى راح معه من جدّهٔ إلى مكهٔ قتلوه بالحجارهٔ. نشب جدال بين الضباط بصدد من يرسلونه وراء القتيل. نحو الساعهٔ ۵ مساء، انهضونى مع ذلك و أجبرونى على مواصـلهٔ السفر حتى حدّهٔ. المسافهٔ ۷- ۸ فرسـتات. بفضل البرودهٔ قطعنا هذه المسافهٔ بصورهٔ سهلهٔ جدّا. من البعيد تبدو على حدّهٔ مظاهر البشاشهٔ الكبيرهٔ بدغلها من أشجار النخيل.

تبين أن الماء (من الآبار) جيد. هنا استرحت و نمت للمرهٔ الأولى نوما هادئا نوعا ما. رجلىّ احمرتا بشدلهٔ بسبب القيظ. [السفر ...]*.

كان هناك بضعهٔ أشخاص ذاهبين من جدّهٔ إلى مكهٔ.

۱۲ نيسان (ابريل). انطلقنا اليوم فى الساعـهٔ ۵ صـباحا و فى الساعهٔ ۹ اقتربنا بسـلامهٔ من مكهٔ التى تغدو الجبال فى جوارها أعلى و اشـد انحـدارا. الوصول مفاجئ تماما. المدينـهٔ لم تظهر إلا حين دخلناها تماما. الإنطباع الأول- بيوت حجريـهٔ عاليـهٔ، حركـهٔ شديدهٔ جدّا فى الشوارع. بعد فترهٔ وجيزهٔ وصلنا إلى تكيهٔ قزغيزيهٔ، و نزلنا فيها موقتا فى ضيافهٔ الحاج سلطان. منذ اللحظات الأولى بالذات، تواجد أناس كثيرون

الرحلهٔ السريهٔ للعقيد الروسى، ص: ۹۱

جاؤوا لزيارهٔ الحاج سـلطان؛ فضاق المكان كثيرا. تضـخمت رجلاى كثيرا، و خزبتا. أمشى بجهد كبير. نزول الدرج عذاب. فى المساء، بعد الدعاء قمت بالطواف ثم بالسـعى. الإنطباع من الطواف عميق و عجيب جدّا و هو من الانطباعات التى تندر معاناتها فى الحياهٔ. بعد العودهٔ إلى التكيهٔ، خلعت ثوب الاحرام و لبست ثيابا عربيهٔ محليهٔ- قمصنا طويلا جدّا من الشاش، و سترهٔ، و عباءهٔ حريريهٔ.

۱۳ نيسان (ابريل). أمضـيت اليوم كله متمـددا. و جاءنى حارث، ابن أحمـد عبـدو و عرض أن يخدمنى طوال اقامتى هنا و فى المدينهٔ. الشقهٔ التى اعدّها غاليهٔ جدّا- ۶۰ روبلا فى أسبوعين. قررت أن أنتظر.

۱۴ نيسان (ابريل). جاء يزورنى تلميـذى القـديم يعقوب اكتشورين، الـذى كان آنـذاك صبيّا و الذى صار الآن شابّا راشدا. جاء جميع أفراد عائلته عبر ينبع إلى المدينهٔ فى الشـقادف. رحت مع يعقوب إلى محل إقامتهم؛ فقد اسـتأجروا شـقهٔ فى مدرسهٔ دينيهٔ تطل نوافذها

على كعبة اللّه و تخص الحاج شريف. تتألف الشقة من ٣ طوابق و يبلغ بدل إيجارها ٢٠ ليرة (٨ روبلات، ۶۰؟؟ ٢٠). اخو يعقوب، الذى رأيته منذ ٨ سنوات صبيّا تستحيل معرفته لأنه كبر و ترجل. الشيخ لا يزال كما كان. ملاك كبير من الخدم و الشاكيرديين (تلامذة المدرسة- كلمة تركية.- المؤلف) و الأدلة، و خلافهم. بالإجمال ٥٠ شخصا.

١٥ نيسان (ابريل). اليوم صباحا انتقلت فجأة إلى شقة جديدة استأجرتها من ابن دليلنا صالح، صحيح أن الشقة بسيطة، و لكنها رحبة، و منفردة تماما. فى التكية مللت جدّا من الضيق و الازدحام.

كنت عند اكتشورين و عرفت، فيما عرفت، أنهم اعتقلوا قرب بئر زمزم كافرا. سألت كثيرين عما سيفعلونه به؛ أجاب الجميع بالإجماع انهم لن يفعلوا به شيئا، و انهم سيرسلونه إلى القنصل فى جدّة. كنت اتصور تعصبا أكبر.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ٩٢

١۶ نيسان (ابريل). أمضيت اليوم قرب النافذة مراقبا مواكب مختلفة. فى البدء راح الشريف و الوالى إلى المحامل، ثم عادا بمهابة و احتفال. خفر الشريف يتألف جزئيّا من مشاة، و جزئيّا من جنود على الجمال، و فرقة موسيقية طريفة؛ ثم جرى خروج المحمل الفلسطينى و المحمل المصرى؛ للأول فصيل كبير من الفرسان على [...]*، و ٣ مدافع جبلية. الجماعة كلها خارقة السطوع و الأصالة؛ أعجبتنى على الأخص أغنيات العرب و مسيرتهم مع الرقص و الحجل. موكب أهل المدينة على الهجائن و الحمير أصيل هو أيضا. المحمل إنما هو هودج من الديباج على جمل واحد. المحمل الفلسطينى- حضرة عائشة؛ المحمل المصرى- حضرة فاطمة.

١٧ نيسان (ابريل). قبلت دعوة يعقوب اكتشورين اللطيفة و انضممت إليه للذهاب إلى عرفات. الشيخ و السيدات راحوا فى الشقادف. أما نحن، فقد رحنا ركوبا. المسافة إلى عرفات زهاء ٢٠ فرستا؛ فى الطريق تمضى سلسلة متواصلة من الجمال و من حجاجنا.

الطريق تنطلق طوال الوقت كله فى مضيق تارة يزداد ضيقا و طورا يتسع.

مررنا بمنى و المزدلفة و وصلنا إلى عرفات نحو الساعة ٨ مساء. و عرفات جبل غير عال يتألف من كتل صخرية هائلة؛ فى أعلاه موشور أبيض غير كبير؛ عند قدم الجبل مخيم شاسع من خيام الحجاج. التربة رملية.

بصعوبة وجدنا فى هذه الفوضى خيمتنا. المساء بارد جدّا (٢٠ درجة من ميزان ريومور) مع نسيم مستطاب؛ قرب خيمة بيت خلاء خاص بها، مقام بشكل خيمة هو أيضا. من بعيد تبدو مقامات المحامل المنورة، و الألعاب النارية. غير بعيد، بازار شاسع، موقت، يحتوى أشياء و أشياء، و على الأكثر الخرفان و البطيخ. الماء من مكة [.....]** من النوافذ.

اسمع صيحات [.....]** معد، كما عرفت، لأجل قرغيزيينا و محضر من بقايا المصارين فى مكة. كثيرون يذبحون الأغنام قرب خيامهم.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ٩٣

١٨ نيسان (ابريل). اليوم يصعد جميع الحجاج، ما عدا الحنفيين، إلى جبل عرفات لأجل السجود؛ الجبل كله مكسو بالناس. و هناك أدراج حجرية. أما نحن، فيتعين علينا أن نبقى طوال الوقت كله فى أسفل.

كثيرون يستحمون. و لهذا الغرض انشئت أحواض حجرية غير عميقة تمر بها المياه السائلة إلى مكة. الحر اليوم شديد جدّا. فى الخيام ترتفع الحرارة إلى ٣۵ درجة ريومور، فى الشمس إلى ۵٠ درجة. فى نحو الساعة الثالثة، بعد الغداء، بدأ الإمام من أعلى الجبل تلاوة الخطبة و هو على ظهر جمل؛ الجبل كله مغطى بالحجاج. التلاوة ذاتها غير مسموعة بالطبع. و أظن أن حتى الواقفين على سفوح الجبل لا يسمعونها هم أيضا.

و حين يتلو الخطيب لبّيك اللّه هم لبّيك، يردد الجمهور على الجبل بصوت مدو ملوحا بالمناديل، و بموجب هذه العلامة يردد جميع الباقين. عند الاقتراب من الجبل بالذات، يستحيل عبور البازار بسبب الرائحة الكريهة. و قرب الخيام أيضا رائحة كريهة. قبيل مغيب الشمس، يبدأ الجميع يرتبون أمتعتهم و يستعدون للعودة لكى ينطلقوا فى النهاية إلى المزدلفة. تنتهى الخطبة قبل صلاة الختام. المكان واسع، و لكن تحرك مثل هذا الجمع من الناس و الجمال فى آن واحد يسفر بالطبع عن الهرج و المرج. من عرفات إلى المزدلفة نحو

۷ فرسـتات؛ الطريق تمر فى مضيق عرضه نحو ۲۰۰ ساجن، جانباه جبال صـخرية جرداء. هذه النقطة عبارة عن صف طويل من مناضـد التجار و المقاهى. و هنا ينبغى أن يقضـى الحجاج الليل. و التربـة هنا أيضا رملية، و لكن لا قذر و لا زبالة هنا بفضل إقامة الجمهور غير الطويل. غدا يتعين اجتياز نحو ۷ فرستات فى اتجاه مكة إلى منى. الرحلة السرية للعقيد الروسى ؛ ص۹۳

نيسـان (ابريـل). فى الصـباح البـاكر وصـلت إلى منى. و هى مقام سـكنى يتألف من شارع واحـد طويل جـدّا و بيوت حجريـة متعـددة الطوابق، تعيش بضعة أيام فقط فى السنة: عند تحرك الحجاج إلى عرفات و بخاصة

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۹۴

لـدى عـودتهم حين يبقون هنـا أكـثر من يومين؛ و فى بقيـة أوقـات السـنة لاـ يعيش أحـد هنـا. عرض المضـيق هنـا زهـاء ۴۰۰ ساجين بالمتوسط؛ فى كل مكان، صـخور عارية؛ التربة من رمل ضـخم. اكتشورين أجّر بيتا منفردا بكامله بمبلغ ۲۰ ليرة؛ عادة ينزل الجميع فى خيام منصوبة فى الشوارع و فى أماكن مطوقة خصـيصا باسـيجة حجرية و تخص الأدلة. تعتبر منى نقطة حارة جدّا، و هذا صحيح، رغم أن الحرارة فى الغرف لاـ ترتفع إلى أكثر من ۳۰ درجـة ريومور، و لكن كتمة الهواء فى الصـباح (و قد نمنا على الشـرفة) لا تطاق. فى البـدء قـدمنا الأضاحى؛ و فى الحال تخاطف المغاربة الخرفان ال ۱۲ كلها. المحلـة التى يـذبحون فيها الأغنام تقع قرب منى بالذات؛ و هناك حفروا عددا من الحفر عرض الواحدة منها ۳ ساجينات و عمقها ارشينان. يذبحون على حافة الحفرة. يقولون أنهم يطمرون الزاما جميع الأغنام المذبوحة بعد الظهر. و عموما يوجد اشراف و لكن بدون مراقبة دائمة.

۲۰ نيسـان (ابريل). يوم الأثنين. فى هـذا اليوم بقى الحجاج فى منى لرمى الأحجار فى ۳ أماكن مسيجة. الأحجار المرمية سابقا تختفى؛ أغلب الظن أن الأمطار تفرقها و تجرفها. الأحجار- رمليـة هشة. رحنا إلى مكان تقديم الأضاحى الذى ذكرته التوراة. قذارة مدهشة فى ازقة منى؛ كثرة من بقايا الحيوانات؛ رائحة رهيبة. بيوت الخلاء مراحيض مكشوفة صـغيرة، بدون حفر. نصلى و نركع أمام حجر مفلوق. الوضع الصـحى الرهيب فى المحلـة يخنق الرغبـة فى الصـلاة. فى المسـاء رحت مع يعقوب لمشاهـدة الألعاب الناريـة و للاسـتماع إلى الموسـيقى. كانت الصواريخ جيدة جدّا. أطلقوها فى ۳ أماكن- قرب مقامى القافلـة الشامية و القافلة المصـرية و قرب موقف الوالى. و صواريـخ المكانين الأولين كانت ناجحة جدّا. الموسـيقى- اوركسترا عسـكرية جيدة جدّا، رغم أنها صـغيرة القوام. موسـيقى الشـريف المحلية أصلية. الوالى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۹۵

و الشـريف تجوبا اليوم ركوبا فى الشارع الرئيسى برفقة خفر أصيل. فى المساء، يرفعون فوق مبنى ۲۰- ۴۰؛ عدد الأطباء اثنان، مرسلان من القسـطنطينية، الطبيب الثالث يعمل عنـد الوالى شخصـيّا. و هنا عثمان أفنـدى أيضا، و لكن كفرد من الأفراد. عدنا فى ساعة متأخرة. الجو مرهق إلى أقصى حد؛ لربما يلعب الخيال (سبق الرأى) دوره فى هذا.

المـاء هنـا و فى المزدلفـة و عرفـات يأخـذونه من الآبار و المجارير؛ و هـذا معمول به فى كل مكان. فى الصـباح طفنا مرة أخرى لرمى الحجـارة ثم عـدنا إلى مكـة. رحت رأسـا إلى محـل إقـامتى؛ و نحو المسـاء قمت بـالطواف. مسـاء رحت إلى اكتشورين. بين الحجاج انفعال فرح ملحوظ؛ الجميع يرسلون إلى الوطن برقيات عن العودة بأمان و سلام من عرفات.

الحجـاج يـذهبون إلى عرفـات مفعمين بخوف عظيم، و لـذا كـان فرحهم بعـد العودة مفهوما. عـدد الموتى فى كل وقت الـذهاب إلى عرفـات و العودة منه ۳۰ فقط. يقولون أن هـذه السـنة موفقـة جـدّا. فى منى غالبا جدّا ما ينشب وباء الكوليرا؛ و فى السـنة الموفقة مات كثيرون، و بخاصـة عـدد كبير من القرغيز، الأمر الـذى يجب تفسـيره بالزحار، و القيظ الرهيب، و الأكل غير المعتـدل، و الشـرب الأقل اعتـدالا أيضا، و البنيـة البدينـة، و انعـدام العادة طبعا. يقول عبـد القادر سـعيد أن الحرارة فى الخيام بلغت منـذ بضع سـنوات ۴۸ درجة ريومور. كان القرغيز المساكين لا يعرفون ما يفعلون.

راح الجميع للقيام بالعمرة؛ من هم أكثر يسرا يكلفون الغير بالقيام بذلك لقاء أجر. بالنيابة عنى راح حارث.

الحاج الذى لم يذهب بعد إلى المدينة المنورة يتحدث عن العودة رأسا إلى الوطن. يتطرقون إلى أخطار الطريق من عمليات السلب و النهب. الجميع يخيفهم المحجر الصحى فى الطور. يروون عن الفظائع فى السنة الماضية فى الطور: الإقامة الرهيبة، الأحوال المناخية المرهقة، الغلاء الفاحش؛ انتزعوا من الحجاج مؤنهم؛ و هذه المؤن

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۹۶

بالذات باعوها منهم فيما بعد. ابقوهم ۲۷ يوما لأن التفريغ استغرق ۱۲ يوما؛ و هذه المدة ليست فى الحساب.

۲۴ نيسان (ابريل). يوم الجمعة. زرت مع رشيد القاضى عمارة ضخمة قيد البناء عند مدخل المدينة. تبين أنها مأوى لأجل الحجاج المعدمين. تبنى كلها على حساب الحكومة التركية. العمارة [...] من طابقين، حجرية، رائعة التخطيط. غرف مشرقة، رحبة، عالية، رواق مريح، لا وجود لقطعة خشبية واحدة. يبدو أنهم امعنوا الفكر سلفا فى كل شىء، النوافذ مجهزة بحصائر، فى الوسط فناء. كل شى وطيد وجيد جدّا، عقلانى و جميل. كثرة من الهواء و النور. [...]*. تركى، سقانا فيما بعد القهوة دون أن يذكر الجاويش الفاره و سمح بطرح الأسئلة ببالغ اللطف [...]*. مثل هذه العمارة لا يرفض أغنى الحجاج النزول فيها.

بعد العودة، دخلنا مستشفى المدينة. من وقف والدة السلطان عبد المجيد. عدد الأمكنة ۳۰- ۴۰ أسرّة نظيفة نسبيّا. عدد المرضى ۲۵، مصابون على الأغلب بأبى الركب. للمستشفى صيدلية، و جنينة.

المرضى من شتى القوميات. الراغبون فى الحصول على الأدوية كثيرون. المكان لأجل المستشفى مفرط فى الانتعاش و الحركة، قرب السوق. ثم رحت مع عثمان أفندى إلى سوق العبيد. حوش مفتوح صغير. هناك ۶۰- ۸۰ فتاة، زنجيات على الأغلب؛ و هناك أيضا حبشيات، و إمرأة مع طفل، بعض [...]*، زهاء ۲۰ صبيّا، حليقى الرؤوس، محضّرين للبيع، جالسون فئات فئات على دواوين. استقبلنا هناك عربى همّام.

البضاعة يأتون بها من السودان و الحبشة. يسرقون، ينقلون إلى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۹۷

الساحل؛ يشحنون خفية عن الإنجليز على «سمابك»؛ و على هذا الساحل يبيعونها من التجار، و هؤلاء ينقلونها إلى مكة و غير ذلك من المراكز.

ثمن الفتاة الجيدة ۴۰ ليرة. ثمن الصبيان يتراوح بين ۱۵ و ۲۰ و ۳۰ ليرة.

الحبشيات يأخذونهن على الأكثر كزوجات، الزنجيات كعاملات.

يتفحصون الفتاة عارية مثل الماشية. الإنطباع من ذلك فى غاية الأرهاق.

الشريعة لا تسمح بهذه التجارة. استحوذت علىّ و على رفاقى كآبة شديدة.

۲۵ نيسان (ابريل). يوم السبت. قضيت اليوم كله فى بحث مسألة السفر إلى المدينة المنورة. الطريق، كما يروون، فى منتهى الخطر، رفض معظم رفاق الطريق السفر.

القافلة الشامية محروسة، لربما آمن، و لكن، أثناء السير، تهتز الجمال كثيرا، و الشقادف غير مريحة؛ قوافل مكة خطرة جدّا. بنصيحة رشيد القاضى قررنا السفر على هجائن، أنا و أحمد يرزين ركوبا. أخذ أدلة عمر إبراهيم من المدينة المنورة على أنفسهم تدبير كل أمور السفر.

عند يرزين آنيته؛ وعد أن يعطينا أياها فى الخيمة. وقت السفر أسبوع.

المسافة ۴۰۰- ۴۵۰ فرستا.

۲۶ نيسان (ابريل). يوم الأحد. الماليزيون أو «جاوة» كما يسمونهم هنا يؤلفون ثلث أو ربع السكان الدائمين فى مكة. عندهم ۳- ۴ آلاف تلميذ. يتميزون بالميل إلى الوئام؛ مسالمون جدّا، مجتهدون؛ يتعاطون التجارة؛ بدأوا يمارسون الدور الأول بين السكان

المحليين.

يواسطة مواطنى مراد أفندى، تعرفت على ممثلين اثنين للماليزيين.

جميعهم من اتباع الشافعى. جاؤوا إلى مكة منذ ۲۰ سنة، و لكن عددهم يتزايد سنة بعد سنة؛ فى هذه السنة بلغ عدد الحجاج منهم زهاء ۱۵ ألفا. عادة يتوافد ۳۰- ۴۰ ألف حاج. و هم إذ يعتزمون الحج إلى مكة أو الذهاب منها إلى المدينة المنورة، يختارون مدبّرا خصوصيّا ملزما

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۹۸

باستئجار الجمال و توفير المؤن، و غير ذلك. و هم يشكلون على الدوام قوافل خاصة، و لا يختلطون مع قوميات أخرى. و هم شعب مهذب جدّا، و هادئ و محب للمعرفة. يقولون أنهم يتمتعون فى وطنهم بالحرية الدينية التامة. من جزر السوند الماليزية يأتى إلى مكة على الأغلب الخشب و البضائع المستعمرية. فى مكة زهاء ۲۰ معلما ماليزيّا بينهم ۳ يمارسون خصيصا الترجمة من اللغة العربية إلى الماليزية. القطع النقدية الفضية المتداولة سواء هنا فى مكة أم فى المدينة المنورة و كذلك بين الرحل، هى جميعها تقريبا «البورون» الماليزى، الذى توازى قيمته ۱۱ غروما أو ۸۸ كوبيكا. اليوم ودعنا آل اكتشورين ثم قمت مع حارث برحلة إلى جبل قوايس. تظهر منه مكة كلها تقريبا، الواقعة فى فج ضيق و المطوقة بوثوق بصخور قاتمة اللون. منظر الضواحى خارق الصرامة. أعلى نقطتين تشغلهما ثكنات. الحرم الشريف فى قاع هذا المضيق. ركعنا للمكان الذى حدثت فيه معجزة للقمر، و نزلنا من جانبه الآخر، و ركعنا للمكان ولادة النبى، المحول إلى جامع بارد نوعا ما، ثم عدنا. مررنا على يرزين؛ كان مشغولا بالتوضيب. البيت يلاصق الحرم الشريف؛ فى أسفله رائحة عفنة رهيبة؛ التكية مهملة؛ المشرف عليها (محمد) يقبع فى السجن فى تهمة معللة جدّا بسرقة النقود من يرزين. عن الأشخاص الذين عهدوا إليهم بالتكية،- فيما عدا اثنين هما مراد و نجم الدين أفندى- يروون أشياء فظيعة- منها أن أموال الحجاج الموتى تعود إليهم، و أنهم ينتظرون الأوبئة و خلافها بفارغ الصبر. يجمعون من النزلاء النقود للتصليح، و لكن لا يجرى أى تصليح، و يؤجرون الغرف و يضعون النقود فى جيوبهم. محمد (المذكور أعلاه)، مثلا- يقبع فى السجن للمرة الثالثة. توجد هنا بالأجمال ۹ تكيات، أفضلها تكية دبيربييف، كل تكية تتسع ل ۱۰- ۱۵ شخصا.

۲۷ نيسان (ابريل). انقضى اليوم كله فى الاستعدادات للرحيل إلى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۹۹

المدينة المنورة. لا بدّ من الأسف الكبير لأنى لم آخذ أى احتياطى من المأكولات؛ المحفوظات من المأكولات السائلة قيمة بخاصة هنا.

احتجنا إلى ۱۲ جملا- و حصان واحد. و هكذا ننطلق مع نفر من أهل المدينة المنورة عائدين من الحج على جمال خفيفة تسمى بالهجائن.

فالهجين حيوان لطيف جدّا، وديع، جميل، محب للنظافة، خال من الرائحة المنفرة الملازمة للجمال.

و أخيرا فى الساعة ۱۰ مساء انطلقنا إلى نقطة التجمع على بعد نحو ۶ فرسخات من مكة. هنا اجتمع الركبان؛ الأول، الكبير، انتخب داغستانيا شيخا له؛ الثانى، ركبنا، انتخب عباس خيارى. حوالى الساعة الواحدة ليلا، بدأ الركب الأول يتحرك، و حوالى الساعة الثانية ليلا، بدأنا نحن نتحرك.

۲۸ نيسان (ابريل). يوم الثلاثاء. منذ هذا اليوم تبدأ حقّا حياة السفر بدون نوم تقريبا، بدون المعيشة المألوفة، فى القيظ الرهيب. أثناء السير، تقيد الركبان بالنظام التالى. كنا ننطلق حوالى الساعة ۱۲- الساعة الواحدة ليلا، و لهذا كان ينبغى النهوض قبل ساعة، علما بانه لم يكن يتسنى الوقت لاحتساء الشاى؛ كنا نسير حتى الساعة ۶- ۷ صباحا، و نتوقف للاستراحة. أثناء التوقف كان ينبغى الأسراع فى النوم، لأن هذا يغدو مستحيلا مع حلول القيظ. ثم كنا ننطلق حوالى الساعة ۱۲- الساعة ۲ بعد الظهر، و نسير بلا انقطاع حتى الساعة ۷-

۹ مساء، حين كنا نتوقف للاستراحة؛ و هكذا حتى المدينة المنورة بالذات، دون أية وقفة فى النهار و دون أية انحرافات. الركب الأول كان ينطلق قبل الثانى بساعتين. كان الركب يتألف من راكبين على الهجائن، (القسم الأكبر) على الحمير، و عشرة أحصنة و ۳ [....]*. أثناء السير، كان يسير فى المقدمة فريق على الحمير و الأحصنة، و فى الوراء فريق على الهجائن.

فى النهار كان الركب يستطيل، و لكن عند حلول العتمة كان يتجمع

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۰۰

و يتراص و يسير باحتراس. و عند الانطلاق، كان الجميع يصلون بصوت واحد طالبين من اللّه سلامة السفر و سلامة الشيخ؛ و عند الاقتراب من الموقف، كانوا يغنون بصوت واحد أغنية مشجعة و متناسقة جدّا. كانت سرعة السير متكيفة لسرعة الهجائن التى تسير عادة بخطوات واسعة، و بوسعها أن تسير خببا بطيئا، الأمر الذى كنا نستغله لفترة قصيرة فى الصباح و نحو المساء. الجميع يتذمرون من عدم هطول المطر فى الشتاء الماضى و بالتالى من نحول الجمال؛ و من جراء ذلك، تعين تطويل مدة السفر من ۴- ۵ أيام إلى ۷- ۸ أيام. كانوا يطعمون الجمال الأعشاب المجففة و لا يسقونها إلا نهارا على حدة فى المواقف.

۲۸ نيسان (ابريل). حوالى الساعة ۷ وصلنا إلى نبع يقع فى مجرى مضيق وادى فاطمة العريض. النبع تتساقط مياهه فى طاحونة غير كبيرة و تروى بستانا من البلح. التربة، سواء فى الطريق أم هنا، من الرمل الخشن؛ فى كل مكان صخور قاتمة غير عالية. الطريق مريح، صالح لأجل العربات حتى رابغ بالذات. الوقود متوفر فى كل مكان من الطريق بصورة أشجار صغيرة، شائكة، قرنية، مسماة بالشوك و بصورة ضرب من ephedr «ايفردر» مسماة «العشّر» و تأكلها الجمال. هناك ضرب من عشب مجفف قاس تتلفقفه الجمال أثناء السير. فى مراكز التوقف يبيعون الأعشاب المجففة الجاهزة فى حزم. فى الساعة الثانية نهارا، استأنفنا السير. الطقس حار جدّا. و لكن بعد الساعة الثالثة، أخذت الحرارة تهبط بشكل ملحوظ. و مع حلول الظلام سرنا باحتراس خاص، موزعين رجالنا على جانبى الطريق. التنادى دائم بين الركبين. و أخيرا فى الساعة ۹ مساء توقفنا لمبيت الليل، و معنا الماء. كان الهار مضنيا جدّا.

۲۹ نيسان (ابريل). انطلقنا فى الساعة الثانية ليلا. وصلنا إلى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۰۱

اسفان فى الساعة ۶ صباحا. القرية تتألف من اخصاص من القصب؛ من أجل العابرين توجد سقائف خاصة مبينة من الأغصان و العشب الجاف.

قبل القرية، مزروعات شاسعة من الذرة الصفراء و القرع. الماء فى بئرين [....]* جيد جدّا.

استأنفنا السير إلى أبعد فى الساعة الواحدة نهارا، الفرستات الأربعة، الأولى من الطريق صعبة جدّا؛ بين الحجارة و الجبال تقع ساحات شاسعة منظفة من الحصى و الحجارة لأجل المزروعات البعلية.

وصلنا إلى خليص فى الساعة ۷ مساءز توقفنا بعيدا عن القرية و الماء معنا.

۳۰ نيسان (ابريل). يوم الخميس. انطلقنا فى الساعة الواحدة ليلا. الطريق فى الفرستات ال ۱۰ الأولى صعبة من جراء الرمل، ثم تصبح متساوية، صلبة؛ نشعر بقرب البحر. الريح باردة نوعا ما؛ من بعيد نرى الأشرعة. وصلنا إلى قضيمة فى الساعة ۷ صباحا. الماء مالح نوعا ما. هناك مزروعات من القرع. تجدر الإشارة إلى أن البطيخ و الشمام فى الجزيرة العربية ينموان طوال السنة كلها؛ و لكن نادرا جدّا ما يكونان من نوع جيد؛ الأحجام فى المعتاد صغيرة و بلا طعم.

انطلقنا فى الساعة الثانية نهارا، و توقفنا بدون ماء فى الساعة الثامنة مساء. الطريق بعد قضيمة ب ۱۰- ۱۵ فرستا، حتى رابع بديعة:

متساوية، صلبة (رمل بحرى كبير متراص)، بدون غبار.

أول أيار (مايو). يوم الجمعة. انطلقنا فى الساعة ۱۲ صباحا.

و هكذا قطعنا نصف الطريق دون مصاعب شديدة، و دون معاناة القيظ الشديد، و دون التعرض لخطر جسيم، و هذا يعنى أننا قطعنا

نصف الطريق. و كيف سيكون النصف الثانى؟ إن رابغ ضرب من مركز قضاء.

الأبنيـة نسـخة عن بيوت النهوريين عنـدنا. هناك قلعـة فيها حامية تركية و بازار و بساتين شاسـعة من البلح. الماء فى البئر مالح نوعا ما؛ يشربون

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۰۲

ماء المطر من صهريج؛ يبيعون الكثير من الأسماك و الصدف. شاطئ البحر منبسط، متساو؛ الجبال على بعد ۷- ۱۰ فرسخات. هنا تنقسم الطرق. انسبها، «السلطانية»، تنطلق على شاطئ البحر عبر مستور؛ أما فرق و غاير فتنفصلان عنها إلى اليمين. قرر قادتنا اختيار غاير باعتبارها الطريق الأقصر. عادة يتحاشون هـذا الاتجاه بسبب منغصات المعبر عبر غاير. فى هذا الطريق وقعت الهجرة منذ ۱۳۱۵ سنة، و لذا تزداد أهميتها.

إنطلقنا فى الساعة الثانية نهارا. سرنا فى اتجاه الجبال نحو ساعتين، دخلنا الجبال. الطريق حجرى مع ارتفاعات و انحدارات كثيرة و غير كبيرة. فى الساعة ۷، ارتفاع حجرى مزعج جدّا و انحدار صغير شعشعت عند قدمه أنوار الركب الأول. وقفة بدون ماء.

۲ أيار (مايو). يوم السبت. إنطلقنا فى الساعة الواحدة ليلا، و سرعان ما دخلنا فجا مشجرا (بالمفهوم المحلى) غير عريض وصلنا فيه، صعدا على الدوام، حتى غاير تقريبا. الطريق مريح؛ الرمل نادر.

الأشجار كثيرة. حوالى الساعة ۷ صباحا وصلنا إلى الآبار. الماء ليس عذبا تماما. فى نحو الساعة ۱۰ صار القيظ لا يطاق؛ عبت ريح حارقة لم أعرف من قبل نظيرا لها. لففت وجهى بالعباءة، فشعرت ببعض اليسر (بدون كتمة الهواء). حديد السرير فى الخيمة توهج.

إنطلقنا فى الساعة الواحدة نهارا. السير نحو المساء أسهل على كل حال من التمدد فى الخيمة. أنا و أحمد سبقنا ركبنا و سرنا فى طليعة الركب الأول و سرعان ما وصلنا فى الساعة الخامسة و النصف [إلى آبار مبارك] . وجدنا هنا بستانا من أشجار البلح و الماء السائل. جلسنا قرب النبع بفرح انتظار الشاى حين تصل الجمال. كانت خيبة أملنا مرة جدّا حين تبين لنا أن

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۰۳

الماء غير لذيذ إلى حد أن الشاى فقد مذاقه. و نظرا لحالة الماء هذه قررنا مواصلة السر بعد راحة قصيرة.

إنطلقنا فى الساعة ۱۱ مساء. انهكنى الحصان المتهيج، ناهيك بأن سلسلة الشكيمة انقطعت، فأخذ الحصان يندفع، و يرفس، و يعض، و لا يتيح الاقتراب من أحد. أخيرا، تقدمنا كيفما اتفق؛ ركبنا من الحمير و الأحصنة على بعد ۵۰۰ خطوة تقريبا أما الهجائن. و فجأة، حوالى الساعة الثانية ليلا، حين أخذ النعاس يسيطر بقوة، دوت على التوالى بضع طلقات فى الركب الخلفى. قلت فى نفسى: أخيرا وقع تبادل النار.

توقفت، سحبت المسدس، أردت أن أعرف ما سيحصل. و لكن شيئا لم يحصل، اقتربت الهجائن التى انطلقت من موقفها الطلقات، و علمنا انه تراءى لأحد الحجاج أن بدويّا يقتطع من اجربته أشياء، فصاح، فاطلقوا انذارا، و ركضوا إلى الحاج المذنب، و لكن و جدوا كل شىء فى محله.

يبدو أن أسلوب السرقة هذا يمارس هنا على نطاق واسع. يتمدد البدوى على الرمل؛ و حين يقترب الجمل منه، يقفز (الجمال المحلية لا تعرف الخوف اطلاقا)، و يستغل واقع أن راكب الجمل لا يرى ما يجرى تحت الجمل بسبب الاجربة، فيبتر الاجربة و يسحب الأشياء. تبدد النوم، و تمدد الركب و واصل السير على انشاد الحادى.

و دائما كنت أنظر بحسد إلى أصحاب الحمير. يؤجر كل منهم حمارين أو ثلاثة، و يمضى هو نفسه فى المؤخرة على حمار احتياطى؛ و هم دائما مرحون، و دائما يضحكون، جالسين بصورة جانبية على حميرهم، لابسين على الرأس عمامة جميلة، و على الجسم قميصا أزرق طويلا- مزنرا و حسب. و طوال الطريق كله يثرثرون مع رفاقهم بلا- كلل، و غالبا ما يدخنون سيجدارة واحدة معا لكل ۵- ۶ أشخاص. كل منهم شاب ممشوق القامة، رشيق القوام. كثيرون منهم مسلحون بالمسدسات. هذه المرحلة كان مضنية: النهار القائظ

السابق، الماء الردىء، ليل الأرق،-

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۰۴

كل هذا فعل فعله. توعكت بشدة؛ شرب الماء غير المغلى محفوف بالمخاطر. فمى جاف بشكل رهيب.

۳ أيار (مايو). يوم الأحد. فى الساعة السادسة صباحا، وصلنا إلى بئر و توقفنا للاستراحة. توقف الركب الأول قرب بئر أخرى على بعد نحو ۱۰ فرسخات. الماء عذب تقريبا. نحن فى املاك القبيلة الأشد لصوصية و شقاوة بين القبائل العربية- قبيلة Lehaba . و مستور كذلك من أرضها.

جاء متوسلوها و باعتها. عيونهم منفرة جدّا. أخذ صبيانهم يركضون بيننا و ينشلون ما يستطيعون. و قد اختطفوا من فقير سائر معنا مظلة؛ فتش عنها المسكين طويلا إلى أن وجدها. أحدث فى نفسى إنطباعا مرهقا بائع باع أشياء حاج ما من الأكيد انه مقتول؛ فى عداد هذه الأشياء، كان ثوب الأحرام و مسدس و ساعة فضية، و بندقية و البسة كان فى جيوبها أوراق أيضا. سئل البائع عما إذا كان قتل الحاج، فاكتفى بالضحك. لم يعمد أحد إلى شراء هذه الأشياء.

إنطلقنا فى الساعة ۱۲ نهارا؛ و قرب بئر [رصفة]*** حيث توقف الركب الأول، سقينا الخيل و حشدنا الركب كله، و واصلنا السير باحتراس خاص، و كانت لنا طليعة و مؤخرة، و دوريات على الجانبين؛ و كان شيخنا على حصانه حاضرا فى كل مكان، متسلحا ببندقية جاهزة، و هكذا اجتزنا نحو ۵- ۶ فرسخات. بعد أن قطعنا معبرا غير عال عرفنا أن أرض قبيلة لحابه قد انتهت و انتهى خطر السرقة و السلب. و عرفت أنا أن أبناء القبيلة قتلوا فى السنة الماضية فى هذا المعبر اثنين من المدينة المنورة، عندما كان هذان فى طريقهما إلى مكة، و مذ ذاك يوجد دم بين أهل المدينة المنورة و أبناء القبيلة و تحاشى أهل المدينة المنورة تكرار قصة السنة الماضية.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۰۵

نحو الساعة السابعة مساء، رأينا نيران الركب الأول، و لكن تبين أن رجالنا الذين كانوا فى الطليعة قد مضوا إلى أبعد، و تعين علينا أن نمضى ساعة و نصف ساعة أيضا إلى أن توقفنا قرب الماء، فى جوار مرتفع.

۴ أيار (مايو). يوم الأثنين. إنطلقنا فى الساعة الثانية ليلا. بدأ مرتفع حجرى معتدل فى قاع المضيق؛ بعد ساعة و نصف ساعة تقريبا، ازداد المرتفع و عورة و صعوبة، و ازدادت الحجارة حجما. الجميع ترجلوا، و هكذا مشينا ساعة و نصف ساعة، إلى أن بلغنا المعبر. المرتفع ليس صعبا على العموم؛ و إذا قامت أعمال ما، فإنه يصبح صالحا للعربات أيضا. فى أعلى، ساحات افقية كثيرة منظفة من الحجارة، و خزانات لأجل جمع مياه المطر؛ النزول معتدل جدّا، بالكاد نلحظ فجا فى القاع، واسعا، غير عميق، مكسوا [باشواك]*** كبيرة. بعد النزول نحو ۷ فرسخات، توقفنا للاستراحة و أرسلنا لجلب ماء المطر.

رأيت كيف يطعم العرب خرفانهم. تمشى إمرأة حاملة عصا طويلة، وراءها نحو ۳۰ خروفا، تسقط السنفات من الأشجار، فتندفع الخرفان إلى التعامها. الشكوى عامة من غياب المطر فى هذه السنة.

تبرعنا أنا و يرزين بليرة واحدة لشراء الخرفان من أجل الشيخ الفقراء.

فى الساعة الثانية نهارا، استأنفنا السير؛ الطريق تمر باستمرار فى مضيق عريض فيه خمائل. سبقنا أنا و يرزين ركبنا و انضممنا إلى الركب الأول؛ و حين حل الظلام تماما، ارتفعت إشارة إنذار قوى إلى الأمام، و لم أستطع أن أعرف ما إذا كان هذا هجوما أم إنذارا كاذبا. توقفنا فى الساعة الثامنة و النصف مساء.

۵ أيار (مايو)- يوم الثلاثاء. إنطلقنا فى الساعة ۱۲ ليلا. كان من

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۰۶

الصعب جدّا التحرك فى الظلام. فى الساعة ۸ صباحا، وصلنا إلى بساتين متاخمة للمدينة المنورة. بصورة أصيلة [.....]* جدّا، يستحصلون على الماء. ما استخرجه البدوى تسنى للحجاج القادمين و مواشيهم أن يشربوه. ظل الأعرابى يعمل بدون تذمر. حوالى

الساعة ۹ صباحا، توقفنا فى جامع بير على. فى هذا اليوم لا يدخل الحجاج من أهل المدينة المنورة إلى مدينتهم؛ يتوقفون على بعد نحو ۴ فرسخات عنها، حيث يستقبلونهم بالنقل، و يقضون الليل مع أقاربهم فى الخيام؛ و لكننا نحن تعبنا كثيرا جدّا من الطريق، و استأذنا، و أكلنا نحو الساعة ۴ و وصلنا إلى المدينة المنورة فى الساعة ۶ مساء، و نزلنا فى بيت عمر الدليل. المدينة تقع وسط سهل عريض؛ بساتين البلح تنطلق بشكل شعاعى؛ السهل تتخلله التلال؛ المدينة مطوقة بسور حجرى متين مع بوابات محمية. فى أحد أبراج الزاوية توجد بطاريات مدفعية، و فى السهل توجد هنا و هناك نقاط حراسة ترابط فيها عساكر تركية.

دخلنا من البوابة المصرية. فى البدء شارع عريض تنيره المصابيح، ثم بوابة أخرى أمامها بازار و مقهى شاسع. بعد عبور البوابة- شوارع ضيقة مبلطة بصفائح حجرية مرصوفة، و دكاكين مرتبة؛ فى أحد الأزقة الجانبية كان بيت عمر. و أخيرا نحن فى البيت.

أعدوا عشاء و فيرا استغرقنا بعده فى النوم.

۶ أيار (مايو). يوم الأربعاء. فى الصباح الباكر استأجرنا حميرا و رحنا نستقبل رفاقنا. كان الركب قد دخل البوابة الأولى حين انضممنا إليه، و سرنا مع الأغانى و طلقات النار؛ و الصبيان الذين جاؤوا إلى مكة للمرى الأولى كانوا راكبين ظهور المواشى، و فى البسة فاخرة. رحنا رأسا إلى باب السلام حيث تفرق الركب.

رغم قصر المدة، تسنى لى أن اعتاد على الركب، و أن أعرف الكثيرين شخصيّا، بدءا من الشيخ، و أن اقدر تماما بساطة موقفهم منا

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۰۷

نحن الرحالة الغرباء بالنسبة لهم؛ فى الأماكن الخطرة تمتعنا جميعا بعناية خاصة، و كل هذا كان يجرى ببالغ اللطف و التهذيب؛ و فى المدينة المنورة، غالبا ما كنت اتلاقى فى الشوارع مع رفاق قدماء فى الطريق، و احييهم و أرحب بهم بفرح كبير.

اليوم ركعنا أمام قبر النبى؛ الحرم الشريف هنا مبنى حسب أحدث منجزات علم الهندسة، و يحدث انطباعا عميقا. الأضرحة محاطة بشعيرية حديدية كثيفة؛ و المدافن نفسها مغطاة بديباج غال. فى وسط جنينة الحضرة صغيرة، و بقربها بئر فاطمة. الشحاذون الذين يتسللون أثناء الصلاة و يفسدون المزاج يثيرون الملل الرهيب. المدينة تطوق الحرم الشريف لصقا. لأجل النساء مكان خاص مسيج.

۷ أيار (مايو). زارنا كثيرون من مواطنينا؛ و عددهم مع طالبى العلم هنا حوالى ۱۰۰ شخص. بعض منهم شيوخ جاؤوا يموتون هنا؛ و آخرون هاجروا إلى هنا لظروف معيشية مختلفة، قسم منهم يتعلم، قسم آخر يتاجر. من المؤسف جدّا انه يصعب على أولادهم أن يتأقلموا هنا؛ كثيرون يموتون.

اليوم تناولنا الغداء عند مواطننا من محافظة بنزا، عريف. البيت مفروش بنظافة؛ الطعام قومى. من المؤسف أيضا أن مواطنينا يشكلون معسكرين و يتعادون بلا هوادة.

۸ أيار (مايو). يوم الجمعة. اليوم شاهدت مع رشيد أفندى مدرسة قازان الدينية المبنية حديثا وزرنا [.....]* التعليمى. للمدرسة حوش صغير جدّا، حجراته فى طابقين؛ أعتقد أن الجو فيها حار جدّا.

المسجد غير كبير؛ هناك بيوت لأجل الشيخ، و المدرّس، و الإمام، و الناظر، و خلافهم- و هى بيوت الأوقاف؛ و الدخل منها ينبغى انفاقه فى صالح المدرسة الدينية؛ و هناك مكتبة غير كبيرة. كل شىء يبدو جديدا، و نظيفا جدّا. مواطنى متأدبون و مجاملون جدّا معى.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۰۸

أثناء صلاة الجمعة، تستلفت الخطبة الإنتباه. الخطيب يخاطب المصلين، يتصرف بكل طلاقة و يلقى موعظة. أنها خطبة حقا!

اليوم، قبيل المساء، زرنا مدرسة دينية معروفة، واسعة الشعبية بين مواطنينا. السيد على ناظر المدرسة. و هو رجل كهل، ذو وجه ذكى و طرائق كطرائق المثقفين. كان خارق اللطف، و تذكر وطننا بكلمات طيبة؛ فقد زاره منذ أربع سنوات، و استقبلوه هناك بكل إحترام و إجلال.

۹ أيار (مايو). يوم السبت. اليوم الأول من شهر محرّم. اليوم صباحا رحنا نركع أمام مختلف النصب فى مسجد القبة. هنا يوجد المكان الذى توقف فيه جمل النبى لدى وصوله للمرة الأولى إلى المدينة المنورة، المكان الذى رأى منه مكة، غير ذلك.

جاء ملّا نعمان و جلب مؤلفه.

مساء زرنا مواطننا، الطبيب فى مستشفى الأوقاف المحلى، عطا للّه أفندى. إنه من أهل قازان، هاجر صبيا، و تخرج من مدرسة طبية تركية.

عمره الآن حوالى ۵۰ سنة. يتسع المستشفى ل ۱۵ (حتى ۳۰) شخصا، و هو وقف من والدة السلطان عبد المجيد. وعد بعرضه علىّ. و فضلا عن ذلك يوجد هنا ما يسمى بمحجر صحى يعمل فيه على الدوام طبيب واحد. المحجر الصحى يمكن أن يتحول مؤقتا إلى مستشفى يفتح أبوابه إذا نشب و باء. و مع الطبيب يوجد صيدلى مناوب.

منذ الصباح رحنا اليوم نحو ۵ فرستات إلى قبر حمزة؛ و هو من أنصار النبى، و قد لقى مصرعه فى هذا المكان حين شن المكيون الكفار هجوما. هنا بقينا إلى المساء فى ضيافة عمر الذى هو هنا فى قوام الركب القديم منذ أمس. عدنا فى ساعة متأخرة.

۱۱ أيار (مايو). نهارا تناولنا الغداء عند السيد على. الغداء فاخر، من مآكلنا القومية. رب البيت لا يجلس معنا؛ و هذا من قواعد الآداب

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۰۹

العربية. يرافقنا إلى البوابة. البيت الذى يشغله، كما يقولون، من خيرة البيوت؛ هنا تغدينا فى حجرة السرداب؛ الجو هنا بارد جدّا بالفعل. فى كل مكان نظافة خارقة. يبنى بالتبرعات مدرسة دينية قرب الحرم الشريف بالذات.

قبيل المساء زرنا المقبرة المحلية «جنّة الباقى». هنا رفات عثمان و كثيرين من أنصار النبى الآخرين. المقبرة غير كبيرة، زهاء ۴ ديسياتينات ، يدفنون فى القبور القديمة.

بعد صلاة الختام زرنا مواطننا صالح بيغايف؛ و هو رجل لطيف جدّا، أسطى فى جميع المهن. يصلح الساعات و ماكنات الخياطة،- و هى كثيرة جدّا هنا- يصنع الصابون، غير ذلك. يعيش فى بيت يخصه.

ليساعده الرب!

۱۲ أيار (مايو). يوم الثلاثاء. فى الصباح زرنا على بعد ۶- ۷ فرستات مسجد القبلتين و مسجدا آخر بنيا حيث كانت خيام النبى و الائمة. رحنا لتناول الغداء بدعوة من عز الدين أفندى. عاش زمنا طويلا فى ستيرليتامك. و الآن يشرف هنا على تكيات الأوقاف. و على العموم توجد هنا ۶ أو ۷ تكيات تترية للأوقاف؛ و جميع التكيات التى رأيتها صغيرة جدّا.

۱۳ أيار (مايو). اليوم تستحيل معرفة المدينة. فى الشوارع جموع كبيرة من الناس. على الأغلب من المصريين و من العرب الأفارقة؛ و جموع من التجار الجدد فى الحرم الشريف. الضيق. أمس مساء وصلت ۳ قوافل من مكة. الساحة أمام [.....]* البوابة مليئة بالشقادف و الجمال. القوافل سارت مدة ۱۴ يوما. وصلت بسلامة. يقولون أن ۱۵

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۱۰

قرغيزيا وصلوا، بينهم ۳ مرضى. قبيل المساء زرنا قبر والد النبى و بضعة جوامع قديمة.

عند العودة، رأينا سرابا من الجراد تطير فى الجو فى اتجاهات مختلفة و بأعداد هائلة. عرفت أن العرب يأكلون الجراد و يعتبرونه مأكلا لذيذا. فى المدينة المنورة عدد كبير جدّا من القادمين من مختلف القوميات، و بخاصة من السرت ؛ و يقولون أن هؤلاء زحزحوا جزئيًا العبيد كخدم.

۱۴ أيار (مايو). يوم الخميس. اليوم صباحا جاء رشيد أفندى.

تحدثت معه زمنا طويلا عن العرب. حسب مراقباته خلال سنوات عديدة، يندثر العرب، و يفسر ذلك جزئيًا بالسيادة التركية. يرى التجديد فى نزوح البدو إلى المدن. سلطة الشريف دينية، روحية، و جزئيًا الوساطة بين القبائل.

رحنا معا إلى مكتبة شيخ الإسلام التابعة للأوقاف. تشغل المكتبة عمارة ممتازة لمدرسة جيدة، سجاجيد غالية؛ مناضد مريحة. فرش رخوة لأجل الجلوس. فى أعلى العمارة شقة لأجل المدير. يوضح الكاتالوج بصورة جيدة جدّا. على العموم يوجد حوالى ۷۰۰۰ مجدل.

و هناك نسخ نادرة جدّا، بينها تفسير كشاف. الدخول حر و مجانى للجميع. و من هنا عرّجنا على مكتبة مدرسة محمود الدينية. الوضع نفسه. الكاتالوج حسب النظام القديم، و لكن سرعان ما وجد المدير الكتاب الضرورى لنا. تطل نوافذ المكتبة على الحرم الشريف.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۱۱

زرت مدرسة الشفاء الدينية التابعة للأوقاف و التى تبرع ببنائها اتراك من القسطنطينية؛ التلامذة يتقاضون مجيدية واحدة فى الشهر و مؤونة بالمبلغ نفسه تقريبا. هناك بالإجمال ۱۲ غرفة؛ فى الوسط جنينة؛ طابق واحد.

عدد جميع تلامذتنا فى المدارس الدينية التى لا تخصنا حوالى ۲۰، و العدد نفسه فى مدرسة قازان الدينية، حيث يوجد متسع لاربعين تلميذا.

جميع الحموديين- الحميديين يتقاضى الواحد منهم ليرة واحدة فى الشهر. منزل ضياء الذى زرته فى الشفاء ماثث بشكل مريح و مناسب جدّا، و نظيف و أنيق. قبيل المساء، رحت مع حارث إلى مقهى فيما وراء البوابة الأولى حيث تلاقيت مع بعض من مواطنينا. الساحة ملأى بالجمال و الشقاديف. فى كل مكان يتحرك الباعة ذهابا و إيابا بسرعة، صائحين بأسعار البضائع التى يريدون بيعها. و علمت أنهم يصيحون بأعلى سعر من بيع الأسعار التى يعرضها أحد ما. الشارى يزيد، البائع يمضى إلى أبعد؛ و إذا لم يعرض أحد سعرا أعلى، فإنه يبيع من الشارى الأول.

و هذا اشبه بمزاد علنى. رووا لى قصة محزنة مع الإشارة إلى أحد البيوت الكبيرة. صاحبه السيد قتله البدو بالسيف عندما كان فى البستان بجوار المدينة؛ بقيت ابنته الوحيدة، و أعلنت أنها ستتزوج ممن ينتقم لها لدم والدها. تواجد فتى شجاع، و قتل أحد المذنبين و تزوج من الفتاة، و لكنه سرعان ما جن و مات لخوفه الدائم من الانتقام. أثناء صلاة الختام بحثت مع يرزين مسألة الرحيل. قررنا أن ننتظر القافلة الثانية. المصريون ينطلقون غدا مساء. نحو الساعة ۹ مساء رحت مع عبد الملك إلى اجتماع دراويش الرفاعى، و لكن موسيقاهم التى لا- تطاق و التى تتألف من دفوف كبيرة أجبرتنا على الفرار فى الساعة العاشرة و النصف. عرضوا علينا جامعهم و الأدوات التى يضربون بها أنفسهم. يقولون أن هذا يجرى صباحا. إبراهيم أفندى، معاون الشيخ، الشيخ فى القسطنطينية موقتا.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۱۲

بعد صلاة الختام جاءنى بضعة شكيريين و على رأسهم عز الدين أفندى.

دار حديث شيق جدّا عن واجب الهجرة. عز الدين أفندى نصير عاقل و رزين جدّا لهذه الفكرة؛ قال انه راجع لحل هذه المسألة مفتيا مشهورا فأعرب هذا عن رأيه و أصدر فتوى سلبية المآل [.....]** بشكل قسرى عندها. لم يجد عز الدين أفندى أى أمر سيء فى عمليات مسلمينا فى الحرب ضد مسلمين آخرين. مسألة طريفة جدّا .

۱۵ أيار (مايو). منذ بضعة أيام نعتزم أنا و رشيد أفندى زيارة التكية المصرية حيث يوزعون الطعام مجانا على الحجاج الفقراء. و اليوم أيضا لم نصل إذ علقنا فى مدرسة قازان الدينية عند رشيد الشكيردى. و من جديد اقتنع بانه لا بدّ من أن يكون الجو حارا للغاية فى الحجيرات. غرفة رشيد مفروشة بغنى نسبى: كثرة من الكتب، مفروشات لا بأس بها.

تحدثت مع ظريف حلفا عن النسبة الكبيرة من الوفيات بين أولاد مهاجرينا، و تبين أن التلقيح ضد الجدرى غير وارد، فى حين يموت من هذا المرض كثيرون. حكوا بمزيد من التفصيل عن إيقاف قافلة فى السنة الماضية، مؤلفة من ۳۵ جملا، فى غضون ۴۵ يوما، من قبل البدو فى جوار مستور. و عن القول المأثور- من جهة دينغيز، من جهة أخرى دونغوز ، لأن البدو يصطادون و [.....]* لقاء ۵ ليرات.

۱۶ أيار (مايو). يوم السبت. اليوم روى عبد الرشيد أفندى تفاصيل

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۱۳

عن الحجر الصحى فى السنة الماضية فى الطور. أنزلوا خلال ۱۲ يوما، و لكن هذه الأيام لم تدخل فى حساب الأيام ال ۱۵ من الحجر الصحى.

الطعام الردىء؛ المحلة مرعبة؛ حريق الأمتعة بدون تعويض؛ الألبسة القذرة عند تعقيم البسة الشخص المعنى؛ لا عقلانية الحجر الصحى التامة؛ إمكانية التمرير.

أفادوا التفاصيل عن الهجوم على [.....]*؛ وقع فعلا، و لكن انتهى بكامل السلامة بالنسبة للاتراك؛ من البدو لقى واحد مصرعه.

اليوم، بعد الظهر، اختفى المصريون؛ فإن قافلتهم انطلقت؛ و امتلأت المدينة المنورة بالسوريين. وصل [.....]* مع القافلة.

غدا يجب ادخال المحمل فى الحرم الشريف.

بقدر ما اسمع من الأحاديث، بقدر ما ازداد احتراما لعثمان باشا من أبناء المدينة. هذا الرجل الجدير و الشخصية البارزة كان الجميع يحبونه و يحترمونه و يخافونه بالقدر نفسه. و قد رغبت شديد الرغبة فى الأعراب له عن تقديرى فى القسطنطينية.

تتوارد عن الحجر الصحى معلومات فى غاية التباين- معلومات جميعها ذات طابع أكثر مدعاة للهدوء- أقل من ۲۴ ساعة بالاجمال.

اليوم وصلت قافلة كبيرة جدّا من الشرق موسوقة بالحبوب و السمنة.

سعر السمنة هبط حتى ۵ روبلات للبود . أحيانا يبلغ سعره ثلاثة أضعاف. السمنة، كما يقولون، نقية جدّا؛ لتنقيتها، كما يقولون، يضعون بضع حبات من البلح. بعد صلاة الختام رحنا نحتسى الشاى و نتحادث مع عز الدين و ضياء.

و عدت ضياء باستعلام قضيته و الكتابة بصددها. كلاهما لطيف.

عموما يجب الأعتراف بسمات لطيفة مشتركة بين جميع التلامذة-

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۱۴

المودة، التهذيب، البشاشة، غياب التعصب الأعمى. يتحدثون عن تحريض الإنجليز اليمنيين ضد حكومتهم الشرعية، يقولون أن الإنجليز يبيعون بأسعار بخسة جدّا بنادق سريعة الطلقات. هنا الجميع يكرهون أبناء البيون (إنجلترا) و أعتقد أن السبب هو مصر. و حالة المحمل البائسة ينسبونها أيضا إلى الإنجليز. يسترعى نمو المدينة الكبير فى الآونة الأخيرة الإنتباه؛ الأمكنة يتسابقون على شرائها؛ و هناك إنشاءات كثيرة بادئة؛ البيوت غلا سعرها؛ ينسبون هذا إلى تدفق الناس من بلدان أخرى، و يعتبرونه (دليلا على) اقتراب نهاية الدنيا. و هناك حكاية طريفة عن أحد ائمة مكة- عن [...]* آخون دجان. هذا الرجل الفاضل سمع بظهور المهدى فى السودان فطلق زوجته و راح إلى السودان، رغم تقدمه فى السن، ليعرف ما إذا كان هو المهدى فعلا. عاد بعد ۵ سنوات على اقتناع بأن الرجل ليس المهدى الحقيقى، بل قديس. سمعت نكتة. فى القسطنطينية، أثناء صلاة الجمعة، صاح أحدهم انه المهدى المنتظر، فاعتقلوه و أوصلوه إلى القاضى؛ سأله القاضى عما تعنيه صيحاته و كيف يتظاهر بأنه المهدى، أجاب: أمكتوب فى كتبكم انه سيظهر، قبل المهدى الحقيقى، بضعة مهديين كاذبين. «اجل، ورد هذا فى الكتاب». أنا أحد هؤلاء المهديين الكاذبين. ذلك كان الجواب.

۱۷ أيار (مايو). يوم الأحد. اليوم وصلت أخيرا القافلة من مكة، و وصل أيضا مواطنونا. بقيت القافلة فى الطريق ۱۶ يوما و وصلت فى الطريق الفرعى. فى وادى فاطمة دفنوا الحاج صابر من قازان، و دفنوا ۳ قرغيزيين، و جميعهم غادروا مكة مرضى. وقعت قرابة عشر حالات نهب قام بها البدو ببث الذعر فى نفوس الحجاج؛ و فى إحدى الحالات جن أحد المنكودين. نقلوا إلى هنا قرغيزيا مصابا بمرض خطير جدّا، فهل أبناء سهوبنا المساكين هؤلاء مصابون بالتيفوس؟! و لا داعى إلى التحدث عن كمية الأشياء الضائعة.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۱۵

فى شوارع المدينة، و فى الحرم الشريف ضيق رهيب؛ يستحيل المرور، و الغبار كثير جدّا. هناك نقلوا اليوم المحمل صباحا إلى الحرم

الشريف و نصبوه بمصاحبة طلقات المدافع تحت صف الأعمدة.

اليوم زرنا مدرسة قورّا- باش الدينية و يسمونها قره باش. أردت أن أرى فخر الإسلام، و لكننا لم نجده، ثم رحت إلى صاحبنا ظريف من ستيرليتاماك. الغرفة رحبة نسبيّا؛ للطعام يعتمدون مجيدية واحدة، و المبلغ نفسه تقريبا للقمح. فى طريق العودة رأيت أيضا فناء خاصا يكدسون فيه القمح المعد للتوزيع. كثيرون يفضلون الحصول عليه فى ينبع، لأن كلفة النقل على حساب الحاصل. فى قره باش يعيش أيضا شيخ من ستيرليتاماك أواخر أيامه. البيت يتسع ل ۲۵ شخصا، و هو من طابقين.

و كما فى جميع المدارس الدينية، يأخذون النزلاء فى المدارس المحلية، لا من عداد الشبان التلامذة و حسب، بل أيضا من عداد الشيوخ الذين يتوافدون إلى هنا لقضاء أواخر أيامهم. و هم يستفيدون أيضا من الإعانة المقررة. لأن هدف المدارس الدينية هو الصلاة فى صالح واهب الوقف. الجميع ينتظرون باهتمام خارق الأنباء عن الحجر الصحى، عن حالة الطرق فى ينبع.

۱۸ أيار (مايو). يوم الأثنين. مع قافلة البارحة، وصل حوالى ۶۰ قرغيزيا و حوالى ۲۵ تتريا، بينهم ۴ من بطرسبورغ (بينهم سيدة). الجميع منهوكون للغاية، بطون جميعهم [...]*، بذعر يحكون عن الطريق.

مسيرتنا كانت سهلة و آمنة جدّا و سريعة و رخيصة بالمقارنة مع مسيرتهم.

دفع كل منهم لقاء الجمل مع البخشيش زهاء ۸ ليرات. الجميع يتشكون من صفاقة سواقى الجمال و نحول الجمال فى هذه السنة.

بعد الظهر، تناولنا الغداء عند دليلنا عمر؛ فى المساء، بعد صلاة الختام زرنا بيغايف؛ حل عنده ضيفا مجاور شرف الدين [.....]***

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۱۶

من مكة؛ تقابلت مع المدعو مرزا، و هو أيضا عبد اللّه، الفار؛ أضجرنى بقصصه السخيفة- كيف كاد يحمل نائبا لاسقف أرثودكسى على أعتناق الإسلام؛ و القسيس افتدى نفسه بالنقود؛ و خلاف ذلك من السخافات.

وجدت فى البيت أحد مهاجرينا الشبان، المدعو مصطفى. جاء إلى مكة مع والده و أمه و أخيه؛ بعد فترة و جيزة حل وباء الكوليرا، فقد اخاه، انتقلوا إلى المدينة؛ بسبب الفقر سافر الوالد إلى روسيا سعيا وراء البلدل؛ بعد بضعة أيام ماتت الوالدة؛ بقى الصبى وحده فى مدينة غريبة، دون أن يكون له أحد. بعد مجاعة طويلة، ساعده أحد المواطنين. الآن يملك دكانا، يطعم الوالد و زوجة الوالد؛ تزوج. الوالد كان عريفا فى فصيل تشيستوبول المحلى، و كان أيضا مدير مزرعة. الآن يخدم و يقود مواطنيه الحجاج.

عاد الوالد و الابن من مكة مع قافلة البارحة. النسبة الكبيرة من الإصابات بالإمراض بين القرغيز يعزوها مصطفى إلى مآكلهم غير العقلانية (المآكل المدهنة، الكازى، الكروت) و البخل الخارق أى حرمان النفس من الضرورى.

يحكون عن عمليات النهب و السرقة التى يقوم بها البدو فى رابغ فى وضح النهار. تقدم قرغيزى بشكوى ضد سائق جمل من المسؤول فى رابغ، و لكن عبثا؛ و أثناء التحقيق، باع لص شهير من المسؤول الأشياء المسروقة بواحد من عشرين من ثمنها.

ما أروع ما يحبون الأبقار و المواعز المحلية المتواجدة بكثرة فى الساحة بين [.....]***.

ما أن يخف [القيظ] حتى يتدفق جميع السكان الرجال إلى هنا و يقضون الوقت حتى ساعة متأخرة من المساء. و هنا يعرفون جميع الأخبار. أدلتنا قضوا هنا أياما بكاملها. يقدمون القهوة فى فناجين صغيرة، و الشاى فى كؤوس صغيرة (الشاى الأسود و الشاى الأخضر

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۱۷

و كذلك النرجيلة حتما). يرشون الماء فى كل مكان، و لذا تسود البرودة.

يروى قدماء السكان أن إحتساء الشاى لم ينتشر إلا فى الآونة الأخيرة.

و غالبا ما أخذت تقع العين عن العرب على السماورات الروسية و آنية الشاى الروسية التى يستعملونها على الأغلب لتزيين الرفوف فى تجاويف الغرف. رأيت سماورات جيدة جدّا مطلية بالنيكل. روى أحدهم انه عندما كان يتعلم هنا منذ ۱۸ سنة، كانت السماورات معدودة- ۶ سماورات، و آنذاك، كان الضيف العربى، إذا عرضوا عليه كأسا من الشاى، لا يشربها إلى النهاية، و يؤكد أن بطنه انتفخ

من الشاى؛ أما الآن فيشربون الشاى على طريقتنا تماما و يحبون شاى موسكو. و حين تعرض الشاى، غالبا ما يسألونك عن نوعه، و يقبلون الدعوة بفرح حين يكون الشاى روسيا. عدا الشاى و الآونية و الكاز، لم ار أى شىء روسى.

۱۹ أيار (مايو). يوم الثلاثاء. السريان اليومى و قضاء الوقت دخلا نوعا ما فى مجرى معين.

أعيش كما من قبل عند الدليل شاغلا غرفة غير كبيرة فى الطابق الثانى؛ الغرفة السفلى- الأنبوب يشغلها يرزين. هربت من هناك. هناك رائحة قوية من المرحاض. النافذة- الشرفة تطل على زقاق ضيق جدّا فيه حركة كبيرة، و لذا يكون الغبار شديدا فى النهار، خصوصا و أن الزقاق مغلق قرب البيت بالذات و أن المدخل بصورة البوابة فى أسفل فقط.

الحرارة صباحا ۲۲- ۲۳ درجة ريومور؛ أقصى الحرارة ۲۶- ۲۷ درجة؛ و أكثر من ذلك لم ترتفع. حارث رفيقى و خادمى الدائم؛ و قد تكشفت عنده موهبة كبيرة؛ فهو يجيد تقليد كثيرين من الناس.

أثناء صلاة الفجر العامة (فى الساعة الرابعة صباحا) فى الحرم الشريف، نقترف خطيئة النوم (لأن هذا أفضل و أبرد وقت). أوقظ حارث فى الساعة الخامسة إلا ربعا أو فى الساعة الخامسة، و نتوضأ و نصلى.

بعد الصلاة أغفو ساعة أيضا، بينما يغلى حارث الحليب و يهيئ السماور.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۱۸

فى الساعة السادسة نشرب الشاى. (بصعوبة وجدنا الشاى الروسى و اشترينا رطلين من أحد المواطنين). بعد الشاى أعمل عادة، و يهتم حارث بالشؤون المنزلية. عند الظهر، بعد الصلاة نلتهم الغداء الذى حضّره حارث و الذى يتألف عادة من مأكل واحد- الحساء. بعد الغداء، الراحة حتى الساعة الثالثة، ثم الشاى، و بعده نخرج من البيت لنجلس فى المقهى. يتجمع ۵- ۶ أشخاص من مواطنينا الذين نعرفهم و من العرب، و نشرب القهوة، و أدفع ثمنها قرشا واحدا (۸ كوبيكات) و يعطوننى على سبيل الردة بضع قطع نقدية معدنية محلية.

لا أستطيع بعد أن اعتاد على شرب القهوة المحلية؛ أتنازل عن فنجانى لشخص آخر؛ الجمع المتنوع هو أكثر ما يهمنى. فيه تقع العين على مسلمين من شتى أنحاء الدنيا، و بينهم يتميز، بلا ريب، بأكبر قدر من الذكاء، العرب «البديون»، سواء من حيث مظهرهم و البستهم أم من حيث أدبهم و مجاملتهم.

البدو فى قمصان مقلمة سوداء (عباءات)، مدججون بالسلاح؛ على رؤوسهم المناديل (العقالات)؛ حفاة [....]*** يمشون مشية خفيفة خاصة. جميعهم بلون ضارب إلى البنى، بلون الحجر المحلى؛ وجوههم صغيرة؛ عيونهم حية جدّا؛ الجميع سمر؛ الشعر قليل. كثيرون من الزنوج ممن كانوا أو لا يزالون عبيدا للبدو، يرتدون البسة البدو. شيوخ البدو، و الملتزمون بتقديم الجمال لأجل الحج يجلسون بمهابة فى المقاهى. اليوم يوجد أيضا عدد كبير من السوريين- و هم شعب طويل القامة فى عباءات مقلمة و مناديل سوداء (عقالات) على الرأس، ملفوفة فى لفتين صوفيتين يوداوين؛ و قسم منهم شقر. و منهم يتألف خفر المحمل الشامى. الخفر من الفرسان. قرابة ۵۰۰ رجل على الخيل.

و هم حسنو السلاح و الألبسة.

و هناك أيضا مصريون متأخرون (أى تأخروا على رفاقهم فى الطريق)

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۱۹

مع نسائهم. و جميعهم خرق، طويلو القامة، نحيلون، فى شملات سوداء طويلة من قماش خفيف. على وجوه الرجال و النساء و فرة من الوشم.

و هناك ماليزيون سبق أن كتبت عنهم.

و هناك عدد كبير من الأتراك، أغلبهم من أبناء الأناضول. و هم جميلون، طويلو القامة، ذوو البسة أنيقة ظريفة.

و هناك أيضا كثيرون من الفرس. و هم بمعظمهم يعودون من هنا عبر السهب إلى البصرة و كربلاء. ينقلهم بدو تلك الإنحاء، الذين هم أيضا من الشيعة. يروون أنه توجد بين الفرس إمرأة فائقة الغنى يتبعها ۴۰۰ جمل موسوق بشتى الأشياء بينها ۷۵ جملا موسوقا بالفحم لأجل السماورات و النارجيلات. الفرس من الشيعة يشتركون فى الصلاة العمومية فى الحرم الشريف، سائرين وراء الإمام، و لكن يقولون أنهم غالبا ما يهينون القبرين المقدسين لخليفتينا الأولين أبى بكر و عمر، تاركين قربهما الأقذار، و يبصقون فى ثغرات الأبواب. و إذا رأوهم فى الجرم المشهود ضربوهم. و إليهم يوجهون تهمة تدنيس الحجر الأسود و ركن اليمن. و على كل حال، يشيح الشيعة بوجوههم أثناء الطواف عن هذه الأشياء التى يجلها السنيون. و عندهم أدلتهم و تكياتهم و نظامهم، و خلاف ذلك.

لقرغيزيينا، لسبب ما، اتعس هيئة. الضيق الرهيب، و الأزدحام.

و الضجة، و الغوغاء، و اللغة المجهولة، و الحرارة غير المألوفة- كل هذا يفعل فعله فيهم بلا ريب بشكل مرهق. بدانتهم زالت؛ منظرهم منقبض، كئيب. و عدد أبناء الهند و جنوب افريقيا و زنجبار و السرت و افغانستان و قشغار قليل جدّا. لا تقع العين البتة على صنيين. نحو صلاة الختام نذهب إلى الحرم الشريف، و بعد الصلاة نعود إلى البيت حيث يعمد حارث إلى تحضير سماورنا الضخم الذى يتسع لماء أربعة دلاء. يتجمع

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۲۰

لشرب الشاى بضعة أفراد فقط، أغلبهم من التلامذة المحليين. و هم شعب لطيف جدّا و مرح. ثم نذهب جميعنا معا إلى الحرم الشريف لصلاة المساء؛ و من هناك يمضى الشكيرديون إلى بيوتهم لأن الباب يغلق عندهم فى الساعة ۹ مساء، و ليس من اللائق طرق الباب. يختل هذا النظام بسبب الدعوات الموجهة إلينا لتناول الغداء أو لإحتساء الشاى فى مكان ما.

اليوم، بعد صلاة الختام، رحنا أنا و رشيد القاضى إلى بيت مثقف محلى. و هو البيت الثانى الذى يرضى بالظروف الصحية الخارجية حتى فى كاتشا (عال، و نظيف جدّا)، يخلو من كل رائحة (فى البيت الأول يعيش السيد على تكير). ظهر سماور روسى صغير و الشاى و كؤوس صغيرة. بصعوبة شربت كأسا. حكى رشيد القاضى بكآبة عن فشله فى عقد الصلح بين معسكرين معاديين من مواطنينا؛ ثم أقام حفلة غداء مع تلاوة «المولود النبوى» و دعا الجانبين. و لكن الجانب الأقوى الذى قبض على زمام السلطة (عبد الستار) رفض أن يحضر الغداء إذا حضره الخصوم. هذا سيء جدّا. و هذه سمتنا القومية المزمنة.

المدينة و ضواحيها يديرها ممثل خاص للحكومة التركية، هو العامل؛ و هذا المنصب يشغله الآن عثمان برتبة لا تقل عن رتبة جنرال؛ و هو شركسى الأصل. غالبا ما أرى كيف يعود فى الساعة الخامسة مساء برفقة خفره فى عربة من مبنى الإدارة إلى شقته. و بين الشخصيات الكبيرة الأخرى تستلفت الإنتباه شخصية غازى باشا، ابن شميل ؛ و يقولون انه هنا بسبب النفى؛ و هو حمو عامل المدينة؛ و يقولون انه يتقاضى ۱۲۰ ليرة

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۲۱

كل شهر على سبيل المعاش، و ينفق الكثير على أعمال الخير. و هناك أيضا أخوه سازى باشا، و هو شاب نسبيّا. فى الظاهر لا يوجد أحد تعتمد عليه السلطة، رغم أنى رأيت مرة واحدة موظفا بوليسيّا يسير فى الشارع.

فى الأيام الأخيرة- حرس عسكرى موقت فى الساحة. أعتاد الشعب على مراعاة النظام بنفسه-.

بين الأشخاص ذوى الألقاب شبه الدينية، شيخ الحرم، المشرف على الحرم المحلى؛ و هو ضابط تركى سابق، اشترك فى الحرب الأخيرة ضد الروس، و كان مع عثمان باشا فى الأسر.

أمس، بعد صلاة الختام زرنا أحد مواطنينا، و اسمه شريب. منذ ۱۶ سنة غادر مسقط رأسه مدينة ترويتسك (محافظة أورنبورغ)، بسبب تولعه فى الأسفار، و راح إلى تركستان، و كان فى الصين و افغانستان و الهند. و ذهب إلى مكة المكرّمة عبر بومباى، و منها إلى المدينة المنورة، حيث استقر و تزوج من أرملة عجوز تركية استثار عشقها، كما يقولون، مازحا، بأغانيه (يغنى ببراعة)، و أخذ بفضل

هـذا الزواج بيتا و عبدة؛ و الآن يعيش بيسر، مشتغلا بلا كلل على آلة. زار مكة ۶ مرات، علما بأن وباء الكوليرا لم يكن منتشرا مرتين فقط. تذكر وقائع فظيعة.

يتبين من مراقباته التى تؤكدها أفادات أشخاص آخرين أيضا، أن كل شيء ينتهى بسلامة إذا كان الطقس فى منى صحوا فى أيام تجمع الحجاج هناك، و أن المصائب تقع إذا تعتم الجو نوعا ما بسبب الغيوم و إذا أخذت السماء ترذ. ذات مرة، نشب الكوليرا فى القافلة التى كان ينطلق معها من هنا إلى المدينة المنورة؛ وصلوا إلى مكة و سمحوا لهم بدخولها بدون عائق، و لم يسمحوا للحجاج بدخول المدينة إلا للركوع أمام القبر المقدس؛ و بعد يوم انطلقت القافلة فى اتجاه ينبع. كانت نسبة الإصابات بالمرض رهيبة.

لم يستطع أن يتذكر السنوات جيدا. و هناك واقع غريب آخر من

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۲۲

ميدان آخر. هنا يوجد كثيرون من الخصيان المنفيين من قصر السلطان و العائشين هنا بمعاش يكون أحيانا، كما يقولون، كبيرا جدّا، مثلا، ۳۰ ليرة. و تبين أن كثيرين منهم يتزوجون؛ و ظننت أنهم يفعلون ذلك لأجل الخدمات البيتية فقط. و لكن كلا، فلهذا الغرض توجد عبدات؛ أما الزوجات فلا يفعلن شيئا غير ارتداء و تغيير الملابس الفاخرة. و لم يحدث مرة، كما يقولون، أن تذمرت إمرأة تزوجت من مخصى من مصيرها و رغبت فى الطلاق.

النساء، كما سبق أن قلت، يتمتعن هنا بقدر من الحرية أكبر بكثير مما عندنا، نحن التتر؛ و هن يشتركن فى الصلاة فى الجوامع، و يتاجرن بحرية، و يقمن بأمور أخرى، و يتخطرن من زيارة، و غير ذلك، النقل الأول للضيفة القادمة هو النارجيلة التى يدخنها الجميع بلا استثناء ثم فنجان القهوة.

تحادثت مع عز الدين أفندى عن مهاجرينا المحليين. يستفاد من أقواله أن الذنب الرئيسى الذى اقترفه اتباع عبد الستار انما هو استملاك أموال المواطنين الذين يموتون هنا و اهمال مشيئتهم الأخيرة. الأموال أمّا لا يعرضونها البتة على السلطات التركية، و أما لا يعرضون غير قسم منها يطلبونه بالحاح من الورثة فى صالحهم؛ و الوصايا لا تنفّذ؛ و قد روى حارث أن تلميذا قرغيزيا قد أوصى قبل وفاته بما يملكه [...]* فى صالح رفاقه الشكيرديين و لكن هؤلاء، و كان بينهم آنذاك حارث، لم يحصلوا على شيء. و بالروح نفسه يحكى كثيرون جدّا عن مسلك عبد الستار و ناظره، فلا بد من التصديق سواء شاء المرء أم أبى. و لكن هذا الرجل يحظى بمكانة كبيرة عندنا فى روسيا. فى السنة الأخيرة خاف أن يذهب بنفسه لجمع النقود فأرسل حسين الملّا و عبد الرحمن الشيخ و صدّيق الناظر.

۲۱ أيار (مايو). يوم الخميس. اليوم، مات عدد كبير جدّا من الناس. المدينة المنورة منفعلة لموت المدرّس المعروف عبد النذير الذى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۲۳

توفى فجأة؛ و مات قرغيزى بارز من مقاطعة سيميبالاتينسك، كان نائبا فى حفلة التتويج، و مزينا بالأوسمة، رجلا محترما و فاضلا. مرض فى مكة، نقلوه إلى هنا مريضا؛ فى الطريق التى استغرقت ۱۶ يوما لم يأكل شيئا؛ و أخيرا توفى هنا. و من عداد الذين مرضوا فى مكة، توفى فى الطريق فرغيزيان و تترى من قازان. كذلك دفنوا أربعة جنود.

هنا تقع العين على كثرة كثيرة من البنادق التى تشحن من مؤخرة السبطانة، و مزلاجها يشبه مزلاج بنادقنا القصيرة من طراز بردان رقم ۲؛ و هى من العيار نفسه تقريبا. يقولون أن الجيش اليونانى كان مسلحا بهذه البنادق.

جميع البدو مسلحون حصرا بأسلحة قديمة؛ أما سكان المدن فعندهم أسلحة كثيرة من أنظمة محسنة؛ و هذه الأسلحة يستعملونها أحيانا لأجل إجراءات القمع. يروون أن عبدة قتلت سيدتها منذ عشر سنوات تقريبا. فحكمت المحكمة التركية عليها بالأشغال الشاقة لمدة ۱۵ سنة؛ و لكن السكان طالبوا شاهرى السلاح باعتدامها؛ و كاد يحدث اصطدام بين العساكر و السكان؛ و اضطرت السلطات إلى التنازل، و أعدموا المجرمة علنا، أمام الملأ.

۲۱ أيار (مايو). اليوم تدور جميع الأحاديث حول الرحيل، و لكن القوافل لا ترتحل بعد، بانتظار الأخبار من ينبع: أيسمح البدو للقوافل

بالعبور أم يمنعونها عند عبور مضايق الجديدة؟ لتأمين الحجاج نوعا ما، تأخذ السلطات التركية من كل قبيلة رهائن و تحتفظ بهم فى السجن حتى لحظة معينة. اليوم، فى الصباح الباكر، جاءت من مكة قافلة الماليزيين الذين يملأون الآن كل المدينة المقدسة غير الكبيرة و الحرم الشريف. يتحدث مهاجرونا كثيرا عن أنعام الحكومة التركية على رئيسهم عبد الستار بمدالية لقاء تبرعه بعشرين ليرة فى صالح الحكومة لمناسبة الحرب ضد اليونان.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۲۴

اليوم قمت بصلاة الجمعة ۳ مرات [.....]***.

مساء كنا عند تاجر محلى من مواطنينا؛ رأيت هناك صدّيق، ولى أمر مدرسة قازان الدينية؛ انه يشغل أحد بيوت الأوقاف؛ فى الأيام الأخيرة كنت فى جامع قازانى. أنهم يقلدون العرب فى التجويد.

خادمى و رفيقى حارث مريض منذ البارحة؛ يبدو انه مصاب بالحمى. حرارته عالية جدّا. يهذى. نعالجه بالكينا.

اليوم ارتحلت إلى مكة قافلت الهنود.

ما من أمة من الأمم تعرض باجتهاد غلائم الشعور الدينية مثل الفرس؛ فهم ينوحون، و ينحبون، و يبكون، و يبوسون عتبات الباب، و مقابض البوابة، غير ذلك.

بفارغ الصبر ينتظر الجميع البريد من مكة؛ و كان لا بد أن يصل يوم الأربعاء و لكنه لم يصل بعد. جميع رفاق الطريق ينتظرون جوابا من قنصلنا عن رسالتى بصدد الحجر الصحى الذى يخافونه خوفهم من النار؛ فهو شر لا يبرره بالفعل أى مبرر، و شر لا لزوم له، و مزعج إلى أقصى حد، و لا يعود بأى نفع.

۲۲ أيار (مايو). يوم الجمعة. شىء ما عن تجارة المدينة المنورة.

الضواحى لا تنتج شيئا تقريبا. كل شىء مستجلب.

القمح و الشعير يستجلبونهما من جهة بغداد و من مصر عبر ينبع، و الرز من البصرة و الهند و مصر، و من [.....]، عبر ينبع، البضائع المستعمرية و الصناعية؛ و البقالة عبر ينبع. الخضراوات و بعض الأشياء الأخرى تنبت فى الضواحى. البن و الملح يستجلبونهما من اليمن. المادة الوحيدة للبيع هى البلح الذى يشتريه الحجاج و يرسلونه هديّة من هنا إلى مختلف الأفراد فى روسيا و القسطنطينية. و هنا يوجد ۱۳ نوعا من البلح و أفضل الجلابى. يجب اعتبار كمية البلح المباع زهاء ۵۰ ألف بود.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۲۵

السمنة من حليب الابقار يستجلبونها من جهة البصرة. لحم الغنم يستجلبونه من مخيمات البدو الرحل المجاورة. الكاز أميركى و من باكو. يحدث أن تقطع القبائل البدوية العاصية الطريق إلى ينبع، فيصبح الوضع فى المدينة المنورة صعبا، و ترتفع كل الأسعار كثيرا. و يشرف المحاسب مباشرة على البازار و على النظام فى ساحة البازار؛ و تحت تصرفه دورية عسكرية. الخرداوات يشتريها تجار الجملة فى القسطنطينية. التجارة المحلية تشتد مع وصول الحجاج و تهدأ بعد رحيلهم.

۲۳ أيار (مايو). يوم السبت. اليوم أفادنا ادلّتنا أن رحيلنا إلى ينبع غدا، أو بعد غد على الأكثر. استقبل جميع الحجاج الخبر بفرح كبير لأن الحياة هنا بالنسبة للكثيرين ممن اعتقادوا على الرحب و السعة مرهقة غاية الأرهاق. أدوا جميع الطقوس و المراسم، فليقبلها اللّه؛ و الآن آن أوان العودة.

۲۴ أيار (مايو). يوم الأحد. أرجئ رحيلنا إلى أجل غير مسمى؛ تروج إشاعات مقلقة جدّا.

فى الحديث مع مختلف الأفراد من غير العرب عن العرب، عرفت بضع سمات طريفة من طبعهم. كل قادم يقدمون له القهوة فى الحال؛ و الامتناع عن شرب هذه القهوة، رفضها، يعتبر إهانة مؤلمة خطيرة قد تعطى ذريعة لعداء لا نهاية له. مثلا. يأتى الوسطاء الشيوخ إلى ممثلى قبيلة ما، و يطلبون أما تمرير القافلة و أما إعادة الأموال المنهوبة، و ما إلى ذلك؛ يقدمون للقادمين القهوة؛ هؤلاء لا يشربونها

كأنما لم يروها؛ القهوة تبرد، و يستعيضون عنها مرارا بقهوة جديدة، ساخنة؛ الضيوف يشربون؛ أخيرا يطلب المضيفون تذوق قهوتهم؛ الضيوف يرفضون بحجة عدم تلبية مطلبهم؛ عادة تنتهى المشكلة حبيا، و فى النهاية يشربون القهوة، عربون المصالحة.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۲۶

أثناء السفر، لاحظت كيف يهيئ البدو القهوة لأنفسهم. البن المحمّص يطحنونه فى هاون زمنا طويلا جدّا؛ و لا يدقون كيفما اتفق، بل بإيقاع و انقطاعات مختلفة؛ ثم يسكبون الماء الغالى على البن، و يضعونه على النار، و لكن لا يدعونه يغلى من جديد. و حين تصبح القهوة جاهزة، يبدأ تقديمها لجميع الحاضرين بلا استثناء. القهوة يشربونها ساخنة جدّا؛ و لهذا لا يسكبون فى الفنجان أكثر من جرعتين أو ثلاث. القهوة من تحضير البدو مشروب ثقيل و مرّ جدّا يستحيل شربه بدون الاعتياد عليه.

۲۵ أيار (مايو). يوم الأثنين. فى الحديث مع ثابت، سمعت منه قصة طريفة عن سفره للسنة الثالثة من ينبع إلى جدّة. بما أن موعد سفر الباخرة لم يكن متوقعا عما قريب، فقد سافر مع قرابة ۷۰ شخصا على متن زورق شراعى. (الزورق من هذا الطراز يسمونه «سمبك»، و هو بلا- متن و له شراع واحد. حمولته زهاء ۳۰۰۰ بود، و يأخذ كذلك ركابا بأجر قدره بورون واحد (الريال- ۸۸ كوبيكا) بين المدينتين المذكورتين.

تنطلق الزوارق بمحاذاة الشاطئ، و ترسو ليلا على البر).

قرب رابغ اصطدم الزورق بصخرة تحت الماء و جنح كثيرا. رأى البدو من الشاطئ سوء أحوال السمبك، فاقتربوا بأعداد كبيرة على زوارقهم الصغيرة، و لكن شرعوا يساومون غير مستعجلين للانقاذ. طفق أحد الركاب، و هو شيخ جليل، مصرى، يحاول اقناع الرحل ينقلهم إلى الشاطئ معلنا أن كل ما معهم يصبح ملكا لهم، شرط أن ينقذوا حياتهم.

وافق البدو على نقلهم جميعا، لا إلى الشاطئ حيث كانوا يخافون من أن يسلبهم أبناء قبيلتهم، بل إلى جزيرة صغيرة، و تركوهم فيها و عكفوا على أن يستخرجوا لأنفسهم من الماء أكياس القمح التى كانت فى الزورق الذ غرق فور اقلاعه. دام هذا العمل طوال الليل كله. و أخيرا جاء البدو فى الصباح إلى الجزيرة حيث الركاب المنقذين. و هنا من جديد، أصغوا إلى و عود المصرى المذكور و وافقوا على نقلهم جميعا إلى جدة بأجر قدره

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۲۷

مجيدية واحدة عن كل شخص. أركبوهم، كل ۳ أو ۴، فى زوارقهم الصغيرة، و أوصلوهم بسرعة إلى المقصد؛ و استبقوا لأنفسهم جميع أمتعة الركاب. يخيل إلىّ أن البدو هم فى المقام الأول متوحشون ذوو ميول بربرية لا شك فيها، و ذوو مفاهيم فريدة بصدد حقوق الملكية و لكنهم يملكون قدرا معينا من حضور الضمير و الوجدان، و يتأثرون بالمثل الطيب. و هم على العموم متوحشون تعوزهم التربية.

۲۶ أيار (مايو). يوم الثلاثاء. تقرر أن تأتى القافلة اليوم مساء و تبيت الليل قرب البوابة الأنبارية للمدينة. فكرت فيما إذا كنت أسافر الآن مع هذه القافلة الأخيرة أم أبقى، و قررت أن أسافر. البقاء، حين يكون الحج قد انتهى، قلما يتسم بالأهمية و الطرافة؛ و إذا بقيت، يتعين علىّ أن أبقى حتى كانون الأول (ديسمبر) أو كانون الثانى (يناير)، لأنه لم يكن متوقعا وصول قافلة أخرى، و لأنه لم يكن من الممكن أن تتسنى لى زيارة المراكز الهامة التى تمر بها حركة الحجاج. إذن، لنذهب، و ان يكن يخوفوننى كثيرا بالسفر إلى ينبع إذ يقولون أن البدو لا- يمررون. أمرت حارث بالاستعداد للرحيل. و على كل حال قررت أن آخذ معى، كمرافق و مدّبر فى الطريق، دليلنا اللطيف إبراهيم، رغم أن هذا سيكلف مبلغا من النقود لا يستهان به. أراد إبراهيم أن يأخذ معه إبنه عبد الملك الذى يحظى بعطف الجميع لاستعداده لتقديم الخدمات و مرحه المتواصل.

استعداداتنا تتألف من شراء زوج من الشقادف و سجادة لأجل التغطية من فوق، و المؤن. وعد فخر الإسلام بأعداد الشقادف أى بتغطيتها بالقماش، و ما إلى ذلك. الشقادف و الجمال لا يجيزون ادخالها إلى المدينة، من جراء الضيق، و لذا كانت نقطة الانطلاق

ضاحية المناخة.

بعد الغداء زارنا كثيرون من مواطنينا بحجة تمنى السفر الميمون؛ و لكن الهدف الحقيقى كان الحصول على شىء ما؛ القسم الباقى منهم رافقنا للهدف نفسه إلى المناخة. فكان لا بد من توزيع قد لا يستهان به

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۲۸

من النقود. و أخيرا، حوالى الساعة ۵ مساء، دفعنا للدليل عمر اتعابه، و حمّلنا الأمتعة على [...]، و غادرنا البيت المضياف و الأدلة، و اتجهنا إلى المناخة. كانت الشقادف معدة ببالغ الاجتهاد. طرح فحر الإسلام فى أعلى سجادة، كما خاط جيوبا و أعشاشا لأجل جرار الماء. و حين انتهى التحميل، اتجهت الجمال إلى البوابة الانبارية، و رحنا وراءها برفقة جمع غفير من مواطنينا. خروج الجمال يجرى باذن خطى من العامل.

ما إن خرجنا من المدينة حتى توقفنا لمبيت الليل؛ و إلى هنا توافدت تدريجيا جميع القوافل.

۲۷ أيار (مايو). يوم الأربعاء. اليوم، فى الساعة الخامسة و النصف صباحا انطلقنا فى اتجاه ينبع. قافلتنا تتألف من قسمين برئاسة مقوّمين. مقوّمنا محيسن المشهور. القسم الثالث المؤلف من الحجاج الفرس لا ينطلق اليوم، لأن مفاوضاتهم لم تنته بعد بصدد دفع فدية للبدو؛ القافلتان الأوليان تتألفان بمعظمهما من المصريين و المغاربة و السوريين و الاتراك و مسلمينا. الأقسام الثلاثة جميعها تتألف من ۱۵۰۰ جمل تقريبا يحمل ثلثاها الشقادف. للمرة الأولى تعين علىّ تسلق هذه الأداة البدائية لأجل الركوب. ركبنا أنا و حارث، و انطلقت قافلتنا تدريجيا فى ۴ خطوط.

كان الوداع مع عمر وديا للغاية. فى الصباح تسنى لرشيد القاضى أيضا أن يأتى لتوديعنا؛ انه يفكر فى الذهاب إلى جدّة بعد عيد المولد النبوى. يرى حارث أن مشية جملنا ناعمة، رغم انه كان لى رأى مغاير تماما. و بما انه توجد قرب المدينة المنورة كثرة من المرتفعات و المنحدرات، فإنه يتعين، لأجل الاحتفاظ بالتوازن، التحرك تارة إلى الأمام و طورا إلى الحلف. و فى آخر الأمر، كنت استوى بنحو أو آخر؛ و واقع انه أصبح من الممكن التمدد كان بحد ذاته فرجا كبيرا.

كان حداة جمالنا من البدو؛ رشيد، و هو أكثرهم همة، و اوفرهم نشاطا و مبادرة، يتكلم قليلا بالتركية؛ إبراهيم، أو كما يسمونه إبرايم،

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۲۹

يمشى دائما برأس مكشوف؛ انه شخص متوان، و كائن حقير جدّا؛ و أخيرا، الزنجى سعيد، العبد السابق لمحيسن الذى اعتقه، و زوّجه؛ و تبناه؛ و سعيد قصير القامة و لكنه قوى البنية؛ و هو يسوق مفرزتنا. إن الاحتفاظ على الدوام بالتوازن فى الشقدف، و خاصة إذا كان أحد الراكبين اثقل من الآخر، أم صعب جدّا؛ و دائما كنت أسمع، و بخاصة فى البداية، صيحة البدو «حاجى متاعك» أو «قدام» أو «وراء». بفضل الشقدف الجيد و الوزن الواحد مع حارث، لم يتسنّ لى أن أسمع هذه التعليمات.

على بعد نحو ۶ فرسخات من المدينة المنورة، تدخل الطريق فى مضيق عريض ذى جانبين منحدرين تدريجيًا، نمضى فيه حتى الحمرا. و الطريق على طول امتداده هذا ملائم لأجل التحرك، متساو و منبسط تماما، و ذو تربة رملية صلبة، و كمية كافية من الماء و الوقود. فى هذا اليوم سرنا فى أوج القيظ حتى ساعة متأخرة من المساء ۲/ ۱ ۸ ساعات، و بالأجمال سرنا ۱۴ ساعة، و توقفنا لمبيت الليل عند بئر درويش، بينما سبقنا القسم الأمامى من القافلة شوطا و توقف عند بئر الشهداء.

فى الليل، دفنا شيخا من مواطنينا! كان مريضا فى المدينة المنورة، و مريضا سافر. و عند الرحيل طلب عمر بالحاح من الشيخ أن يبقى قائلا- له انه لن يتحمل مشقة الطريق، و لكن المسكين كان يريد العودة إلى الوطن بأسرع وقت، فلم يبق، و مات فى الشقدف بعد الرحيل بساعتين؛ كذلك ماتت إمرأة من المغاربة. فى القسم الأمامى كانت أيضا بضع وفيات.

۲۸ أيار (مايو). يوم الخميس. اليوم قطعنا مرحلة غير كبيرة من الساعة ۲/ ۱ ۱۱ صباحا إلى الساعة ۲/ ۱ ۷ مساء، بانتظار القافلة الفارسية لأن الطريق لاحقا محفوف بمخاطر كبيرة؛ و مقوّمونا لا يتجرؤون على السير وحدهم.

مكان قضاء الليل عند بئر أخرى. من الصعب أن يتصور المرء مبلغ صعوبة الانطلاق و السير فى أوج القيظ! فى الليلة السابقة قتلوا فى القسم

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۳۰

الأمامى، بهدف السلب، حاجين اثنين تخلفا لقضاء حاجة. لا نزال نسير فى أراضى قبيلة مقوّمينا، و لهذا لا نخشى الهجوم السافر.

قدم إبراهيم و ابنه عبد الملك خدمات تفوق التقدير، إذ يتخذان جميع التدابير لضمان سلامة سفرنا ناهيك عن شتى الإجراءات الإقتصادية. و بما أننا نصل فى الليل إلى مكان المبيت، فلا يسمحان لنا بالنزول قبل إنارة المحلة بالمشاعل إذ أن حوادث القتل و النهب تقع على الأغلب فى هذا الهرج و المرج؛ و إذا راح شخص ما إلى قضاء حاجته، فإن الأب أو الابن يراقبانه من المرتفع الأقرب. و عنهما أحفظ أطيب الذكريات.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۳۱

الرحلة إلى الحجاز

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۳۳

الفصل الأول سرى الرحلة إلى الحجاز

الحدود

الحجاز التى تتجه إليه حركة حج المسلمين إنما هو جزء من الجزيرة العربية يمتد شريطا ضيقا بمحاذاة ساحل البحر الأحمر و يبلغ طوله زهاء ۱۵۰۰ فرستا، و يتراوح عرضه بين ۱۵۰ فرستا و ۳۰۰ فرستا.

الحجاز تجده فى الشمال فلسطين، و فى الشرق نجد، و فى الجنوب اليمن و فى الغرب البحر الأحمر. و أسم «الحجاز» من فعل «حجز»، أطلق، حسب تفسير العرب، نظرا لوجود هذه المنطقة بين نجد و البحر الأحمر. و بالنسبة لنا لا يتسم بأهمية غير القسم الجنوبى (۳/ ۱) من الحجاز حيث تقع مدينتا مكة المكرّمة و المدينة المنورة المقدستان بنظر المسلمين و حيث فى زمن الحج تبلغ حركة الحجاج أوجها.

طوبو غرافية السطح

الحجاز بلد جبلى جدّا. سلاسل الجبال المؤلفة من كتل حجرية عارية، و غير العالية نسبيّا (۱۰۰۰- ۳۰۰۰ قدم)، تمتد بموازاة ساحل البحر، متشعبة بكثرة من الذيول الجبلية الفرعية، النازلة إلى الغرب نحو البحر و إلى الشرق نحو سهل نجد. و أحيانا، تتواجد بين الجبال،

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۳۴

و بخاصة على مقربة من البحر، صخور مميزة حادة الأطراف. و إلى الشرق من مكة، تبلغ سلسلة الجبال المسماة هناك «السراة» ارتفاعها الأعلى،- زهاء ۶۵۰۰ قدم فى جبل القرى.

و الجبال تتقطعها فجاج رملية خالية من الماء يسمون الواحد منها هنا «وادى»، و أهمها تتجه نحو البحر. و فى قاع هذه الفجاج فقط توجد ينابيع الماء النادرة فى الحجاز. فليس البتة فى الحجاز لا نهر و لا حتى نهير. و ماء الينابيع الذى يسيل هنا و هناك فى قاع الوادى ينفقونه فى الحال لرى البساتين و مباقل الخضراوات. و السكان الرحل يستعملون فى المعتاد الآبار و الصهاريج التى تمتلئ بالماء السائل من الجبال أثناء الأمطار الغزيرة.

و أغنى الفجاج بالماء و مظاهر السيول هى وادى فاطمة، وادى الليمون، السيل الكبير قرب مكة، وادى الصفراء غربى المدينة المنورة.

إن منظر الحجاز هو على العموم واحد- كئيب و صارم و مرهق بقحله و انعدام الحياة فيه؛ ففى كل مكان تلال حجرية، عارية، خالية من أى نبات، صخور متراكمة بوثوق و بلا نظام، مكسوة دائما بعتمة رمادية ما، و اودية ضيقة ذات جوانب معلقة تقريبا؛ أما الخلفية العامة للوحة، فرمل أصفر فى كل مكان يشكل قاع الفجاج و يملأ الفجوات بين الصخور و غالبا ما يبدو بصورة انهيالات قرب ذرى الجبال بالذات.

بين الجبال و البحر يمتد شريط ساحلى منخفض، متساو، عرضه ۵- ۱۰ فرسخات، اسمه «تهامة»، و تتشكل تربته من رمل بحرى مكثف جدّا. و من جراء تسرب ماء البحر، كانت مياه جميع الآبار فى تهامة مالحة نوعا ما؛ و سكان الساحل يستخدمون فى المعتاد الصهاريج.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۳۵

النباتات و الحيوانات

الحجاز فقير جدّا بالنباتات من جراء القيظ الخارق و نقص الرطوبة.

و من عداد النباتات الخشبية رأيت فى جميع الفجاج شجرة شائكة جدّا من نوع الطلح (الاقاصيا) أسمها «الشوك»، و تبلغ مقاييس كبيرة و تشكل الصنف الوحيد من المحروقات. فى أوائل نيسان (ابريل)، فى طريقى إلى مكة، كانت هذه الشجرة لا تزال تحمل أوراقا، و لكن فى حزيران (يونيو) لم يبق على الغصون سوى قرون ناضجة قوسية الشكل. و هذه القرون تباع فى البازارات لأجل علف الجمال و غيرها من المواشى؛ و الرحل يعلفون بها أيضا قطعانهم من الماعز و الغنم؛ و لهذا الغرض يسقط الراعى القرون بعصى طويلة، و سرعان ما تتلقفها الماشية السائرة وراءه.

و بصورة اندر تقع العين على أصناف أخرى من النباتات و منها أم غيلان و السنط. و أقرب إلى البحر تقع العين على مجموعات كبيرة من نبات يشبه الايندرا كثيرا، و لكن مقاييسه كبيرة و يسمى العشّر.

فى الشتاء، حين تتساقط الأمطار تظهر أعشاب ما يتسنى للبدو أن يخزنوا منها كمية ما من الهشيم.

فى ضواحى مكة ينمر بأعداد كبيرة السنا المكى؛ و أوراقه معروفة فى البيع باسم «الورق الاسكندرى».

الحجاز الفقير بالنباتات فقير أيضا بالحيوانات. و من عالم الحيوان، رأيت شخصا، بالشكل البرى، نوعا صغيرا من القرود، و الثعالب، و رأيت من الطيور الحمام و الغراب، و القنابر الكبيرة و الحدآن. يقولون انه توجد أيضا ذئاب و ضباع و ظباء، و من الطيور اللقلق و الهدهد، و غيرهما. حياة الحشرات لا تتكشف إلا فى وقت ابرد من السنة: فى أوائل نيسان (ابريل)، ليلا، على نور المصباح، تطير من

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۳۶

كل حدب و صوب أعداد غير كبيرة من الفراشات و الجعلان. فيما بعد لم أرى أية حشرة. يؤكدون أن حتى البراغيث ذاتها تختفى فى الوقت الحار من السنة. و مما له دلالته انه يوجد فى بعض جبال الحجاز، رغم هذه الطبيعة الشحيحة، نوع محلى من النحل الأصفر البرى الصغير جدّا؛ و عسل هذا النحل يقطفه البدو من الصخور، و يظهر أحيانا للبيع فى السوق فى مكة و المدينة المنورة.

و فى الحجاز أصناف متنوعة كثيرة جدّا من الأفاعى و العقارب و العناكب السامة. و بين هذه العناكب يوجد فى مضيق وادى فاطمة نوع يسمى «اللادغ» و تعتبر لدغته مميتة حتما.

خلافا لليابسة، يتميز البحر الأحمر بتنوع و غنى خارقين فى الحياة العضوية؛ فعدا مختلف أنواع الأسماك ذات الصفات غير الرفيعة جدّا، يعج بشتى النقاعيات و غيرها من العضويات الدنيا.

المناخ

مناخ الحجاز، و بخاصة فى قسمه الجنوبى الواقع تحت خط الاستواء، هو بلا ريب من احرّ المناخات فى الدنيا. الكتل الحجرية فى الجبال المتلاصقة بوثوق، التربة الرملية، التى تتأجج بشدة تحت الشمس الاستوائية، و غياب النباتات- كل هذا يجعل الحجاز احرّ من البلدان المجاورة، و منها اليمن و نجد. الحرارة على ساحل البحر أدننى نوعا ما، لوكن التبخر الشديد و رطوبة الجو الخارقة يخلقان هنا جوا منافيا جدّا للصحة.

و بما أن زراعة بعض النباتات، و منها مثلا، البطيخ و الشمام، تجرى طوال السنة كلها، و يحالفها النجاح حتى فى احرّ أوقات السنة، فإنه يخيل إلىّ أن مناخ الحجاز خارق الرطوبة فى اقسامه الداخلية أيضا و انه من الصعب بالتالى على الناس غير المعتادين عله احتماله.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۳۷

تقلبات الحرارة، بقدر ما استطعت أن أراقب، ليست كبيرة فى سياق اليوم الواحد.

فى الطريق من مكة المكرّمة إلى المدينة المنورة، فى النصف الأول من أيار (مايو)، اسفرت المراقبات عن نتائج متنوعة، تبعا لمحلة؛ و كانت الحرارة بالمتوسط فى الخيمة ۳۵ درجة ريومور فوق الصفر كحد أقصى و ۲۸ درجة فوق الصفر كحد أدنى.

و تسنى لى أن أراقب أعلى درجات الحرارة فى أوائل تموز (يوليو) بين المدينة المنورة و ينبع، قرب بير السيّد، حيث أشار ميزان الحرارة إلى ۴۴ درجة ريومور فوق الصفر فى الظل؛ و لكن لم يتسن وضع ميزان الحرارة فى الشمس نظرا لقلة طول مقياس الحرارة.

إن ما هو رهيب بخاصة على الإنسان فى الحجاز ليس الحرارة العالية، بل الرياح الحارقة التى تهب فى حزيران و تموز (يونيو و يوليو) فى عموم الحجاز و التى تسمى هنا السأم. و هذه الرياح ليس لها اتجاه معين. و الرياح التى اضطررت إلى معاناتها كانت تتجه من الجنوب الغربى؛ و هى لا- تتسم بطابع زوبعة ما، و لكن وجودها يتبدى دائما بشعور مؤلم مرهق تحدثه فى الجسم البشرى. و حين كانت تهب السأم، كانت نظاراتى تتأجج إلى حد انه كان يتعين علىّ نزعها؛ و الماء النازل عن غير قصد على الجسم يثير فى حال التبخر الما روماتزميا قويا.

يعرف البدو كيف يميزون السأم الخالصة عن السأم المختلطة مع رياح أخرى، و كيف يميزون الريح الضارة جدّا عن ريح أقل ضررا، و يتنبأون ببداية الريح؛ و الاسم الرهيب «السأم» لا يطلقونه على جميع الرياح الحارة التى تهب فى الأوقات الحارة من السنة.

هذه الظاهرة ليست رهيبة على الغرباء وحدهم؛ فإن بدوييا سواقى الجمال قد عانوا هم أيضا من شعور القلق حين هبت السأم، و دسوا فى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۳۸

مناخرهم و آذانهم الثوم، و تدثروا بكل عناية. و الأسلوب الأخير، أى التدثر من الرأس بالذات هو الوسيلة الوحيدة، كما اقتنعت، للتخفيف بعض الشىء من العذاب حين تهب السأم. و يروون حوادث فتكت فيها السأم بعدد كبير من الناس؛ و فى المرة الأخيرة، فى سنة ۱۸۹۵، أخذ الحجاج فى المدينة المنورة يعتزمون الذهاب إلى مكة، و نقلوا أمتعتهم إلى ضواحى المدينة، و إذا سأم تهب؛ و بعد بضع ساعات، لمّوا عشرات الموتى فى الشارع.

و يقول الأطباء أن نسبة الوفيات فى مكة و المدينة المنورة تزداد كثيرا حين تهب السأم. و لكن العرب يعتقدون أن هذه الريح ضرورية لأجل نضج البلح.

و للحجاز فصلان فى السنة: الشتاء البارد نسبيّا، من منتصف تشرين الثانى (نوفمبر) إلى منتصف شباط (فبراير)، حين تتساقط الأمطار بين الفينة و الفينة و يظهر العشب هنا و هناك، و الصيف الحار الذى يحل فورا محل الشتاء. إن الانتقال من البرد إلى القيظ يكون حادا جدّا فى المدينة المنورة حيث الحرارة الصيفية أدنى نوعا ما مما فى مكة، نظرا لوقوعها أبعد إلى الشمال و فى أرض عالية، و لكن فى الشتاء، كما يقولون، يكون البرد أحيانا قارصا جدّا.

السكان (خارج المدن)

يتألف سكان الحجاز من مختلف قبائل البدو، أو كما يسمونهم هناك، «الأعراب» (العرب الذين يعيشون فى المدن يسمونهم «بلدى») و هم، حسب اسطورتهم، اخلاف مباشرون لإسماعيل، ابن إبراهيم.

و بين البدو يوجد أيضا كثيرون من الزنوج و الأحباش الذين صاروا بينهم بوصفهم عبيدا. و هؤلاء يشكلون طبقة دنيا خاصة و لا يختلطون مع السكان الأصليين.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۳۹

مجمل عدد السكان فى الحجاز يقدّر ب ۷۰۰- ۸۰۰ ألف نسمة (حسب المعلومات الرسمية التركية ۵ ملايين). ينقسم البدو إلى كثرة من القبائل التى يشرف على كل منها شيخها و التى تشغل كل منها منطقة معينة للترحل. و هناك قبائل غالبا جدّا ما تعادى فيما بينها، و تهاجم بعضها بعضا، و لها حسابات دائمة بصدد الدم.

البدو الرحل يربون الماشية، و يتعاطون الزراعة أيضا إذا سمحت الظروف. أثناء أشهر الحج الأربعة أو الخمسة، ينصرف كثيرون منهم بوجه الحصر إلى نقل الحجاج و أمتعتهم. و سكان السواحل، بوصفهم بحارة ماهرين، يمارسون النقل الساحلى على زوارقهم الشراعية التى لا متن لها، و المسمى الواحد منها «سمبك»، كما يمارسون صيد السمك، و استخراج المرجان و اللؤلؤ و الصدف و المحار، و ما إلى ذلك من قاع البحر.

و البدو الذين تسنى لى مراقبتهم، متوسطو القامة، نحيلون خارق النحول، و قسمات وجوههم متناسقة، و لون جلدهم برونزى قاتم، و قلما يختلف عن لون الحجارة التى يعيشون فى وسطها؛ و ارجلهم خالية تماما من بطات السيقان؛ مشيتهم رشيقة أصيلة. و لكن أول ما يستلفت النظر عند رؤية البدو، هو أنهم أقوياء بدنيا، و جلودون و لبقون جدّا.

ألبسة البدوى بسيطة جدّا- قميص حتى الركبة، واسعة الكمين؛ على الرأس دائما منديل قطنى كبير مثبت بحزام خاص مسمى «عقال»؛ و بهذا المنديل يغطى اذنيه، و كذلك انفه فى غالب الأحيان. فوق القميص يلقى عباءة صوفية سوداء عريضة بأشرطة بيضاء نادرة.

يحمل البدو دائما الأسلحة- فى اليدين بندقية شطف (بقداحة) أو بندقية بفتيل أو رمح؛ على الكتف أو على الظهر يتدلى سيف ذو حد واحد أو سيف ذو حدين؛ على حزام جلدى فرد و خنجر، و لوازم معدنية مختلفة لحفظ الباردو و الرصاص.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۴۰

ترتدى المرأة قيمصا أسود طويلا و منديلا على الرأس من اللون نفسه. و تغطى وجهها أدنى من خط العينين بقطعة من القماش الأسود.

كل لباس الأولاد يتألف من حزام ذى هدب جلدى من نوع الهدب الذى يستعمله التركمان لحماية عينى الحصان من الذباب.

و مسكن البدو عبارة عن نموذج خفيف جدّا من خيمة من نفس القماش الأسود الذى يخيطون منه العباءة. مفروشات الخيام فقيرة جدّا- الآنية المنزلية الضرورية، رحل الجمل، جلود غنم مدبوغة و مصبوغة لأجل المفرش، قربة لأجل الماء. و كل شىء يدل على أن متطلبات هؤلاء الرحل أقل بكثير من متطلبات القرغيز، مثلا، أو التركمان فى بلادنا.

و الخيام تكون منصوبة مجموعات صغيرة جدّا.

المواد الغذائية الرئيسية هى منتوجات تربية المواشى و البلح، و عند عرب السواحل السمك. الغذاء الأكثر استعمالا اللبن (الحليب الرائب)؛ الطعام اللذيذ هو التمر مع السمنة؛ يبدأ العرب أكل البلح عندما لا يزال أخضر تماما [...] «زحف» [؟]؛ و حين يكتسب التمر لونا أصفر نوعا ما،- «الرطب»- يظهر كذلك فى الأسواق لأجل البيع.

و حيث توجد مزروعات الذرة الصفراء و الدخن، يصنعون منهما أرغفة مثل الأرغفة التركمانية. و القهوة المقدمة عند الأغنياء أو عند حضور الضيوف يعتبرها البدو مشروبا لذيذا. و أغلبية البدو تدخن التبغ، و لهذا الغرض يستعملون غلايين طويلة الشبق.

و البدو، بوصفهم رحلا، يربون المواعز و الأغنام و الجمال.

المواعز يستعملونها على الأغلب لأجل الحليب و اللحم، و ثمن الواحد منها بنقودنا زهاء روبلين. و يربون الأغنام لأجل الحليب و اللحم، و ثمن الواحد منها بنقودنا زهاء ۴ روبلات. لحم الأغنام و المواعز المحلية جاسئ جدّا و غير لذيذ. الجمال نوعان. نوع اثقل و أقوى مستعمل لنقل

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۴۱

الأثقال- «الأبل»- ثمن الواحد منها بنقودنا زهاء ۶۰ روبلا و جمال حفيفة، دقيقة القوائم، صغيرة الرأس، صوفها أكثر أشراقا- «الهجان»؛ و هى مستعملة حصرا لأجل الركوب، و ثمن الواحد منها زهاء ۱۰۰ روبل. علاوة على الصفات المشتركة الملازمة للجمال يتميز هذا النوع و ذاك بالوداعة الرائعة و غياب الرائحة الكريهة الملازمة لهذه المواشى.

عدد الجمال عند البدو المترحلين بين مكة و المدينة المنورة يقدّر تقريبا ب ۱۵۰۰۰ رأس.

و هم، كزراع، يزرعون فى موسم الأمطار، فى مرحلة الشتاء من السنة، نوعا خاصا من الدخن؛ و لهذا الغرض ينظفون من الحجارة رقعا غير كبيرة من الأرض و يقيمون أسوارا ساندة لحفظ الماء؛ و حيث يمكن الرى يزرعون على الأغلب البطيخ و الذرة الصفراء- «الذرّة»- و الخضراوات (البصل، البندورة، و الفول و ما إلى ذلك)؛ و فى مثل هذه المحال، يزرعون كذلك فى المعتاد البساتين المؤلفة بصورة رئيسية من أشجار النخيل؛ و تقع العين أيضا على أشجار الليمون التى تعطى ثمارا حلوة صغيرة جدّا، و على شجيرات البلسان التى يصنعون من عصيرها صبغ الحنّاء و شجرة «الفلسنك» التى تعطى بلسما قيّما جدّا بالنسبة للحجاج.

بدو الحجاز مسلمون سنيون جميعهم، و لكن يوجد بين الرحل فى الطرف الشرقى وهّابيون و كذلك بعض المتشيعين، و منهم، مثلا، الزيديون، و الإسماعيليون؛ و أكثر المذاهب السنّية انتشارا هو المذهب الشافعى، ثم الحنفى؛ و كثيرون من البدو ينتمون إلى مختلف مدارس النساك و بخاصة إلى التيار «الرفاعى».

لا يتميز العرب الرحل البتة بالتدين الشديد؛ و هم يخلطون الدين بكثير من العادات و الأساطير و الأقوال المأثورة التى تتناقض تماما مع تعاليم الإسلام و نادرا ما تتوافق فيما بينها.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۴۲

إن حب الحرية التى يتمتعون بها من سحيق الأزمنة و الجهل المطبق يحملان البدو على اعتبار أنفسهم أسمى من جميع الأمم الأخرى، و ينظرون من أعلى حتى إلى إخوانهم المقيمين فى المدن تحت الحكم التركى. و أعمال السلب و النهب و القتل ضد الغرباء ظاهرة عادية تماما؛ و هم كل سنة يقتلون عشرات الحجاج لأجل النهب؛ و الحصول على الأموال بهذه الطريقة لا يعتبره أحد أمرا غير جائز. و الكذب و القسم أمر عادى تماما. و من جهة أخرى تحظى الضيافة التقليدية باحترام مقدس؛ و لحماية الضيف يضحى المضيف بنفسه دون تردد؛ و السماح بنهب أو بقتل الشخص الذى أخذه المضيف تحت حمايته عار لا يضاهيه عار؛ الأمر الذى تنتقم له القبيلة كلها.

يجرى إرسال مبالغ ضخمة من النقود فى الحجاز بواسطة البدو، نظرا لعدم وجود دائرة حكومية معنية؛ و يقولون أن هذه الارساليات لا تضيع أبدا و لا يستملكها البدو أطلاقا.

و عند البدو حكماؤهم و أطباؤهم العرافون. و هم يلجأون إليهم فى حال المرض. و اوسع الوسائل انتشارا الفصد، و المحاجم، و الكى بالحديد المحمى. و بعد الولادة على الفور، تعمد القابلة إلى شق ثلاث شقوق بالسكين على صدغى الطفل و ظهره و غير ذلك من أجزاء الجسم لتحاشى الأمراض المقبلة؛ و آثار هذه الشقوق تبقى طوال العمر كله؛ و فى جميع الأمراض تقريبا، يلجأ العرب إلى فصد الدم أو يستعملون المحاجم لاستخراج الدم؛ و هم يعتقدون أن هذا يلخص الإنسان من الدوخان و الضعف الناجمين عن الحرارة العالية؛ و حتى الجمال لا تتجنب هذه العمليات المكررة دوريا. و الكى، بوصفه وسيلة للصرف عن الألم، يجرى بأسلوب بربرى تماما، و يترك آثارا عميقة. فى أحد المواقف أسرع من قرية مجاورة إلى سواق جمالنا ولداه؛ أحدهما صبى فى نحو الخامسة من العمر، كان

جرح كبير فاغرا قرب عينه بالذات؛

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۴۳

و قد أوضح الوالد، جوابا عن سؤالى، أن إحدى عينى الصبى قد انغلقت، و انه (أى الوالد) قام بعملية الكى بيده، و أن حالة ولده أفضل الآن.

و عند البدو أساليب أصيلة جدّا لمعالجة عواقب السأم؛ فالمريض يطعمونه السمنة، و يدثّرونه بشدة و كثافة، و طوال نحو ساعتين لا يدعونه يشرب؛ و فى حالات أشد إرهاقا، يحفرون حفرة بقامة الإنسان، و يشعلون فيها موقدا ثم يجعلون الموقد يبرد نوعا ما، و يضعون فيها المريض و يطمرونه تاركين رأسه فقط طليقا، و يبقونه فى هذه الحال أطول مدة ممكنة، ثم يسحبونه و يدثّرونه و يدهنون جسده بالسمنة، و لا يدعونه يشرب طوال نحو ثلاث ساعات.

و على العموم يشكل نمط حياة البدو خليطا من عادات بربرية تماما و بعض سمات الفروسية و النبل. و هذا الشعب لا يزال بدائيّا تماما و لم يتعرض البتة لتأثير الزمن.

صحيح أن كلا من القبائل تشغل أرضا معينة، و لكن مناطق بعض القبائل لا تشكل رقعا واحدة متواصلة، بل هى متوزعة فى عموم الحجاز؛ و بعض القبائل التى كانت تقطن من قبل فى الحجاز استقرت فى بلدان مجاورة. و فى الوقت الحاضر تقيم فى الثلث الجنوبى من الحجاز القبائل التالية من البدو (راجع الجدول على ص ۱۴۵).

التجارة و الصناعة عند السكان الرحل

للتجارة و الصناعة عند البدو، سواء بسواء، مقاييس تافهة للغاية و ذات طابع محلى فقط. سكان السواحل يبيعون من التجار الكمية التافهة من اللآلئ و المرجان و الصدف و عظم السلاحف و ما إلى ذلك، التى يستخرجونها من البحر. و أصحاب البساتين الواقعة على طرق الحج الكبيرة يتعاطون بيع الحنّاء و بلسم «الفلسنك» و التمر من الحجاج.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۴۴

و التجارة الباقية كلها تتلخص فى تزويد المدن بالمحروقات و الخضراوات و المؤن و غير ذلك.

فى الانحاء التى تتواجد فيها البساتين يجدلون ببالغ التفنن من أوراق النخيل الحصائر و المراوح و الحبال؛ و حيث تربية المواشى أكثر تطورا، يصنعون أقمشة صوفية سميكة لأجل المعاطف و الخيام و الأكياس، و يحيكون رحالا كبيرة مزدانة بكثرة من الشراريب لأجل الهواجن. و هناك حرفيون حاذقون يصنعون الأسلحة و شتى الحلى الفضية. و لجميع هذه الأشياء تصريف محلى حصرا.

الوضع السياسى فى الحجاز

دخل الحجاز فى قوام الامبراطورية العثمانية فى عهد السلطان سليم، عام ۱۵۱۷؛ و فى أواخر القرن الماضى و فى أوائل القرن الحالى، كان الوهابيون من نجد يملكون و يحكمون هذا القطر؛ و هم اتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذى دعا فى سنوات ۱۷۴۰- ۱۷۵۰ فى نجد إلى مذهب جديد فى الإسلام يرتكز على القرآن الكريم وحده. و فى سنة ۱۷۹۹ احتل الوهابيون مكة؛ و فى سنتى ۱۸۰۳- ۱۸۰۴ استولوا على المدينة المنورة و لكن إبراهيم باشا المعروف طردهم و انزل بهم بضع هزائم بين سنتى ۱۸۱۰ و ۱۸۲۰؛ و فى سنة ۱۸۱۷ وصل إلى وسط نجد بالذات و استولى على عاصمتهم الدرعية.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۴۵

اسم القبيلة/ عدد الانفس/ امكنة الترحل

بنى هاشم/ ۵۰ ألفا/ ضواحى مكة و المدينة المنورة و ينبع النخلة و ينبع البحر

عنزى/ ۳۵۰ ألفا/ القسم الأكبر على حدود فسلطين؛ عشيرة تلوح بين مكة و المدينة المنورة

جهينة/ ۵۰ ألفا/ ضواحى ينبع النخلة و ينبع البحر و إلى الشمال منهما على ساحل البحر

حثبك/ ألفان/ ضواحى المدينة المنورة

نحاوله/ ۱۲ ألفا/ ضواحى المدينة المنورة. بستانيون على الأغلب

حرب أو بنى حرب/ ۷۰ ألفا/ إلى الغرب و الجنوب من المدينة المنورة

مطير/ ۴۰ ألفا/ ضواحى المدينة المنورة

بنى سليم/ ألفان/ على الطريق الشرقى، بين مكة و المدينة المنورة

عتيبة/ ۲۰ ألفا/ ضواحى الطائف

قريش/ ألفان/ فى جوار مكة. فيما مضى قبيلة جبارة منها تحدر النبى محمد صلّى اللّه عليه و سلم. من جراء الحروب المتواصلة فى القرون الأولى من الإسلام، تشتتوا

هذيل/ ۱۰ آلاف/ جبل القرى

تقيف/ ۲۵ ألفا/ ضواحى الطائف

عدوان/ ألفان/ جنوبى الطائف

أبى الحارث/ ۳ آلاف/ شرقى الطائف

بنى لحيان/ ۲/ ۱ ۱ ألف/ بين مكة و جدة

بنى جحادله/ ۱۰ آلاف/ وادى اللملم، جنوبى لحيان

عوف/ ۵ آلاف/ بين المدينة المنورة و رابغ

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۴۶

إن سلطة الحكومة العثمانية لم ترتكز من قبل و لا ترتكز فى الوقت الحاضر إلا على القوة المسلحة، و لا تتبدى إلا فى النقاط التى ترابط فيها القوات المسلحة. و هذا يعنى أن الأتراك لا يملكون غير المدن و كذلك، بنحو ما، الطريق بين مكة و جدّة، التى تحميها مخافر متعددة، و لكن سلطتهم فى هذه النقاط أيضا لا تحظى بالمكانة اللازمة، الأمر الذى تبيّنه الأحداث التى وقعت مؤخرا؛ فمنذ زهاء عشر سنوات قتلت عبدة فى المدينة المنورة سيدتها؛ و حكمت المحكمة التركية على القاتلة بالسجن، و لكن سكان المدينة طالبوا بإعدامها فورا، مهددين بالهجوم المسلح إذا لم يلّب طلبهم. تراجعت السلطات، و تم إعدام القاتلة على الفور. و فى سنة ۱۸۹۵ جرى فى مكة أمام عيون السلطات هدم بناية يكرهها السكان و معدة للاستعمال كمحجر صحى.

فى غضون أربعة قرون من امتلاك الحجاز لم يقم الاتراك اية صلات بينهم و بين السكان المحليين و لم يستطيعوا أن يهدئوهم و لم يكن لهم عليهم أى تأثير ثقافى. و العلاقات بى الطرفين لا تزال علاقات عداء و عدم ثقة؛ فإن الاتراك يعتبرون البدو كلابا؛ فى حين أن البدو يعتبرون الاتراك كفارا غير مؤمنين. و جميع الاتراك الذين تسنى لى أن اتحدث معهم كانوا يضمرون خوفا و كرها خاصا حيال البدو، و كانوا يحذروننى فى كل حال انه يجب التخوف جدّا من هؤلاء البرابرة. و عندما رحلت الطوابير العثمانية المرابطة فى مكة إلى اليمن، قال الجنود بشماتة كبيرة أنهم يذهبون لضرب العرب.

كانت السلطات الادارية تتميز فى أغلبية الأحوال بأعمال الابتزاز و الاضطهاد؛ أما أعمال العساكر، فقد كانت على الدوام فى منتهى الميوعة و التردد، و لذا لا يكّن البدو حيالها ما يلزم من الخوف و الاحترام. و بين حوادث السنة الجارية (۱۸۹۸)، يمكن التنويه بالهجوم فى شهر أيار (مايو) من قبل عدد غير كبير نسبيّا من البدو على قسم من

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۴۷

الرديف من ۸۰۰ فرد كان فى طريقه من المدينة المنورة إلى ينبع، و بالهجوم فى تموز (يوليو) على خفر قوى كان يرافق قافلة فى الطريق بين مكة و الطائف، علما بأن ضابطين و ۱۶ جنديّا لقوا مصرعهم. و الأحداث من هذا النوع، كما يقولون، تحدث على الدوام، و لا تثير دهشة أحد، و لا تستتبع اية تحقيقات و عقوبات. و لكن، فى السنتين الأخيرتين، كما يقول الجميع، تفاقمت كثيرا أعمال النهب و السلب و الاغتصاب من كل شاكلة و طراز؛ و مرد ذلك، كما يفسرون، من جهة، الوضع الاقتصادى الشاق الذى يعانيه الرحل من جراء إنعدام المطر، و من جهة أخرى، عدم دفع السلطات المحلية لبعض من أشد القبائل إضطرابا و إزعاجا الإعانات المالية المتفق عليها. و لتأمين سلامة حركة القوافل فى ربوع الحجاز لجأت الحكومة التركية من قبل إلى بسط الحماية المسلحة على الطرق الكبيرة فى أخطر الإنحاء و إلى مرافقة القوافل بخفر قوى. و لكن منذ سنة ۱۸۶۴ لم يبق هذا الإجراء سارى المفعول إلا فى طريق أشد إنتعاشا، هو طريق مكة- جدّة؛ و على العموم تم تطبيق نظام آخر عنيت به دفع إعانات مالية لبعض القبائل لكى تمرر القوافل بلا عائق فى أراضيها.

فى عهد بعض من الحكام الاتراك هدأ الحجاز نوعا ما و ساده نظام نسبى؛ و قد ترك عثمان باشا الذى حكم هذه الولاية من سنة ۱۸۸۱ إلى سنة ۱۸۸۷ ذكرى طيبة خاصة. فإن هذا الأدارى المحترم قد ساق الماء إلى جدّة و بنى خطوط الاتصال البرقى بين هذا المرفأ و مكة، و أشاع بعض النظام فى شوارع مكة، و حسّن الحالة الصحية فى منى، و ما إلى ذلك.

و فى عهده، كما يروى سكان المدينة، كان بوسع السكان أن يسافروا بجرأة بين مكة و المدينة المنورة على جملين أو ثلاثة دون أن يتجرأ أحد على مسهم. «كان البدوى على استعداد لذبح جمله الأخيرة فى حال وصول عثمان باشا»، «كان والدنا». هكذا يقول الرجل. و لكن هذا الرجل الذى كان يحترمه الجميع بالقدر نفسه و الذى تميز بطبع صلب

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۴۸

و إستقامة رفيعة، لم يتخذ أية تدابير قمعية لأجل بسط السكينة و الهدوء بين البدو المشاغبين؛ فقد كان يكتفى بأن يدفع لهم بدون أية مماطلة الإعانات المالية المتفق عليها، و كان لا يتحيز لأى طرف، و كان يلقى مسؤولية الأمن على شيوخ القبائل التى تشغل المنطقة المعنية.

إلا أن عثمان باشا الذى برهن أن البدو ليسوا شعبا رهيبا كما كان الاتراك يصورونهم دائما، لم يستطع أن يتعايش مع شريف مكة؛ و بعد دسائس عديدة، اقيل من منصبه.

التقسيم الإدارى

كان الحجاز فى الأزمنة الأولى من احتلاله من قبل الاتراك تابعا لمصر على الصعيد الإدارى، و كان حاكمه المسمى بك جدّة، يقيم فى جدّة.

منذ سنة ۱۵۵۴، صار الحجاز تابعا لليمن، و صار حاكمه يسمى البيلار- بك الحبشى و بك جدّة.

منذ سنة ۱۶۵۵ بدأ الوالى الحبشى يحكم الحجاز من سواكن.

فى السنة التالية انتقل مقر حاكم الحجاز من جديد إلى جدّة، و أخذ يتسمى حينا بوالى جدّة و حينا آخر ببك جدّة، و فى الوقت نفسه بشيخ الحرم أى انه صار يشرف أيضا على المسجد الكبير فى مكة حيث توجد الكعبة.

منذ سنة ۱۸۶۴ صارت مكة مركز الولاية الإدارى الرئيسى؛ و فى مكة يعيش حاكم هذا الإقليم، و إلى الحجاز الذى هو أيضا شيخ الحرم .

و فى الوقت الحاضر ينقسم الحجاز على الصعيد الإدارى إلى ثلاثة

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۴۹

سناجق- سنجق مكة الذى يديره الوالى؛ سنجق جدّة الذى يديره القائمقام؛ سنجق المدينة الذى يديره العامل.

على رأس إدارة الولاية، يوجد إلى جانب الوالى الذى يعينه السلطان العثمانى، الشريف الذى يخضع له جميع سكان الحجاز. فى السنة الأولى من التاريخ الإسلامى، عيّن النبى محمد صلى اللّه عليه و سلم لأجل إدارة مكة شخصا مميزا بلقب «الأمير». و كان الأمراء يعيّنون أيضا فى زمن الخلفاء الراشدين؛ و منذ القرن الخامس الهجرى أخذوا يسمونهم بالشرفاء؛ و هذه الوظيفة المتواجدة بلا انقطاع حتى الوقت الحاضر صارت إمتيازا و راثيا لقبيلة قريش. و للشريف مقر مكة. و عادة كان من النادر أن يتعايش الوالى و الشريف بسلام و وئام نظرا لتشابك و تشوش وظائفهما و صلاحياتهما.

القوات المسلحة

تحتفظ الحكومة التركية لدعم سلطتها فى الحجاز بالأعداد التالية من القوات المسلحة:

- فى مكة المكرّمة

طابوران من الجنود النظامية (فى الطابور ۸۰۰ فرد)

۳ طوابير من الضبطية الخيالة (الدرك)

۱ طابور من الضبطية المشاة

- فى المدينة المنورة

۳ طوابير من الجنود النظامية

۱ طابور من الضبطية الخيالة

۱ طابور من الضبطية المشاة

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۵۰

- فى الطائف

؟؟ طابور من الجنود النظامية

- فى جدّة

؟؟ طابور من الجنود النظامية

- فى رابغ

؟؟ طابور من الجنود النظامية

- فى ينبع

؟؟ طابور من الجنود النظامية

و فضلا عن ذلك، يرابط فى النقاط المذكورة اعلاه فوج من مدفعية القلاع و فوج من المدفعية الجبلية. و فى منى رأيت بطارية ميدانية من أربعة مدافع. فى البحر الأحمر توجد ست بواخر حربية .

القوات المسلحة المرابطة فى الحجاز تدخل فى قوام الفيلق السابع الذى تتواجد أركانه فى اليمن (مدينة صنعاء).

إن مد الوحدات العسكرية المرابطة فى الحجاز بالرجال يجرى على الأغلب من الأناضول. و مدة الخدمة، نظرا للظروف المناخية الخارقة المشقة، سنة فقط، رغم أن التسريح إلى الرديف (الاحتياطى)، كما سمعت، لا يجرى فى حينه، و لذا يخدم كثيرون ثلاث سنوات.

سلك الضباط، من الاتراك و الأكراد على الأغلب؛ و لم اتلاق إلا مع ضابط واحد من مواليد الجزيرة العربية. و بين الضباط من الرتب

الدنيا، عدد كبير جدّا من الشيوخ ترقوا من رتبة الجنود العاديين.

بندقية «مارتينى» تشكل سلاح الرجال. المدافع فى البطاريات

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۵۱

الجبلية نحاسية، و تحشى من الخزنة، و فى بطاريات الميدان، فولاذية؛ و فى القلاع مدافع قديمة من شتى الأنظمة و العيارات.

و قد أضيفت إلى تجهيز الرجال مناديل قطنية بيضاء سميكة، مساحتها؟؟ أرشين مربع يلفون بها رأس فوق الطربوش فى القيظ.

طعام الجنود، كما سمعت، مرض؛ و أقول بالمناسبة انه تظهر فى بازارات مكة و المدينة المنورة أعداد كبيرة من أرغفة الجنود المخبوزة جيدا من طحين شبه أبيض و يشتريها الحجاج بطيبة خاطر. أثناء إقامتى، وزعت القوات المسلحة كما يلى: فى الرأس الأسود و البحرة، حيث الطوابير ترابط موقتا حتى نهاية حركة الحجاج، فى خيام سيئة جدّا؛ فى مكة، ترابط العساكر فى ثكنات فى قلعتين صغيرتين؛ فى رابغ ترابط فى منشآت ضمن القلعة؛ و فى المدينة المنورة، ترابط فى ثكنات حسنة المنظر و لكنها قذرة جدّا فى الداخل كما رووا لى؛ و أخيرا، فى ينبع، تعيش فى الخيام.

نسبة الأمراض و نسبة الوفيات بين الجنود، كما يقول الجميع، كبيرتان جدّا؛ فإن المناخ غير المألوف يمارس تأثير فتاكا. و رأيت فى مكة و المدينة المنورة و جدّة (فى خارج المدينة) مستشفيات عسكرية لعلاج المرضى.

و قد سمعت من السكان المحليين شكاوى من السرقات الصغيرة التى يقترفها الجنود من الدكاكين و من المحال التجارية الأخرى. و قد فسّر السكان ذلك قائلين: «لا يعطونهم ما ينبغى و لذا يسرقون».

و الجنود لا يتحلون أبدا بهيئة عسكرية جيدة، الأمر الذى يفسره ضباطهم الذين تسنى لى أن اتحدث معهم بقصر مدة الخدمة و بالمناخ الحار الذى لا يتيح تدريبهم كفاية.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۵۲

فى الطريق من الرأس الأسود إلى مكة، عرّجت على أحد المخافر الواقعة على هذه الطريق و الحديثة البناء. يشغل المخفر برجا مستديرا واحدا فقط قطره و علوه زهاء ۸ ارشينات. المدخل يسده باب خشبى سميك؛ فى الجدران مزاغل ضيقة أى نوافذ يمكن استعمالها بشكل مريح و مناسب، بالوقوف على الواح خشبية للنوم مبسوطة بمحاذاة الجدران.

و داخل البرج يوجد مخرج إلى سطح منبسط ينتصب عليه جدار ارتفاعه نحو أرشينين- و له ثغرات لأجل إطلاق النار. و على السطح منصة و سقيفة لأجل الحارس.

هذا الإنشاء لأجل المخفر بدا لى عقلانيا جدّا نظرا للظروف المحلية.

كان فى المخفر ۸ جنود (عادة ۱۰- ۱۲) بإمرة ضابط صف (جاويش). و تبين من حديث هذا الجاويش الذى يخدم هنا للسنة الثالثة أن نهب المارة يجرى على الدوام، و أحيانا حتى على مرأى من المخفر.

و نظرا لقلة الرجال ليس دائما يستطيع المخفر أن يهب إلى النجدة.

و أحيانا تجرى عمليات الهجوم و النهب بدرجة من السرعة بحيث انه قبل أن يفلح رجال المخفر فى تقديم المساعدة يكون الأشقياء قد تواروا فى الجبال؛ و ليس للمخفر أية و سائل للملاحقة.

ميزانية الحجاز

من الواضح أن الحجاز من افقر الولايات العثمانية، و إنه لا يتسم بجانب من الأهمية إلّا لأن المدينتين المقدستين بنظر المسلمين- مكة المكرّمة و المدينة المنورة- تقعان فيه.

فى الطبعة الأخيرة لحولية «الحجاز» لعام ۱۳۰۶ ه، تبلغ الواردات لسنة ۱۳۰۴ ه فى الولاية ۸۱۵، ۵۵، ۱ قرشا، منها:

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۵۳

رسم الإنتاج/ ۲۵۰۲۰۰/ قرش

رسم الوزن/ ۳۰۰۰۰/ قرش

من استثمارات صيد السمک/ ۵۶۰۰۰/ قرش

رسم الدخول/ ۹۸۶۶۲۹/ قرش

الزکاة/ ۱۳۹۰۴۵/ قرش

رسم النقل/ ۳۹۵۰۰/ قرش

رسم المرافئ/ ۳۶۳۰۰/ قرش

واردات مختلفة/ ۲۲۱۳۱/ قرش

النفقات فی السنة ذاتها:

الشؤون الداخلية/ ۵۷۱۷۴۲۲/ قرشا

المالية/ ۴۳۳۹۷۵۱/ قرشا

العدلية/ ۱۳۹۱۶/ قرشا

التعليم العام/ ۵۲۷۶۸/ قرشا

التدابير الصحية/ ۷۶۷۰۰/ قرشا

البريد و البرق/ ۲۱۶۴۰/ قرشا

القوات المسلحة/ ۶۹۶۳۴۵۰/ قرشا

الدرک/ ۵۵۵۷۴۷۷/ قرشا

البواخر الحربية/ ۷۶۵۲۰۸/ قرشا

الحاصل/ ۲۳۵۰۸۳۳۲/ قرشا

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۵۵

الفصل الثانی حرکة الحج فی الحجاز

خصائص ظروف المواصلات

نظرا لمخاطر الطرق فی الحجاز، تجری المواصلات هنا فی ظروف خاصة. الطريق بين مكة و جدّة هی الطريق الوحيدة التی من الممكن عبورها فی أی وقت من السنة و جماعات غيرة كبيرة، و إن يكن ببعض الخطر، و مرد ذلک إلی حمايتها؛ أما الطرق الأخری، فإن حرکة السير عليها لا تجری إلا بجماعات كبيرة و فی وقت معين من السنة و بتدابير احتراس خاصة.

القافلة و الرکب

لأجل النقل يستعملون فی المعتاد بعيرا- أما بعيرا للنقل (جملا)، و فی هذه الحالة يشدون إلی ظهره سلتين (قفتين) لهما، لأجل التظليل، ضرب من خصين، و يسميان بالرحل، و أما بعيرا خفيفا (هجينا) يشدون علی ظهره سرجا فقط. و عدا الرحال يوجد أيضا ما يسمی

«التختروان»- أى اكشاك معلقة بين عريشين طويلين. و تختروان يتطلب جملين للنقل غالبا ما يستبدلونهما نظرا لثقل هذه المنشأة الكبير، و لذا يكلف النقل عليهما غالبا جدّا، الأمر الذى لا يستطيعه سوى كبار الأغنياء.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۵۶

و من الجمال يؤلفون قوافل كبيرة نوعا ما بقيادة «المقوّمين» (قافلة باشى)؛ أما الهجائن، فيشكلون منها ركبا يقوده على طول الطريق كله شيخ ينتخبه المسافرون أنفسهم عند الإنطلاق.

و نظرا لمخاطر الطريق، تسير القوافل عادة فى النهار، و تنطلق فى الصباح الباكر و تتوقف تبعا لطول المرحلة. و تشكل جمال كل مقوّم مجموعة منفردة تصطف وفقا لعرض الطريق، فى ثلاثة أو أربعة خطوط متوازية. و تسير المجموعات بحيث لا تكون بعيدة بعضها عن بعض.

و المقوّم نفسه يمضى عادة على ظهر هجين؛ أما سواقو الجمال، فإنهم يمضون دائما سيرا على الأقدام مهما كان الطريق طويلا، لأن الرحال (الشقادف) التى تشغل مكانا كبيرا من حيث العرض غالبا ما تتصادم، فلا يندر أن يتعرض الجالسون فيها لانقلابات غير مستطابة أبدا. و فى أوقات القيظ من السنة ينطلق الركب بحكم الضرورة ليلا و لكن فى الساعة الواحدة أو الثانية، و يتوقف حوالى الساعة السابعة، ثم ينهض حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر و يسير حتى الساعة ۸ أو ۹ مساء.

و كما فى القوافل، كذلك فى الاركب لا يطلقون الجمال للرعى أثناء الوقفة، بل يقعدونها فى الحال و يقدمون لها العلف، و ذلك حوالى ۱۵ رطلا فقط فى اليوم الواحد لكل جمل موزعة على ۳ مرات؛ و يسقونها حسب الامكان مرتين فى اليوم.

السير على الهجائن يجرى بسرعة نسبية- ۵۰- ۸۰ فرسخا فى اليوم، و لكن السفر عليها متعب للغاية، و لا يجرى إلا بين مكة و المدينة المنورة، و من المدينة المنورة بإتجاه بغداد و البصرة؛ أما سفر القوافل، و إن يكن بطيئا جدّا- ۳- ۲/ ۱ ۳ فرسخا فى الساعة، ناهيك بأن قطع المرحلة يدوم أحيانا ۲۰- ۲۵ ساعة، فهو على العكس أسهل إذ أن الشقادف تعتبر مكيفات مريحة نسبيّا يمكن أن تتوفر فيها الحماية من الشمس أو أن يتمدد فيها المرء تماما.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۵۷

عادة تجرى حركة القوافل و الركب فى غضون ۴- ۵ أشهر من الحج و فى شهر رجب حين يقوم سكان مكة بالحج إلى المدينة المنورة؛ أما فى الوقت الباقى، فيتوقف كل اتصال.

حين تنطلق قافلة من مكة أو من المدينة المنورة أو من ينبع، فإن السلطات التركية تأخذ أحيانا من المقوّمين رهائن خاصة تبقى قد الاعتقال إلى أن يأتى نبأ عن وصول القافلة إلى مقصدها، ثم يطلقون سراحهم بصرف النظر عما إذا كانت قد حدثت فى الطريق حوادث نهب و سلب فريدة أم لا.

البدو و عمليات النهب و الإعتداء

خطر السفر يتلخص أمّا فى عمليات النهب الصغيرة التى يقوم بها البدو، و أمّا فى إعتدائهم السافر على القوافل، و أما فى المقاومة المسلحة التى تبديها بعض القبائل لمرور القافلة فى أراضيها.

فى الطريق بين مكة و جدّة، حيث الحركة دائمة، تشكلت من شتى الأوباش عصابات كاملة من قطاع الطرق تنهب و تسلب على الدوام رغم وجود المخافر، أمّا فى الطرق بين مكة و المدينة المنورة و ينبع، فإن هذا الشر يتطور أثناء حركة الحجاج؛ فإن قبائل برمتها تتعاطى السلب و النهب، دون أن تعتبر البتة ذلك جريمة، و تبيع علنا و بكل حرية ما تحصل عليه من الأشياء بهذه الطريقة، و أثناء إحدى الوقفات فى الطريق بين مكة و المدينة المنورة، ظهر بدوى من بطن لحابة و أخذ يتنقل على الركب كله عارضا بيع سلاح و حزام و البسة حج و غير ذلك، و بدلة حاج قتله قبل ذاك، الأمر الذى اعترف به بنفسه على المكشوف. و رفم السعر التافه الذى طلبه،

لم يعمد أحد من الركب إلى شراء المعروض. لقد أصبح نهب الحجاج حرفة مفيدة؛ و كما كان التكنيون يقولون فى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۵۸

الأزمنة الغابرة لدائنيهم:- «أنتظر قليلا، سأذهب إلى بلاد الفرس لأجل نهب المال و أدفع دينى»، كذلك البدو يطمئنون دائنيهم قائلين: «أصبر حتى وصول الحجاج، انهب أحدا منهم و ادفع دينى».

إن البدو الذين يتعاطون النهب و السلب يتتبعون القافلة كما تتتبع الذئاب الجائعة القطيع، متخفين نهارا فى مكان ما فى الجوار، ملاحظين المسافرين المتخلفين، و خارجين إلى القيام بعملهم عند هبوط الليل.

و حين تتوقف القافلة فى الظلام لأجل الراحة، و يحدث فى هذه الحال الهرج و المرج العادى، يتسنى لهؤلاء الضوارى أن يختلطوا مع أهل القافلة و يقطعوا الزنانير التى تحفظ فيها النقود عادة، صاعقين مسبقا بضعة أشخاص بضربات على القفا بالهراوة، الأمر الذى غالبا جدّا ما يسفر عن الموت. و عند ما تكون القافلة قد وقفت و هدأ الهرج و المرج، و اضيئت المحلة بالمشاعل، يترصد هؤلاء الأشرار المسافرين الذين يتنحون لقضاء حاجتهم و يبتعدون بدون احتراس، و نادرا ما يعودون. و فيما بعد، حين تغفو القافلة، يعمد هؤلاء البدو إلى السرقة، متسللين خفية، و يسلبون كل ما تقع عليه ايديهم. و هناك كثيرون يعتقدون، و ليس دون مبرر، أن مقترفى أعمال النهب و السلب هم سواقو جمال القافلة بالذات الذين، كما يقال، يعرفون جيدا جدّا الأشرار، و يعطونهم التعليمات بصدد من ينهبون و كيف، و ما إلى ذلك؛ و لهذا يحاول المسافرون بجميع الوسائل أن يستميلوا سواقى الجمال فى قافلتهم، بإعطائهم يوميا البخشيش، و بقايا الطعام، و ما شاكل.

و الأتراك هم، لسبب ما، أكثر من يعانون من عمليات السلب و النهب هذه؛ و فى هذه السنة، بلغ عدد القتلى من الحجاج، أثناء سير قافلة من الحجاج من المدينة المنورة إلى مكة المكرّمة زهاء ۵۰ شخصا، و بلغ فى طريق العودة ۱۰ أشخاص، و القتلى جميعهم تقريبا من الأتراك.

و مرد ذلك، كما يفسرون، إلى أن الأتراك المسلحين دائما يتنحون بلا

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۵۹

احتراس عن القافلة آملين فى سلاحهم، و يرفضون التكرم بالبخشيش على سواقى الجمال فى قافلتهم، و يحملون، لما فيه إغراء البدو، زنانير ضخمة جدّا؛ و لكن كره العرب العام للأتراك يلعب هو أيضا، أغلب الظن، دورا معينا فى هذا المجال.

فى هذه السنة، لم يتضرر سوى مسلم واحد من رعايا روسيا؛ ففى الليل ضربوه بحجر أثناء الوقفة فى جوار رابغ. و لكنه أصيب بخدش بسيط فقط؛ و فى الليل نفسه سرقوا منه كيسا كان فيه كل ما يملكه. و قد عرفت بهذه الحادثة فى الطريق من المدينة المنورة إلى ينبع؛ صحيح أن المتضرر تقدم من القائمقام بشكوى عند وصوله إلى ينبع، و لكن الشكوى لم تلق قبولا لأنها لم ترد فى الوقت المناسب. و هذا الحاج أكمل الطريق الباقى بأموال مواطنيه. و عمليات نهب المسلمين من رعايا روسيا نادرة جدّا على العموم، و ذلك جزئيّا بفضل المقوّم العجوز محيسن الذى يقوم منذ أكثر من ۴۰ سنة بنقل الحجاج الروس و يعرف كيف يردع بدويّيه؛ و لربما أيضا بفضل سحر الأسم الروسى.

و هناك أمثلة على الإعتداءات السافرة على القوافل. و هذا ما يحدث عند ما يمرّ المقوّم عبر منطقة القبيلة المعادية له. و فى مثل هذه الأحوال تتلخص مهمة المقوّم، أما فى عقد الصلح أو فى شق طريق له بالسلاح عبر الأرض المعادية. و فى شهر نيسان (ابريل) من السنة الجارية وقع فى جوار رابغ إعتداء من هذا النوع على قافلة محيسن المذكور أعلاه؛ و قد تسنى لرجاله المتفوقين عددا صد الاعتداء. و لم يسمع الحجاج غير صفير الرصاص؛ و كان نصيبهم الخوف و حسب. و فى سنة ۱۸۹۵، وقع إعتداء مماثل؛ و لكن بعد تبادل اطلاق النار زمنا طويلا، تجمع المتعادون فى حلقة و عقدوا الصلح.

و هناك ظاهرة أخطر، هى حجز جميع القوافل بسبب عدم دفع الإعانة المالية التى وعدت بها الحكومة التركية لبعض القبائل المشاغبة

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۶۰

التى تشغل الطريق بين المدينة المنورة و ينبع. إن البدو، كما سبق أن أشرنا، يعتبرون أنفسهم الأسياد الحقيقيين لمناطقهم، و يعتقدون على هذا الأساس انه يحق لهم أن يجيزوا أو يمنعوا أن تمر فى أراضيهم القوافل التى للسلطات مصلحة بهذا النحو أو ذاك فى سلامتها. و فى هذه الحوال يرسلون لأجل التفاوض و سطاء من ممثلى القبائل المجاورة المحترمين، و لكن ليس دائما يبلغ هؤلاء الهدف المنشود. و فى سنة ۱۸۹۷، أبقى بنو حرب الطريق بين ينبع و المدينة المنورة مغلقة طوال ثمانية أشهر، فارتفعت أسعار جميع سلع الضرورة الأولية- الشاى، السكر، الطحين، الكاز، و خلافها- بضع مرات فى المدينة المنورة.

و يعتبر العرب أنفسهم أن الشريف الحالى و والى الحجاز الحالى مسؤولان عن الإساءات المذكورة أعلاه، إذ انهما لا يعطيان البدو ما يحصلان عليه لأجلهم و لا يتخذان إجراءات أخرى أشد فعالية لوضع حد لنزواتهم.

المحملان السورى و المصرى

نظرا لمخاطر الطريق، يلجأون من سحيق الزمان إلى إرسال قوافل الحجاج كل سنة إلى مكة و المدينة المنورة لمناسبة زمن الحج، بحيث تكون قوافل كبيرة جدّا، و يحميها خفر قوى، و يسير على رأسها محمل.

و باسم المحمل كان يسمى من قبل البعير الذى كانت اسرة النبى (صلى اللّه عليه و سلم) تقوم عليه بفريضة الحج من المدينة المنورة إلى مكة المكرّمة؛ و فيما بعد، أخذوا يطلقون هذا الأسم على خيام مزينة ببالغ الغنى محمولة باحتفال خاص على جمال معدة خصيصا لها.

أحد المحامل- المحمل السورى- ينطلق من دمشق، حيث يتجمع قبيل إنطلاقه عدد كبير من الحجاج، سواء من سوريا ذاتها أم من الأناضول و بلاد فارس المجاورتين. و تخصص لحماية القافلة فصيلة

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۶۱

خاصة تألفت فى سنة ۱۸۹۸ من ۵۵۰ شخصا من الخيالة بينهم ۱۵۰ شخصا على الهجائن و ۲۰۰ من الضبطية الخيالة، بصحبة مدفعين جبليين، و برئاسة باشا خاص يعهد إليه بأن ينقل إلى مكة المكرّمة و المدينة المنورة، عدا مختلف الأشياء لأجل الحرمين فى هاتين المدينتين، مبالغ مالية لكل نفقة الولاية السنوية. و عادة يقطع المحمل السورى الطريق إلى المدينة المنورة فى غضون ۲۷- ۳۰ يوما، و من المدينة إلى مكة فى غضون ۱۲ يوما، و بعد إنتهاء المراسم، يعود فى الحال إلى دمشق بالطريق ذاته.

المحمل الآخر- المصرى- ينطلق من القاهرة. قبل أن يحتل الإنجليز القطر المصرى، كان المحمل ينطلق فى طريق البر عبر السويس و العقبة و الوجه و ينبع و اربغ إلى مكة و يعود بالطريق ذاته، معرجا على المدينة المنورة. أن الآن فينقلون المحمل المصرى من السويس إلى جدّة بالباخرة، و يعيدونه عبر المدينة المنورة إلى الوجه حيث تنتظره باخرة خاصة. و مع المحمل المصرى ينقلون «الكسوة» المهيئة كل سنة فى القاهرة، و هى غطاء حريرى أسود لأجل الكعبة. و فى سنة ۱۸۹۸ وصل المحمل المصرى إلى جدّة و دون أية حماية لأن الإنجليز، كما شاع، لم يوافقوا على إعطاء العساكر؛ و لذا خفرته فصيلة تركية فى ربوع الحجاز.

فى القرن العاشر الهجرى كان ينطلق محمل آخر من مدينة حيس فى اليمن، و لكنه توقف فيما بعد. قبل تطور الملاحة بالبواخر و شق قناة السويس كانت المحامل تتسم بأهمية هائلة بالنسبة للحج. فآنذاك كانت

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۶۲

دمشق و القاهرة تشكلان نقطتى التجمع الرئيسيتين بالنسبة لجميع الذاهبين إلى الحجاز من الشمال و من الغرب؛ و لكن إذا كان المحمل قد احتفظ فى الوقت الحاضر ببعض الأهمية، فهو المحمل السورى فقط؟

سبل الحجاج فى الحجاز

إن السبل فى الحجاز هى بوجه الحصر دروب لمطايا الحمل؛ أما الحركة على العجلات، حتى و لو توفرت المركبات، فيحول دونها الرمل الواعس فى بعض الإنحاء و أحيانا انهيالات الحجارة. و السبيل الوحيد الممكن لأجل حركة العجلات هو السبيل بين جدّة و مكة و منها حتى عرفات؛ و فى هذا الاتجاه ينطلق الشريف و الوالى اللذان يملكان وحدهما المركبات فى الحجاز و يسافران بالعربات المكشوفة.

تربة جميع الطرق رمل خشن جدّا، مكثف فى المعتاد، و نادرا ما يكون و عسا جدّا. و الطرق فى كل مكان، بجوار الجبال، تتناثر فيها أحجار متفاوتة الكبر؛ أما الضيقة و المعبر، فتعترضها كسور من الصخور تصعّب الحركة كثيرا.

و على الأغلب يستعملون فى الطريق ماء الآبار؛ و الآبار تختلف كثيرا من حيث العمق- ۵ ساجينات إلى ۱۵ ساجينا؛ و هى اسطوانية الشكل، و قطرها كبير ۲/ ۱ ۲- ۳ أرشينات، و جميعها ملبسة جيدا بالحجارة و مزودة فى غالب الأحيان بمزاريب من المادة نفسها لأجل السقاية. و يستقون الماء بقرب جلدية كبيرة يعلقونها بالحبال، علما بأن عرض الآبار يتيح لبضعة أشخاص العمل فى آن واحد. و نادرا ما تقع العين على ادوات من نوع البكرات الخشبية.

و بحكم العادة عند البدو، يستطيع جميع المارة أن يستقوا الماء من الآبار بلا عائق و مجانا؛ أما الماء من الصهاريج، فلا يمكن الحصول عليه إلا بالشراء، بدفع الثمن.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۶۳

و قد تسنى لى شخصيا أن اسافر من الرأس الأسود (و تقع على ساحل البحر جنوبى جدّة على بعد زهاء ۲۰ فرسخا) إلى مكة و منها إلى عرفات ثم من مكة فى طريق غاير إلى المدينة و منها إلى ينبع. أما الطرق الأخرى، فكنت استفيد بصددها من المواصفات التى وضعها محمد صادق باشا الذى قاد مرارا المحمل المصرى و الذى عبر جميع الطرق الرئيسية فى الحجاز.

الطريق من جدّة إلى مكة و منها إلى عرفات

الطريق بين جدّة و مكة هو أكثر السبل انتعاشا و انسبها فى الحجاز؛ طوله زهاء ۷۰ فرسخا؛ و تحرسه علة كل امتداده مخافر يضم كل منها ۱۰- ۱۲ رجلا، و يبعد الواحد منها عن الآخر ۵ فرسخات تقريبا. و فى النقاط التى يتوفر فيها الماء، توجد سقائف من القصب، و هى ضرب من خانات قهوة أى مقاه يمكن الحصول فيها على القهوة و الشاى. و على طول الطريق حتى حدة غير مستطاب فى كل مكان. و بمحاذاة الطريق ينطلق الخط التلغرافى الواصل حتى مكة على أعمدة جيدة من الحديد الصب، و منها عبر عرفات إلى مدينة الطائف على أعمدة خشبية.

من جدّة إلى البحرة، تتجه الطريق شرقا، و تتصاعد بصورة غير ملحوظة، و تعبر قاعا منبسطا لواد عريض محاط بجبال غير عالية، مغطاة هنا و هناك باجمات من الشعب القاسى و الشجيرات الشائكة «الشوك»؛ و التربة صلبة فى كل مكان. و على بعد ۶ فرسخات تقريبا عن نقطة الانطلاق، تقع أول قهوة فى الرأس القائم، و تقع «القهوة» التالية فى رغامه، على بعد ۴ فرسخات تقريبا، ثم، على البعد ذاته، قهوة جراده، ثم على بعدين متساوين، زهاء ۲/ ۱ ۲ فرسخا، قهوة فرقاد و قهوة عوض؛ و على بعد ۶ فرسخات تقريبا من عوض يدخل الطريق وادى فاطمة العريض و ينعطف إلى الشمال الشرقى، متواجدا دائما فى وسط الوادى المذكور.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۶۴

قافلة من الحجاج بين جدة و مكة المكرمة

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۶۵

و على بعد ۱۵ فرسـتا من عوض تقع بلـدة البحرة العربيـة، فى وسط الطريق إلى مكـة تقريبا؛ و فيها مقر الطابور الذى يحرس الطريق. و يحتفظ الطريق بالاتجاه الشـمالى الشـرقى، فى وادى فاطمـة و يصل على بعـد ۷ فرسـتات عن البحرة إلى حـدّة،- و هـذه أول بلدة فيها بساتين. صـحيح أن الماء عـذب نسبيّا، و لكنه يعج بحشـرات ما. و على بعد ۲ فرسـتا تقريبا عن هذه النقطة الأخيرة، يمضـى الطريق فى الرمال ثم ينعطف من الوادى صوب الشـرق، و يحتفظ عموما بهذا الاتجاه حتى مكة بالذات، و يتلوى بين الجبال، متحاشـيا المرتفعات و المنحـدرات؛ و بـدءا من حـدّة، تتزايـد الجبـال علوا بصورة تدريجيـة، و تتزايـد الفجاج ضـيقا، و يصـبح الماء أعـذب. و على بعـد ۴ فرسـتات تقريبا عن جدّة، تقع سالم، ثم على بعد ۹ فرسـتات، تقع شميسى؛ و بين هاتين النقطتين توجد علامة بصورة أعمدة مركبة من الحجـارة تشـير إلى حـدود الحرم. ثم تأتى مقتله على بعـد ۴ فرسـتات، ثم علـة بعد ۳ فرسـتات تأتى بسـتان، و عنها تبعـد مكة زهاء ۵ فرسـتات؛ فى المرحلة الأخيرة يتميز قاع الفجاج، الذى تمر به الطريق بتعرجات كبيرة لا يمهدها الماء؛ و مرد ذلك إلى أن التربة صخور بصخور. و فى مثل هذه الأماكن، نحت الناس فى قديم الزمان على كل عرض المضيق درجات عريضة تصعّب التحرك على العجلات و لاـ تسـهل التحرك على مطايـا الحمـل أيضا؛ و على مثل هـذه الـدرجات تقع العين فى كثير من الطرق فى ضواحى مكـة و المـدينة المنورة.

المسافـة بين جدّة و مكة تقطعها القوافل عادة فى غضون يومين، مع وقفة لمبيت الليل فى البحرة أو فى حدّة؛ أما المسافرون على ظهور الحمير فإنه يتسنى لهم قطع المسافة فى يوم واحد.

و بعـد مكـة، تنطلق الطريق، مع احتفاظها بالاتجاه السابق، و لكن مع تميزها بارتفاع أكبر، فى قاع فـج عميق و ضـيق، هو و أدى المنى؛ الجبال المحيطة، التى تبلغ علوّا كبيرا، تخلو من اية نباتات، و تتألف

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۶۶

حصـرا من كتل صـخرية. و على بعـد زهاء ۷ فرسـتات من مكـة، يضـيق الفج كثيرا (حتى ۲۰- ۳۰ ساجينا)، ثم يبـدأ يتسع من جـديد تدريجيا بشـكل قنينة؛ و فى هذا الموقع المحصور بين جبال عالية، تقع بلدة منى المؤلفة من زهاء ۲۰۰ بيت غير كبير، لا يسكنها الناس إلا فى غضون ۳ أيام من السنة، أثناء الحج.

و من منى يتسع الفج، و يقل ارتفاع الجبال؛ و يسـتمر طابع المحلة هذا زهاء ۶ فرسـتات حتى المزدلفة التى لا تتميز إلا بمسجد وحيد لا شأن له إلا فى زمن الحج. و على بعد زهاء فرسـتا اثنين من النقطة الأخيرة، يضيق الفج من جديد حتى ۴۰- ۵۰ ساجينا، و تمتد الطريق زهاء ثلاثة فرسـتات بين جدارين جبليين متوازيين و تخرج على و هدة رملية شاسـعة ينتصب على طرفها الشمالى الشرقى جبل عرفات. و التربة على امتداد الطريق كله رميلة، و تغدو واعسة بدءا من منى. و يستعملون الماء من مجرور مكة الذى يمتد فى هذا الفج.

إن طريق الحـج تنتهى فعلا عنـد عرفات و لكن الـدرب الـذى لا يجيز غير تحرك الحمير يسـتمر إلى أبعـد، حتى مدينة الطائف، عابرا جبل القرى فى محلة على علو ۵۸۲۰ قدما. و هذا الدرب هو فى الصيف اقصر السبل و أكثرها إنتعاشا بين مكة و الطائف.

السبل بين مكة و المدينة المنورة

بين مكة المكرّمة و المدينة المنورة توجد أربع طرق، أحداها تتلوى حول جبال الحجاز من الشرق، و الأخرى من الغرب. و اختيار هذه الطريق أو تلـك عنـد الإنطلاـق من مكـة يجرى عـادة بإشارة من الشـريف الـذى يعرف العلاقات بين مختلف القبائل كما يعرف على العموم وضع الأمور بين البدو. و هناك طريق خامسة هى السبيل البحرى و لكن نظرا

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۶۷

للمصاعب المذكورة أعلاه فى المواصلات بين ينبع و المدينة، لا يستفاد فى السنوات الأخيرة من هذا الاتجاه مع انه أسهل.

فيمـا يلى أسوق أسـماء النقـاط التى تجـد فيهـا القوافل المواقف فى المعتاد؛ و لكن لا بـد من الإشارة إلى أن البـدو الـذين يملكون ما

يكفى من القرب لأجل الماء ليس دائما يمضون فى هذه المسيرة، غالبا جدّا ما يأخذون احتياطيا من الماء و يتوقفون أيضا، حسب الظروف، فى أماكن خالية تماما من الماء.

إن الطريق السلطانى هو بين الطرق الثلاثة انسبها و أسهلها.

جميع القوافل و الركب التى تنطلق إلى المدينة المنورة تجتمع قرب جامع عمر الواقع على نحو خمسة فرسخات إلى الشمال الغربى من مكة المكرّمة.

المرحلة الأولى حتى وادى فاطمة؛ حوالى ۲۵ فرسخا من مكة.

يتجه الطريق إلى الشمال الغربى بين كثبان الرمال التى تتخللها مرتفعات و منحدرات طفيفة، و يدخل قبل النقطة النهائية بزهاء فرسخا اثنين إلى مضيق وادى فاطمة الواسع الذى يتواجد قرب طرفه الغربى نبع كبير ذو ماء عذب و بساتين بالأسم نفسه تتوقف القوافل قربها.

المرحلة الثانية، حوالى ۵۰ فرسخا، حتى آبار و بلدة اسفان و بئر الطفلة. التربة فى هذه المرحلة رمل و عس فى كثير من الأحيان؛ و الجبال الصخرية العالية التى تحيط بالطريق غالبا ما تفترق و تشكل سهولا رميلة عريضة. و هناك كثرة من الأشجار، و أعشاب قاسية، و السنا المكى. و قبل اسفان توجد مزروعات شاسعة من الذرة الصفراء و القرعيات. الماء فى الآبار ممتاز، و وفير. و فى القرية يمكن شراء البيض و الحليب و الخبز.

و هناك أكواخ بناها السكان من الأغصان و العشب الجاف يؤجرونها من عابرى السبيل لقاء مبلغ معين.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۶۸

المرحلة الثالثة، حوالى ۳۵ فرسخا، حتى نبع خليص. الطريق فى الفرسخات الأربعة الأولى صعبة جدّا، و تمر فى شق ضيق جدّا تسده الحجارة مع تربة رملية و عسة. على السفوح المجاورة تظهر ساحات كبيرة من قطاعات مطهرة من الحجارة و معدة لأجل الزرع و السقاية بماء السماء. ثم يتجه الطريق بين مجموعات متفرقة من الجبال. التربة فى كل مكان رملية جدّا؛ النباتات كثيرة. فى خليص مزارع من النخيل و القرعيات.

المرحلة الرابعة، حوالى ۳۵ فرسخا، حتى بئر و بلدة قضيمة.

الطريق من خليص تنحرف أبعد من الشمال، و تتجه فى الفرسخات ال ۱۰ الأولى فى رمال و عسة. الجبال أقل ارتفاعا و أكثر تفرقا. ثم يخرج الدرب إلى شريط ساحلى مسطح، متساو (تهامة)، و يتجه بموازاة ساحل البحر، بعيدا عنه زهاء ۶- ۷ فرسخات. التربة فى تهامة مناسبة جدّا فى كل مكان لأجل الحركة- رمل بحرى مرصوص دون نتوءات و وهاد و اوقاط و ما إلى ذلك. غالبا ما تقع العين على شجيرات العشّر و الأعشاب. قبل الوصول إلى البلدة، تنبسط مزارع القرعيات على جانبى الطريق. الماء فى الآبار مالح نوعا ما. و فى البلدة، كما فى اسفان توجد أكواخ لأجل عابرى السبيل.

المرحلة الخامسة، حوالى ۶۰ فرسخا، حتى بلدة رابغ. تنطلق الطريق دائما على ساحل البحر؛ و هى مستوية تماما و مناسبة جدّا لأجل الحركة. رابغ بلدة غير كبيرة تقع على بعد نحة فرسخا اثنين من ساحل البحر. نظرا لموقعها فى عقدة طريق بين مكة و المدينة المنورة، و نظرا لوجود أكثر البدو ميلا للشغب و التمرد بين الرحل، و أكثرهم تعديا و سلبا لقوافل الحجاج، تعلق السلطات التركية عليها أهمية خاصة و تحتفظ هنا على الدوام بنصف طابور من القوات المسلحة المرابطة فى قلعة خاصة.

و فى هذه البلدة ۳۶۹ نسمة و ۱۱۶ بيتا مبنية من الطوب الأخضر. أثناء

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۶۹

تحرك قوافل الحجاج يفتحون هنا زهاء ۶۰ دكانة تتاجر على الأغلب بالمؤونة. و فى البلدة سبع آبار ذات ماء مالح نوعا ما؛ و لذا يستقون الماء عادة من الصهاريج المقامة خارج البلدة. القوافل التى تعبر رابغ تتوقف عادة فى خارجها. من الجانب الشمالى و الغربى تقع بلصق البلدة مزارع شاسعة من النخيل.

المرحلة السادسة، حوالى ۲۵ فرسـتا. حتى بئر مسـتوره. تنطلق الطريق باستمرار على شاطئ البحر؛ و هى ملائمة جدّا لأجل الحركة. بين آبار مستوره بئر واحدة فقط يصلح ماؤها للشرب.

المرحلة السابعة، حوالى ۴۰ فرسـتا. حتى آبار بير الشيخ. تستمر الطريق على شاطئ البحر، و تنعطف إلى الشمال قبل الوصول إلى الآبار المذكورة، و تدخل الجبال. ماء الآبار عذب.

المرحلة الثامنة، حوالى ۴۵ فرستا. حتى بلدة الصفراء. تنعطف الطريق صوب الشمال الشرق و تستمر صعودا فى مضيق وادى الصفراء. فى هـذه البلدة زهاء ۵۰۰ نسـمة؛ و بفضـل الينـابيع توجـد بسـاتين و مزارع، و على الأغلب من النخيل و من أشـجار الليمون و الحناء و الفلسنک.

المرحلة التاسعة، حتى آبار بير العباس؛ حوالى ۴۰ فرستا. تنطلق الطريق فى الفج نفسه الذى يزداد ضيقا بعد الصفراء. على بعد زهاء ۱۰ فرسـتات من نقطة البداية تقع بلدة شبيهة ببلدة الصفراء؛ اسمها الحمراء و هى بلدة ذات بساتين و ماء عذب. على البعد نفسه عن النقطة الأـخيرة، بلـدة الجديـدة- و هى عبارة عن مجموعـة من البيوت من الطوب الأخضـر، و لها نبع ذو ماء غير لذيـذ و غير صـحى، و بضع مزارع من النخيل. قرب هذه النقطة، يضـيق الفج كثيرا، حتى ۷ ساجينات فى بعض الأماكن، مع صـخور عالية رأسية تقريبا؛ واحد هذه الافاجيج يقع أدنى من البلدة بقليل و يسـمى «بوغاز الجديدة»، و يحظى بسمعة سيئة جدّا من جراء قيام رجال قبيلة بنى حرب باعتراض طريق القوافل العابرة هنا.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۷۰

و البلـدات الثلاث المـذكورة آنفا تسترعى الإنتباه بواقع انه يوجـد بين أصـحاب البساتين عدد كبير من الزنوج، العبيد السابقين. و قرب بير العباس تشـكل الجبال سـهلا عريضا توجد فى وسطه البئر؛ و قرب البئر تنتصب قلعة مهملة كانت ترابط فيها فيما مضى حامية تركية لأجل حماية القوافل العابرة. و توجد قلاع مماثلة فى النقاط السابقة- الحمراء- الجديدة، الصفراء. الماء فى البئر جيد.

المرحلة العاشرة، حوالى ۴۰ فرسـتا، حتى آبار الشـهداء. على بعد نحو فرسـتا واحد من بير العباس تدخل الطريق من جديد فى مضيق، هو هنا أقل عمقا، و اعرض؛ ثم تتصاعد بشـكل ملحوظ و تمر قرب آبار بير الراحة العذبة الماء الواقعة تقريبا فى منتصف هذه المرحلة، و تصل إلى آبار الشهداء.

المرحلة الحادية عشرة، حوالى ۱۵ فرستا، حتى آبار بير الشربوفى. تحتفظ المحلة بالطابع نفسه. الماء فى الآبار عذب.

المرحلة الثانية عشرة، حتى المدينة المنورة؛ حوالى ۵۰ فرستا.

منذ منتصف الطريق يتوارى المضـيق، و تتلوى الطريق بين جبال غير عالية. قبل المدينة بنحو ۱۰ فرستات، تدخل الطريق من جديد فى مضـيق واسع تظهر لمحـاذاته آبـار فى جوارها بساتين. و مجموعـة من هـذه الآبار تقع على بعـد نحو ۵ فرسـتات من المدينة المنورة و تسـمى بيـار العلى، و تشـكل مكانـا لأجـل جمع القوافل المنطلقـة من المدينـة المنورة إلى مكـة أو إلى ينبع. النصف الثانى من الطريق المـذكور أعلاه شـحيح النبات، باسـتثناء الساحل. و نادرا ما تقع العين على أشـجار الشوک، و منها يقتطع سواقو الجمال العيدان لأجل الوقود أثناء الوقفات.

يبلغ الطريق السـلطانى زهاء ۴۶۰ فرسـتا، و هو ملائم لأجل حركـة القوافل لخلوه من المرتفعات و المنحـدرات الشديـدة، و لوفرة الماء الجيد فى الآبار و لكن غالبا ما يقع الاختيار على سبيل آخر اقصر و لكنه أصعب،

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۷۱

هو الطريق الفرعى، تخوفا من أن يمنع رجال قبيلة بنى حرب من اجتياز الطريق السلطانى عبر بوغاز الجديدة.

إن الطريق الفرعى ينفصل عن الطريق السـلطانى فى رابغ، متجها إلى اليمين صوب الشـمال الشـرقى، و يدخل فى الجبال على بعد نحو ۱۵ فرسـتا؛ ثم يتجه بمحاذاة مضـيق خرشان و يتصاعـد حتى آبار رضوان (ذات الماء العـذب). طول هـذه المرحلة السادسة، إذا حسـبنا

بدءا من مكة، حوالى ۵۰ فرستا.

المرحلة الأولى، حوالى ۳۰ فرستا، حتى بلدة أبو دباغ حيث يوجد نبع زمزارع من النخيل؛ الطريق فى هذه المرحلة ضيق جدّا بين الجبال و يجتاز افاجيج ضيقة.

المرحلة الثانية، حوالى ۲۵ فرستا حتى بلدة الريّان حيث يوجد نبع و بساتين. فى هذه المرحلة توجد كثرة الينابيع تجاورها مزارع النخيل و بلدات صغيرة للبدو من قبيلة عوف.

المرحلة الثالثة، حتى مضيق وادى الغدير العريض و الخالى من الماء؛ حوالى ۲۵ فرستا؛ من الريّان يزداد الانحراف بروزا. على بعد ۱۵ فرستا تقريبا مرتفع ضيق و صعب فى معبر رى الهيف ثم منحدر معتدل حتى الغدير.

المرحلة الرابعة، حتى بئر الوايا، حوال ۳۵ فرستا. الطريق يتحاشى الجبال، ينعطف بحدة صوب الشمال الغربى، ثم يتجه شمالا بعد نحو ۱۰ فرستات قرب بئر العظم، حتى نهاية المرحلة.

المرحلة الخامسة، حوالى ۵۵ فرستا؛ حتى المدينة المنورة. من الوايا يتجه الطريق إلى الشرق حتى نقطة بئر الماشى الواقعة وسط سهل عريض تنتصب فيه قلعة تركية كبيرة مهجورة توجد فى جوارها بئر عذبة الماء. من هنا تنطلق الطريق بمحاذاة و قط عريض، و تنعطف تدريجيا

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۷۲

صوب الشرق و تصل إلى آبار بيار العلى حيث يتحد الطريق الفرعى مع الطريق السلطانى.

طول الطريق الفرعى زهاء ۴۲۵ فرستا؛ و الطريق غنى بالماء فى السفح الغربى من الجبال. بفضل كثرة القرى تتوفر كثرة من احتياطيات العلف. قبيلة عوف التى يمر هذا الطريق فى أراضيها أكثر مسالمة من قبيلة بنى حرب، و لكن المرتفع من جهة رابغ حجرى جدّا و عسير جدّا.

الطريق الثالث اقصر أيضا بعض الشىء، و لكن نظرا للمعبر الصعب لا يصلح للحركة إلا على ظهور الهجائن الخفيفة- اسم هذا الطريق طريق الغاير، و هو ينفصل عن الطريق السلطانى، مثل الطريق الفرعى، فى رابغ.

المرحلة الأولى، حوالى ۴۵ فرستا؛ حتى آبار مبيرك. على امتداد ۸ فرستات تقريبا، يتجه الطريق صوب الشمال الشرقى و يجتاز شريطا ساحليا، مستويا، ثم يدخل تلالا سفحية، و يعبر أفاجيج صغيرة، و يدخل واديا عريضا دون أن يصل إلى الآبار. فى هذه المرحلة تتواجد نتوءات حجرية غير ملائمة للعبور. الماء عذب تقريبا.

المرحلة الثانية، حوالى ۴۵ فرستا؛ حتى آبار الرصفة. الطريق يمر دائما فى مضيق متصاعد ذى انحدار طفيف. الماء غير لذيذ اطلاقا.

المرحلة الثالثة، حوالى ۲۵ فرستا؛ حتى اسافل جبال الغاير.

الطريق يتجنب الفج إلى اليمين، و ينحرف إلى الشمال و يعبر بضعة نتوءات عالية؛ و قبل زهاء خمسة فرستات من وصوله إلى الجبال، ينحدر إلى سهل عريض رملى يتاخم الغاير، و يمتد فى هذا السهل، و ينعطف بمحاذاة الجبال صوب الشمال الغربى. لا ماء.

المرحلة الرابعة، حوالى ۷۰ فرستا، حتى بئر الماشى. يبدأ صعود الجبال فى الإتجاه الشمالى الشرقى بمحاذاة مضيق غير كبير؛ طول

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۷۳

الصعود زهاء ۱۰ فرستات؛ الطريق فى البدء ينحدر تدريجيا، ثم، فى الفرستات الستة الأخيرة، يشتد انحداره، و يتلوى بين كتل كبيرة من الحجارة. الصعوبة الكبرى لا تشكلها المنحدرات الكبيرة (لا تربو على الخمس)، بل تشكلها هذه الحجارة المتراكمة فى بعض الأماكن بصورة حيود، و التى تترك فى أماكن أخرى ممرا ضيقا جدّا بحيث أن الجمل ينقل قوائمه بصعوبة. و لا يمكن الصعود إلا بالترجل، سيرا على الأقدام.

و المعبر نفسه بصورة نتوء يفترق من جانبيه فجان؛ و فى المعبر، آبار عميقة محفورة فى الصخر لأجل تكديس ماء المطر. النزول فى

المضيق الواسع معتدل جدّا؛ و هناك كثرة كثيرة من أجمات أشجار الشوك الكبيرة، و كذلك كثرة من الساحات الأفقية المحّضرة بواسطة جدران داعمة و المعدة لأجل المزروعات. أثناء الوفقة، تستعمل الركب ماء المطر من الخزانات القائمة على بعد نحو فرستا اثنين من الطريق. فى بئر الماشى تلتقى طريق الغاير مع الطريق الفرعى.

المرحلة الخامسة، حوالى ۱۵ فرستا، حتى المدينة المنورة. طول طريق الغاير زهاء ۴۰۰ فرستا. و الطريق- عدا الصعود الصعب فى المعبر من جهة رابغ و بعض النتوءات الحجرية عند دخول الجبال- مناسب جدّا لأجل الحركة على كل امتداده الباقى. الجانب المطل على البحر غنى باجمات الشوك؛ أما الماء فقليل، و سيء جدّا. و هذا اقصر طريق بين مكة و المدينة المنورة، و يمكن اجتيازه بدون صعوبة خاصة على الهجائن فى غضون خمسة أيام. يقولون انه يمكن فى الحالات الاستثنائية قطع هذه المسافة علة الهجائن ذاتها فى يومين. الغاير طريق تاريخى؛ فعليها هاجر محمد (صلى اللّه عليه و سلم) فى سنة ۶۲۲ من مكة إلى المدينة المنورة.

الطريق الرابع بين مكة و المدينة المنورة يدور حول الجبال من طرفها الشرقى و يمتد على الحدود بين الحجاز و نجد؛ و هو يسمى الطريق الشرقى.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۷۴

المرحلة الأولى، حتى بلدة وادى الليمون، حوالى ۱۵ فرستا.

الطريق يمتد بين جبال عالية فى الاتجاه الشمالى الشرقى. و لهذا الوادى، كما لوادى فاطمة، ماء جار بفضله يتعاطى البدو المحليون زراعة الخضراوات و القرعيات، مزودين مكة بالبطيخ و الخضراوات.

المرحلة الثانية، حوالى ۳۰ فرستا، حتى بئر المضيق ذات الماء المالح نوعا ما.

المرحلة الثالثة، حوالى ۵۰ فرستا، حتى وادى البركة. على بعد زهاء ۱۵ فرستا عن البئر السابقة، عند الخروج من الجبال، توجد حفرة يتجمع فيها ماء المطر، اسمها الحفائر و منها تأخذ القوافل احتياطيات الماء لأجل مواصلة الطريق، لأنه لا وجود للماء فى البركة.

المرحلة الرابعة، حوالى ۵۰ فرستا، حتى بئر الحاضه الطريق ينعطف صوب الشمال بدءا من النقطة السابقة؛ و بما أن الحاضه تقع فى الجبال، فإن الطريق ينعطف صوب الشمال الغربى و يصل إلى هذه الآبار ذات الماء العذب.

المرحلة الخامسة، حوالى ۶۰ فرستا، حتى الآبار ذات الماء العذب فى سفيان. يخرج الطريق من جديد إلى طرف الجبال و يتجه شمالا.

المرحلة السادسة، حوالى ۷۵ فرستا، حتى آبار الحجرية.

المرحلة السابعة، حوالى ۳۰ فرستا، حتى آبار غراده؛ لماء هذه الآبار رائحة الكبريت، و لكنه يتواجد فى كل مكان على عمق غير كبير- مقدار ارشين أو ارشينين.

المرحلة الثامنة، حوالى ۶۰ فرستا، حتى حفرة «حنك» أو «غدير»، التى يتجمع فيها ماء المطر. فى هذه المرحلة يتجه الطريق صوب الشمال الغربى.

المرحلة التاسعة، حوالى ۳۵ فرستا، حتى المدينة المنورة. ينعطف

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۷۵

الطريق إلى الغرب، و يدخل الجبال، و يمضى فيها حتى المدينة المنورة بالذات.

الطريق الشرقى البالغ طوله زهاء ۴۰۰ فرستا يمر فى محلة أكثر خلّوا من الماء، و لذا يستعملونه بصورة نادرة نسبيّا، و ذلك حين تكون الطرق الأخرى فادحة الخطورة بسبب إعتداءات البدو، رغم انه توجد فى هذا الطريق، كما يقولون، كثرة من الأعشاب لأجل الجمال، و رغم أن الحر هنا فى الصيف اخف.

الطريق بين المدينة المنورة و ينبع

بين المدينة المنورة و ينبع يوجد طريق كبير للقوافل يتطابق اتجاهه حتى بلدة الحمراء مع اتجاه الطريق السلطانى.

على بعد زهاء ۳ فرسخات عن الحمراء، تخرج الطريق من مضيق وادى الصفراء و تنحرف إلى الشمال الغربى و تمضى فى هذا الاتجاه حتى بئر السيّد، و غالبا ما تقطع نتوءات حجرية غير عالية. من الحمراء إلى بئر السيد حوالى ۳۵ فرسخا، الماء فى الآبار جيّد.

من البئر المذكورة آنفا تمتد الطريق فى الاتجاه ذاته و بابع المحلة ذاته زهاء ۳۰ فرسخا، و تخرج على شريط ساحلى مستو، ثم تتصل بالسبيل المنطلق بمحاذاة شاطئ البحر و تنعطف فى الاتجاه الشمالى الغربى بموازاة الشاطئ، و تصل على هذا النحو إلى ينبع بالذات. طول هذه المرحلة الأخيرة زهاء ۷۵ فرسخا.

طول الطريق من المدينة المنورة إلى ينبع زهاء ۲۳۰ فرسخا.

و القوافل تقطعه عادة فى خمسة أيام؛ و كما سبق أن قلنا، غالبا ما يقطع رجال قبيلة بنى حرب هذا الطريق فى افاجيج الجديدة، و لهذا يفضل الحجاج فى بعض السنين العودة من المدينة المنورة إلى مكة لكى يغادروا الحجاز عبر جدّة. و إن احتياطى الحبوب الذى ارسلته الحكومة المصرية

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۷۶

موكب المحمل فى القاهرة- أواخر القرن التاسع عشر

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۷۷

لأجل «التكية» فى المدينة المنورة قد تم تفريغه فى خريف هذه السنة (۱۸۹۸) فى جدّة، و منها نقلوه على ظهور الجمال إلى المكان المقصود. الرحلة السرية للعقيد الروسى ؛ ص۱۷۷

مسيرة المحمل السورى

۸۸ وقفة على التوالى/ اسم مكان الوقفة/ عدد ساعات السير لأجل الجمال

۰/ دمشق/-

۱/ الكسوة/ ساعة ۱

۲/ الكتيبة/ ساعة ۲

۳/ المضاربة/ ساعة ۳

۴/ الرمة/ ساعة ۵

۵/ المفرق/ ساعة ۱۰

۶/ الزرقاء/ ساعة ۱۳

۷/ البلقاء/ ساعة ۱۶

۸/ الكسنا/ ساعة ۱۴

۹/ الحسا/ ساعة ۱۳

۱۰/ عنيزه/ ساعة ۱۳

۱۱/ مصان/ ساعة ۱۹

۱۲/ مدورة/ ساعة ۱۸

۱۳/ عقبة/ ساعة ۱۸

۱۴/ زياد الحج/ ساعة ۸

۱۵/ قاع الصغير/ ساعة ۱۳

۱۶/ آسى حرمه/ ساعة ۱۲

۱۷/ الأخضر/ ساعة ۱۸

۱۸/ معدم/ ساعة ۱۴

۱۹/ دار الحمراء/ ساعة ۱۶

۲۰/ مدائن صالح/ ساعة ۱۸

۲۱/ بيار الغنم/ ساعة ۱۰

۲۲/ بئر الزمرد/ ساعة ۱۶

۲۳/ بئر الجديد/ ساعة ۸

۲۴/ حضينه/ ساعة ۱۸

۲۵/ فحل التين (ملالح)/ ساعة ۱۸

۲۶/ بيار ناصيف (داينى)/ ساعة ۱۰

۲۷/ المدينة المنورة/ ساعة ۱۰

۲۷// ساعة ۳۳۴

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۷۸

مسيرة المحمل المصرى (من المدينة المنورة إلى الوجه)

۰/ المدينة المنورة/ ساعة ۱۰

۱/ داينى/ ساعة ۱۰/

۲/ ملالح/ ساعة ۱۰

۳/ شجيوه/ ساعة ۱۲

۴/ آبار الحلوه/ ساعة ۱۰

۵/ حفاير/ ساعة ۱۰

/ ۶/ فقير/ ساعة ۸

۷/ عقاله/ ساعة ۱۳

/ ۸/ مطير/ ساعة ۱۵

۹/ حوسيله/ ساعة ۸

۱۰/ أم حرز/ ساعة ۱۵

/ ۱۱/ الوجه/ ساعة ۹

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۷۹

الفصل الثالث مكة المكرّمة و المدينة المنورة و غيرهما من النقاط الآهلة فى الحجاز و أهميتها

مكة المكرّمة

اشارة

مكـة أو بكـة، أو كما يسـمونها عنـد المسـلمين، خارج الحجاز، مكـة المكرّمـة، تضم مقـدسات الإسـلام الرئيسـية؛ و هى الآن المركز الإدارى و التجارى الرئيسى فى الحجاز.

موقع المدينة

تقع المدينـة على بعـد ۷۰ فرسـتا تقريبا شـرقى جـدّة، فى محلـة تحفل كثيرا بالجبال الصـخرية، ضـمن فج ضـيق، متشـعبة فى تفرعاته، متصاعـدة إلى السـفوح المجاورة حيث يتيـح انحـدارها. و مكـة غير مطوقـة بسور مثل سائر مـدن الحجاز، و لكن تنتصب فى مرتفعين مهيمنين قلعتان غير كبيرتين تشغلهما الحامية التركية.

البيوت

البيوت فى مكـة مبنيـة فى المعتاد من ثلاثة طوابق، مع انه توجد كذلك بيوت من ۴ أو ۵ طوابق. الهندسة المعمارية أصلية جدّا. جميع الجدران تحفل بصفوف من نوافذ ناتئة تسمى «مشربية». أما مادة البناء

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۸۰

الحرم الشريف و مكة المكرمة، أواخر القرن التاسع عشر

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۸۱

فهى الحجر و الآـجر المحروق، المرصوصـان فى الأـغلب على الطيـن؛ و كـذلك الخشب، المسـتورد على الأـغلب من جزر الزونـد، و الخشب الروسـى (الألواح) المسـتورد من القسطنطينية. و البيوت مبنية الواحد بلصق الآخر، دون فجوات، سواء من حيث الواجهة أم من حيث الجـانب الخلفى، دون أن تترك أى فنـاء. الطـابق الأسـفل ليس معـدا فى المعتاد للسـكن، و يقوم جزئيا مقام الفناء و يسـتعملونه لأجل إيداع الأشـياء الضـخمة؛ و الطوابق العليا تتشـكل من شقات غير كبيرة، كل شقة من غرفتين أو ثلاث و معزولة تماما عن الشقات الأخرى، و مزودة بالمرافق اللازمـة. فوق السـقف تنتصب الجـدران نحو ثلاثة ارشـينات مشـكلة بالتالى طابقا مكشوفا آخر، يسـتعملونه للراحة الليلية. و لأجل مجرى الهواء يتركون فى هذه الجدران فتحات عديدة فيها شبكة من آجر محروق ملون بارز بسطوع على خلفية الجدران البيضاء، و السـلالم، و كذلك الأرضـية فى بعض الأماكن مغطاة باسمنت خاص مجبول من الكلس و الرماد و الرمل، و يتميز بقدر كبير من الصلابة. و من هذه المادة يبنون فى بعض البيوت خزانات لأجل المياه أيضا.

الخاصة الرئيسية التى تختص بها البيوت المكية الغنية إلى هذا الحد أو ذاك إنما هى المشروبيات المبنية على طول الجدار الواجهى.

هـذه النوافـذ تقام فى الأطراف الناتئـة لعوارض الأرضـية و تشـكل بالتالى ضـربا من شـرفات مغلقة تبرز من وراء جدران المبنى مقدار ارشـين و نصف أرشـين تقريبا، و تغلقها صـفوف من حصائر صاعدة و نازلة. المشربيات يضعون فى داخله دواوين واطئة و مخدات؛ و بما انه ابرد مكان فى الغرفة فإنه يشـكل زاوية مفضـلة. و فى بيوت أقل غنى، يصـنعون مشـربيات صـغيرة أو نوافذ بسيطة؛ و فى مكة لا يعرفون زجاج النوافذ.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۸۲

المبانى العامة

بين المبانى العامـة، عدا الحرم الشـريف الذى سـنحكى عنه فى الفصل التالى، يبرز مبنى السـراى الكبير، الوحيد الطابق، أى مبنى إدارة

الولايـة، بهندسـته المعماريـة الأوروبيـة الجميلـة. و إلى جـانبه ينتصب مبنى التكيـة المصـرية الشـاسع حيث يقـدمون، من مال الأوقاف الواصل سـنويا من مصر، و قدره ۱۶۰۹۱۲ قرشا (حوالى ۱۶ ألف روبل)، أثناء الحـج، فى كل صـباح، للحجاج المعدمين، طعاما مؤلفا من رغيفين غير كبيرين و من الحساء. و ابعد قليلا، توجد مؤسسة خيرية دينية مماثلة تمولها الأوقاف التركية. و لكن خير مبنى فى مكة إنمـا هو، بلاـ ريب، المبنى الضـخم من طـابقين المنتصب عنـد المخرج، و المكتمل بزينـة، و المعـد، كما أوضـح لنا بانيه، لأجل إيواء الحجاج الـذين لا مأوى لهم؛ و هـذا المبنى مربع الشـكل، و فى داخله حوش، و طول واجهته زهاء ۷۰ ساجينـا؛ و هو بالفعل مبنى متين جـدّا فيه قاعات عاليـة شاسـعة، و سـلالم مريحـة، و حمامات، و خلاف ذلك. و نظرا لموقعه فى طرف المدينة و ترتيب الغرف المطلة على رواق مشترك، يمكن أن يقوم بـدور مستشـفى ممتـاز. أما الحجاج الفقراء، فهو بالنسـبة لهم بـذخ مفرط؛ و نظرا للبعـد عن الحرم حيث يتوفر لهم الغـذاء و المبيت، من المشـكوك فيه أن يـذهبوا إليه طوعـا و اخيـارا. و يسـتفاد من أقوال البـانى أن الحكومـة التركية اعتمدت للبناء ۴۵ ألف ليرة (حوالى ۳۸۰۰۰۰ روبل)؛ و لكن نظرا للتأخير فى تقديم التسليف، يدوم البناء للسنة السادسة.

بين مجموعة البيوت الخاصة فى مكة، تؤجد أيضا كثرة من بيوت الأوقاف تبرع بها الحجاج الأغنياء لاسـتعمالها بصفة مدارس دينية أو على الأرجح، بصفة «تكيات» أى بصفة مساكن فى و من الحج للحجاج من

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۸۳

أبناء القومية التى ينتسب إليها المتبرع. و هكذا توجد تكيات هندية و ماليزية و قشغرية و افغانية و قازانية و قرغيزية و الخ ..

الشوارع

لا تتميز شوارع مكة، لا بإسـتقامة التخطيط و لا بدقته. الشوارع الرئيسية على ما يكفى من العرض بوجه عام، ۶- ۸ ساجينات بالمتوسط. و لكن البيوت تتقـدم تارة، و تتأخر طورا عن الخط العام و لـذلك يختلف عرض الشارع الواحد ذاته فى مختلف الأماكن. و عدا هذا، تنتصب فى الشوارع أكشاك خشبية ملتصـقة بالمبانى و يحولونها فى زمن الحج إلى دكاكين؛ و أحيانا تحفل الشوارع بشـقادف لا عدّ لها تابعـة للقوافل القادمة؛ كذلك يصف هنا التجار طاولاتهم، و لذا تبدو الشوارع أضـيق، و نظرا لعدم وجود الأحواش و الأفنية يرمون كـل الزبالـة و النفايـات فى الشـارع رأسا. و للسـبب ذاته، يحتفظون هنا كل الـدواجن؛ و هنا أيضا يحلبون الأبقار و العنزات. و الشوارع هنـا، كمـا فى القسـطنطينية، هى مرتع أسـراب كبيرة من الكلاـب الشاردة. و لا وجود فى مكـة للشوارع المصوفـة؛ و لا وجود للرش؛ و للإنارة، يعلق السكان أنفسهم هنا و هناك مصابيح الكاز.

السكان

تحسب السلطات التركية أن عدد السكان يتراوح بين ۱۱۰ و ۱۲۰ ألف نسمة، بينما يحسب السكان أنفسهم أن عددهم يتراوح بين ۷۰ و ۸۰ ألف نسمة؛ و هذا الرقم الأخير يبدو لى أقرب إلى الحقيقة.

إن سـكان المدينـة الـدائمين هم خليـط مبرقش من أبناء جميع القوميات التى تـدين بالإسـلام؛ و عـدا السـكان المحليين العرب الـذين يؤلفون زهاء ثلاثة أخماس عدد السكان الإجمالى، يوجد هنا عدد كبير من

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۸۴

الماليزيين الزنوج و الأحباش و المصريين و الهنود و العرب الأفارقة و الأتراك و كذلك السرت و الفرس و التتر و القرغيز و غيرهم. و من بين العرب المحليين، كما أوضحوا لى، ينتمى قليلون إلى سكان البلد الأصليين؛ فهم بمعظمهم قادمون من الخارج، و استعربوا كليا مع مر الزمن و لـذلك تتنوع قسـمات وجوههم و بشـرتهم من جميع التلاوين بـدءا من الأبيض تماما كما عنـد الأوروبيين حتى الداكن البرونزى كما عند الأحباش. و الشـريف و أولاده و كثيرون من الأسـياد الذين يعتبرون أنفسـهم عربا يسيل فى عروقهم دم عربى أصيل

تماما إنما لون وجوههم أبيض نقى لا عيب فيه. و لا ريب فى أن المحظيات من شعوب القفقاس يلعبن دورا كبيرا فى هذا المجال.

أحدث عرب مكة فى نفسى على العموم إنطباعا جيدا جدّا؛ فهم أذكياء، لطفاء جدّا فى التعاشر و التخاطب، متأدبون و مجاملون مع مسحة من بعض الاعتزاز، مضيافون، انيسون، مع احتفاظهم دائما بشعور الكرامة الشخصية؛ و هم منعّمون كبار، يطيب لهم أن يرتدوا الثياب الفاخرة، و يفرشوا بيوتهم بالمفروشات الجيدة، و يأكلوا جيدا، و يستقبلوا الضيوف و يحلوا ضيوفا فى أحيان كثيرة.

تتألف البسة العرب من قميص تيلى طويل و ضيق، ذى طوق قائم يرتدون فوقه صدرة حريرية يزررونها بكثرة من الأزرار الصغيرة؛ و فوق الصدرة يلبسون ما يشبه البشمت (العنترى) و على الرأس طاقية بيضاء مستدقة. و حين يغادرون البيت، يشدون العنترى بزنار حريرى؛ و فوق الالبسة يرتدون رداء ضيقا أو «الجبّة»، و يستعيضون عن الطاقية فوق الكلسات.

بلدلة الطبقة الفقيرة من نفس التفصيل، و لكن بدون جبة و عنترى.

يفرشون الغرف فى البيوت بتخوت واطئة و مخدات لأجل الجلوس؛ الأرضية يغطونها كليّا بالسجاجيد و الحصائر؛ زينة الجدران

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۸۵

تتألف من آنية مختلفة-، من البورسلين و المعدن، و السماورات الروسية الجديدة الموضوعة فى فجوات خاصة أو على رفوف- و من مرايا معلقة عديدة، و من مختلف الأقوال المأثورة المكتوبة على ورق ملون و مركبة فى اطر.

لوازم النوم يخفونها بعناية فى غرف خاصة، لأنهم يعتبرون عرضها تبذلا كبيرا.

و المطبخ هو فى المعتاد عبارة عن غرفة من الغرف الأمامية يضعون فيها المناقل لتحضير الأطعمة؛ و قد أذهلتنى كثيرا و فرة الطعام الدهنى، المؤلف أبدا و دائما من الرز المحمّر مع اللحم و التوابل و من المآكل اللحمية الثقيلة الأخرى، علما بأن العرب يقبلون على هذا الطعام الدهنى، رغم المناخ الحار، مرتين فى اليوم،- حوالى الظهر، و فى المساء، بعد غياب الشمس؛ و الماء، المبرّ فى اباريق و جرار مسامية موضوعة فى مجارى الهواء فى المشربيات هو المشروب العادى. و فى ساعات معينة من اليوم أو فى حال مجئ الضيوف، يقدمون القهوة المحضرة على الطريقة الشرقية. و فى الآونة الأخيرة، بدأوا يستعملون الشاى (الأسود) كثيرا الذى يشربه العرب، مثل الفرس، ثقيلا جدّا و حلوا جدّا، و بمقادير صغيرة جدّا. الجميع تقريبا يدخنون التبغ، و على الأغلب بالنارجيلة.

النساء عند العرب، كما عند الشعوب الإسلامية الأخرى، يرتدين الحجاب، و لكنهن يتمتعن بقدر من الحرية أكبر بكثير، مثلا، مما عند التتر. و هن يترددن على الجوامع على قدم المساواة مع الرجال، و يشغلن فيها مكانا مخصصا لهن، و يذهبن وحدهن إلى السوق لشراء الحاجيات؛ و هناك نساء عديدات يتعاطين فى الشوارع التجارة بالمفرق، و غالبا ما تقع العين عليهن فى المحكمة أمام القاضى، حاملات الشكاوى أحيانا على أزواجهن.

الحياة الفكرية عند هذا الشعب القدير و اللطيف لم تتقدم منذ ذلك

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۸۶

العهد المجيد الذى كان فيه العرب يسيرون فى طليعة الحضارة، و ليس هذا و حسب، بل على العكس تراجعت أيضا؛ و تلك العلوم التى ابتدعوها و طوروها فيما مضى لفها النسيان تماما فى الوقت الحاضر. بل أن التعليم الأولى البسيط- مجرد القراءة و الكتابة- محصور ضمن حلقة ضيقة جدّا؛ و أشراف مكة الذين يقومون بدور قادة الحجاج أثناء القيام بمراسم الحج لا يعرفون بأغلبيتهم الساحقة لا- القراءة و لا الكتابة. و فى المدارس الدينية المحلية، كما فى جميع المدارس الدينية فى أى مكان آخر، يعلمون العلوم الرتيبة الدينية ذاتها بتفاصيلها الدقيقة جدّا و غير الضرورية، مزدرين المواد الضرورية كالحساب و الجغرافية مثلا. و لكن المدارس الدينية أيضا تحفل بالناس القادمين، غير المحليين، بينما المحليون استثناء فيها.

يرد إلى مكة عدد بسيط جدّا من الجرائد المصرية و عدد أقل من الجرائد التركية؛ و فى الحال يصبح مضمونها معروفا فى المدينة كلها، نظرا لشدة تحرقها إلى الأنباء و بالغ اهتمامها بالحياة السياسية للشعوب الأخرى.

عرب مكـة سـنّيون جميعهم، و أغلبهم من أنصار الشافعى، و لا يتميزون كثيرا بالتقوى و التـديّن. و يترددون على المساجـد بحماسـة و غيرة طالما الحجاج لم يعودوا إلى ديارهم. و إذ ذاك، يبدأون يفضلون المقاهى و غير ذلك من الاجتماعات. و كثيرون منهم ينتسبون إلى مختلف شـيع النساك، و بخاصـة إلى أنصار الرفاعى؛ و ما يجتـذبهم إلى هـذه الشـيع، بقدر ما اسـتطعت أن ألاحظ، ليس الشـعور الـدينى بل احتمال الاشتراك، أثناء حقبة السـكون، أى بعد رحيل الحجاج، فى مختلف المواكب و الاجتماعات و ما إلى ذلك. و بما أن سـكان مكـة الأصـليين ليسـوا مفركين فى التـدين و التقـوى، فهم كـذلك براء من التعصب؛ و أن دورا كـبيرا فى ذلـك، أيضـا فى تطورهم الفكرى العام، يعود، كما يخيّل إلىّ،

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۸۷

إلى أسـفار أغلبيـة سـكان هـذه المدينـة إلى البلدان الأخرى؛ فبعد رحيل الحجاج، يقومون برحلات إلى جميع البلدان التى يعيش فيها المسلمون لكى ينالوا «البدل» أى التكليف بالقيام بفرائض الحج بالنيابة عن أحد ما لقاء مكافأة معينة؛ و بما أنهم شعب محب للمعرفة و الاسـتطلاع و حسـاس جـدّا، فإنهم يهتمون بكل شـىء و يتفحصون كل شـىء، و أحاديثم عن الأمم الأخرى غالبا ما تكون صـحيحة و صائبة و دقيقة جدّا.

يبقى أن أقول أن العرب حرفيون ممتازون فى الشغل على الحجر و على الخشب، و يملكون ذوقا رفيعا جدّا. و مبانى الحرمين الشريفين فى مكة المكرّمة و المدينة المنورة تتميز بعمل بارع جدّا. و المبانى بالأسلوب الأوروبى مبنية جميعها بأيادى الاساطين العرب.

المرتبـة الثانيـة من حيث العـدد يشـغلها فى مكـة الماليزيون أو «جاوة» كما يسـمونهم هنا نقلا عن اسم جزيرة جاوة. و هم يبرزون جدّا بملامحهم المتميزة، و لذا من الممكن معرفتهم من النظرة الأولى رغم أنهم بأغلبيتهم يرتدون الألبسة العربية. و يقدّرون عدد الماليزيين بخمس عدد السـكان الإجمالى فى مكة أى قرابة ۱۴- ۱۶ ألف نسـمة؛ و قد علمت من الأحاديث أن «جاوة» شرعوا يتوافدون إلى مكة فى السنوات العشرين الأخيرة على الأخص بعضهم بدافع الشعور الدينى و بعضهم الآخر بدافع المصالح التجارية. و يبلغ عدد الماليزيين الشـبنا الذين يتعلمون هنا قرابة الفين؛ و هناك بضع عشـرات من المعلمين الماليزيين يتعاطى ثلاثة منهم خصـيصا ترجمة الكتب العربية إلى لغتهم. و يتصف المـاليزيون بسـمة مميزة، هى الطبع الهـادئ، المسـالم، الـذى دخـل هنـا فى الحـديث العادى، إذ يقولون «طيب و مسالم مثل جاوة»، و كذلك التضامن المذهل فيما بينهم؛ فإن الجاوة المحليين يعيشون جميعهم مشاعيات كبيرة، بإشـراف مدبّر- سـيّد مشترك واحد منتخب لكل الجالية. أبناء القوميات الأخرى، و بخاصة العرب، يعاملون الماليزيين ببعض التعالى.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۸۸

و الأتراك هم على الأغلب مستخدمون فى مختلف المؤسسات الخيرية و التعليمية التى تتشكل بمعظمها من الأوقاف التركية و لا تقبل السكان المحليين.

أبناء القوميات الأخرى هم بوجه الحصـر تجار أو نظار فى تكيات قومياتهم؛ و من عداد المسـلمين من رعايا روسيا الذين يعيشون دائما هنا و يشرفون على التكيات ثمانى عائلات تترية، و عائلتان من القرغيز و سبعة تلامذة فى مدرسة دينية.

أشغال سكان مكة

يمكن وصف أشـغال سـكان مكـة بايجـاز بـالغ- يعيشون على الحجـاج و قبل الإسـلام أيضا، كانت مكـة مركزا تجاريا لعموم الجزيرة العربيـة، و كان زمن الحـج فى الوقت نفسه زمن السوق التجاريـة السـنوية. و هـذا الطابع بقى حتى الآن؛ و أثناء تواقـد الحجاج، تتحول المدينة إلى بازار هائل ينتشر من أبواب الحرم بالذات فى جميع الشوارع و الأزقة.

علاوة على استيراد كمية كبيرة من المنتوجات المعيشـية، لتلبية حاجات جموع الحجاج البالغ عددها أكثر من مائة ألف، يستجلبون إلى هنا كمية كبيرة من شتى البضائع من القسطنطينية و مصر و البلدان المجاورة فى آسيا، و ذلك مع قوافل الحجاج أو البواخر إلى جدّة.

و القسطنطينية هى الوسيط الرئيسى فى تجارة البضائع الأوروبية؛ و منها تحصل مكة على كل الاحتياطى من الأقمشة القطنية و الصوفية و الأحذية و الخردوات و البقالة و الطحين الروسى و كاز باكو و خلافها.

مصر تقدم على الأغلب المنتوجات المعيشية: الحنطة، الفول، الشعير، الذرة الصفراء، العدس، الرز، السكر، زيت الزيتون، و ما إلى ذلك.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۸۹

الكعبة المشرّفة

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۹۰

سوريا ترسل مع المحمل الدمشقى و بحرا، عبر بيروت، كمية كبيرة من البضائع الحريرية، و الألبسة الحريرية الجاهزة، و المناديل المطرزة بالحرير، و الفواكه المجففة، و الفالوذة.

بغداد و البصرة ترسلان مع قوافل الحجاج البضائع الحريرية و الصوفية، و الرز، و السمنة البقرية و السمنة الغنمية.

بلاد فارس ترسل السجاد و الحصائر و العباءات و غير ذلك من البضائع الصوفية.

الهند ترسل البضائع المستعمرية، و الآنية من النحاس و البورسلين، و المطبوعات و المرجان و المواد العلاجية و المواد العطرية، و خلافها.

اليمن ترسل البن، و عين الشمس، و العقيق.

جزر السند ترسل الكندر.

فى مكة ينتجون كمية تافهة جدّا من الأشياء التى يجرى تصريفها بين الحجاج القادمين؛ و المقصود هنا المسابح المخروطة من الصدف و غير ذلك من المواد، و الخواتم من الزخارف الفضية المنتزعة كل سنة من الحرم، كما يصنعون آنية من الصفيح لأجل نقل مياه زمزم، و ما إلى ذلك.

ثم أن سكان مكة يكسبون مبلغا كبيرا من النقود بتأجير الحجاج الغرف و الشقات و قيامهم بدور المرشدين فى حال إداء الفرائض و المراسم، و تأجير الحمير التى تحظى دائما بطلب كبير نظرا لعدم وجود عربات الحوذيين، و ما إلى ذلك.

أثناء الحج، لا يتعاطى السكان المحليون وحدهم التجارة، بل يتعاطاها كذلك تجارة قادمون كثيرون. و هناك تجارة أكبر، كما قالوا لى، فى ايدى الهنود؛ و لم يتسنّ لى أن أعرف مقدار التبادل التجارى. من الممكن بصورة تقديرية جدّا تخمين المبلغ الذى يخلفه الحجاج سنويا فى مكة بين ۵ و ۸ ملايين روبل.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۹۱

أسعار السلع المعيشية أثناء تجمع الحجاج تتقلب كثيرا تبعا لحركة الاستيراد و عدد القادمين، مثلا:

النظام النقدى

جميع العمليات التجارية فى الحجاز تجرى عدا و نقدا؛ و الليرة التركية الذهبية هى الوحدة النقدية الأساسية، و تبلغ قيمتها حسب نقدنا ۸ روبلات و ۵۰ كوبيكا؛ و لكن أقيم هنا لأجل الحسابات الصغيرة نظام نقدى معقد و مشوش إلى حد أن التجار و الصرّافين أنفسهم يرتبكون، و لا يستغنون عن القلم و الورق عند إجراء الحسابات. فإن الليرة تتألف من ۱۱۰ قروش كاملة، و لكن يوجد أيضا إلى جانبها قرش ناقص تحتوى الليرة منه ۱۴۹ قرشا. سعر الليرة يتغير باستمرار، و يختلف باختلاف النقاط فى الحجاز. و ليس فى كل مكان يقبلون النقود النحاسية التركية.

عدا النقود التركية، يشمل التداول هنا النقود الذهبية و الفضية، لا من البلدان التى جاء منها الحجاج و حسب، بل أيضا من دول لا

وجود فيها لأى مسلم، مثلاـ الين اليابانى. و أوسع النقود استعمالا، القرش الفضى الهولندى و القرش الفضى المكسيكى أو كما يسمونهما هنا «الريال» أو «البورون»؛ و قيمة كل منهما هنا ۱۰- ۱۱ قرشا كاملا تركيا.

لا يقبل البدو غير هذه النقود، و يرفضون الذهب، و لذا تحسب

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۹۲

بدلات إيجار الجمال، و كذلك جميع الأثمان غير الكبيرة فى البازار بالريالات بوجه الحصر.

كذلك توجد قيد التداول سنداتنا المالية التى تحظى هنا بالثقة الكبيرة و التقدير الرفيع؛ فبمقابل مائة روبل من السندات المالية تقاضيت هنا زهاء ۹۰ روبلا ذهبيا. و سعر العملات، كما سبق أن قلت، يتقلب دائما. فى سنة ۱۸۹۸ تواجدت الأرقام المتوسطة التالية:

تجارة الرقيق

يوجد فى الحجاز نوع آخر من التجارة، نادر فى الوقت الحاضر، و ينتعش كثيرا أثناء تجمع الحجاج، هو تجارة الرقيق (النخاسة).

الارقاء الذين يباعون فى الحجاز ينتمون بوجه الحصر إلى قوميتين:

الزنوج السود تماما من السودان الذين يعتبرونهم فى الحجاز أفضل الكادحين، و الذين يشترونهم، سواء منهم الرجال أم النساء، لأجل العمل فقط، ثم الأحباش، و هم أقل سوادا؛ و يشترون النساء منهم كمحظيات.

يستجلبون الارقاء من الساحل الافريقى للبحر الأحمر؛ و هناك، أغلب الظن، نظام متكامل لإيصالهم إلى السوق الرئيسية فى مكة.

و الارقاء الحاليون هم بمعظمهم أولاد مخطوفون يشتريهم فى محالهم تجار محتكرون يجلبونهم إلى الساحل ثم ينقلونهم بحرا و خفية على سمابك إلى سواحل الجزيرة العربية، حيث يشتريهم بسعر يتراوح للواحد منهم بين ۵ و ۱۵ ليرات تركية و هناك وسطاء يتعاطون نقلهم لاحقا.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۹۳

لم أستطع الحصول على معلومات دقيقة نوعا ما عن مقادير هذه التجارة، و لكن يقال أن عدد الارقاء المباعين فى السنوات المؤاتية حين يحالف التوفيق أعمال السرقة، و لا تعترض السلطات فى مرفأ سواكن مجموعاتهم فى الطريق، يلغ زهاء ۲۰۰۰ شخص. سعر الفتاة الزنجية الراشدة حوالى ۲۰ ليرة، و سعر الفتاة الحبشية الراشدة ۳۰- ۴۰ ليرة؛ و سعر الكادح الجيد الزنجى او الحبشى ۳۰- ۴۰ ليرة أيضا؛ و سعر الأولاد ذكورا و إناثا ۱۰- ۱۵ ليرة.

أما الشراة فهم، على العموم، سكان الجزيرة العربية، و بخاصة سكان الحجاز، سواء منهم السكان الأصليون أم القائمون هناك موقتا.

و فى مكة و المدينة لا يوجد أى بيت ليس فيه عبد و عبدة يقومان بجميع الأعمال البيتية، و منها جلب الماء، و تحضير الطعام، و غسيل البياض، و العناية بالأطفال، و ما إلى ذلك. و كذلك الرحل يعهدون إلى الارقاء بعمل أصعب. و معاملة الارقاء حيث تسنى لى أن أراقبها، طيبة، إنسانية.

كذلك يشترى الحجاج العبيد لكى يعتقوهم، لكى يعيدوا إليهم الحرية، لأن إعتقاء العبد يعتبر، بموجب تعاليم الإسلام، من أكثر أنواع الإحسان ارضاء للرب. و فى جميع مدن الحجاز و فى جميع القبائل البدوية يوجد عدد كبير من الارقاء السابقين الذين اعتقهم أسيادهم أو أفتداهم الحجاج؛ و بلدة خيبر الكبيرة الواقعة فى جوار المدينة المنورة تتألف حصرا من الارقاء السابقين. و الاعتاق ترافقه وثيقة خطية خاصة ينظمها القاضى المحلى؛ و إذا كان الرقيق المعتق قاصرا، فيوضع تحت وصاية شخص ما حتى بلوغه سن الرشد.

و على طرق القوافل يجرى، أغلب الظن، توريد الأمات إلى البلدان المجاورة. و فيما يخص السبل البحرية، تسنى لى أن أسمع أن هذه العملية نادرا ما يحالفها النجاح إذ أن السلطات الإنجليزية أو المصرية تنتزع الأمة بموجب تصريحها الأول. و بالفعل، شاهدت فى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۹۴

الطور إمرأة مسافرة مع مغربى؛ و إذا بها، بعد انتهاء الحجر الصحى، تعلن أن هذا المغربى اشتراها فى مكة و انه يقودها الآن بالعنف؛ و رغم جميع احتجاجات سيدها و زعمه انه قد تزوج منها، انتزعوها منه.

يشغل سوق النخاسة فى مكة حوشا مفتوحا غير كبير، تطل عليه أبواب غرف يحبسون فيها المباعين لقضاء الليل. و عندما زرت هذا السوق، كان هناك زهاء ۸۰ شخصا معظمهم شابات حبشيات مع اثنين أو ثلاث منهن أطفال رضع، و جميعهن مزيّنات و مصفوفات فرقا على دواوين طويلة؛ و كان هناك مقعدان يجلس عليهما كادحون راشدون من الزنوج، لابسون بعناية و مقصوصو الشعر؛ و الباقون كانوا أولادا من ذكور و إناث يلعبون بمرح و هناء فى أماكنهم. أشرف على البيع تاجر عربى نشيط راح يمدح بصوت مدو مزايا بضاعته. اختار بعض الشراة من البدو النساء، و تفحصوا عيونهن و افواههن، و اجبروهن على خلع ملابسهن. و قد تركت زيارة هذا السوق فى نفسى إنطباعا كئيبا و مرهقا جدّا.

إن الشريعة، كما هو معلوم، لا تجيز الا استعباد أسرى الحرب، و لذا ليس لهذا النوع من امتلاك العبيد الموجود فى الحجاز، أى مبرر على الاطلاق من جهة نظر الشريعة أيضا؛ و الذرائع التى يسوقها السكان المحليون للدفاع عن انفسهم.، و مفادها أن الناس المباعين هم من ذرية عبيد سابقين، و انهم يبيعونهم كعبيد، و أن الشارى لا يعرف بأى طريقة تم الحصول على هؤلاء العبيد- إنما هى تناقض فى منتهى الجلاء. و لكن الحجازيين أنفسهم يشكون، على ما يبدو، فى شرعية حقوقهم؛ و بما أنهم لا يملكون القوى و الشجاعة للتخلى كليا عن هذا الكدح الرخيص، فإنهم يعتقون بعد مرور عدد معين من السنين الارقاء الذين اشتروهم، و يعقدون عقود الزواج من النساء تخوفا من الشرعية المعاشرة.

ذات مرة، قامت الحكومة التركية بمحاولة لاغلاق سوق النخاسة،

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۹۵

مكة المكرمة و تبدو الكعبة إلى يسار الصورة/ أواخر القرن التاسع عشر

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۹۶

فصدر أثر ذلك، فى سنة ۱۸۵۵، فرمان سلطانى خاص؛ و لكن هذا الفرمان استثار إنتفاضة فى عموم الحجاز. و فى سنة ۱۸۵۸ قتلوا فى جدّة جميع الأوروبيين الذين كانوا يعتبرونهم عن حق و صواب مسؤولين عن صدور القانون الجديد، كما قتلوا القنصل الفرنسى فى جدّة؛ و فى السنة التالية، ۱۸۵۹، ألغى الفرمان و بقى امتلاك العبيد قائما على أسسه السابقة.

الظروف الصحية فى مكة. الماء

تستعمل مكة الماء من نوعية جيدة و بكمية كافية. و لا يحدث نقص فى الماء حتى إذا كان تجمع الحجاج كبيرا.

و الماء يساق من على بعد ۷۰ فرستا، من نبع عين [...] يقع على التلال السفحية من جبل القرى، ثم يلتقى مجروره مع ساقية تنطلق من وادى النعمان، فيطلق عليه اسم عين الزبيدة، باسم زوجة خليفة بغداد الشهير هارون الرشيد التى سيق الماء للمرة الأولى فى عام ۸۲۷ بفضل أموالها حتى جبل عرفات؛ و فى عام ۱۵۱۹، فى عهد السلطان سليمان القانونى، تم تمديد مجرور الماء حتى مكة، و لكن الأمطار الوابلة كانت تفسده دائما، و لذا كان يتعطل فى غالب الأحيان. و للمرة الأخيرة جرى اصلاحه بأموال مجموعة من الحجاج و تبرع بها مختلف الناس فى عهد والى الحجاز عثمان باشا؛ و بهذا النحو لا يزال يؤدى وظيفته فى الوقت الحاضر.

يتألف مجرور الماء من أنبوب واسع مركب من أحجار مشدودة بالكلس و ممدود على القطاع الأكثر إنخفاضا فى فج وادى منى، بمحاذاة الطريق المنطلقة من مكة إلى الطائف؛ و فى بعض الأماكن، يمتد الانبوب بصورة غير عميقة جدّا بحيث تظهر قبته العليا؛ و لكن متوسط العمق يتراوح بين ساجين و ساجينين؛ و فى بعض الأماكن انشأوا منافذ

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۹۷

هواء بصورة آبار مكشوفة مبلطة بالحجر و يستفاد منها فى الوقت نفسه لاستخراج الماء. و عند جبل عرفات يمر الماء عبر بضعة أحواض مكشوفة طويلة مبنية لأجل استحمام الحجاج. و لاستعمال الماء عبر بضعة أحواض مكشوفة طويلة مبنية لأجل استحمام الحجاج. و لاستعمال الماء ضمن حدود المدينة، انشئت أحواض خاصة بشكل حفر واسعة مبلطة بحجر منحوت يتراوح عمقها بين ساجين و ۳ ساجينات، و مزودة بسلالم حجرية عريضة و بأرضية مفروشة بالبلاط. يمر الماء عبر مزراب منحوت من الأرضية؛ يستقون الماء من هذا المزراب بواط مربعة الزوايا من الصفيح لأن أى شكل آخر للاناء لا يصلح نظرا لأن علو سيل الماء تافه. و عدا ذلك، انشئت فى أعلى الجدران بضع آبار ذات بكرات معدنية لأجل استقاء الماء بالدلاء، دون النزول إلى أسفل، إلى المزراب. عدد جميع نقاط استقاء الماء فى مكة ۴۰. يجرى توزيع الماء على البيوت فى قرب كبيرة؛ و هذا العمل المرخق يقوم به الارقاء، الحقيقيون أو المعتقون، الذين يكسبون رزقهم بهذه الطريقة. و فى البيوت يحفظون الماء فى قلل طينية خاصة تتسع كل منها لزهاء ۱۰ دلاء.

حالة البيوت

البيوت فى مكة نظيفة جدّا؛ الجدران مبيّضة دائما من الداخل و من الخارج؛ الغرف و السلالم مكنّسة بعناية؛ بيوت الخلاء الواقعة فى السلالم أو فى إحدى الغرف الأمامية لها دائما أرضية من الأسمنت، و تتصف ببالغ النظافة، و لكن بنيان و نظام تنظيف البلوعات رهيبان للغاية؛ فقرب جميع البيوت توجد فى الشارع خنادق ذات مقاييس متنوعة، مفروشة بالحجر و مسدودة من فوق بأحكام؛ و إلى الخندق يتجه الغائط من جميع بيوت الخلاء فى البيت و إليه تنسكب أيضا عبر بيوت الخلاء ذاتها كل الغسالة؛ و مرة فى السنة، و عادة بعد رحيل الحجاج، يجرى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۹۸

تنظيفها؛ و لهذا الغرض يستأجرون الزنوج؛ و هؤلاء يحفرون سلفا على مقربة فى الشارع حفرة جديدة، و ينقلون إليها كل مضمون البالوعات ثم يطمرونها؛ و ليس من المتبع استعمال الكلس أو وسائل معقّمة أخرى. فى البيوت الخاصة، لا- يحس المرء فى بيوت الخلاء برائحة شديدة، و مرد ذلك على الأرجح، إلى أن الناس لا يسكنون فى الطوابق السفلى القربية من الحفر. و لكن بيوت الخلاء العامة تطلق رائحة كريهة رهيبة، فلا يمكن المرور بقربها دون سد الانف.

حالة الشوارع و البازارات

الشوارع، كما قيل أعلاه، تشكل مكانا لرمى كل ضرب من الزبالة و نفايات المطابخ؛ و فى الحال تنقض الكلاب المتشردة و المواعز على كل ما يصلح للأكل منها. مرة فى اليوم يكنسون الشوارع الرئيسية، و لكن الزبالة تتكوم فى الأزقة طوال أشهر، و تهترئ الحيوانات الميتة، و يعتبر السكان كل هذا أمرا طبيعيا تماما، و لا يرتكبون البتة من الرائحة الكريهة؛ و فى هذه السنة بقى جمل ميت ۶ أيام فى أحد الشوارع الرئيسية، قرب قصر الشريف، و رفعوه و نقلوه حين جف كليا تقريبا.

و مفهوم أن تكون الشوارع مغبرة جدّا من جراء الحركة الكبيرة و من جراء عدم رشها أبدا، و لأنها غير مزفتة و غير مبلطة.

و عن البازارات ينبغى أن نقول الشىء نفسه؛ فهى فى كل مكان قذرة، و مغبّرة جدّا.

المسلخ

يقوم المسلخ خارج المدينة؛ و هو قذر جدّا، كما كان يصح أن أتوقع. وطر البقايا يجرى ببالغ الاهمال و برمى شريحة طفيفة من التراب.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۱۹۹

المقبرتان

توجد فى مكة مقبرتان غير كبيرتين، تقعان على طرف المدينة.

و بما أن المحلة لا تتيح توسيع المساحة التى تشغلها المقبرتان، فإنهم يحفرون مدفنا فوق آخر، و يستخرجون عظام المدفونين سابقا و يجمعونها فى حفر ترابية مهيأة خصيصا تسمى الواحدة منها «مخزن». و إذا أخذنا بالحسبان النسبة الكبيرة على العموم من الوفيات بين الحجاج و الأوبئة المتكررة، فلا بد من الافتراض أن عدد المدفونين هنا يبلغ رقما ضخما جدّا. و إداء لمراسم الجنازة، يحملون الموتى إلى الكعبة، ثم ينقلونهم بعد مرور بضع دقائق إلى المقبرة حيث توجد بضع حفر جاهزة لأجل الدفن. عمق الحفرة حتى صدر الإنسان. و لا وجود البتة لنقل الموتى من خارج المدينة، و لا حتى من أماكن قريبة مثل منى (۶- ۷ فرستات).

الظروف المناخية فى مكة

المناخ الحار فى الحجاز تشتد و طأته فى مكة من جراء انحصار المحلة بشدة بين الجبال، و تزاحم البيوت، و عدم إستقامة الشوارع، و الغبار الدائم، رغم أن مناخ هذه المدينة يعتبر صحيا بالنسبة لمن اعتادوا عليه.

و حسب مراقباتى، كان متوسط الحرارة فى مكة (علوها ۹۳۰ قدما فوق سطح البحر الأحمر) فى نيسان (ابريل) و أوائل أيار (مايو)، فى غرفة من طابق متوسط محمى جيدا من الشمس ۳۰ درجة ريومور فوق الصفر و كانت ترتفع نهارا إلى ۳۲- ۳۳ درجة، و تهبط قبيل الصباح إلى ۲۷- ۲۸ درجة؛ و فى تموز (يوليو)، كما أفادنى، بلغت الحرارة فى النهار هناك ۳۷ درجة ريومور فوق الصفر.

و يستفاد من المعلومات الواردة فى كتاب «الحجاز» أن متوسط الحرارة فى مكة هو التالى: كانون الثانى (يناير) ۱۸ درجة فوق الصفر، الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۰۰

شباط (فبراير) ۲۰ درجة، آذار (مارس) ۲۳ درجة، نيسان (ابريل) ۲۴ درجة، أيار (مايو) ۲۷ درجة، حزيران (يونيو) ۲۹ درجة، تموز (يوليو) ۲۹ درجة، آب (اغسطس) ۳۰ درجة، أيلول (سبتمبر) ۲۸ درجة، تشرين الأول (اكتوبر) ۲۵ درجة، تشرين الثانى (نوفمبر) ۲۴ درجة، كانون الأول (ديسمبر) ۲۰ درجة.

و يستفاد من أحاديث الطبيب عثمان أفندى الذى تسنى لى أن أتحادث معه أحيانا كثيرة أن المرض الأكثر إنتشارا فى زمن القيظ، و بخاصة بين الحجاج القادمين من الشمال هو «أبو الركب» و هو ضرب من الانفلوانزا (أصلها أنف العنزة) و كذلك اختلال فى أعضاء الجهاز الهضمى يتخذ أحيانا شكل الزحار (الدوسنطاريا)؛ و سبب المرض الأخير الذى ذكره الطبيب قد اعاده جزئيًا إلى استهلاك الماء من بئر زمزم بدون اعتدال و إلى الطعام الثقيل الذى يستجلبه الحجاج معهم من أوطانهم؛ و غالبا جدّا ما يحدث مرض الحصوة؛ و فى الشتاء غالبا ما تصاب أعضاء التنفس.

المستشفى و الصيدليات

لتوفير العلاج فى المستشفى و المستوصفات لأجل الطبقة الفقيرة، و توزيع الأدوية مجانا، يوجد مستشفى من ۳۰ سريرا، و يعمل فيه طبيبان و صيدلى واحد على حساب أموال الأوقاف التى تبرعت بها والدة السلطان عبد المجيد. يقع المستشفى فى وسط المدينة فى مبنى خاص به؛ و مفروشاته جيدة نسبيًا؛ فتحت تصرف المرضى اسرّة ملائمة، و لوازم فراش نظيفة و طعام جيد؛ و يلقون عناية جيدة. و حين زرت المستشفى كانت جميع الأماكن مشغولة. و كان المرضى يعانون بأغلبيتهم من أمراض التهاب المعدة. و قد قال الطبيب أن هذه المؤسسة العلاجية تستطيع فى أقصى الضرورة أن تقبل حتى ۶۰ مريضا.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۰۱

و توجد فى المدينة صيدليتان خاصتان صغيرتان جدّا و فقيرتان و صيدلية حكومية واحدة؛ و هذه الصيدليات لا تملك غير الأدوية الأكثر استعمالا.

السلطات الادارية و القضائية فى المدينة

المدينة يحكمها مباشرة الوالى و الشريف، و لا توجد البتة اية سلطات مدينية (بلدية) حقا. لأجل حل الخلافات و الدعاوى، يوجد ضرب من قاض مدينى (بلدى) هو «المحتسب». و للنظر فى القضايا الشرعية، يرسلون كل سنة من القسطنطينية إلى مكة المكرّمة و المدينة المنورة قضاة خاصين؛ و فضلا عن ذلك، يوجد أربعة مفاتى، أى مفتى واحد بكل من المذاهب السنّية. و لحفظ النظام فى الشوارع لم ار سوى دورية عسكرية واحدة، قرب الحرم. أما فى الأماكن الأخرى، فإن أمر المراقبة على النظام متروك للسكان أنفسهم؛ و السكان يقومون بالفعل جزئيًا مقام رجال الشرطة؛ ففى حال الشجار، الأمر الذى غالبا ما يحدث بين صبيان الشوارع العرب، يتراكض التجار من الدكاكين المجاورة أو يتراكض المارة، و يفرقون فورا بين المتشاجرين؛ و إذا ما تهاوى جمل فى الشارع، أو إذا ما حدثت سرقة ما،- و هذه ظاهرة نادرة نسبيًا هنا رغم تقاطر الناس من كل شاكلة و طراز بأعداد كبيرة- يحرص الناس أنفسهم على أنهاض الجمل، و على اعتقال السارق و إيصاله إلى السلطات. أما النظم التى تتطلب الرقابة الدائمة، فلا وجود لها هنا؛ مثلا. لا ضبط و لا- تنظيم لحركة القوافل فى الشوارع؛ و من جراء ذلك تتوقف الحركة ساعات و ساعات، و تمتلئ الشوارع بالجمال دون أن تترك مكانا حتى لسير المشاة.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۰۲

البريد و البرق

توجد فى مكة مؤسسة للبريد و البرق تحفل دائما بالعمل أثناء تجمع الحجاج. و البريد المحلى لا يقبل الطرود و لا الإرساليات النقدية، و لا حتى الرسائل المسجلة؛ و أثناء الحج يقتصر عمله كله فى قبول و تسليم الرسائل البسيطة فقط. و نقل البريد على ظهور الحمير إلى جدّة فى اتجاه، و إلى الطائف فى اتجاه آخر، يقوم به أحد سكان المحليين. أما النقل إلى المدينة المنورة، فيقوم به البدو على الهجائن. و غالبا ما سمعت الشكاوى من أن الرسائل البسيطة، و بخاصة فى زمن الحج، تضيع بكثرة.

و مكة موصولة بخط برقى (تلغرافى) مع جدّ و الطائف. و أثناء إقامة الحجاج فى منى يفتتحون فيها محطة موقتة. و جدّة تعمل بكبل يمتد إلى سواكن- و هى بلدة مصرية على الساحل المقابل من البحر الأحمر.

و ختاما للكلام عن هذه المسألة، يبقى أن اقول انه لا- توجد فى الحجاز مؤسسات للبريد و البرق إلا فى النقاط الثلاث المذكورة أعلاه- مكة، و جدّة، و الطائف. و فى المدينة المنورة لا يوجد سوى مركز بريدى يقبل الرسائل البسيطة و المسجلة فقط، و يعمل بصورة غير منتظمة؛ فإن الرسائل تصل من مكة تارة مرة فى الأسبوع، و طورا مرة فى كل أسبوعين؛ و لا وجود للاتصال المباشر مع ينبع حيث توجد أيضا مؤسسة بريدية. و نقل البريد فى البحر الأحمر تقوم به شركة الملاحة الخديوية السابقة التى تدخل سفنها فى الوقت الحاضر كل أسبوع إلى مرفأ جدّة، و مرتين فى الأسبوع إلى مرفأ ينبع. و فى غضون ۳- ۴ أشهر فى السنة، حين يجرى نقل الحجاج من ينبع إلى أوطانهم، لا تدخل سفن البريد إلى هذا المرفأ اطلاقا نظرا لمضايقات الحجر الصحى.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۰۳

مدينة الطائف

إن القيظ الذى لا يطاق صيفا فى مكة يجبر سكانها على الذهاب إلى مدينة الطائف الواقعة على بعد ۷۰- ۸۰ فرسخا تقريبا إلى الشرق

من مكة.

يقول العرب أن إبراهيم خاطب اللّه حين بنى الكعبة قائلا: «يا اللّه! بأمرك بنيت مذبحا و أسست مدينة، فبماذا سيتغذى سكانها من الآن و صاعدا؟». آنذاك أرسل اللّه رئيس الملائكة جبرائيل إلى سوريا و دار دورة (قام بالطواف) حول قطعة كبيرة من الأرض و حملها إلى الطائف.

و لذا، كما يقول العرب، كان المناخ فى الطائف و النبات أيضا سوريين حقا. و بالفعل تختلف مدينة الطائف و ضواحيها، بفضل موقعها العالى (على ارتفاع ۵۱۵۰ قدما فوق سطح البحر)، اختلافا شديدا عن سائر أنحاء الحجاز، و تتميز بمناخ أكثر اعتدالا، و بغياب رياح السموم، و بوفرة الماء الجارى، و بهطول الأمطار أحيانا كثيرة نسبيّا؛ و لذا تتواجد تبعا للظروف المذكورة أعلاه، نباتات مغايرة تماما؛ منها الكروم و بساتين الموز و البرتقال و الدراق و المشمش و الرمان و غير ذلك. و الطائف تزود مكة بخضراوات لا تنبت فى أنحاء الحجاز الأخرى.

تقع مدينة الطائف فى محلة مكشوفة، على السفح الشرقى من جبل القرى، و تحيط بها بساتين كثيرة يخص قسم منها سكان المدينة و قسم آخر بدو الضواحى. و الطائف تشبه مكة من حيث الشوارع و البازارات و معمارية البيوت. و حول الطائف تشبه مكة من ينتصب سور حجرى له ۳ بوابات يغلقونها ليلا. و عدد السكان الدائمين فى الطائف ألف و خمسمئة.

المدينة المنورة

اشارة

المدينة المنورة أو مدينة النبى محمد (صلّى اللّه عليه و سلم) هى المدينة الثانية من حيث الكبر فى الحجاز من حيث الأهمية فى العالم الإسلامى.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۰۴

تقع المدينة على بعد حوالى ۳۵۰ فرسخا بخط مباشر إلى الشمال من انقاض مدينة يثرب القديمة، وسط سهل عريض يحيطه جبل أحد من الشمال و جبل خيبر من الجنوب و يضيق السهل إلى الغرب و ينفتح إلى الشرق. و المدينة مطوقة بسور حجرى تنتصب أبراج فى زواياه، و قرب بواباته الأربع؛ و قد بنى السور فى عام ۱۵۳۵ و تم تجديده عند انتهاء حركة الوهابيين. و المدينة بالذات تشغل رقعة صغيرة جدّا من الأرض، حوالى فرسخا مربع واحد؛ من الجهة الغربية تلتصق بها ضاحية «مناخة» التى نشأت فى الآونة الحديثة و المسيجة بدورها بسياج يلتصق فى أطرافه بسور المدينة المنورة.

الشوارع

إذا دخلنا عبر البوابة الغربية للضاحية المسماة «الانبارية»، التى لا يجيزون إلا عبرها دخول و خروج القوافل و الركب، فأن العين تقع على شارع عريض، مخطط باستقامة، و تنتصب فيه أعمدة للمصابيح من كلا الجانبين و بيوت كبيرة. من الجانب الأيسر فى هذا الشارع، قرب البوابة بالذات، يقوم المبنى الشاسع للتكية المصرية التى تتفق وظيفتها مع وظيفة التكية المماثلة فى مكة؛ من الجانب الأيمن، مقابل التكية، تقوم ثكنات كبيرة، و بقربها مستشفى عسكرى، و إلى أبعد، دار الحاكم المحلى- المحافظ. ينتهى الشارع بساحة شاسعة تتوقف فيها القوافل و تقوم فيها أسواق الحبوب و الحطب و الماشية. و ضاحية مناخية تتصل بالمدينة عبر بوابتين، أهمهما البوابة السورية التى تؤدى إلى شارع ضيق لا يربو عرضه على ۴- ۵ ساجينات، و لكنه أكثر شوارع المدينة المنورة انتعاشا و حركة؛ و هو يعبر المدينة كلها و ينتهى عبد بوابة الحرم. و هناك شارع رئيسى آخر، أوسع بقليل و تقوم فيه أفضل البيوت فى المدينة

المنورة؛ و هو يتجه شمالا، بموازاة الشارع الأول، و ينتهى إلى بوابة أخرى من

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۰۵

منظر بانورامى للمدينة المنورة (حفر من صورة بعدسة محمد صادق) سنة ۱۸۸۸

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۰۶

الحرم. القسم الباقى من المدينة تتقطعه فى اتجاهات مختلفة أزقة ضيقة موزعة بشكل شبكة مشوشة خارقة التشوش.

البيوت

الحجر هو مادة بناء البيوت هنا كما فى مكة. كذلك يستعملون الحمم (السائل البركانى) المتجمدة التى تغطى كل السهل فى جوار المدينة المنورة. و معمارية البيوت كما فى مكة، و لكن يبنون أيضا فى الطوابق السفلى غرفة خاصة بدون نوافذ مزودة بمدخنة عريضة متصاعدة إلى أعلى، و تجوز جميع الطوابق العليا. هذه الغرفة المسماة «القاعة» هى غرفة الاستقبال عند أهل المدينة لأنها أبرد من غيرها. و فى الطوابق العليا يبنون مشربيات؛ و على السطح يوجد مكان لأجل راحة الليل صيفا و التدفؤ فى الشمس شتاء.

سكان المدينة و أشغالهم

بموجب المعطيات التركية الرسمية، يبلغ عدد السكان الدائمين فى المدينة المنورة ۸۰۰۰۰ نسمة، و لكنه، نظرا لأبعاد المدينة، بالكاد يربو على نصفى هذا العدد. و السكان أنفسهم يعتبرون هم أيضا أن عددهم يبلغ زهاء ۴۰۰۰۰ نسمة.

يتألف السكان من عناصر متنوعة كما فى مكة. و سكان الحجاز الأصليون هم هنا، فى المدينة المنورة، أقل أيضا مما فى مكة؛ و جميع الأفراد الذين يقولون عن أنفسهم أنهم عرب، فيما عدا استثناء طفيف، غرباء تجنسوا من زمان بالجنسية الحجازية. و يتألف نصف السكان من قادمين من زمن غير بعيد- من أتراك و جزائريين و تونسيين و مصريين و سرتيين و تتر و غيرهم.

و قد بدا لى عرب المدينة المنورة ألطف من سكان مكة؛ فهم

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۰۷

بشوشون جدّا، مضيافون، ودودون، مستعدون دائما لمد يد العون عند الاقتضاء، رفاق ممتازون فى الطريق؛ و سكان الحجاز الآخرون يفسرون على طريقتهم هذه السمات من طبع أهل المدينة المنورة قائلين أن بركة النبى لا تزال تشملهم لأنهم كرموه بعد الهجرة من مكة.

فى عداد السكان القادمين يوجد بضع مئات من السرت؛ و هم هنا على الأغلب فعلة عاديون، غير ماهرين، ينافسون الارقاء بنجاح. و الأتراك و المصريون و غيرهم يلعبون هنا نفس الدور الذى يلعبونه فى مكة.

و فى المدينة تعيش ۳۱ عائلة من التتر من رعايا روسيا، هاجرت إلى هنا فى أزمان مختلفة و لأسباب مختلفة، و احبت هذه المدينة و شكلت هنا جالية صغيرة فى ضاحية مناخة. و هذه الجالية يرأسها عبد الستار، الذى استقر هنا منذ ۴۰ سنة و الذى نزح من محافظة استراخان.

و التتر المحليون نزحوا بأغلبيتهم من روسيا بعد الاضطرابات التى نشبت بينهم فى سنة ۱۸۹۲؛ و قسم منهم حرفيون و تعساء جاؤوا يبحثون عن السعادة؛ و هناك بينهم أيضا تلامذة فى المدارس الدينية المحلية تزوجوا و استقروا هنا للإقامة الدائمة. و أعضاء هذه الجالية يكسبون جميع موارد رزقهم من الحجاج من أبناء قوميتهم؛ فهم يستقبلون القوافل القادمة من جهة ينبع و يحاولون أن ينزلوا الحجاج فى بيوتهم، و يقدمون لهم الطعام و يحاولون أن يستحصلوا على «بدل»؛ و حين تعتزم القوافل مواصلة السير، يتجمع جميع أعضاء الجالية لتوديع القوافل لكى يحصلوا من مواطنيهم على صدقة هى عادية فى مثل هذه الأحوال؛ و أن من يفلحون فى الحصول

على بدل، يذهبون مع الحجاج لأجل إداء فرائض الحج فى مكة؛ و من مكة يعودون مع حجاج آخرين، و ينزلونهم فى البيوت و يودعونهم بموجب النظام نفسه. و عند إنتهاء الحد، يذهب بعض من التتر المحليين إلى روسيا لزيارة اقربائهم، و الأهم، لجمع الصدقات التى يقدمونها لهم بطيبة خاطر بوصفهم من سكان المدينة المقدسة،

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۰۸

و للحصول على بدل إذا سنحت الفرصة. و قد رأيت بين المهاجرين المحليين واحدا فقط كان فيما مضى تاجرا ميسروا وفر إلى المدينة المنورة بسبب إدمان الخمر، و هو الوحيد الذى لا يهتم بالحجاج، و يكسب رزقه بعمله. و منذ حوالى ۲۹ سنة، بدأ عبد الستار المذكور أعلاه يجمع فى روسيا النقود لبناء مدرسة دينية و مسجد فى المدينة المنورة. و لجمع التبرعات سافر أولا بنفسه؛ و عندما منعوه من دخول روسيا، شرع يرسل أقرب معاونيه مع الرسائل؛ و على هذا النحو، كما يقال، تم جمع ۵۰ ألف روبل تقريبا. و بهذا المبلغ بنوا مدرسة دينية مرفقة بأربعين منسكا ضيقا جدّا ينزلون فيها أيضا، فى زمن الحج، بعضا من الحجاج، كما بنوا مسجدا غير كبير و ستة بيوت يعيش فيها جامعو النقود أنفسهم. و فى الوقت الحاضر يستمر جمع النقود و تشييد المبانى.

و قد تسنى لى أن اسمع مرارا من أفراد مختلفين انه إذا توفى حاج توقف عند عبد الستار أو عند أنصاره الستة أو السبعة أو فى المدرسة الدينية، فإن أمواله و نقوده تختفى باوقح شكل، بلا ذمة و لا ضمير؛ كذلك يتصرفون بأموال التلامذة فى المدرسة الدينية، و يتخاطفون و يسرقون أمتعتهم، و يستبدلون كتب الأوقاف بكتبهم؛ و بعد ذاك فقط يعلمون السلطات بموت التلميذ.

إن عبد الستار و أقرب أعوانه، سعيا منهم إلى نشر نفوذهم و زيادة عدد اتباعهم حولهم، يحاولون بجميع الوسائل أن يوحوا لمواطنيهم العائشين فى روسيا بأن «الهجرة» أى النزوح إلى دولة إسلامية هى من أهم واجبات كل مؤمن. و فى سنة ۱۸۹۷ وضع الشيخ عبد القادر الذى كان يتمتع بالشهرة فى المدينة المنورة (المتوفى حاليا)، بتكليف منهم، كراسا خاصا يحتوى جميع آيات القرآن المتعلقة بتلك المرحلة من نضال النبى ضد الوثنيين المكيين التى طلب فيها من اتباعه النادرين آنذاك من عداد سكان مكة اللحاق به. و كان من المرتأى، بعد طبع الكراس فى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۰۹

القاهرة، ارسال ۱۰۰۰ نسخة إلى روسيا حيث كان من الممكن، باعتبار أنها ترتكز على القرآن الكريم و حسب، أن تستثير الاضطراب و الغليان وسط قسم معين من السكان المسلمين. و حين غادرت القاهرة فى شهر كانون الثانى (يناير) من السنة الجارية، لم يكن الكراس قد طبع بعد، نظرا لمرض الشخص الذى عهد إليه بطبعه.

و مع ذلك لا يتزايد عدد التتر فى المدينة المنورة من جراء الظروف المناخية المرهقة و من جراء النسبة الكبيرة من الوفيات. و إذا ماتت الزوجة، راح الأرمل للتزوج من جديد إلى روسيا؛ و منها يحاول أن يجلب أيضا زوجات لأولاده الراشدين و اخوته و غيرهم، متجنبا بكل اجتهاد القران بالعربيات المحليات إذ يجد أنهن مفرطات فى تطلباتهن و متقلبات الهواء.

أشغال السكان فى المدينة المنورة تشبه أشغال السكان التى رأيناها فى مكة- جزئيا التجارة؛ و أساسا مختلف موارد الرزق من خدمة الحجاج.

البازارات فى المدينة المنورة عبارة عن نسخة غير كبيرة عن بازار مكة، و هى تتاجر بالبضائع ذاتها تماما، و لكنها تبيع بأسعار أغلى بكثير و نادرا ما تطرأ عليها التقلبات، نظرا لأن استجلاب البضائع أصعب و لأن العرض غير كبير. و بدرجة كبيرة جدّا ترتفع أسعار مواد الضرورة الأولية المستجلبة من ينبع و منها مثلا- الشاى و السكر. أما القمح و الرز فإن المدينة المنورة تحصل عليهما جزئيا بفضل القوافل القادمة من منطقة ما بين النهرين؛ بينما ترد سمنة البقر و الضأن و الدهن من نجد. و فى سنة ۱۸۹۸، تشكى الناس بخاصة من غلاء أسعار المنتوجات المعيشية المحلية، الناجم عن انقطاع المطر فى الشتاء السابق و النقص العام فى المعلف. و كانت أسعار سلع الضرورة الأولية بالمتوسط للرطل الواحد كما يلى:

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۱۰

الظروف الصحية فى المدينة المنورة

الظروف الصحية فى المدينة المنورة أفضل مما فى مكة، بفضل توفر بعض المرافق العامة، و الأهم بفضل عد تجمع الحجاج فى آن واحد بأعداد كبيرة.

الماء

حصلت المدينة المنورة على الماء فى سنة ۱۵۹۰ و ذلك من آبار عين الزرقة الواقعة على بعد زهاء خمسة فرسخات عن المدينة، قرب جامع القبّة. و نظام توزيع مجارير الماء كما فى مكة. الأنبوب الحجرى يمتد على عمق زهاء ساجنين و له كثرة من منافذ الهواء- الآبار المرفوعة كثيرا تخوفا من ظاهرات السيول فوق سطح الأرض. و لاستعمال الماء توجد أحواض مبلطة بالحجر، و لكن الناس لا يستقون الماء من المزراب، بل يمررونه بواسطة حنفيات نحاسية عبر خراطيم خاصة إلى القرب مباشرة. و نقل الماء و توزيعه على البيوت و حفظه كما فى مكة.

و هذا الماء لا يستعملونه فى المدينة المنورة إلا لأجل الشرب و الطعام؛ أما الحاجات الأخرى فتلبيها الآبار القائمة فى كل بيت. و الماء فى المدينة المنورة جيد، و لا نقص فيه.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۱۱

حالة البيوت

تتصف البيوت ببالغ النظافة و الترتيب، و لكن بيوت الخلاء كما فى مكة؛ و فى بعض البيوت تفوح رائحة كريهة فى الطوابق السفلى، و بخاصة إذا كان عدد السكان كبيرا. و تنظيف البالوعات يجرى على الأغلب مرة واحدة فى السنة. و بعض أصحاب البيوت لا يقومون بهذه العملية إلا مرة واحدة كل سنتين أو ثلاث. و محتوى البالوعة ينقلونه إلى خارج المدينة.

حالة الشوارع

المدينة نفسها تقع ضمن سور و فى رقعة أضيق مما فى مكة؛ و الشارع الأفضل الذى ينطلق من باب الشام و تشغله كليا الدكاكين من جانبيه لا يبلغ عرضه أكثر من ۴- ۵ ساجينات. و الأزقة خارقة الضيق، و عرض بعضها أرشينان و نصف أرشين فقط. و هناك عمارات تطل على الشارع الكسب مكان، تاركة فى أسفل ممرا غير عال، الأمر الذى يعيق كثيرا، بالطبع، حركة الهواء. و ترتيب البيوت فى ضاحية مناخة أرحب بكثير رغم انه لا وجود هنا للأحواش و رغم أن المبانى تلتصق بعضها ببعض على الشارع و فى العمق. و الشوارع تشكل مكانا لرمى الزبالة و النفايات من كل شاكلة، و يجرى تكنيسها مرة واحدة فى اليوم.

و لكن الشارعين الرئيسيين فى المدينة المنورة مرصوفان بالبلاطات الحجرية؛ ورش الشوارع يقوم به فى كل مكان تقريبا أصحاب البيوت أنفسهم.

أما السبب الرئيسى لكون شوارع المدينة المنورة أنظف، هو أن المدينة ذاتها لا تجيز دخول الجمال و سائر الحيوانات، فتتوقف القوافل العابرة خارج المدينة أو فى ساحة بمناخة؛ و جميع الحمير و الأحصنة التى تخص السكان يزربونها هى أيضا فى هذه الضاحية.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۱۲

المسلخ

يقع المسلخ خارج المدينة، عرى مقربة من سورها؛ و هو قذر جدّا.

المقبرة

للمدينة المنورة مقبرة صغيرة واحدة تقع وراء سور المدينة بالذات، و يطوقها سور غير عال. أسلوب دفن الموتى هنا كما فى مكة: يحفرون حفرا عميقة كفاية، لا أقل من أرشين و نصف أرشين، و فى المدافن القديمة نظرا لضيق المكان. كذلك لا وجود هنا لعادة جلب الموتى من غير أهل المدينة.

الظروف المناخية

تقع المدينة المنورة أبعد إلى الشمال و فى محلة مكشوفة، و لذا تتمتع بحرارة أدنى بعض الشيء فى فصل الصيف؛ و فى الشتاء يكون البرد، كما يقولون، محسوسا جدّا. و حسب مراقباتى فى شهرى أيار (مايو) و حزيران (يونيو)، كان متوسط الحرارة فى اليوم فى غرفة غير كبيرة، و لكنها محمية جيدا من الشمس، ۲۷ درجة ريومور فوق الصفر، و لكنها كانت ترتفع فى النهار إلى ۲۹ درجة و تهبط فى الليل إلى ۲۵ درجة. و فى الشتاء تهبط الحرارة فى الغرفة ذاتها، كما قالوا لى، إلى ۱۳ درجة فوق الصفر.

و لربما بسبب الفرق الكبير بين حرارة الصيف و حرارة الشتاء، أو بسبب و فرة و قرب المياه الجوفية المتواجدة فى كل مكان على عمق ساجنين أو ثلاثة، أو بسبب إنشاء الآبار فى البيوت بالذات، تتخذ الملاريا فى المدينة المنورة شكلا خطيرا جدّا، فاتكة بكثيرين من المرضى. و عدا ذلك، توجد، و أن اندر مما فى مكة، أمراض مختلفة

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۱۳

المحمل فى المدينة المنورة

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۱۴

لأعضاء جهاز الهضم. و نسبة الوفيات، و بخاصة بين السكان الدخلاء، كبيرة جدّا؛ و يموت على الأخص عدد كبير من الأولاد. و عند التتر المقيمين هنا، كما يقولون، لا يعيش سوى عدد تافه من المواليد الجدد.

كذلك نسبة الوفيات كبيرة بين العساكر.

المستشفى

لا صيدلية فى المدينة المنورة؛ و لكن المرضى يحصلون على الأدوية مجانا من المستشفى المبنى على نفس الأسس كما فى مكة، بأموال الأوقاف التى كانت تتبرع بها والدة السلطان عبد المجيد؛ و هذا المستشفى يشغل مبنى رحبا جدّا من ثلاثة طوابق عند بوابة الحرم بالذات و يملك ثلاثين سريرا دائما. و يعمل فى المستشفى طبيب واحد و صيدلى واحد.

المدارس الدينية فى المدينة المنورة

تسنى لى أن أطلع بمزيد من التفصيل على المدارس الدينية فى المدينة المنورة، حيث الدروس لا- تتوقف حتى فى زمن تجمع الحجاج.

و كل ما اقوله هنا عن هذا النوع من المدارس يصح كذلك على المؤسسة التعليمية من هذا الطراز فى مكة، التى لا تختلف إلا من حيث قوام التلامذة؛ ففى مكة يشكل الماليزيون الأغلبية، و فى المدينة المنورة الأتراك و السوريون و التتر و غيرهم.

فى المدينة المنورة ۱۷ مدرسة دينية تضم قرابة ۲۵۰ تلميذا.

و جميع المدارس الدينية تشكل أوقافا تركية بوجه الحصر، و يؤمن لها دخل معين يجرى انفاقه على المعلمين و على منح التلامذة النقود لأجل الطعام. و أغنى المدارس الدينية مدرسة المحمودية حيث يتقاضى التلميذ ليرة تركية واحدة فى الشهر؛ و فى المدارس الباقية ينال التلميذ بالمتوسط

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۱۵

فى كل شهر مجيديتين (حوالى ۳ روبلات و ۵۰ كوبيكا). أما العائشون فى مدرسة قازان، فيعيشون على حسابهم.

جميع مبانى المدارس الدينية مبنية حسب طراز واحد- عمارة مربعة الزوايا من طابق أو من طابقين مع حوش فى الوسط تطل عليه جميع أبواب غرف غير كبيرة- أى مناسك معد كل منها لايواء شخص واحد. و عدد هذه الغرف لا يربو عادة على ۱۰- ۱۵؛ و عددها فى المحمودية ۲۶، و فى مدرسة قازان ۴۰؛ و فى مدارس دينية أغنى تبلغ مساحة الغرفة حوالى ۲۰ ارشينا مربعا؛ و فى كل من الغرف توجد نافذة غير كبيرة؛ أما فى مدرسة قازان فإن مساحة الغرف ۱۲ ارشينا، و النوافذ موجودة فى غرف الزوايا فقط. و فى المدارس الدينية جميعها تقريبا توجد مكتبات و غرفة أوسع هى صالة للمحاضرات. و لكل مدرسة دينية ناظرها؛ و هو يعيّن وفقا لمشيئة صاحب الوقف، كما انه يشرف على قبول و صرف التلامذة و إعطائهم النقود الواجبة، و التقيد بالنظام، و خلاف ذلك. و عدا الناظر، ينبغى أن يكون ثمة معلم، أى مدرّس يعيّن كذلك بإشارة من صاحب الوقف أو ورثته.

فى عداد التلامذة يقبلون أبناء جميع القوميات ما عدا السكان المحليين، و من جميع الأعمار، وفقا لعدد الغرف الفارغة، دون السؤال عن المعارف التى يملكها طالب العالم. و عدد سنى الإقامة فى المدرسة غير محدد. و هناك من يعيشون فيها ۲۰ سنة. و لا تتخذ اية تدابير للاجبار أو الحث أو التشجيع فى الدراسة أو للتحقق من النجاحات. و لا يصرف التلامذة خلافا لإرادتهم إلا فى حال اقترافهم أعمالا- غير لائقة جدّا،- و ليس ثمة تقريبا مثال على ذلك- و كذلك فى حال زواجهم. و نظرا لهذه النظم، يعيش على الدوام فى المدارس الدينية عدد عديد من شتى الأفراد الذين لا مأوى لهم و الذين لا علاقة لهم البتة بشؤون الدراسة، و ذلك لمجرد الرغبة فى الانتفاع من الشقة الجاهزة و النقود للعيش. و فى كل

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۱۶

مدرسة دينية تقع العين على بضعة شيوخ هرمين جاؤوا إلى المدينة المنورة لكى يقضوا هنا أواخر أيامهم لكى يدفنوهم على مقربة من قبر نبيّهم.

تبدأ الدروس فى المدرسة فور صلاة الصبح، مع طلوع الشمس؛ و جميع التلامذة و العائشين فى المدرسة ملزمون بالاستماع إلى محاضرة واحدة من مدرّسهم، ثم يتصرفون بوقتهم كما يطيب لهم، دون أية رقابة. و عادة، يذهب الراغبون فى تحصيل العلم إلى الحرم حيث يلقى ائمة المدينة المنورة، الواسعو الشهرة، الخطب فى ساعات معينة من النهار، و كل منهم فى موضوعه؛ و يتجمع حوله عدد كبير من المستمعين، و حين يجد التلميذ انه يملك ما يكفى من المعارف فى الموضوع المعنى، ينتقل إلى إمام آخر، و هكذا دواليك.

و من عداد مواضيع الدراسة، باستثناء العلوم الدينية المدرّسة فى جميع المدارس الإسلامية، اشتهر ائمة المدينة المنورة بتفسير القرآن الكريم و بخاصة تفسير الأحاديث النبوية. و كثيرون من التلامذة يتوافدون إلى المدينة المنورة لسنة أو لسنتين خصيصا لتحصيل هذه العلوم من معلميها.

و لكن من يعيش فى المدرسة الدينية مفروشاته و لوازم منزلية بسيطة؛ و هو يعتم شخصيا بإعداد الطعام لنفسه. و حوالى الساعة ۹ مساء تقفل المدرسة أبوابها؛ و قبل ذاك يعود الجميع فى المعتاد إلى غرفهم.

حين كنت فى المدينة المنورة كان فيها ۴۲ تلميذا تتريا من رعايا روسيا موزعين فى مدارس دينية مختلفة، و لكن أغلبيتهم كانت فى مدرسة قازان لأنه يوجد هناك عدد كبير من الغرف الفارغة. و عدد هؤلاء الشبان ازداد كثيرا فى السنوات الأخيرة بالانتقال إلى هنا

من المدارس الدينية فى القاهرة و القسطنطينية (فى أواخر سنة ۱۸۹۷ بقى فى القاهرة ۷

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۱۷

مسجد الخيف فى المدينة المنورة (تصوير ابراهيم رفعت) سنة ۱۹۰۸

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۱۸

أشخاص و فى القسطنطينية ۱۵ شخصا من السفط من رعايا روسيا) و ذلك جزئيًا بدافع الرغبة فى الاستماع إلى خطب ائمة المدينة المنورة، و بصورة رئيسية، بامكان العيش بصورة أقل حقارة و فقرا، بفضل إمكانية جمع الصدقة و الإحسان من الحجاج من أبناء الوطن و الحصول أحيانا على ابدال مفيدة.

و قد اقتنعت بأن تلامذتنا هنا يتميزون بصورة إيجابية عن زملائهم فى مدارس بخارى؛ فلا يلحظ المرء فيهم ذلك التعصب الأعمى المتطرف و ذلك الازدراء الجاهل لك ما لا يدخل فى إطار الشريعة و بجميع من لا يسيرون بكل دقة فى طريقها المرسوم؛ و يتميز ارباء المدينة المنورة بافق أوسع بكثير، و نظرات أصح؛ و يعتمون بكل شىء. و قد بدا لى أن سبب ذلك، بصورة رئيسية، هو روح سكان المدينة المنورة الأصليين، و هى روح مغايرة تماما، اوفر حرية إلى ما لا قياس له؛ و انه يجب أن ننسب جزئيًا هذا التأثير إلى السفرة الطويلة التى تحمل إلى الشبان الصحو و صفاء الذهن؛ و جزئيًا إلى نفوذ العالم الدينى السيّد على الزاهر الواسع الشعبية فى الحجاز؛ و هو رجل لا ريب فى انه ذكى جدّا و رأى الكثير فى دهره، و ذو وجهة ليبيرالية نادرة جدّا بين العلماء. و هذا العالم يلقى تفسيرات للأحاديث النبوية؛ و محاضراته فى الحرم تجتذب دائما عددا كبيرا من الناس. إن التفسيرات التى يعطيها عن اقوال النبى تتميز عن تفسيرات العلماء الآخرين؛ فهو يرى فى كل شىء مغزى داخليا أوسع. و قد تسنى لى أن حضرت إحدى المحاضرات فى تفسير الأحاديث المتعلقة بالهجرة (أى عن النزوح من دولة غير إسلامية إلى دولة إسلامية)؛ و قد قال السيّد على أن واجب كل مسلم أن يحب الوطن الذى يعيش فيه، و أن يحترم السلطة القائمة هناك، أيا كانت العقائد هناك، و انه

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۱۹

لا مبرر للنزوح لا فى القرآن و لا فى الأحاديث، إذا كان الإيمان لا يتعرض للعنف. و هذا العالم المحترم هو من كبار أنصار روسيا؛ و غالبا ما يحكى لزواره العديدين من الحجاج من جميع البلدان، عن زيارته لموسكو حيث شاهد بالتفصيل جميع الطرائف، و يمدح كثيرا نظمنا و أوضاعنا؛ و هو يقول: «ايماننا صحيح، و لا شك فى هذا، و لكن العدالة غائبة فى الدول الإسلامية؛ و يجب البحث عنها عند الروس».

المكتبات

عدا المكتبات غير الكبيرة الموجودة فى كل مدرسة دينية توجد فى المدينة المنورة مكتبتان عامتان غنيتان نسبيًا: مكتبة شيخ الإسلام و مكتبة المحمودية، و فى كل منهما قرابة ۶۰۰۰ مجلد، أغلبها كتب مخطوطة دينية المضمون، و بينها نسخ نادرة جدّا. و المكتبات، مثلها مثل المبانى التى تقوم فيها، تمولها الأوقاف؛ و من أموال الأوقاف يتقاضى قيمو المكتبات رواتبهم.

سلطات المدينة

إدارة المدينة يرأسها العامل، أى حاكم سنجق المدينة المنورة، و للبت فى الدعاوى القضائية يوجد قاض تجرى الاستعاضة عنه سنويا من القسطنطينية، و محتسب. و هناك مفتيان لأجل المذهب الحنفى و المذهب الشافعى. و لحفظ النظام تقام فى زمن إقامة قوافل الحجاج دورية عسكرية خاصة فى ساحة ضاحية مناخة. أما فى الوقت الباقى فلا يظهر فى الشوارع أى من حراس الأمن و النظام. و جميع بوابات المدينة يحرسها حراس؛ و فى الليل يغلقونها؛ و لا يسمحون بالخروج لقوافل الحجاج إلا نهارا و شرط أن يقدم البدو

ترخيصا خطيّا من العامل.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۲۰

البساتين فى ضواحى المدينة المنورة

ضواحى المدينة عبارة عن سهل رملى عريض، تتخلله الحجارة و السائل البركانى المتجمد، و يكسوه السباخ. و لا وجود البتة للماء الجارى، و لكن الشريحة المنطوية على الماء تمتد على عمق غير كبير جدّا، على عمق ساجينين أو ثلاثة، و من جراء ذلك تكثر البساتين و أحواض الخضراوات فى ضواحى المدينة المنورة، و بخاصة فى جانبها الشرقى؛ و هى تخص البدو جزئيّا، و جزئيّا الطبقة المسيورة من سكان المدينة. تتألف البساتين بوجه الحصر تقريبا من أشجار النخيل؛ و تمر المدينة المنورة يعتبرونه، من حيث و فرة السكر فيه، أفضل تمر فى العالم، و يشكل المادة الوحيدة للتصدير من هذه المنطقة؛ و إلى شراء التمر يتوافدون من أبعد أنجاء الحجاز؛ كذلك يبيعونه فى محله أو عبر مكة من الحجاج. و تبلغ الصادرات قرابة ۵۰۰۰۰ بود . و سعر خيرة الأصناف، حين يشتريها الحجاج، زهاء ۱۰ كوبيكات للرطل الواحد.

و هنا يحسبون انه يوجد أكثر من ۷۰ نوعا من أشجار النخيل المختلفة من حيث صفات ثمارها. تعيش شجرة النخيل حوالى مائة سنة، و تبلغ أقصى مردودها حين يتراوح عمرها بين ۵۰ و ۶۰ سنة، ثم تبدأ تشيخ تدريجيا؛ و حين تقل كمية الثمار كثيرا، يقطعون الشجرة من جذعها و يستعيضون عنها بشجرة فتية. تعطى شجرة النخيل فى موسم جيد و فى أفضل أوقاتها زهاء ۳۰۰ رطل من التمر؛ و يجنون بالمتوسط من كل شجرة زهاء ۱۸۰ رطلا. و يعتبرون أن خيرة الأنواع هى: الجاليابى، الحلوة، البرنى، الحتلاية، الجادى، البيض، اللبانه، العجوة. السقاية تجرى ببالغ الوفرة؛ و أثناء نضوج الثمار تجرى أحيانا كثيرة جدّا- مرة كل ۵ أو ۶ أيام، بل أكثر من ذلك إذا توفرت الإمكانيات. يستخرجون الماء من

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۲۱

الآبار بقرب كبيرة خاصة و بمساعدة دواب الجر. فتحات الآبار واسعة جدّا، قطر كل منها ساجين و نصف ساجين أو ساجينان؛ من طرف ينتصب عمودان حجريان بينهما يضعون بكرات خشبية على درجتين. القربة المليئة بالماء يرفعونها بواسطة حبلين موصولين بطرفى القربة، و ممررين عبر البكرات الخشبية. حين ينبسط الطرف المفتوح من القربة على البكرة الدنيا، يواصل الطرف المقابل الصعود و يجعل القربة فى وضع عمودى، فينسكب الماء كله منها. و عادة تعمل قربتان بصورة متوازية، يرفعونهما بواسطة دابتين، و على الأغلب بواسطة جمال فتية تدور إلى الوراء إلى الأمام فى ساحة منحنية قرب البئر. بهذا الأسلوب يستخرجون بالمتوسط زهاء ليتر واحد فى الثانية.

عدا أشجار النخيل يتعاطون فى البساتين زراعة نوع صغير من أشجار الليمون الحامض، و الكروم و الحنّاء و الفلسنك و غير ذلك.

و الفسحات الحرة بين الأشجار يزرعونها بالفصفصة. و من الخضراوات يزرعون، فيما يزرعون، البطاطا. و بعض من سكان المدينة المنورة ينقلون إلى البساتين لقضاء الصيف كله إذا توفرت لهم الأسباب لعدم التخوف من إعتداءات البدو. أما بالنسبة للآخرين، فإن البساتين تشكل مكانا للنزهة؛ فيأتون جماعات كبيرة، و يختارون بستانا ما حرا، علما بأن صاحبه لا يحول أبدا، بحكم العادة، دون دخول الغرباء إلى بستانه، فيبقون لبضعة أيام، مستفيدين كذلك من الثمار مجانا.

المدينة المنورة بوصفها منفى

المدينة المنورة، مثلها جزئيّا مثل مكة و الطائف، تشكل فى عهد السلطان العثمانى الحالى منفى للأشخاص المستبعدين لأسباب سياسية، و للنساء و الخصيان المطرودين من الباب العالى. و بين الأشخاص من

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۲۲

الفئة الأولى، يمكن ذكر غازى محمد باشا، و هو من أبناء الإمام شميل المعروف.

ينبع. موقع المدينة و البيوت

اشارة

مدينة ينبع أو، كما يسمونها تمييزا لها عن ينبع أخرى واقعة على بعد ۲۵ فرستا تقريبا فى الجبال، ينبع البحر، هى أقرب مرفا إلى المدينة المنورة. تقع ينبع على بعد ۲۰۰ فرستا تقريبا، إذا حسبنا بالخط المباشر، إلى الجنوب الغربى و الغرب من المدينة المنورة، و على بعد ۱۹۰ فرستا تقريبا إلى الشمال من جدّة؛ تنتصب ينبع على ساحل رملى مستو من البحر الأحمر، و يحيط بها من جهة البر سور حجرى ذو بوابتين. بيوت ينبع من الهندسة المعمارية المتواجدة فى مكة، و لكن مع فارق وحيد هو أن جميع الطوابق السفلى فى ينبع مأهولة كذلك أن حطام الشعب المرجانية التى تقوم عليها المدينة تشكل مادة لأجل البناء أيضا. و البيوت متزاحمة فى الجانب الجنوبى من المحلة المحاطة بالسور حيث يوجد شارع واحد و بازار و بضعة أزقة. أما فى القسم الشمالى من المدينة فإن المبانى موزعة على نطاق واسع و دون أى نظام؛ و فى الطرف الشرقى تقوم بنايات غير سكنية يستعملونها لجمع الماء و حفظه.

السكان و أشغالهم

فى ينبع يعيش ۵۰۰۰ نسمة من السكان الدائمين؛ و هم أساسا من السكان المحليين، الأصليين. و شغلهم فى زمن الحج، ممارسة التجارة؛ أما فى الوقت العادى، فيتعاطون صيد السمك و الملاحة الساحلية، و ما إلى ذلك. و التجار القادمون من مصر و جدّة و المدينة المنورة فى زمن تدفق الحجاج هم تجار أكبر من تجار ينبع. سلع التجارة هى كالتى فى المدن المذكورة، و لكن بمقادير أقل بكثير. و من سلع التصدير التمر

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۲۳

المستجلب إلى هنا من ينبع النخلة الصفراء و الحمراء و كذلك الصدف على أنواعها و السلاحف، و غير ذلك من المواد المستخرجة من البحر.

و هناك ملاحة أكثر إنتعاشا على السنابك- و هى زوارق شراعية غير كبيرة بلا- متون يصنعونها فى جدّة- تجرى فى اتجاه هذه المدينة. و أثناء إقامتى فى ينبع كان يأتى إليها و يغادرها كل يوم بضعة سنابك ناقلة الركاب و تلك البضائع التى تفرغها البواخر فى جدّة لأنها لا- تعرج على ينبع. تمضى السنابك بمحاذاة الساحل؛ و نظرا لمخاطر الملاحة بسبب الشعب التحتمائية، تتوقف ليلا و يستغرق الطريق بين الموانئين المذكورين يومين أو ثلاثة أيام إذا جرت «الرياح بما تشتهى السفن». كذلك ينطلق سكان ينبع إلى مرافى البحر الأحمر الأخرى بما فيها السويس و الحديدة ضمنا. و يوجد فى ينبع مكلأ صغير و لكنه محمى جيدا من جميع الرياح؛ و المكلأ عميق إلى حد أن السفن ترسو على بضعة ساجينات فقط من الشاطئ. و لكن الدخول إلى المكلأ الذى تتخلله الشعب و الذى لا يمككك إنارة، غير ممكن إلا نهارا.

الظروف الصحية فى ينبع

الظروف الصحية فى ينبع اسوأ مما فى جميع النقاط الأخرى فى الحجاز. ينقصها الضرورى جدّا فى المناخ الحار أى الماء الجيد. و هنا يستعملون ماء المطر؛ و لأجل جمعه يبنى السكان ضمن حدود المدينة اقبية غير كبيرة من الحجر سعة الواحد منها ۵- ۸ ساجينات

مكعبة، مع مبنى فى أعلى القبو بشكل عنبر. فى أحد جدران العنبر، يتركون قرب سطح الأرض فتحة ينسكب منها فى القبو ماء المطر السائل فى الشوارع.

و للعنبر باب يغلقونه بالقف. و لأخذ الماء يدخلون إلى العنبر و يستقون الماء بالدلو. خارج سور المدينة، على بعد نصف فرستا تقريبا، تقع

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۲۴

صهاريج عامة مقاييسها أكبر. و فضلا عن ذلك يستجلب البدو من خزاناتهم الماء على ظهور الجمال لبيعه.

منذ ۴ سنوات هطل الوابل الأخير الذى ملأ جميع صهاريج ينبع و ضواحيها؛ و لذا كانت جميع الأقبية فى المدينة أثناء إقامتى فيها فارغة من زمان. و بعد فترة و جيزة شرب الحجاج كل مضمون الصهاريج العامة أيضا. كما نفد احتياطى الماء عن البدو، و لذا شرعوا بحكم الضرورة يستجلبون الماء من على بعد ۲۵ فرستا من منابع ينبع النخلة و يبيعونه ب ۶۰ كوبيكا للدلو الواحد. و كان ماء الصهاريج كثيفا، و غير مستطاب الطعم، و كان يباع بنحو ۵۰ كوبيكا للدلو الواحد.

و بسبب رداءة الماء القصوى أغلب الظن لم ار أثناء إقامتى مدة أسبوع فى ينبع إنسانا واحدا لم يتذمر من ألم فى البطن و من انحطاط القوى العام. و كان عدد الوفيا كبيرا. و كانوا كل يوم يدفنون ۵- ۶ أشخاص من الحجاج البالغ عددهم حوالى ۳۰۰۰.

و فى المدينة يسود قذر فظيع و على الأقل فى زمن تجمع الحجاج.

و نظرا لقلة البيوت يعيش الحجاج فى الأراضى الخالية و الساحات على مقربة من البحر. و هنا بالذات يرمون كل النفايات. و الأماكن المخيفة المعزولة إلهى هذا الحد أو ذاك و المضحل العريض تستعمل لقضاء الحاجة. و المضحل يغطيه الماء على عمق تافه أثناء المد و يتعرى أثناء الجزر فتفوح منه إذ ذاك رائحة كريهة رهيبة. و لم يتسنّ لى أن أرى فى أى مكان و زمان مثل هذه الكثرة من الذباب كما فى ينبع. و هنا لا يمكن السير فى الشوارع، ناهيك عن البازار القذر، دون أن يكون فى اليد شىء ما لطرد الذباب على الدوام؛ و فى النهار يستحيل كليا الجلوس للأكل؛ و فى البازار لا يمكن إيجاد أى شىء من المآكل لم يترك عليه الذباب آثاره.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۲۵

الظروف المناخية

المناخ فى ينبع ابرد قليلا- مما فى المدينة المنورة بفضل تأثير البحر و الرياح الشمالية المتكررة؛ و لكن التبخرات الخارقة الوفرة من البحر تخلق رطوبة غير مستطابة إطلاقا؛ ففى الصباح ينهض المرء من الفراش كأنما مبلل بالماء؛ و جميع الالبسة و سائر الأشياء لا تجف أبدا؛ و التربة تترطب فى الليل كما بعد مطر قوى. و الريح من البحر، و ان تكن باردة نوعا ما، لا تمارس فعلا منعشا و تحمل رائحة ما ثقيلة و كريهة ناجمة، أغلب الظن، عن نفسخ البقايا العضوية.

و من جراء هذا المناخ الرطب غالبا جدّا ما تقع إصابات الحمى فى ينبع.

الإسعاف الطبى

فى ينبع حيث يتكدس أحيانا، بانتظار القوافل أو البواخر، زهاء عشرة آلاف حاج؛ لا مستشفى، و لا صيدلية و لا طبيب خاص لأجل الحجاج.

سلطات المدينة

تدخل ينبع فى قوام سنجق المدينة المنورة و يديرها قائمقام خاص.

جدّة

جدّة أهم مرفأ على ساحل البحر الأحمر؛ و عبره تمر حركة الحجاج الرئيسية، سواء عند نزولهم على ساحل الجزيرة العربية أم فى طريق العودة إلى الوطن. و لم أر شخصيا جدّة إلا من البعيد، لأنها كانت مغلقة بسبب الحجر الصحى لدن ذهابى إلى مكة؛ أما فى الطريق العودة من

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۲۶

الحجاز، فقد رحت عبر ميناء ينبع، و لذا كانت المعلومات المساقة أدناه عبارة عن أجوبة عن اسئلة طرحتها على الناس.

تشبه جدّة مكة شبها كبيرا من حيث طابع عماراتها و مواقع الشوارع و البازارات و الحالة الصحية.

يعتبرون أن عدد السكان يبلغ زهاء ۲۰۰۰۰ نسمة، بينهم زهاء ۵۰ أوروبيا. يتعاطى السكان على الأغلب التجارة ثم صيد السمك و استخراج اللآلئ و المرجانات من البحر، و الملاحة الساحلية، و بناء السفن، و القيام بوظائف المرشدين، الخ ..

يعتبر مناخ جدّة سيئا جدّا، غير صحى، من جراء التبخرات الشديدة من البحر. ةالحمّى هى المرض السائد.

فى الوقت الحاضر تستعمل جدّة مياه نبع مجرورة إلى المدينة من الجبال القريبة، و لكن المياه لا تتميز بطعم مستطاب.

مرفأ جدّة خطر جدّا على السفن بسبب كثرة الشعب التحتمائية، و لذا لا تدخله البواخر و تخرج منه إلا نهارا، و ترسو على بعد ۴- ۵ فرستات تقريبا من الشاطى؛ و تجرى الإتصالات معه بواسطة زوارق شراعية كبيرة.

على مقربة من جدّة يعرضون مدفن جدتنا الأولى، حواء؛ و إليه يمضى كثيرون من الحجاج للسجود و الصلاة.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۲۷

الفصل الرابع عن الحج عموما

ما هو الحج

الحج هو زيارة مكة المكرّمة لأداء الفرائض التى تنص عليها الشريعة و ادائها فى وقت معين.

و الحج مرة فى العمر واجب من الواجبات الرئيسية الخمسة (الإيمان- التشهد، الصلاة خمس مرات فى اليوم؛ الصوم؛ الزكاة أى تخصيص قسم معين من الأموال فى السنة فى صالح الفقراء؛ الحج) المترتبة على كل مسلم ذى أهلية، سواء من الذكور أم من الأناث، و لكن شرط كفاية المال لأجل السفر و لأجل تأمين العائلة حتى العودة، و شرط أمن الطريق. و الامتناع عن الحج فى حال عدم توفر الشروط المذكورة، تهدده الشريعة بعقوبات شديدة جدّا فى الآخرة و تجعل المزدرين بهذا الواجب فى مستوى الكفار؛ أما الذين يقومون بالحج، فإنها تعدهم، على العكس، بغفران جميع الخطايا المقترفة قبل ذاك.

و من لا يملك الإمكانية البدنية بهذه السفرة يسمح له بإرسال أشخاص آخرين بالنيابة عنه و يسمى هذا «البدل». يجرى الحج لكى يؤدى المؤمن واجبا من أهم الواجبات من وجهة نظر الإسلام. و فريضة الحج الرئيسية يؤديها المؤمنون فى مسجد مكة الكبير، المسجد الحرام، أو الحرم

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۲۸

الشريف كما يسمونه عادة الذى توجد فيه أكبر المقدسات الإسلامية، الكعبة.

المسجد الكبير فى مكة

حرم مكـة الواقع فى قـاع الوادى و فى وسـط المدينـة تقريبا مبنى بنفس التصـميم الـذى بنيت به جميع المساجـد القديمـة فى دمشق و القاهرة؛ و هو عبارة عن ساحة شاسعة مربعة مخططة، محاطة من جميع الجهات برواق مسقوف؛ و لكن هناك فرق واحد، هو أن الوجه الموجه إلى مكـة فى المساجـد العاديـة يكون اوسع، و يقـام فيه محراب و منبر؛ أمـا فى الحرم، فـإن جميع الجهـات متساويـة من حيث العرض، و المحراب تحل محله الكعبـة، و المنبر مقام فى مكان مكشوف فى وسط المسـجد. الرواق الـذى يحيط بالمسـجد يتألف من أعمدة أغلبيتها منتصبـة فى ثلاثة صـفوف، و موصولة بعضها ببعض بالأقواس و مغطاة بقبب غير كبيرة مخروطية الشكل. أرضية الرواق مرصوفـة بصائـح حجريـة؛ أما القسم المكشوف منه، فهو مغطى بالرمل فقط. فى الزوايا الأربع، و فوق الوجه الشـمالى و الوجه الشـرقى، تنتصب سـبع مآزن مبنيـة فى أزمان مختلفـة و بأساليب هندسـية معماريـة مختلفة. للدخول إلى المسـجد توجد أربعة أبواب كبيرة- من الواجهة الشـرقية باب السلام؛ و من الواجهة الجنوبية باب الصفا، من الواجهة الغربية باب إبراهيم، و من الواجهة الشمالية باب الزنده؛ و عداها، يوجد ۱۸ مدخلا صـغيرا. الرقعة التى يشـغلها المسجد أدنى من سطح الشوارع المحيطة، و لهذا يجب النزول بضع درجات مبنية تحت الأبواب لأجل الدخول إلى الحرم.

فى وسط الحرم تقريبا، تنتصب الكعبة، أو كعبة اللّه، أو بيت اللّه.

و يستفاد من أقوال العرب أن الكعبة- و معناها فى اللغة العربية القديمة «المربّع»- قد بناها جدنا الأول آدم بصفة محراب لأجل

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۲۹

الصـلاة، ثم بناها النبى شـيت ثم إبراهيم. و يسـتفاد من أساطير أخرى أن إبراهيم هو أو من بنى هـذا المعبـد. إن الكعبة التى كانت من قبل أيضا معبـد العرب فى مرحلتهم الوثنية، أى الجاهلية، قد أعيد بناؤها غير مرة، و بقيت حتى أيامنا بالصورة التى جددها بها منذ ۳۰۰ سنة السـلطان العثمانى مراد الرابع. و الكعبة فى الوقت الحاضر موشور سداسى عال (حوالى ۷ ساجينات) ذو أوجه متوازية السطوح غير صحيـح الشـكل تمامـا، مبنى من أحجـار ضـخمة منحوتـة من الغرانيت، و له بابان متواجـدان على علو ساجين واحـد تقريبا عن سـطح الأرض.

فى الزاوية الجنوبية من الكعبة، من الخارج، على علو أرشـينين تقريبا عن سطح الأرض يوجد حجر يكرمه المسلمون تكريما خاصّا هو الحجر الأسود. و يقال أن رئيس الملائكة جبرائيل هو الذى حمل هذا الحجر إلى إبراهيم عند ما بنى الكعبة. فى سـنة ۹۲۹ نقلوا الحجر الأسود إلى اليمن و فى سنة ۹۵۱ أعادوه من جديد إلى مكة؛ و فى سنة ۱۸۷۳ وضعوه فى إطار فضى ضخم مستدير و ثبتوه فى الجدار فى المكـان المـذكور أعلاه . القسم المنظر من الحجر يبلغ قطره نصف أرشـين، و لونه قاتم مع تلوين ضارب إلى الأحمر، و عليه آثار شقوق، و نقر فى الوسط. سطح الحجر مملس جدّا من جراء لمسه من قبل الحجاج على مر القرون.

فى الزاوية الغربية، و على العلو ذاته، يوجد حجر مثبت آخر يكرمه المسلمون هو أيضا، و يسمى باسم هذه الزاوية- ركن اليمن.

جـدران الكعبـة مكسوة من الخـارج على كل علوها بقماش أسود يسـمى الكسوة أو كسوة السـعادة. و للمرة الأولى أخـذ أحـد حكام اليمن، أبو كرب أسعد، يغطى جدران المعبد دليلا على الاجلال و التكريم

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۳۰

الخاص. و فى عهد خليفة بغداد المشهور، المأمون، كانوا يغيّرون هذه الكسوة المصنوعة آنذاك من قماش فاتح اللون ثلاث مرات فى السنة؛ و لكن الملك المصرى الصالح إسماعيل شرع فى سنة ۱۳۴۹ يرسل الكسوة من قماش أسود و يغيرها مرة واحدة فقط فى السنة؛ و هذه العادة بقيت حتى الوقت الحاضر .

و الكسوة عبارة عن قماش أسود حريرى سميك جدّا مخيط من ۸ قطع و مطوق ثلثها الأعلى بآيات من القرآن الكريم موشاة بالذهب. و هذا القماش يصـنعونه كل سـنة فى مصر بمبلغ خاص من أموال الأوقاف قدره ۴۵۰۰ ليرة مصرية (حوالى ۴۵۰۰۰ روبل)، و يرسلونه إلى مكـة المكرّمـة مع المحمل. و كل سـنة يجرى تغيير الكسوة فى اليوم العاشـر من شـهر ذى الحجـة؛ و توضع الكسوة القديمة تحت

تصرّف نظار الكعبة، فيبيعها هؤلاء قطعا من الحجاج؛ أما الكتابات بخيوط الذهب، فتوضع تحت تصرف الشريف؛ و فى السنوات التى يصادف فيها اليوم العاشر من شهر ذى الحجة يوم الجمعة، يرسلون الكسوة إلى السلطان فى القسطنطينية.

من بابى الكعبة، يفتحون الباب الشرقى المزين بوفرة من الفضة، فى أيام معينة، عشر مرات فى السنة؛ و إذ ذاك يسمحون بالدخول إلى داخل المعبد لجميع من يرغبون فى الصلاة هناك. و داخل الكعبة عبارة عن قاعة بسيطة، خالية من أى زخرف و زينة، و جدرانها مكسوة بقماش حريرى يرسله السلاطين الأتراك عند صعودهم إلى العرش.

من الوجه الشمالى، يلتصق بمبنى الكعبة حاجز غير عال، بشكل حدوة، يطوق مكانا للصلاة يسمى الحطيم. و الكعبة و الحطيم مطوقان على بعد ۷ ساجينات تقريبا بدرابزين اهليلجىّ الشكل؛ و عبر هذه الفسحة المبلطة ببلاطات من المرمر يطوف الحجاج سبع مرات حول الحرم،

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۳۱

منظر عام لمكة المكرمة، و يبدو الحرم الشريف

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۳۲

قائمين بفريضة الطواف. من الجهة الشرقية، يوجد فى الدرابزين المذكور باب الشيبة. و إذا دخل المرء عبر هذا الباب إلى مكان الطواف، فإنه يجد إلى اليمين، فى خط الدرابزين، مقام إبراهيم- و هو عبارة عن هيكل من مصبّع برونزى كثيف فى داخله، ضمن صندوق حديدى مكسو بقماش حريرى مطرز بالذهب، مرسل من مصر مع الكسوة، حجر بقامة الإنسان، كان سقالة لإبراهيم عند بناء الكعبة، كما تقول الأسطورة، و بمقدوره، حسب رغبة البانى، أن يزداد و يقل علوا. و إلى جانب مقام إبراهيم، منبر من المرمر من صنع اليد يلقى الإمام من عليه الخطبة أثناء صلاة الظهر فى أيام الجمعة.

إلى شمال الباب، توجد تحت عمارة خاصة بئر زمزم المقدسة.

فعندما ضل إسماعيل و امه هاجر متضورين من العطش و باحثين عن الماء، كما تقول الأسطورة، تفجر فجأة فى المكان الذى توجد فيه البئر الآن، نبع غزير رويا منه عطشهما. و فى سنة ۷۶۲، و فى عد الخليفة أبى جعفر المنصور، بنيت عمارة فوق البئر. و فى سنة ۸۳۸ جفت البئر؛ و بأمر من الخليفة المأمون جرى تعميقها فظهر الماء من جديد. و أخيرا فى ۱۶۱۱، بنى حول فتحة البئر حاجز حجرى عال، لأنه تواجد متعصبون كانوا يرمون بأنفسهم هناك قصد الانتحار.

عمق البئر فى الوقت الحاضر زهاء ۵۰ أرشينا و قطرها أرشينان.

يستقى الماء معا أربعة أشخاص خصوصيين؛ يقفون على الحاجز و يعملون بدلاء جلدية موصولة بحبال طويلة ممررة عبر بكرات معدنية مثبتة فى أعلى. لماء زمزم طعم مرّ نوعا ما؛ و هو يؤثر فى اناس كثيرين، كمسهّل خفيف و هو ساخن جدّا عند استخراجه من البئر.

على خط الدرابزين، من جانبه الخارجى، توجد، مقابل كل من واجهات الكعبة، أربعة إنشاءات من طراز خفيف، هى ضرب من تعاريش

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۳۳

الصلاة حول الكعبة المشرّفة/ أواخر القرن التاسع عشر

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۳۴

يقف عليها، أثناء الصلوات العامة، مؤذنون من المذاهب السنية الأربعة- مذاهب الحنفيين، و الشافعيين، و المالكيين، و الحنبليين.

من الجانب الشرقى من الحرم يمتد شارع المسعى، و طوله نصف فرستا، و يصل بطرفه الشمالى إلى جبل المروة و بطرفه الجنوبى إلى جبل الصفا، و ينتهى عن الجبلين ببضع درجات واسعة فى أعلاها ساحة صغيرة. بين هذين الجبلين، كما تقول الأسطورة، فتشت هاجر،

و قد اضناها العطش، عن الماء راكضة من جبل الصفا إلى جبل المروة ذهابا و إيابا. و على ذكرى هذا الحدث يقطع الحجاج هذه المسافة سبع مرات؛ و هذا الفرض يسمى «السعى» و المكان الذى يؤدى فيه «المسعى». فى المساء ينيرون الحرم و بعض أمكنة المسعى بعدد هائل من المصابيح؛ و هذه عبارة عن أنصاف كرات زجاجية معلقة فى سلسلة؛ و فى قاعها يسكبون الزيت و يضعون عواما فيها فتيل.

و هكذا يشكل حرم مكة مكانا لأجل فريضة الحج، و مسجدا جامعا يؤمونه لأجل الصلاة خمس مرات؛ و هو، فضلا عن ذلك، قاعة شاسعة للمحاضرات لأجل جميع المدارس الدينية فى مكة، و مأوى شاسع لقضاء الليل، يتوافد فيه مساء جميع الحجاج الذين لا مأوى لهم.

يعتبر و إلى الحجاز قيّما على الحرم. و هناك مجموعة كبيرة من الخصيان الذين يرتدون بدلات بيضاء خاصة و يقومون بدور الخدم.

شائر الحج الرئيسية، و منها الاحرام، و الطواف، و السعى، كانت قائمة، كما هو معلوم، عند العرب قبل محمد (صلى اللّه عليه و سلم) أيضا. و قد أكد القرآن بعضا من عادات العبادة هذه. أما بعد محمد، فقد تم على أساس القرآن كما على أساس أقوال النبى و مثاله الشخصى، وضعت جملة من قواعد الحج التى يتقيد بها جميع الحجاج بكل دقة.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۳۵

الآيات القرآنية المتعلقة بالحج

فيما يلى جميع آيات القرآن المتعلقة بالحج، كما وردت فى تسلسل السور.

سورة البقرة. الآية ۱۲۵: وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى وَ عَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ.

الآية ۱۲۷: وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

الآية ۱۵۸: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ.

الآية ۱۹۶: وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَ لا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَ سَبْعَةٍ إِذا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ.

الآية ۱۹۷: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَ لا فُسُوقَ وَ لا جِدالَ فِي الْحَجِّ وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَ اتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبابِ.

الآية ۱۹۸: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ وَ اذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ وَ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ.

الآية ۱۹۹: ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۳۶

الآية ۲۰۰: فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ.

الآية ۲۰۳: وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقى وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا

أَنَّكَمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ.

سورة آل عمران. الآية ۹۶: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ.

الآية ۹۷: فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ.

سورة المائدة. الآية ۱: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ.

الآية ۲: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ لَا الْهَدْىَ وَ لَا الْقَلائِدَ وَ لَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْواناً وَ إِذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَ تَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوى وَ لا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ.

الآية ۹۴: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَىْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِماحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ.

الآية ۹۵: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَ مَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ.

الآية ۹۶: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ وَ حُرِّمَ

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۳۷

عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ.

الآية ۹۷: جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ الْهَدْىَ وَ الْقَلائِدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ وَ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ.

الآية ۹۸: اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ وَ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

سورة الحج. الآية ۲۵: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِى جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ.

الآية ۲۶: وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِى شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ.

الآية ۲۷: وَ أَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ.

الآية ۲۸: لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ.

الآية ۲۹: ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ.

سورة الصافات. الآية ۱۰۰: رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ.

الآية ۱۰۱: فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ.

الآية ۱۰۲: فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قالَ يا بُنَىَّ إِنِّى أَرى فِى الْمَنامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ.

الآية ۱۰۳: فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ.

الآية ۱۰۴: وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۳۸

الآية ۱۰۵: قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ.

الآية ۱۰۶: إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ.

الآية ۱۰۷: وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ.

شعائر الحج

يجرى الحج مرة فى السنة من اليوم الثامن إلى اليوم الثانى عشر من الشهر الأخير من السنة القمرية ذى الحجة؛ و إذا صادف اليوم العاشر من هذا الشهر يوم الجمعة، فإن الحج يسمى «الحج الكبير»، و يعتبر اصلح و اقرب حج إلى اللّه و يجتذب عددا كبيرا جدّا من الحجاج.

إن أداء الحج يقتضى أداء ثلاث شعائر هى:

۱- على الحجاج الذين يعتزمون الحج أن يرتدوا لباسا خاصا و يتوجهوا بجميع أفكارهم إلى اللّه العى القدير.

۲- على الحجاج أن يقوموا بالطواف مرة واحدة.

۳- على الحجاج أن يبقوا عند جبل عرفات طوال اليوم التاسع من الشهر المذكور.

و إذا لم يتحقق شرط واحد من هذه الشروط الرئيسية الثلاثة، فإن الحج يعتبر لاغيا؛ و من قام به لا يعفى من إداء هذه الفريضة.

و هناك أيضا شعائر أقل شأنا يؤديها جميع الحجاج الزاما و أن تكن لا تشكل أعمالا جوهرية. و سندرس جميع الشعائر معا حسب الترتيب الذى تتحقق به عادة، و كما تأتى لى شخصيّا أن أقوم بها.

قبل ۴- ۵ مراحل من مكة، يخلع الحجاج جميع ملابسهم فى النقاط المؤشرة خصيصا لأجل كل وجهة، و يرتدون لباسا خاصا يسمى «الاحرام» و يتألف من قطعتين كاملتين (غير مخيطتين) من القماش الأبيض. من قطعة يتشكل ضرب من تنورة مثبتة على الخصر بزنار؛

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۳۹

و القطعة الأخرى تغطى القسم الأعلى من الجسم (رداء). إن ارتداء الجميع بلا فرق لهذا اللباس الواحد، المتماثل الذى يشبه الكفن قد تقرر، كما يفسرون، لتذكير الحجاج بيوم الحساب و بالمساواة بين جميع الناس أمام اللّه؛ و عدا هاتين القطعتين من القماش لا يسمح إلا- بلبس خفين مفتوحين فى القدمين. أما النساء فيبقين فى البستهن العادية. و منذ ارتداء «ثوب الاحرام»، يتعين على الحجاج الاستنكاف عن كل دنيوى، و الانصراف إلى الصلاة حصرا. و ممنوع عليهم فى هذا الوقت حلق الرأس و حلق الذقن و انتزاع الشعر من الجسم، و الصيد، و ذبح الحيوانات أيا كانت، و خلاف ذلك. و عند الوصول إلى مكة، يتجه الحجاج رأسا من الطريق إلى الحرم للقيام بالطواف الأول و السعى الأول. و هاتان الشعيرتان يؤديهما الحجاج عادة بقيادة من يسمون «بالمطوّقين» أو «الادلة»- و هذه وظيفة وراثية لفرد معين من كل قومية.

و هؤلاء القادة يقومون على رأس حجاجهم بهاتين الشعيرتين، رافعين بصوت مدو الاتهالات المقررة، فيرددها الحجاج وراءهم.

تتلخص شعيرة الطواف فى واقع أن الحجاج يدخلون إلى الحرم من باب السلام و يقتربون من الزاوية الجنوبية من الكعبة التى يتواجد فيها الحجر الأسود؛ و مع تلاوة الابتهالات يبدأون الطواف حول الحرم شرط أن يكون دائما من جهة اليد اليسرى، و يتوقفون كل مرة أمام الحجر الأسود و يقبلونه (علامة) و يسعون فى المطافات السبعة إلى تقبيله بالشفتين و لو مرة واحدة، و يمدون اليد مرة واحدة إلى لمس ركن اليمن.

و بعد إنتهاء الطواف يؤدون صلاة و جيزة فى مقام إبراهيم، و يخرجون من الحرم عبر باب الصفا لأجل إداء الشعيرة الأخرى، شعيرة السعى.

هـذه الشـعيرة تتلخص فيمـا يلى. فى البـدء يتجه الحجـاج إلى جبـل الصـفا، و يصـعدون على درجـاته، و يـذهبون، مرددين الابتهالات المقررة، إلى طرف الشارع المقابل نحو جبل المروة، قاطعين قسما غير كبير من

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۴۰

الطريق المعلّم بعلامات خاصـة ركضا، و يستريحون عنـد جبل المروة و يرجعون إلى جبل الصـفا، و هكـذا دواليك. و الناس الضـعفاء يؤدون الشـعيرة الأخيرة على ظهور الاحصـنة أو الحمير؛ أما المرضى، فيحملونهم على الحمالات سواء فى الطواف أم فى السعى. و يعد إداء هاتين الشـعيرتين، يحلق الحجاج قسما من شعر الرأس أو يقصونه و يرتدون، عادة، البستهم العادية (حج العمرة)؛ أما الذين يؤدون الشعائر ميزيد من الدقة، فيبقون فى ثوب الأحرام حتى نهاية الحج.

و أولئك الحجاج الـذين لبسوا ثيابهم العاديـة يرتـدون من جديـد ثوب الأحرام فى اليوم الثامن من ذى الحجـة، و يقومون للمرة الثانية بالطواف، و يمضون جميعهم إلى جبل عرفات.

تقول أسطورة عربية أن أبا البشر، آدم، تقابل مع حواء للمرة الأولى عند جبل عرفات بعد طردهما من الجنة و انهما عاشا فى عرفات فى الآونـة الأولى و رزقا ولدهما الأول فى عرفات. و على ذكرى هذا الحدث، يبقى الحجاج عند هذا الجبل طوال اليوم التالى، التاسع، من شهر ذى الحجـة. و تتلخص الشـعيرة كلها بنظر الحنفيين فى انه يتوجب عليهم فى هذا اليوم أن يلجأوا إلى التوبة و الصـلاة فى خيامهم. أما اتباع الائمة الثلاثة الآخرين، فإنهم يغطون جميع سـفوح الجبل قبل ثلاث ساعات تقريبا من غروب الشمس لكى يستمعوا إلى جملة من الابتهالات التى يتلوهـا قاضـى مكـة من على ظهر هجين على قمـة الجبل. و عنـد غروب الشـمس ينهى القاضـى التلاوة بالقول أن خطايا جميع الذين تابوا حقا و صدقا قد شملها الغفران؛ و يتجه الحجاج جميعهم إلى جمالهم لكى ينطلقوا فى اتجاه مكة.

و يقضى الحجاج الليلة التاسع إلى العاشر من شهر ذى الحجة فى المزدلفة، و ينطلقون منذ الصباح الباكر من اليوم العاشر إلى منى لكى يبقوا هنا حتى مساء اليوم الثانى عشر.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۴۱

فى منى، عنـد سـفح جبـل عـال، يشـيرون إلى المكـان الـذى أراد فيه إبراهيم، عملا بمشـيئة اللّه، أن يضـحى له بابنه الوحيـد (و اسـمه إسـماعيل، كما يقول العلماء المسـلمون)، الذى جلب الملاك حملا عوضا عنه، و يشـيرون إلى الحجر الذى انشق عند ما رمى إبراهيم سكينـة التى لم تطـاوعه؛ و على ذكرى هـذه الأحـداث، يذبـح الحجـاج هنا الخرفان على سبيل تقـديم الضـحية و يصـلون عنـد الحجر المـذكور. و مع تقـديم الأضـاحى. يقص الحجاج أو يحلقون قسـما آخر من شـعر رؤوسـهم، و يخلعون ثياب الاحرام نهائيا و يرتـدون البستهم العادية.

و فى اليوم نفسه يتوجه بعض الحجاج إلى مكة ليقوموا بالطواف الثالث و السعى الثانى، و لكن أغلبية الحجاج تؤجل هاتين الشعيرتين حتى العودة من منى.

فى شارع منى توجـد ثلاث نقاط معلّمـة باعمـدة حجرية بيضاء و محاطة بحائط واطىء، رمى منه إبراهيم، كما تقول الأسـطورة، حجرا على الشيطان حين رآه. و على ذكرى هذا الحدث، يرمى الحجاج أثناء تلاوة الابتهالات إلى الامكنة المذكورة عددا معينا من الحصى الصغيرة التى سبق أن جمعوها قرب المزدلفة.

و نحو مساء اليوم الثانى عشر، يعود جميع الحجاج إلى مكة و يبدأون يستعدون للرحيل؛ و قبل الرحيل يقومون بالطواف الأخير، طواف الوداع. و بهـذا تنتهى جميع شـعائر الحـج الـذى يتوافـد لأـدائه مئات الآلاف من المسـلمين من شتى ديارهم. و من المـدهش أن هـذه الشعائر لا تنطوى على أى شىء خاص بالإسلام أو بمؤسسه؛ فعى جميعها شعائر عبادة العرب القديمة، من العصر الجاهلى، و قد دخلت بكليتها فى الدين الجديد.

و هناك شـعيرة أخرى غير الزاميـة تؤدى فى مكة فى أى وقت كان من السـنة، و بصورة مسـتقلة تماما عن الحج؛ و هذه الشـعيرة يعهد

الحجاج

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۴۲

الميسورون إلى هذا الحد أو ذاك إلى شخص ما من مواطنيهم الفقراء بالقيام بها بالنيابة عنهم و عن أقاربهم الغائبين لقاء مكافأة معينة، و اسم هذه الشعيرة «العمرة» و مفادها أن الحجاج يمضون على ظهور الحمير أو الأحصنة إلى خارج المدينة إلى مسجد «العمرة» الواقع على بعد خمسة فرسخات تقريبا عن المدينة، و يرتدون ثوب الاحرام، و يؤدون هناك صلاة قصيرة و يعودون إلى الكعبة لكى يقوموا بالطواف ثم بالسعى.

زيارة الآثار فى ضواحى مكة

اشارة

يزور كثيرون من الحجاج فى مكة المقبرة التى دفنت فيها زوجة النبى، خديجة الكبرى، و بعض الصحابة الأوائل، و البيت الذى ولد فيه النبى، و يصعدون إلى جبل أبو قبيس الواقع ضمن حدود المدينة، و إلى جبل النور الذى يقع على بعد ستة فرسخات تقريبا إلى الشمال من جبل أبو قبيس، و الذى كان يعتزل فيه النبى لأجل الصلاة، و يمضون إلى جبل يقع على زهاء عشرة فرسخات إلى الجنوب من المدينة، كان النبى يتخفى فيه من ملاحقات و ثنيى مكة. و الجبلان الأخيران لا يزورهما الحجاج، نظرا لبعدهما، إلا فى الشتاء، أى فى وقت أبرد.

السجود أمام قبر النبى صلى اللّه عليه و سلم فى المدينة المنورة

و لكن ضريح محمد (صلى اللّه عليه و سلم) فى المدينة المنورة هو أكبر آثار الإسلام فى الحجاز. صحيح أن السجود أمامه ليس فريضة على المسلمين و لا يمت بصلة إلى الحج، و لكن الحجاج القادمين إلى الحجاز يقومون به جميعهم تقريبا، حسب الظروف، قبل الحج و بعده.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۴۳

و الضريح موجود فى المسجد الكبير بالمدينة المنورة المسمى كذلك، على مثال مكة، بالحرم الشريف.

المسجد الكبير فى المدينة المنورة

الحرم فى المدينة المنورة الواقع فى الطرف الشمالى الشرقى من المدينة و الذى يشغل المكان الذى كان فيه فيما مضى بيت النبى و مسجده بنى من جديد للمرة الأخيرة فى عهد السلطان عبد المجيد الذى اعتمد لهذا الغرض ۷۵۰ ألف ليرة تركية (أكثر من ستة ملايين روبل)؛ و هو عبارة عن مسجد غير كبير، من طراز المسجد فى مكة، و لكن هندسته المعمارية أضخم و أغنى، و حوله صف أوسع من الأعمدة، و بخاصة من الجانب المواجه لمكة؛ و زينته الداخلية أغنى.

و قد استعملوا الغرانيت المحلى الضارب إلى الأحمر، الجميل جدّا بعد الزينة، مادة لأجل البناء. من الحجر ذاته نحتوا الأعمدة أيضا.

و الأرضية تتألف من بلاطات مرمرية مستجلبة من مصر. و تتميز تزيينات الجدران الداخلية ببذخ بالغ إذ أنها مغطاة بفسيفساء غنية و كتابات أنيقة بالذهب من آيات القرآن الكريم و الأحاديث النبوية.

و مكان مسجد النبى السابق الذى يشغل وسط القسم الجنوبى من الرواق، يتميز بتزيينات ذهبية خاصة على الأعمدة. و هنا يوجد المحراب و المنبر المتميزان بنقش دقيق رائع، و المقامان فى مكانيهما السابقين، كما كان الحال فى المسجد الأولى. و إلى جانب

مكان المسجد القديم، يوجد من جهته اليسرى إذا وقف المرء مواجها الجنوب، مكان البيت السابق للنبى محمد، المحاط بمصبّع برونزى عال، كثيف، مرفق بستائر حريرية، و المكلل فوق الحرم بقبة خضراء عالية. و فى هذا السياج المسمى الحجرة الشريفة أو الروضة المطهرة

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۴۴

توجد قبور النبى محمد و خليفتيه الأولين أبو بكر و عمر، المغطاة بغطاء حريرى مشترك، أخضر اللون مطرز بالأحجار الكريمة و الخيوط الذهبية.

من الجانب الشمالى يلتصق بالحجرة الشريفة إنشاء آخر مماثل يوجد فيه قبر ابنة النبى فاطمة. و فى ساحة مكشوفة فى وسط الحرم توجد روضة صغيرة و فيها بئر، هما جنينة فاطمة و بئر فاطمة.

و للحرم خمس مآذن، أربع فى الشوارع و واحدة فى الواجهة الشرقية. و للمدخل خمسة أبواب، أكبرها- و عبره يدخل الحجاج- باب السلام ذو التلبيس الرائع الغنى.

فى المساء، ينيرون الحرم و جوانية الهجرة بمصابيح كالتى فى مكة. و هناك أيضا شموع كبيرة مثل الشموع المستعملة فى الكنائس؛ و فضلا عن ذلك تتدلى فى مختلف الأماكن ثريات بلورية تبرع بها الأغنياء.

و لإدارة الحرم، المتواجد هنا أيضا فى قبضة الأتراك، يعينون شخصية محترمة بخاصة من عداد الجنرالات الأتراك المتقاعدين؛ و تحت تصرفها ملاك كبير من الخدم المخصيين. أضف إلى ذلك أن بعض الأفراد ينالون، من باب التكريم الخاص، الحق فى الاشتراك فى تنظيف الحرم و الهجرة.

و الحجاج القادمون إلى المدينة المنورة يدخلون عبر باب السلام؛ و حين يقتربون من مصبع الهجرة، يتخذون وضعة الصلاة و يرددون بعد الدليل الصلوات العادية طالبين تدخل النبى فى يوم القيامة. ثم يطوفون بالتتابع على مدافن أبى بكر و عمر و فاطمة، و بهذا تنتهى الشعائر كلها.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۴۵

زيارة الآثار الأخرى فى ضواحى المدينة المنورة

فى الأيام التالية يقوم الحجاج برحلة على بعد خمسة فرستات تقريبا إلى الشمال من المدينة، و ذلك إلى سفح جبل أحد حيث يوجد قبر الشخصية المكرمة جدّا سيدنا الحمزة الذى كان من أوائل اتباع الإسلام و أشدهم غيرة و حماسة، و الذى قتل هما فى معركة مع المكيين. ثم يزورون مسجد الكعبة الذى يقع على نفس البعد من المدينة و لكن من الجهة المقابلة، و الذى توقف فيه النبى عند وصوله إلى المدينة المنورة بعد الهجرة. و يقطع البعض مسافة أربعة فرستات تقريبا إلى الشرق للذهاب إلى مسجد القبلتين حيث يوجد محرابان، أحدهما موجه إلى القدس، كما صلّى محمد فى البدء، و الثانى موجه إلى مكة التى كانت قبلته عندما كان يصلى فيما بعد. و يزور الحجاج مقبرة المدينة المنورة حيث دفن عثمان الثالث الخلفاء الراشدين؛ و أخيرا، يذهبون ضمن حدود المدينة إلى قبر عبد اللّه، والد النبى، و قبر و أحد من الأئمة السنيين الأربعة، مالك.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۴۷

الفصل الخامس حج المسلمين الروس

عدد الحجاج المسلمين الروس سنة ۱۸۹۸

بسبب منع إعطاء جوازات السفر للحج، وصل فى هذه السنة إلى مكة عدد قليل جدّا من المسلمين الروس (من روسيا)، ۴۵۰ شخصا فقط، أى زهاء عشر العدد الذى يتوافد، كما يقول الادلة، فى السنوات الموفقة.

أصناف الحجاج

من حيث القوميات، كان العدد المذكور يتألف من ۲۵۰ قرغيزيا أغلبيتهم من مناطق سيبيريا، و حوالى ۱۰۰ شخص من سكان ما وراء القفقاس أغلبيتهم من محافظة يريفان، و حوالى ۱۰۰ تترى من مختلف محافظات روسيا الأوروبية- و بالضبط من بطرسبورغ ۶ أشخاص، من محافظة ريازان ۲۱ شخصا، من محافظة بنزا شخصان، من محافظة قازان ۱۶ شخصا، من موسكو شخصان، من محافظة نيجنى نوفغورود ۸ أشخاص، من محافظة سيمبيرسك ۱۴ شخصا، من محافظة أوفا ۱۲ شخصا، من محافظة سامارا ۷ أشخاص، من محافظة اورنبورغ ۹ أشخاص، من محافظة استرا خان (عدا اورطة بوكييف ۷ أشخاص، ثم

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۴۸

قبيل رحيل الحجاج. رسم كاريكاتورى فى المجلة الروسية «الملّا نصر اللّه» ديسمبر ۱۹۱۳

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۴۹

شخص واحد من محافظة توبولسك. و لم يكن هناك حجاج من تركستان و من مقاطعة ما وراء قزوين و من القرم.

من حيث الأشغال و المراتب- جميع القرغيز بايات محليون من الرحل؛ و لم أر بينهم سوى اثنين من رجال الدين سافرا لقاء أجر لأداء فريضة الحج بالنيابة عن الآخرين («البدل»). و سكان محافظة يريفان الذين تظاهروا بأنهم داغستانيون لكى يتخلصوا، أغلب الظن، من دفع رسوم خاصة تستوفى فى الحجاز من أهل الشيعة كانوا جميعهم بلا إستثناء زراعا ميسورين، القادمون الآخرون من سائر أنحاء ما وراء القفقاس كانوا على الأغلب تجارا أغنياء. و كان بين التتر ۱۱ ملّا (من أئمة المساجد)، سافر منهم ۹ على سبيل «البدل»؛ أما الباقون فقد كانوا جميعهم من مرتبة التجار الميسورين إلى هذا الحد أو ذاك.

من حيث العمر- كان جميع الحجاج، باستثناء قلة تافهة، من المتقدمين فى السن- كانت أعمارهم تتراوح بين ۵۰- ۶۰ سنة.

أما القادمون مع عائلاتهم، فكانوا أربعة فقط من التتر، و كان مع أحدهم خمسة أولاد، أصغرهم سنا فى الرابعة عشرة من العمر.

الأسباب الرئيسية التى تحمل على الحج

الأسباب الرئيسية التى تحمل على الحج كانت أساسا، بقدر ما استطيع أن أكوّن فكرة عنها، الرغبة فى إداء فريضة من فرائض الدين الالزامية الرئيسية، و الإيمان فى الخلاص من الخطايا- الأمر الذى يشكل بنظر المتدينين، و لا سيما فى سنوات الشيخوخة، سببا هامّا جدّا

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۵۰

يجبر على القيام بهذه السفرة الصعبة، و المحفوفة بالمخاطر. و من جهة أخرى، يعود بلا ريب بعض الدور إلى الغرور و رغبة المرء فى أن يكتسب فى وسطه بعض الوزن و الوقار المتعلقيم بلقب «الحاج»، رغم أن هذا اللقب بين المسلمين فى روسيا الداخلية لا بعد من أن يحظى الآن بذلك الاحترام الذى كان السفر يتطلب ما لا يقل عن سنتين، حين كان لا يقدم على الحج غير عدد قليل جدّا ممن يحدوهم شعور دينى عميق و يملكون ما يكفى من الأموال؛ و هذان العاملان نادرا ما يجتمعان عند مسلمينا.

و مع تطور البواخر و السكك الحديدية أصبح من الممكن القيام بالسفرة كلها فى غضون شهرين أو ثلاثة و بنفقات غير كبيرة، فتكاثر الحجاج كثيرا جدّا، و بينهم لا يندر أن يتواجد أفراد لا يتمتعون بسمعة طيبة.

و هدف أولئك الحجاج الذين يذهبون إلى الحج من باب «البدل» هو بالطبع كسب بعض المال.

و فى هذه السنة كان ثمة مثال آخر أيضا؛ فإن تاجرا غنيّا قد أرسل ابنه بأمل تخلصه زيارة الأماكن المقدسة من الأدمان على المشروبات الروحية.

مقدار المبلغ الضرورى لأجل الحج

الحد الأدنى من المبلغ الضرورى للقيام بالحج فقط، أى بدون زيارة المدينة المنورة، هو فى السنوات التى لا يقتضى فيها الحال الحجر الصحى ۳۰۰ روبل. أما فى حال الرغبة فى زيارة قبر النبى (صلى اللّه عليه و سلم)، فينبغى حوالى ۵۰۰ روبل. و على العموم يأخذ حجاجنا من ذوى اليسر المتوسط حوالى ۱۰۰۰ روبل فى الطريق. و إذا افترضنا انه ينبغى على الراغب فى الحج أن يبقى فى بيته مبلغا مماثلا لتأمين عائلته حتى عودته، فإن فريضة الحج تكون الزامية من وجهة نظر الشريعة على جميع المسلمين الذين يستطيعون انفاق مبلغ الفى روبل. و عادة يأخذ «البديل» مبلغا يتراوح بين ۵۰۰ و ۱۰۰۰ روبل.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۵۱

الاستعدادات للسفر

يتخذ مسلمونا القرار بالسفر إلى مكة المكرّمة بصورة مستقلة أو بناء على نصيحة المّلا (إمام المسجد) قبل موعد الحج بسنة كاملة؛ و منذ ذاك تبدأ الاستعدادات تدريجيا: يستعلمون عن الأشخاص الآخرين الذين يعتزمون الحج، يؤلفون فرقا من أقرب الأشخاص من حيث مكان الإقامة أو من الأقارب، يدبرون الشؤون البيتية، يصفّون جميع الحسابات النقدية، يكتبون الوصايا، و ما إلى ذلك. و جميع الحجاج على العموم، و الذاهبون من روسيا على الخصوص يأخذون معهم كمية كبيرة من شتى الأشياء لأنهم يستفيدون من نقل قسم منها مجانا فى البواخر و فى السكك الحديدية المصرية. أما الأشياء الضرورية لهذه السفرة فهى فى المقام الأول السماور، و آنية الشاى و المطبخ، و الشاى الروسى الذى يصعب الحصول عليه فى الخارج، و مختلف المأكولات بما فيها بضعة أكياس مليئة بأرغفة مجففة من خبز الجودار، يقدرها حجاجنا فى الحجاز خاص التقدير، و عنب الثعلب الأسود المجفف، و الفالوذة، و ما شاكلها: و لكن قرغيزيينا يأخذون المؤن معهم أكثر من الجميع، بما فى ذلك لحم الخيل المملح، و أصناف السجق المدهن، و جبنة الغنم المملحة الجافة (الكروت)، و الخ ..

و أخيرا ينطلق الحجاج عند نهاية رمضان بالذات، أى قبل موعد الحج بشهرين، و يودعهم بمهابة و احتفال جميع أقاربهم و معارفهم إلى نقطة التجمع المعينة سلفا، و عادة إلى أقرب مدينة أو إلى محطة كبيرة للسكة الحديدية.

فى السنوات غير الموفقة، يعرف الراغبون فى الحج، و عادة قبل فترة و جيزة من السفر، بأمر الحكومة بعد إعطاء جوازات سفر للحج، و يقرأون الرسائل السيارة التى تصدرها جمعيات المسلمين الدينية بنصائح الامتناع هذه السنة عن السفر إلى الحجاز.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۵۲

و فى هذه الأحوال تؤجل الأغلبية السفر إلى سنة أوفق، و لكن البعض لا يرى فى هذا الأمر سوى التضييق على ممارسة الشعائر الدينية، و لا يصدقون البتة فى وجود الأوبئة و يسافرون، و ذلك استنادا إلى أنباء من أقاربهم فى الحجاز الذى يعنى الامتناع عن الحج بالنسبة لهم الحرمان من كل كسب فى زمن الحج. و هناك أشخاص، و بخاصة ممن أرجأوا فى السنوات السابقة سفرهم، يفترضون انه قد يقوم فى السنوات القادمة منع أشد صرامة، و انه لن يتسنى لهم أبدا القيام بالحج إذا ما انتظروا أزمانا ملائمة، و انه لا مفر من القدر، و ما إلى ذلك، فيقررون هم أيضا السفر.

الحصول على جوازات السفر

حجاج هذه السنة من منطقة ما وراء القفقاس أخذوا بمعظمهم جوازات السفر حسب أماكن إقامتهم، و التتر فى موسكو على الأغلب؛ ستة أشخاص فقط منهم أخذوا جوازات السفر فى بطرسبورغ، و اثنان فى سيمبيرسك و ثلاثة فى فرصوفيا ؛ و القرغيز فى موسكو و اوديسا.

يحصلون على التأشيرات من القناصل الأتراك للسفر حتى القسطنطينية حيث الحجاج ملزمون بأخذ جوازات السفر التركية التى لا يصلح غيرها لمواصلة السفر، و لذا يترك بعض من المسافرين إلى مكة جوزات السفر الوطنية فى القسطنطينية، و لا يعرضونها فيما بعد و فى أى حال من الأحوال فى أى مكان تخوفا من المصاعب أثناء العودة إلى روسيا. و علاوة على ذلك يستحصل البعض فى الإسكندرية أو فى السويس جوازات سفر مصرية لا يقبلون بدونها الركاب، فى حال العودة، على بعض بواخر الشركة الخديوية التى لا تنقل غير سكان مصر.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۵۳

يستغرق تحرك حجاجنا بالمتوسط ۶ أشهر- فى السنوات الأخيرة من شباط (فبراير) إلى آب (اغسطس)؛ و لكن التحرك بدأ باكرا جدّا لسنة ۱۸۹۹؛ ففى كانون الأول (ديسمبر) تقابلت فى مصر مع بعض مجموعات من المسافرين إلى الحجاز ممن غادروا ربوعهم باكرا، قبل أن يصعب الحصول على جوازات السفر.

من الصعب الإشارة إلى إجراءات فعالة يمكن بها، عند الاقتضاء، الحؤول دون سفر مسلمينا إلى الحجاز. لربما إعطاء جوازات السفر حسب مكان الإقامة فقط، أو لربما المطالبة الزاما بأن يقدم الراغبون فى السفر شهادات من سلطاتهم البوليسية حتما بعدم وجود موانع للسفر إلى الخارج، من شأنهما أن يخفضا عدد الراغبين فى الحج؛ و لربما يتعين كذلك تحذير جميع المسافرين إلى تركيا من المصاعب التى تترصدهم عند العودة إلى روسيا.

الخروج من حدود روسيا

الأبواب التى يخرج منها حجاجنا هى أوديسا و سيباستوبول بالنسبة لروسيا الداخلية و سيبيريا، و باطوم بالنسبة للمسافرين من آسيا الوسطى و اقليم ما وراء قزوين، و فى هذه السنة، كان هناك ثلاثة من رعايا روسيا أخذوا جوازات سفر فى فرصوفيا و سافروا إلى القسطنطينية بالسكة الحديدية عبر فيينا.

فى جميع الموانئ الواقعة سواء ضمن حدود روسيا أم فى تركيا و مصر، و التى تجرى عبرها حركة الحج الرئيسية، يوجد عملاء يستقبلون الحجاج و يعمدون إلى إنزالهم عادة فى بيوتهم، و يستحصلون لهم على الوثائق الضرورية، و يقودونهم لإجراء مختلف الشروات، و يستغلون باوقح نحو الناس غير المطلعين.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۵۴

استراحة الحجاج الروس

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۵۵

القسطنطينية بوصفها نقطة متوسطة هامة

تذاكر السفر لا تؤخذ فى البدء إلا إلى القسطنطينية، النقطة المرحلية الرئيسية بالنسبة لجميع المسافرين من روسيا. و فى القسطنطينية يبقى الحجاج أسبوعا تقريبا و يتزودون بجوازات السفر التركية. و يبادلون قسما من النقود بالنقود التركية لنفقات الطريق، و يسترون مستلزمات الاحرام، و يستعلمون عن البواخر الذاهبة إلى جدّة، و ما إلى ذلك.

السفر إلى جدّة

تقوم أربعة شركات للملاحة بنقل الحجاج لاحقا إلى جدّة أو إلى ينبع.

۱- الشركة الروسية للملاحة و التجارة التى تنقلهم إلى الإسكندرية فقط، و تسلمهم إلى عميل شركة الملاحة ماغرى رينى و شركاه فينقلهم بالسكة الحديدية إلى السويس لأجل نقلهم لاحقا على بواخر الشركة.

۲- الشركة الصغيرة ماغرى رينى و شركاه التى لا تملك سوى باخرتين سيئتين، و قديمتين جدّا تعملان بين مرافئ البحر الأحمر.

۳- البواخر الخديوية المصرية السابقة التى اشترتها الشركة الإنجليزية Khedivial Mail Steamship and Graving Dock; و هذه الشركة تملك ۱۱ باخرة غير كبيرة يعمل بعض منها خصيصا على نقل الحجاج فى زمن حركة الحج، فتقوم برحلات مباشرة من القسطنطينية عبر قناة السويس إلى جدّة ذهابا و إيابا.

۴- البواخر الحكومية التركية، و هى اسوأ البواخر و اقذرها، و تنقل الحجاج هى أيضا برحلات مباشرة معرّجة على أصغر المرافئ كافة فى آسيا الصغرى و سوريا.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۵۶

و على جميع البواخر التى تقوم بنقل الحجاج، يوجد أطباء تحت تصرفهم صيدليات صغيرة.

الأشخاص المسافرون فى حجرة من الدرجة الأولى أو من الدرجة الثانية يتواجدون بمثابة استثناء نادر جدّا؛ و الحجاج العاديون يشغلون فى المعتاد أماكن على المتون أو فى العنابر دافعين لقاء السفر إلى ينبع أو إلى جدّة ليرتين تركيتين (حوالى ۱۷ روبلا) بالفرد الواحد، و لكن البواخر التركية تنقل كذلك مجانا جمهور الحجاج الفقراء ذهابا و إيابا.

تأخذ بواخر الشركات الثلاث الأخيرة عددا من الركاب كبيرا إلى حد أن تكتظ الباخرة كلها بهم حقا و فعلا، غير تاركين أية ممرات على الإطلاق. و قد تأتى لى أن أسافر من السويس إلى جدّة على سفينة صغيرة لشركة ماغرى رينى و شركاه؛ كان عدد الركاب ۸۵۰ شخصا فاحتشدوا فيها بضيق لا يوصف. و بسبب قلة الأماكن، شغلوا كل متن الدرجة الأولى و نصف مركز الربان، و حتى ملأوا زوارق الانقاذ. و كان اكشاك مركبة كيفما اتفق من الواح خشبية و معلقة خارج المتن بمثابة مراحيض؛ و لأجل الوصول إليها كان ينبغى التسلق فوق سياج عال، الأمر الذى كان بالنسبة للكثيرين عملية صعبة؛ و عشية الوصول إلى جدّة، هبت فى المساء عاصفة قوية و دامت الليل كله؛ و من الصعب أن يتصور المرء ما حدث آنذاك على هذه الباخرة المكتظة بالناس. و من الأحاديث مع الطبيب علمت أنه تحدث بين الصغار أثناء الانتقال مختلف الأمراض الوبائية و أن ولدين ماتا فى الرحلة السابقة من الدفتيريا (الخناق). و لا يجرى التطهير الوقائى فى الباخرة.

فى طريق العودة سافرت من ينبع على باخرة أفضل تابعة للشركة الخديوية سابقا، و لكن الضيق هنا أيضا لم يكن أقل رعبا، بل كان أشد و أقسى من جراء القيظ الرهيب. و فى العنبر و فى الحجرات لم يكن ثمة

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۵۷

قطعا أى هواء للاستنشاق، و كان الركاب هنا متمدّيين مرضى بأغلبيتهم بسبب القيظ و كتمة الهواء. و جعلت قيادة الباخرة من قسم الدرجة الأولى درجة خاصة؛ لقاء مبلغ إضافى قدره ليرة و نصف ليرة، انزلوا هنا ركاب الدرجة الثالثة، و سرعان ما اكتظ القسم كله بالفرس. و أثناء الرحلة يطبخ جميع الحجاج لأنفسهم المآكل على مناقل يضعونها فى كل مكان من العنبر و منالمتن، و يشعلون النار تحت السماورات فى كل مكان، و يشعلون النارجيلات، و كل هذا لا يحسبون انه يشكل خطرا. يبقى أن أضيف انه غالبا ما تنشب فى قلب هذا الجمع المتعدد القوميات خلافات و مجادلات بسبب الأماكن تنتهى أحيانا بالشجار، علما بانه ليس بمقدور أفراد طاقم الباخرة أن يفعلوا شيئا بسبب قلة عددهم.

النزول فى جدّة أو فى ينبع

ينزل حجاجنا عادة فى ينبع إذا سافروا فى الوقت المناسب الباكر، و منها يتوجهون إلى المدينة المنورة، و منها إلى مكة المكرّمة. هذا الخط انسب فى الوقت الحاضر إذ يجرى الحج فى شهر نيسان (ابريل) لأنه لا يتعين السفر بالقافلة فى وقت حار جدّا. و إذا وصلوا بعد ذلك، فإنهم ينطلقون رأسا إلى جدّة؛ و قبل الوصول بقرابة ۱۲ ساعة إلى المرفأ المذكور، يخلع جميع الحجاج كل البستهم و يكشفون رؤوسهم و يلتفون بثياب الاحرام. أما الذين يمضون من المدينة المنورة فيقومون بذلك فى رابغ. و لا ريب فى أن هذا اللباس الخفيف و تعرية الرأس الذى يغطيه المسلمون على الدوام يضرّان كثيرا بصحة الحجاج الذين لم يتعودوا على المناخ الحار المحلى. و يحاول بعض منهم، ممن هم أوفر تجربة، أن يقللوا من تأثير ثوب الأحرام الضار، فيطلقون الشعر الطويل فى الوقت المناسب، و يشترون هذا اللباس من قماش اسمك. و حين ينزل الحجاج فى جدّة، يتوزعون على الشقات بحيث يستأجر بضعة أشخاص غرفة

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۵۸

واحدة، ثم ينطلقون مع القافلة الأولى إلى مكة. و لكن جدّة كانت مغلقة فى السنة الجارية بسبب الحجر الصحى، فانزلونا على بعد ۲۰ فرسخا تقريبا إلى الجنوب منها فى محلة الرأس الأسود المحاطة، مثل جدّة، بسلاسل من الصخور قرب سطح الماء لا تسمح باقتراب البواخر من الشاطئ فترسو على بعد منه يتراوح بين ۷ و ۸ فرسخات. و فى اليوم الثانى من وصولنا اقترب من الباخرة زهاء عشرين زورقا شراعيا كبيرا و أخذت تستقبل الركاب؛ و بما انه حدث قبل ذاك بومن قصير حادث مؤسف، كان زورق يأخذ الأمتعة و الطاقم فقط، بينما كان زورق آخر يأخذ الركاب، و كان الزورق الأول يقطر الثانى. تقطع الزوارق المسافة إلى الشاطئ فى أكثر من ساعة، متموّرة على الدوام بين الصخور التحتمائية، و ناطحة إياها أحيانا كثيرة بقاعها.

الرأس الأسود

الرأس الأسود عبار عن شاطئ رملى منخفض مزود برصيف مبنى كيفما اتفق تلتصق به شقيفتان مركبتان من الواح خشبية؛ و أبعد قليلا نصبوا خياما لأجل الحجاج القادمين، و يتواجد بازار صغير، و كل هذا محاط بحواجز خشبية يسير بمحاذاتها حراس. وراء الحواجز اقيمت فساطيط بشكل نصف دائرة لأجل الطابور الواقف هنا لحراسة الحجاج و مرافقتهم. و إلى أبعد، كان البدو مع جمالهم و شقادفهم و حميرهم ينظرون من يستأجرهم.

قبل الوصول إلى الشاطئ ببضع ساجينات، توقفت الزوارق و أخذوا مسبقا من كل منا نصف مجيدية (حوالى ۸۰ كوبيكا) فى صالح المحجر الصحى؛ و بعد ذاك فقط سمحوا لنا بالنزول إلى الرصيف. و هنا، تحت السقيفتين، يوجد صندوقان يأخذون بقرب أحدهما مرة أخرى فى صالح المحجر الصحى نصف مجيدية من كل حاج، و يتحققون بقرب الآخر من

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۵۹

الوثائق، و من ليس معهم جوازات سفر تركية يزودونهم بها، ثم يتفحصون الأمتعة، و أخيرا يسمحون بالخروج إلى الشاطئ.

و عشية النزول، أخذنا أنا و كثيرون من الحجاج القادمين من الشمال نعانى من اختلال قوى فى المعدة و بعطش معذّب و لا يرتوى و بضعف غير عادى لم أستطع أنا شخصيا أن أتخلص منه تماما طوال إقامتى فى الحجاز.

فى الرأس الأسود، اصطدمت للمرة الأولى بالأنظمة التركية غير المعقولة إطلاقا، بدءا من مسألة الماء. فإن ماء الشرب يستجلبونه إلى هنا من جدّة على زوارق شراعية لا تستطيع أن تبحر إلا نهارا بسبب من وفرة الصخور التحتمائية و إلا إذا هبت ريح مؤاتية إلى هذا الحد أو ذاك.

و الماء المستجلب يبقى فى الزوارق، و ليس على الشاطئ أية خزانات أو أية احتياطيات. و فى يوم وصولنا نفذ كل احتياطى الماء

حوالى الظهر، و راحت الزوارق إلى المدينة لجلبه. و حوالى الساعة الرابعة نفد كل احتياطى الماء عند الحجاج، فأخذوا ينتظرون عودة الزوارق متجمعين جمعا ضخما جدّا على الرصيف، و لكنهم عبثا انتظروا حتى ساعة متأخرة من الليل و سافروا فى اليوم التالى دون أن يحصلوا على الماء.

كذلك لم أفهم الواقع التالى؛ ففى يوم وصول البواخر، جاء بحرية من جدّة، رغم الحجر الصحى، باعة بالمفرق طفقوا يبيعون بين الحجاج شتى التوافه؛ و كثيرون من التجار ممن كانت لهم هنا دكاكين كانوا يوصلون الاتصال مع المدينة بلا عائق؛ و أخبرنى سواقو الحمير أنهم، فى طريقهم من مكة، عرجوا على جدّة ثم على البحرة و حدّة؛ و قد رأيت شخصيا بضع جماعات من الجنود جاؤوا مباشرة، كما قالوا، من المدينة الموبوءة.

فى الرأس الأسود، كان القنصل الفارسى يعمل على الدوام فى هذه السنة و كان فسطاطه الغنى الذى تنيره فى المساء المشاعل من كل الجوانب يسترعى إنتباه جميع الحجاج.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۶۰

الانتقال إلى مكة

قررنا أنا و ثلاثة رفاق أن ننتقل إلى مكة على ظهور الحمير، و أردنا أن ننطلق فى اليوم نفسه قبيل المساء، و لكن لم يسمحوا لنا، قائلين انه، نظرا لمخاطر الطريق، سينطلق الجميع معا غدا بحراسة حفر خاص.

و بالفعل رافق القافلة فى اليوم التالى خفر قوى من الخيالة و لكن المسافرين على ظهور الحمير تفرقوا جماعات صغيرة و مضوا فى طرق مختلفة، كل جماعة على هواها.

قرب البحرة، حيث تدخل الطريق وادى فاطمة العريض، ينفصل إلى اليسار درب أقصر؛ و كثيرون ممن راحوا فى هذا الدرب تعرضوا، كما تبين، لهجوم البدو. فى البدء رأينا جنديّا تركيّا راكضا صوبنا من جانب الدرب المذكور، و ملوحا بيديه، و صائحا، و أوضح لنا أن رفيقيه الاثنين الذاهبين معه فى الحج من جدّة إلى مكة قد قتلوهما للتو بالاحجار. نقلناه إلى البحرة و هناك أغمى عليه. و بعدنا أخذت تصل جماعات الحجاج الأخرى الماضية على ظهور الحمير و تتشطء من أنهم سلبوا أحدهم ۳۰ ليرة و سلبوا آخر ۴۰ ليرة و هكذا دواليك؛ و أخيرا ظهر جندى آخر كان، كما تبين، عازفا فى الطابور المرابط فى جدّة و ابلغ الضباط الأتراك الجالسين هنا فى المقهى أن البدو قتلوا رفيقه. و قابل الضباط الأتراك جميع هذه البيانات و الشكاوى، كما يقابلون ظاهرات عادية، ببالغ اللامبالاة، رغم أن كل هذا حدث على مقربة قريبة من البحرة؛ تأسفوا على القتلى و المسلوبين، و شتموا البدو، و طفقوا يتجادلون بصدد من منهم يرسل جملا لأخذ الجنود القتلى.

إن كثيرين ممن يمضون على ظهور الحمير يصلون إلى مكة فى يوم واحد لأن هذه الحيوانات تتميز هنا بالجلد الكبير و القامة الضخمة و المشية الجيدة، و لكنا نحن قضينا الليل فى حدّة بسبب مرضى، و وصلنا

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۶۱

فى اليوم التالى صباحا بدون أية مغامرات؛ إلا أننا سمعنا على الدوام عن أعمال السلب و النهب تارة هنا و طورا هناك.

الوصول إلى مكة و الإقامة

عند دخول المدينة يتلاقى حجاجنا مع مطوّفهم، و لكن قلّة منهم يكون بمقدورها أن تمضى وراءهم فى الحال إلى الحرم للقيام بالطواف و السعى، كما تقتضى الشعائر، و الأغلبية تؤجل عادة إداء هذه الشعائر إلى بضعة أيام، و ذلك لأن المناخ المحلى يحمل الذين لم يألفوه على التراخى.

و للمسلمين الروس فى مكة ثلاثة مطوّفين: أحدهم لأجل القادمين من القفقاس، و الثانى لأجل القادمين من القرم، و الثالث لأجل جميع الباقين.

و لإقامة حجاجنا فى مكة مجانا توجد ثمانى تكيات، اشتراها مسلمونا و قدموها هدية للأوقاف. و هذه التكيات هى فى المعتاد بيوت غير كبيرة من الطراز المحلى يعيش فيها دائما و يشرف عليها بإشارة من الهادى أحد ما من مواطنى روسيا ممن استقروا هنا. و الغرف لإقامة الحجاج فى هذه التكيات ليست بمعظمها على ما يكفى منالنظافة و الترتيب، رغم أن المشرفين على هذه البيوت يجمعون كل مرة من الحجاج النقود لأجل التصليح. و هناك قسم من الحجاج يستأجر على حسابه الشقات فى البيوت الخاصة؛ و فى هذه الحالة و تلك سواء بسواء، يسكنون بخارق الضيق لمجرد أن يكون على الأرضية مكان للتمدد عليه.

و عموما تجدر الإشارة إلى أن حجاجنا، و حتى أولئك الذين يملكون مبالغ كبيرة من المال، يتميزون فى زمن السفر إلى الحجاز ببخل خارق و يحرمون أنفسهم أبسط وسائل الراحة و الرفاهية.

الإقامة فى مكة قبل الإنطلاق إلى عرفات

فى الحال يتوافد إلى الحجاج القادمين حديثا مواطنوهم المحليون

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۶۲

(من مكة) أو القادمون من المدينة المنورة ليستعلموا ما إذا كانوا يكلفونهم بإداء الحج (البدل) أو العمرة أو ليحصلوا على الصدقة؛ و يأتى «السقّاؤون» الملتزمون بجلب الماء من بئر زمزم إلى الحجاج طوال إقامتهم فى مكة. و ينقضى الوقت قبل الإنطلاق إلى عرفات فى زيارة الحرم لأجل صلاة الصباح و المساء، و فى السجود أمام مدافن مختلف الأولياء، و فى الصعود إلى جبل أبو قبيس، و فى التردد على البازار، و فى شرب الماء المقدس المذكور أعلاه باجتهاد و حمية.

الإنطلاق إلى عرفات

الرحلة إلى عرفات أرهب مرحلة بالنسبة للحجاج فى كل زمن الحج. و الذكريات و الأقاصيص عن أوبئة الكوليرا الرهيبة التى غالبا ما تنشب لدن إداء هذه الشعائر تثير فى نفوس الحجاج رعبا خاصا، شديدا.

و جميع الأحاديث قبل الإنطلاق تدور بوجه الحصر حول عرفات و منى؛ و جميع الافتراضات يرافقها التحفظ: «إن شاء اللّه أعود سالما من عرفات»؛ و يوصى الرفاق بعضهم بعضا بكيفية التصرف بالأموال المتواجدة فى حال الوفاة، و ما إلى ذلك. و فى اليوم الثامن من ذى الحجة، يبدو كل الطريق إلى عرفات، البالغ ۲۰ فرسخا، كتلة متحركة بلا انقطاع من حجاج مرتدين ثياب الأحرام البيضاء، راكبين فى الشقادف أو على الهجائن و الحمير، أو سائرين مشيا على الأقدام. و جميع العساكر المرابطة فى مكة، و المحملان مع الخفر، و الوالى، و الشريف، و جميع سكان المدينة، ما عدا النساء و الأطفال، ينزحون فى هذه الأيام إلى عرفات بعضهم لإداء الشعائر، و البعض الآخر بدافع المصالح التجارية.

كذلك ينطلق الفريق الطبى المرسل فى مأمورية لزمن الحج، مع صيدليته و مع لوازم التطبيب و الاستشفاء.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۶۳

الإقامة فى عرفات

موقف الحجاج عند عرفات عبارة عن سهل رملى عريض من الجانب الجنوبى لجبل عرفات؛ و فى هذا السهل ينصبون مخيمهم الهائل الخارق الضيق، و الخالى من أى نظام. و الحجاج بأغلبيتهم يجلبون معهم من مكة خياما يقيم فيها أكبر عدد ممكن منهم رغبة فى

التوفير. و بعض الحجاج يـدبرون لأنفسـهم بصورة اصـطناعية ظلا بغرس بضع عصـى فى الأرض و مـدّ قطعـة من الخيش فوقها. و الفئة المعدمة تأوى هنا قرب المسجد و تحتمى من الشمس تحت الصخور و الشجيرات.

أثنـاء الإقامـة فى عرفـات يأخـذون الماء من مجرور المياه المكى، و ذلك بجلبه بواسـطة آبار- منافـذ للهواء مقامـة هنا، أو بأخـذه من الأحواض المعـدة لاسـتحمام الحجاج؛ الماء الـذاهب إلى مكـة يمر عبر هـذه الأحواض، و نصبّ من جديـد فى المجرور العام، و لكن السـكان المحليين لاـ يخـامرهم أى قلق أو شـك من واقع أنهم سيشـربون مـاء اسـتحم فيه بشـر من كـل شاكلـة و طراز. و هم يقولون: «بموجب تعاليم الشريعة، لا يتلوث هذا الماء، و شربه مسموح حتى و لو كانت فيه جيفة».

عند أقدام الجبل يتشكل فى الاخصاص بازار موقت يتاجرون فيه بالمؤونة حصرا؛ و هنا بالذات يذبحون الأغنام لأجل البيع. و غير بعيد عن البازار، يسـتقر البدو و يبيعون الأغنام و البطيخ و الشمام و الخضراوات الحطب و التبن، و ما إلى ذلك. و قرب كل خيمة يحجزون مربعـا صـغيرا ملفوفـا بالخيش بحيث يقوم بـدور المرحاض. و بين الخيام بالـذات، ترتع الجمال مع سواقيها؛ و هنا بالـذات تتراكم بقايا الأغنام التى يـذبحها الحجاج لأنفسـهم؛ و لـذا انتشـرت قبيل مساء اليوم التالى (التاسع من ذى الحجة) من كل مكان رائحة نتنة قوية؛ و قرب البازار لم يكن من الممكن إطلاقا المرور دون سد الأنف. و من حسن الحظ أن الحجاج ملزمون بالبقاء هنا يوما واحدا فقط.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۶۴

يشـتهر عرفات كنقطة حارة جدّا فى الحجاز. و المراقبات التى قمت بها فى ۱۹ نيسان (ابريل) قرب هذا الجبل (و علوه ۱۰۵۰ قدما فوق سطـح البحر) أعطيت النتائـج التالية: الحرارة العليا فى الخيمة ۳۴ درجة ريومور فوق الصـفر؛ فى الوقت نفسه تحت الشـمس ۴۶ درجة فوق الصفر؛ الحرارة الدنيا ليلا ۲۶ درجة فوق الصفر.

المزدلفة

عند غروب الشـمس، يتحرك مخيم الحجاج الهائل كله دفعة واحدة صوب المزدلفة حيث يكون قد اقيم قبل ذلك بقليل صف طويل من الاكشاك لبيع الماء و المؤونة. و فى اليوم التالى (العاشر من ذى الحجة) ينطلق الحجاج فى الصباح الباكر إلى منى.

منى

تقع منى فى فـج عميق و ضـيق جـدّا، قاعه رملى، و على جانبيه كتل حجريـة عاريـة رأسـية تقريبا؛ و هى عبارة عن صف ممتد فى قاع الفج من بيوت مبنية حسب طراز بيوت مكة، و مسكونة فى أيام الحج الثلاثة فقط.

و لهذا المقام شارع رئيسى واحد يتشعب فى الطرف العريض (الشرقى) من الفج، و بضعة أزقة قصيرة تمتد بالعرض. و فى وسط المقام ينتصب مبنى غير كبير من طـابقين يقوم فيه «الحجر الصـحى» أثناء إقامـة الحجاج فى منى، و هو عبارة عن لوازم المستشـفى الموقت و الأطباء المرسلين فى مأمورية إلى هنا فى زمن الحج.

يأخـذون الماء، كما فى عرفات و المزدلفـة، من منافـذ الهواء لمجرور مكة الذى يملأون من مائه أيضا الأحواض الضـرورية جدّا، كما قـالوا لى، فى زمن تجمع الحجاج الكبير. و فى كثير من الأماكن، اقيمت مراحيض عامـة هى عبارة عن صف من معالف واطئـة، مركبة من الحجر،

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۶۵

بدون حفر، و بدون أبواب. و عند الطرف الشـرقى من المقام يحفرون سلفا فى مكان عريض من الفج عددا من الحفر، مساحة الواحدة منها زهاء ۴ أرشينات مربعة و عمقها أرشين و نصف أرشين. و هذه الحفر هى مكان لذبح و تقديم الأضاحى.

تقع متى على ارتفاع ۹۷۰ قدما فوق سـطح البحر، و بما أنها مطوقة من جميع الجوانب بكتل حجرية ضـخمة، فإنها تتميز بحرارة خارقة

العلو؛ كما تتميز بانحباس الهواء بلا حركة. و مرد ذلك، أغلب الظن، إلى بنية الجبال الخاصة. و من المراقبات التى أجريتها فى غرفة محمية جيدا من الشمس، استخلصت ما يلى: فى ۲۰ نيسان (ابريل) الحرارة العليا ۳۲ درجة ريومور فوق الصفر، الحرارة الدنيا ۳۰ درجة فوق الصفر؛ فى ۲۱ نيسان الحرارة العليا ۳۳، الحرارة الدنيا ۳۰؛ فى ۲۲ نيسان الحرارة العليا ۳۳، الحرارة الدنيا ۳۰.

قبيل الحج، يسوقون إلى منى عددا هائلا من رؤوس الغنم و الماعز، و كذلك جزئيا من الجمال لبيعها من الحجاج و لذا كانت أسعار هذه المواشى تبقى غير عالية جدّا نسبيّا رغم الطلب الكبير. و يبدو انه يوجد بين البدو من قديم الزمان اعتقاد مفاده أنهم إذا لم يرسلوا قطيعهم أو قسما منه لبيعه فى منى فى زمن تقديم الأضاحى، فإن جميع مواشيهم تهلك حتما من شتى الأوبئة؛ و هذا ما يفسر العرض الهائل و سوق المواشى من أبعد أنحاء الجزيرة العربية، كما، مثلا من الحدود مع فلسطين، و من ضواحى بغداد، و ما إلى ذلك.

و فى منى، كما عند عرفات، يقيم الحجاج فى الخيام ناصبين فى الطرف الشرقى من منى، فى الأماكن العريضة من الشوارع؛ و البعض ينصب خيامه فى أحواش خاصة محاطة بسور عال و مرفقة بأبواب سميكة، هى عادة ملك المطوّفين. و نادرا جدّا ما ينزل حجاجنا (و فى هذه السنة اثنان فقط) فى البيوت نظرا لبدل الإيجار الرفيع. و الطبقة المعدمة

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۶۶

تقيم فى المعتاد على جانبى الفج بين الصخور أو فى الشوارع تحت الأسيجة.

بعد أن يستقر الحجاج بنحو أو آخر، يمضون إلى الحفر المعدة لذبح المواشى المذكورة أعلاه، و يشترون هناك الخرفان، و يذبحونها على طرف حفرة، و يتركونها هناك؛ و لكن إذا كان الخروف المذبوح مدهنا إلى هذا الحد أو ذاك، فيتوافد الحجاج المعدمون، و يطلبون التصدق عليهم بالذبيحة، و يقصون منها أفضل القطع لكى يعيشوا لأنفسهم، كما علمت فيما بعد، احتياطيا من اللحم المقدد. و حوالى الظهر، يدفعون جميع الماشى المذبوحة مع جلودها إلى الحفر و يطمرونها بشريحة رقيقة من التراب. و فى المساء تتكرر هذه العملية بالنسبة للأضاحى الجديدة.

و جميع الأعمال قرب الحفر يقوم بها الجنود.

كل حاج يضحى ببضعة خرفان أو مواعز، منها واحد على نيّته، و الأخرى بتكليف من أقاربه، و لراحة نفوس الموتى، أو أيفاء بوعد، و هكذا ذبح أحد مسلمينا فى هذه السنة أكثر من ۶۰ خروفا. و لكن كثيرون من الفقراء غير ملزمين بهذا الواجب. و إذا أخذنا العدد الأدنى فقط، و حسبنا أن كل حاج يذبح بالمتوسط خروفا و نصف خروف فقط، فإن عدد المواشى المذبوحة بهذه الطريقة بدون أى نفع يبلغ رقما هائلا- ۱۵۰ ألفا، نظرا لعدد الحجاج فى هذه السنة و هو ۱۰۰ ألف. و هذا الذبح يجرى فى جميع الأيام الثلاثة من إقامة الحجاج فى منى، الأمر الذى يشكل خطرا رهيبا يهدد بنشوء بؤرة للاوبئة نظرا للمناخ الحار و لغياب الشروط الصحية.

فى اليوم التالى (اليوم الحادى عشر من ذى الحجة)، طفت فى منى و فى مخيم الحجاج فلاحظت أن الشارع الرئيسى فى منى بقى غير قذر جدّا، و لكن حين تنحيت جانبا، بين الجبال و المبانى، ذهلت من حال هذه المحلة الرهيب. كانت التربة كلها مكسوة بالعظام مع بقايا اللحم

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۶۷

المسودّة و المتفسخة؛ فأن الحجاج الذين اعدوا لأنفسهم اللحم المقدد، قصّوا كيفما اتفق الأقسام اللينة، و مرموا الباقى ليعترئ نظرا لوفرة اللحم. و كانت هناك بضع جيف منتفخة لخرفان بكاملها. و جميع الأماكن قرب الأسيجة كانت مغطاة بالبراز البشرى؛ و فى كل مكان، نفايات مختلفة و زبالة رهيبة؛ و فى كل مكان رائحة نتنة لا تطاق، و بخاصة فى جوار المراحيض العامة التى لم يطمروها بأى شىء. و قرب الحفر، ما وراء منى، آلاف من المواشى المذبوحة التى قد بدأت تتفسخ و تتعفن؛ و قرب تلك الحفر التى قد امتلأت و طمروها، تتناثر مختلف البقايا من الجيف. تلاقيت مع طبيب من الأطباء طاف راكبا فى مكان ذبح الأضاحى و أمر بطمر الحفر. و قد أفادنى أن احد الحجاج احيل إلى المحاكمة لأنه ذبح الخروف قرب خيمته، رغم أن الكثيرين، نظرا لنقص الرقابة هنا، يذبحون خفية

فى أماكنهم لكى لا يمضوا بعيدا و لا يرتبكون البتة من الرائحة النتنة التى تنتشر فيما بعد؛ و على العموم، ينظر الحجاج بأغلبيتهم إلى هذا الطلب البسيط- ذبح الأضاحى فى المكان المعين فقط- كما إلى تضييق نافل تماما؛ و لو لا القسر، لرجعوا فورا بلا ريب إلى النظم القديمة و لطفقوا يذبحون الخرفان و يتركونها تتفسخ كما من قبل بين الخيام. و نحو مساء ذلك اليوم، زرت بضعة من الأحواش التى ذكرتها آنفا. و الحجاج يفضلونها نوعا ما، لأنهم يغلقون الأبواب فى الليل و يجدون أنفسهم بالتالى فى بعض الأمان من اللصوص الذين يتجمع عدد كبير جدّا منهم فى منى أملا- فى الاتزاز السهل (و خاصة فى حال نشوب الأوبئة، حين يعكفون بكل حرية على السلب و النهب).

و لكن، نظرا للاسيجة و الأبواب المغلقة، و لشدة الضيق بين الخيام المنصوبة، و لإنشاء المراحيض قربها بالذات، و لوجود الجمال، ينشأ هناك جو مرهق جدّا. و من الأفضل بكثير نصب الخيام فيما وراء منى، حيث المكان أرحب و أنظف إلى ما لا قياس له.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۶۸

و نظرا للظروف الصحية السيئة المذكورة أعلاه تكون نسبة الإصابات بالأمراض و الوفيات بين الحجاج عند عرفات و بخاصة فى منى، كما يقال، أكبر بكثير مما فى مكة. و لكن عدد الذين ماتوا طوال الرحلة كلها إلى عرفات بلغ فى السنة الجارية حوالى ۴۰ شخصا فقط.

العودة إلى مكة و رحيل الحجاج

بعد العودة إلى مكة يسرع الحجاج إلى أعلام أقاربهم فى الوطن بسلامة نهاية الرحلة إلى عرفات؛ و فى هذه الأيام يكون التلغراف، رغم التعريفة العالية- خمسة فرنكات عن كل كلمة- غارقا فى العمل؛ و يستعد الحجاج للرحيل. و جميع الحجاج يحملون معهم إلى أوطانهم لأجل تقديم الهدايا كميات متفاوتة من ماء زمزم و التمر المحلى، تبعا لأحوالهم المالية. يأخذون ماء زمزم فى أوعية خاصة من الصفيح يبيعها سمكرية مكة من الحجاج الراحلين بعد أن يملأوها بأنفسهم و يلحموا رقابها، و التمر يشترونه عادة فى المدينة المنورة. و فضلا عن ذلك، يشترون على سبيل الهدايا مسابح من صنع محلى أو من صنع القسطنطينية، و سجادات صغيرة لأجل الصلاة، و خواتم فضية مصنوعة من بقايا الزخارف المتغيرة كل سنة فى مقام إبراهيم، و خواتم فضية مرصعة بالصرد اليمنى و قطعا من الكسوة، و الكندر و ما إلى ذلك و يأخذ كل منهم أيضا معه ثوب الاحرام الذى التف به فى زمن الحج؛ و يأخذون أيضا لأنفسهم و بتكليف من معارفهم قطعا من الخيش مبللة بماء زمزم لأجل الأكفان. و جميع هذه الأشياء يدسونها فى صناديق و يسلمونها لعملاء خصوصيين هم السماسرة، لأجل إيصالها إلى القسطنطينية.

و أولئك من حجاجنا الذين سبق أن كانو فى المدينة المنورة قبل الحج أو لم يحسبوا أن يزوروها، بدأوا هذه السنة، فى اليوم الثانى أو الثالث بعد العودة من عرفات، بالسفر قوافل صغيرة إلى جدّة، حيث كان

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۶۹

الحجر الصحى قد رفع قبيل عودة الحجاج، و حيث تجمعت ۱۲ باخرة لنقل الحجاج إلى السويس و بيروت و أزمير و القسطنطينية.

و فى السنة الجارية كان عدد الحجاج الذين قرروا زيارة المدينة المنورة أيضا بعد الحج قليلا جدّا نظرا لمخاطر الطريق الكبيرة؛ و لذا انطلقت من مكة إلى المدينة المنورة، عدا المحملين السائرين معا فى الطريق الشرقى، قافلتان و ركبان فقط. و جميع الحجاج المرضى، مهما كانت صحتهم واهية، لا يرغبون البتة فى البقاء فى مكة، و يرحلون مع رفاقهم فى الطريق. و هذا ما يفسر، أغلب الظن، واقع أنهم يدفنون دائما كثيرين من الناس فى المواقف الأولى بعد مكة، مثلا، فى حدة أو البحرة أو وادى فاطمة ...

الانتقال إلى المدينة المنورة

إنضـممت إلى سـكان المدينـة المنورة العائـدين، و رحت مع أحد الركب فى الطريق الغاير، أما حجاجنا الباقون، فقد انتقلوا مع القافلة فى الطريق الفرعى. و قد وقعت فى القوافل بضع حالات من عمليات السـلب و القتل ذهب ضحيتها مسافرون ابتعدوا عن الموقف، علما بأن واحدا فقط من رعايا روسيا، كما ذكرنا آنفا، قد تضرر. أما الركب، فقد اجتازت السبيل بكامل السلامة. صحيح أن اشارات الانذار كانت تنطلق فى الليالى و كانت تسمع طلقات الرصاص و اننا توقفنا فى الطريق، و لكنى لم أر خطرا حقيقيا.

الإقامة فى المدينة المنورة

توجـد فى المدينـة المنورة أيضا خمس تكيات لمسـلمينا، و لكنهم، كما قيل اعلاه، يفضـلون النزول عنـد أقاربهم أو فى مدرسة قازان الدينية؛ و هذه السنة ظلت جميع التكيات فارغة. و عموما لا وجود فى المدينة

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۷۰

المنورة لـذلك الضـيق فى المساكن و فى المدينـة كما فى مكـة، و ذلك لأن الحجاج يتوافدون إلى المدينة المنورة تدريجيا و يبقون عادة وقتا قصيرا جدّا- ۳- ۵ أيام. و فى المدينـة المنورة، يوجـد أيضا أدلة يقودون الحجاج حين يزور هؤلاء الحرم و ضواحى المدينة، كما أنهم يؤدون الصلاة بالنيابة عنهم.

الذهاب إلى ينبع

فى السـنة الجاريـة تأخر الـذهاب من المدينـة المنورة إلى ينبع بسـبب الإضـطرابات فى قبيلـة بنى حرب، و تأخر كثيرا جدّا؛ و لم تنطلق القافلـة الأـولى إلا بعـد مرور زهاء أربعـة أسابيع على وصولها من مكـة. ثم انتظروا زمنا طويلا الأنباء عن مصـير هـذه القافلـة، و سـرت إشاعات مفادها أن البـدو قـد نهبوا القافلة كلها، و نصـحوا بالذهاب إلى جدّة؛ و لكن بعد مرور زهاء أربعة أسابيع، قرروا تسـيير القافلة الثانيـة دون انتظار الأنباء من ينبع، و مع أخـذ الرهائن من المقوّمين. و مع هذه القافلة الثانية و الأخيرة مضـى جميع حجاجنا الباقين بمن فيهم أنا.

تم الانتقال إلى الجديـدة بطلاقة لأننا سـرنا فى أرض مقوّمينا؛ و لكن فيما بعد، فى المنطقة بنى حرب، سارت القافلة باحتراس بالغ؛ بيد أننا وصـلنا إلى ينبع بسـلامة و دون تأخر، إذا لم نأخذ بالحسبان ۵- ۶ حالات من النهب و السـلب، و قطعنا هذا الطريق فى سبعة أيام. عند الخروج من الجبال فقط، وقع حادث اظهر كيف يتصـرف فى مثل هذه الأحوال البدو الذين يسوقون القافلة. كانت القافلة تسير فى ثلاثـة أقسام- فى القسم الأمامى كان العرب الأفارقة (المغاربة)؛ فى الأوسط، حجاج من شتى القوميات، بمن فيها مسـلمونا؛ فى القسـم الخلفى، الفرس. و فجـأة سـمعنا طلقات مترددة من جانب القسم الأمامى الـذى لم يكن مرئيا فيما وراء الجبال. أخـذ مقوّمنا سـلاحه، و ركض إلى أمام القافلة، و سرعان ما تجمع

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۷۱

حوله جميع سواقى الجمال الآخرين و فى ايديهم السلاح. و فى هذه الأثناء ظلت القافلة تواصل السير كما من قبل و فى مقدمتها جميع البدو.

خلال ربع ساعـة، انعطف الطريق عدة مرات و بعد خروجه من الجبال، أخذ ينزل إلى الشـريط الساحلى المسـتوى (تهامة)؛ و فى الحال تكشـفت للأنظار كل المحلة المجاورة مع أبعاد البحر الزرقاء. و كانت مقدمة القافلة تبدو بوضوح، و كانت الطلقات لا تزال تتعالى من هناك؛ و قد تبين أن المغاربة أعربوا بذلك عن فرحهم لدن رؤية عنصرهم الطبيعى العزيز، البحر.

أثناء هـذا الانتقال من المدينـة المنورة إلى ينبع، اضـطررت إلى معاناة عواقب ريـح السأم التى كانت تهب بلا انقطاع تقريبا. و عنـد بئر السـيّد أشـار ميزان الحرارة فى الظـل إلى ۴۴ درجـة ريومـور فوق الصـفر، و هى أعلى درجـة من الحرارة رأيتهـا فى الحجـاز. المرحلة

الأخيرة من هذه البئر إلى ينبع كانت أطول المراحل؛ و قد سارت القافلة بلا توقف ۲۰ ساعة بالضبط .

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۷۲

الإقامة فى ينبع

لقد سبق أن تحدثت عن الحالة الصحية الخارقة السوء فى ينبع. الرحلة السرية للعقيد الروسى ؛ ص۲۷۲

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۷۳

و ليس ثمة مكان فى الحجاز يواجه فيه الحجاج مثل الظروف المرهقة القائمة فى هذه المدينة. و عند عرفات، أو فى منى أو فى جدّة، يوجد على الأقل ماء جيد ضرورى جدّا فى مثل هذه الحرارة العالية؛ أما هنا، فإن الماء الذى يبلغ ثمن الدلو منه حوالى ۵۰ كوبيكا لا يمكن شربه إلا- فى أقصى الأحوال. و لحم الغنم المحلى المباع هنا بسعر ۱۵ كزبيكا للرطل الواحد يتميز بقساوة غير عادية و غياب الدهن. و من جراء كل هذه الظروف، عانى جميع الحجاج أثناء الإقامة فى ينبع باختلال المعدة؛ كان حسب المرء أن يقترب من شاطئ البحر حتى يقتنع بأن الجميع مصابون بالاسهال. و قد ازداد عدد الموتى بشكل ملحوظ، و كل يوم كانوا يدفنون ۵- ۶ أشخاص (كان عدد الحجاج زهاء ۳۰۰۰ شخص). و لسوء حظ

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۷۴

الحجاج غالبا ما يتعين عليهم أن ينتظروا طويلا فى هذا المرفأ الرهيب اقلاع الباخرة أو انطلاق القافلة؛ ففى هذه السنة بقى الذاهبون إلى المدينة المنورة ما لا يقل عن أسبوع، و بقى الراحلون من الحجاز زهاء ۸ أيام؛ و من وصلوا مع القافلة الأولى بقوا أكثر من شهر.

و حجاجنا يبيتون هنا أيضا كما فى جدّة مستأجرين غرفة واحدة لعدة أشخاص؛ أما حجاج القوميات الأخرى، كالمصريين و المغاربة، فإنهم يدبرون لأنفسهم ظلاما فى الشارع و على الساحل المنخفض و يعيشون فى وسط القذر الرهيب و الرائحة النتنة الكريهة.

تصل البواخر إلى ينبع بعد أن تقوم فى البدء برحلة لنقل الحجاج من جدّة؛ و نظرا للحجر الصحى، حملت الحجاج على انتظارها فى هذه السنة زمنا طويلا جدّا. و أخيرا أخذت تقترب، و فتح العملاء مكاتبهم، و بدأت المفاوضات بصدد أسعار التذاكر. فى البدء طلبوا عن الدرجة الثالثة إلى القسطنطينية ۲/ ۱ ۷ ليرات أى أكثر من ۶۳ روبلا. و لكن بما أن عدد الراغبين فى السفر بهذا السعر العالى كان قليلا جدّا، فقد خفضوا سعر التذكرة بعد يومين حتى ۶ ليرات (۵۱ روبلا)، و إذ ذاك فقط شرع الحجاج يشترون التذاكر. و الباخرة التى سافرت على متنها كانت قد أخذت ۷۰۰ راكب؛ و لكن رغبة فى زيادة عددهم، ارجأوا الاقلاع من يوم إلى يوم، إلى أن احتشد الركاب أخيرا، و قد فرغ صبرهم، فى جمع ضخم أمام مقر القائمقام و طفقوا يعربون بأصوات مدوية عن احتجاجهم، متشكين من نقص المؤن و الماء، و شرعوا يطالبون باقلاع الباخرة؛ و سرى مفعول الاحتجاج، و بدأت الباخرة تولّد البخار، و تأخذ الركاب، و اقلعت فى ذلك اليوم بالذات. و قد قالوا لى أن القائمقام و العميل و ربان الباخرة يحصلون على مداخيل كبيرة بفضل هذه الطريقة لبيع التذاكر. و أولئك الحجاج الذين صبروا طويلا اشتروا التذاكر بالسعر العادى المطبق فى السنوات التى يقوم فيها الحجر الصحى أى بخمس ليرات للتذكرة. و عدا

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۷۵

الركاب الذين يدفعون ثمن التذاكر، تركّب السلطات المحلية على متن كل باخرة ۲۰- ۳۰ شخصا من الحجاج المعدمين.

الحجر الصحى فى الطور

أهتم الحجاج كثيرا، عندما كانوا فى المدينة المنورة، و عند ما وصلوا إلى ينبع، بمسألة هامة جدّا بالنسبة لهم- هى مسألة فرض الحجر الصحى فى الطور؛ و فى هذا الصدد انتشرت فى المدينة شتى الإشاعات.

قال البعض أن الحجر الصحى سيدوم ۱۰ أيام، و قال آخرون انه سيدوم ۵ أيام فقط؛ و لكن الأغلبية كانت على يقين بأن الحجر الصحى لن يفرض و لا يمكن فرضه، لأن الحجاج، كما كانوا يحاكمون، لم يكونوا فى جدّة حيث وقعت إصابات بمرض الطاعون، بل نزلوا فى الرأس الأسود، و أنهم اقاموا بعد ذلك أكثر من شهر فى مكة حيث لم يكن أى وباء، و بقوا أسبوعين فى الطريق بين مكة و المدينة المنورة، و اقاموا فى المدينة المنورة أيضا مدة كبيرة على خير ما يرام، ثم ساروا أسبوعا إلى ينبع حيث بقوا فى انتظار الباخرة أسبوعا أيضا؛ و طوال هذا الوقت كله لم تحدث أية حالة مشبوهة. فما الداعى الآن إلى الحجر الصحى؟ لقد تكونت عند الحجاج عن الحجر الصحى اسخف المفاهيم. يقولون بالاجماع: هدف الحجر الصحى ليس البتة المقتضيات الصحية بل رغبة الدول غير الإسلامية فى تصعيب وصولهم إلى الحجاز و اضعاف دينهم بذلك؛ و لهذه الاهداف ابتدعوا الحجر الصحى حيث يميتون الحجاج التعساء بل و حاولوا أن يسمموهم. انزلوا ۲۰۰۰ شخص فى الجزيرة (المقصود هنا، أغلب الظن، جزيرة كمران) فأخذ الطبيب الإنجليزى يعطيهم سما بذريعة انه دواء، و لكن أحد الحجاج حزر ذلك فقتل الطبيب؛ و آنذاك فقط، و قد رأوا أن هذه المعاملة لا تخلو من الخطر، أصعدوهم إلى متن الباخرة و واصلوا السفر. يقول كثيرون من الحجاج:

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۷۶

«البواخر الإنجليزية المنطلقة من الهند الموبوءة تمر بدون أى توقيف.

بينما نحن المسافرين من أماكن سليمة يعرضوننا لمثل هذه العذابات.

و حين يعانى الحجاز من الكوليرا أو من وباء آخر ما، فليفرضوا الحجر الصحى. أما فى السنوات الطيبة، فهذا ظلم جلى».

و فى ينبع أيضا لم ترد معلومات دقيقة عن الحجر الصحى؛ و بارتياب بالغ قابلوا تصريحات طاقم السفينة باننا سنتوقف ۱۲ يوما فى الطور؛ و فى اليوم الثالث اقتربنا من هذه النقطة و نحن على كامل اليقين بأننا سنواصل السفر بعد وقفة قصيرة، يقتنع فيها الأطباء أن كل شىء على ما يرام.

الطور بلدة صغيرة على الساحل الآسيوى من خليج السويس، تتألف من عشرة بيوت حجرية من طابقين. على بعد زهاء فرستا اثنين إلى الجنوب، تقع مجموعة من الخيام على ساحل البحر، و مجموعات صغيرة من أشجار النخيل هنا و هناك. و هذا هو المحجر الصحى فى الطور الذى يكرهه الحجاج بالغ الكره. الساحل واطئ، الرمل و عس، و يشكل بعيدا عن البحر جملة من كثبان مستطيلة؛ فى الافق ترتفع كتل حجرية معدومة الحياة من الجبال؛ المنظر اشد كآبة مما فى الحجاز.

اقتربت باخرتنا على بعد زهاء ۲۰۰ ساجين من الشاطئ و رمت المرساة. و كانت ترسو هنا بضع سفن اقلعت من ينبع قبلنا و فرضوا عليها الحجر الصحى. بعد ساعة انطلق من الساحل زورق بخارى صغير و نقل إلينا طبيبين اختصاصيين فى الحجر الصحى؛ و هذان تفحصا أوراق الباخرة، ثم عادا بعد فترة و جيزة إلى الساحل. و فى هذه الأثناء نشر أحد المازحين إشاعة مفادها أن الحجر الصحى لن يفرض؛ و صدق الجميع هذه الإشاعة حقا و فعلا و اعربوا بصورة مختلفة عن فرحهم العظيم.

و لكن سرعان ما عاد الزورق قاطرا ثلاثة زوارق كبيرة؛ و فى الحال بدأ انزال الركاب و نقل كل امتعتهم إلى الساحل، الأمر الذى استغرق

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۷۷

يومين، لأنه لا يتسنى فى اليوم الواحد تعقيم أكثر من ۳۰۰- ۴۰۰ شخص. و كل الأمتعة الثقيلة الموضوعة فى العنبر انزلوها هى أيضا من الباخرة. و كثيرون من الركاب أبقوا حقائبهم اليدوية و غير ذلك من أشياء أوفر قيمة لأجل الحفظ عند المسؤول عن مطعم الباخرة؛ و هذا الأخير اخفاها فى مكان ما لقاء مكافأة.

ترسو الزوارق عند الرصيف الراسخ الأسس؛ و على طول الرصيف مدوا القضبان الفولاذية لأجل سكة حديدية من طراز خفيف جدّا. و قبيل رسو الزوارق، تصل عربتان حديديتان صغيرتان، واحدة بصورة عربة مستشفى، و عليها ينقلون المرضى إلى مستشفى الحجر

الصحى؛ و الأخرى من طراز عربة الشحن لأجل نقل الأمتعة إلى مبنى التعقيم.

و على أبعاد قصيرة يجر الناس العربتين و على مسافات أبعد، يقرنون البغال؛ و هناك أيضا قاطرة صغيرة.

على بعد زهاء ۲۵ ساجينا من الرصيف، توجد تخشيبتان مسقوفتان طويلتان لأجل غرف التعقيم؛ و قربهما سقيفة ينتظر الحجاج تحتها دورهم. و لتغطية نفقات الحجر الصحى، يأخذون من كل حاج ۶۴ قرشا مصريا (زهاء ۶ روبلات و ۴۰ كوبيكا)؛ أما المعدمون، فيسمحون لهم بدخول المحجر الصحى مجانا، و لكن بعد الإنتهاء من تعقيم الحجاج الذين دفعوا الرسم.

انتظرت دورى و دخلت إحدى التخشيبتين المذكورتين، و إذا بى أرى نفسى فى غرفة رحبة كفاية أرضيتها رطبة و مفروشة بالأسفلت؛ على هذه الغرفة تطل أبواب ثلاث مقصورات بخارية تعقيمية؛ و هنا أيضا تنتصب الخوابى و البراميل المليئة بشتى السوائل المعقّمة. أخذوا يفكرون صرر الأمتعة و يصنفونها. و كل أمتعتى المؤلفة من كيس للسفر فيه البياض و لوازم الفراش، و من سرير للسفر، و من صندوق فيه الآنية و المؤونة، نقلوها إلى الحوش؛ أما أمتعة خادمى، فقد أدخلوها كلها فى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۷۸

مقصورة. ثم طلبوا منّا أن نتعرى تماما و نلبس بياض الحجر الصحى، البعض لبسوا الكلاسين، و البعض الآخر القمصان الطويلة. و نحن، ركاب الدرجة الأولى الثلاثة، حاولنا أن نحتج، لعدم رغبتنا فى إرتداء البسة قذرة، اللّه يعلم عمّن نزعوها، و طلبنا إعطاءنا البسة أنظف على الأقل، و لكن طلبنا قوبل بالرفض القاطع؛ فتعين علينا أن نتعرى، و نربط كل بالستنا معا، و نعطيها إلى المقصورات، و نرتدى قمصانا كريهة، نتنة.

و لم يسمحوا لنا إلا بأن نبقى معنا محافظ الطريق التى تحتوى النقود و الوثائق، و المظلات و الأحذية.

و حين بلغ عدد مرتدى هذا اللباس زهاء ۱۰ أشخاص، جاء الطبيب و فحصنا، متلمسا الغدد اللوزانية، و تحت الأبطين، و فى المغبن (المنطقة الاربية). و أثناء فحص الطبيب، حلعوا حذائى و بللوه ببالغ الاجتهاد فى خابية تحتوى، على الأرجح، سائلا معقما ثم انتزعوا عند الخروج إلى الحوش المظلة من يدى و قطروا عليها من مرشة نحو ۲۰ قطرة، و لكن لا أكثر، ثم دخلنا إلى التخشيبة ذاتها، و لكن من طرف آخر، متجنبين وسطها، حيث تقوم المقصورات و المراجل. و قد اضطررت إلى انتظار البستى زمنا طويلا نسبيّا و رؤية مشاهد طريفة جدّا. ها هم يرمون من قسم التعقيم عبر باب واسع الصرر و الرزم المطهرة من كل مسبب للأمراض؛ هذه الصرر و الرزم يتلقفها فى الحال أصحابها الذين ينتظرونها و يفكونها و يبدأون تفحصها- جميع الطرابيش تحولت إلى قلبقات كريهة المنظر و تغيرت الوان الأشياء الخرى أو انصبغت باصباغ غريبة؛ بعض الأصباغ فى السجادات بهت لونها هى أيضا. و يجلس الفرس عليها مستغرقين فى التأمل؛ عند البعض تبين أن غلافات الأشياء قد احترقت؛ و من لم يسحب الأشياء الجلدية و لم يضعها جانبا بسبب جهله للأمر تلقى بالطبع مجرد مزق مدعوكة. و من هم اوفر طيبة و لطفا يضحكون، و لكن تتعالى على الأغلب التذمرات و اللعنات. و حين امعنت النظر فى الحجاج العارين من

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۷۹

مختلف القوميات، ذهلت: يا للشعب النحيل و المنهوك القوى! هذه الرحلة إلى الحجاز ترهقهم جميعا! و ما أن يتلقوا أمتعتهم حتى يرتدوا ثيابهم، بينما يرمون بياض المحجر الصحى بحنق على الأرضية القذرة و الرطبة؛ و من هذه الأرضية يأخذ الخدم هذا البياض و ينقلونه لأجل الاستعمال لاحقا. ارتديت ثيابى من جديد و خرجت إلى الحوش و وجدت عند الباب كل امتعتى بدون أى أثر لأى تعقيم. ثم شرعوا ينقلون الأمتعة إلى ما وراء البوابة، لكى ينقلوها إلى المخيم حيث يفرضون الحجر الصحى على الحجاج.

أقيم هذا المخيم على بعد زهاء ۴۰۰ ساجين عن الساحل، و هو عبارة عن صف واحد، بموازاة ساحل البحر، من أحواش مربعة صحيحة التخطيط (أقسام) مفصولة بعضها عن بعض بشبكة عالية من الأسلاك، و لها بوابة واحدة تطل على الواجهة؛ و قرب هذه البوابة يتواجد المخفر الذى يرسلون منه حراسا إلى جميع أنحاء المخيم. و داخل السياج، خيام صغيرة واطئة تتسع الواحدة منها ل ۵-

۱۰ أشخاص. و قرب البوابة توجد خيمة الطبيب و معاونيه الأثنين؛ و هنا بالذات يتواجد تحت السقيفة دكان و ضرب من بوفيه؛ و فى الخط الخلفى تقوم مراحيض منقولة مصنوعة من الواح خشبية. و من يملكون خياما خاصة يفرزون لهم أيضا امكنة. يجب قول الحق، فإن منظمى المحجر الصحى فى الطور قد انشأوا هنا نظاما ظاهريا معينا؛ ففى كل مكان مدوا الخطوط الحديدية، و عليها ينقلون امتعة الحجاج، و يستجلبون عليها الماء ۳- ۴ مرات فى اليوم؛ و لهذا الغرض يستخدمون ثلاث عربات حديدية صغيرة على كل منها ثلاث براميل خشبية مزودة بحنفيات و خراطيم، ينسكب الماء بواسطتها بصورة مناسبة و مريحة و سريعة جدّا فى صهريجين حديديين موضوعين قرب البوابة. و الماء نقى، من نوعية مرضية، و يستخرجونه من بئر بمحرك هوائى. و كل يوم يجمع الحراس بين الخيام و الزبالة

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۸۰

و شتى النفايات، و يراقبون بحيث لا يذهب الحجاج لقضاء حاجاتهم الطبيعية إلا إلى بيوت الخلاء التى يحافظون على نظافتها و يغسلونها على الدوام، و يسكبون علها منقوع الكلس. و جميع الحجاج المعدمين يتلقون كل يوم على حساب الحكومة المصرية طعاما يتألف من رغيفى خبز صغيرين وزن كل منها زهاء رطل، و حساء مطبوخ مرة باللحم، و مرة أخرى بدون لحم. يبقى أن أضيف أن ساعى البريد يحضر كل يوم لأجل قبول الرسائل العادية و المضمونة و كذلك البرقيات، و أن بواخر البريد التى تقوم برحلات بين موانئ البحر الأسود تأتى إلى هنا فى زمن الحجر الصحى. و لكن الغلاء هنا رهيب و يشمل جميع المأكولات الضرورية، و غالبا ما يستحيل كليا شراؤها. مثلا، سعر نصف رطل لحم الضأن ۳۰ كوبيكا؛ رغيف الخبز من الطحين الأسود، وزنه نصف رطل، و هو دائما قاس و عتيق، سعره ۸ كوبيكات؛ سعر الدجاجة ۸۰ كوبيكا، سعر البيضة ۳ كوبيكات، سعر الحطب (۳ ارطال) ۴ كوبيكات، سعر الفحم الحجرى ۵ كوبيكات للرطل الواحد.

منذ الأيام الأولى بالذات، تبين أن عددا كبيرا جدّا من الحجاج يعانون من الأسهال. أصعفهم أرسلوهم قسرا إلى المستشفى الذى يخافه الحجاج خوفهم من النار. و قد حاول بعض ممن مرضهم أقل وطأة أن يطلبوا النصيحة و الدواء من الطبيب، و لكن تبين، لما فيه دهشة الجميع، انه لا يجوز هنا إعطاء النصائح و الأدوية. فإذا كنت مريضا، فعليك أن تتعالج فى المستشفى.

و لكن الخدم أنفسهم كانوا ينظرون إلى العزلة الصارمة جدّا بالنسبة للحجاج، بدون أى تنازل فى صالحهم نظرة مغايرة تماما و بذلك كانوا يستشيرون على الدوام دمدمة الخاضعين للحجر الصحى؛ فإن الحراس كانوا يمضون بحرية لأداء شتى تكليفات الإدارة؛ و صاحب الدكان كان هو أيضا يتعامل بدون أى عائق مع بقية العالم. و حين أخذ الفرس يبيعون

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۸۱

سجاداتهم، افتتح بازار حقيقى قرب خيمة الطبيب، و عكف الأطباء اليونانيون القادمون عادة من خارج المخيم على الشراء.

دام الحجر الصحى فى الطور ۱۲ يوما؛ و طوال هذه المدة سادت بين الحجاج كآبة عميقة عامة و هبوط شديد فى المعنويات، الأمر الذى يمكن تفسيره بادراك الحرمان من الحرية و بالتخوف من إمكان استطالة هذا الاعتقال زمنا طويلا غير محدد فيما إذا ظهر مرض ما مشكوك فيه.

أغلب الظن أن التغذية الرديئة جدّا كان لها هى أيضا دورها، لأن النقود كادت تنتهى عند الكثيرين من الحجاج، فكانوا يعيشون ببيع امتعتهم، ناهيك بانه لم يكن ثمة شىء يمكن شراؤه بهذه النقود عدا لحم الضأن السيء النوعية أو أحيانا دجاجة هزيلة. كذلك لعبت دورا، أغلب الظن، المحلة الخارقة الكآبة، و الرياح الشمالية المتواصلة التى تهب هنا بقوة كبيرة جدّا، قالبة الخيام، و التى تخفف القيظ نوعا ما و الحق يقال، و لكن التى تغطى جميع الأشياء على الدوام بشريحة سميكة من الرمل.

قبل انتهاء مدة الحجر الصحى بيومين، قام الطبيب بفحص عام، جديد، جاسا الغدد، و وجد أن كل شىء على ما يرام. و قد توسل الحجاج من اللّه باصدق نحو أن يموت جميع الضعفاء و المرضى منهم، إذا كان لا بدّ لهم من الموت، فى أى مكان، فيما عدا هذا

المكـان، فيما عـدا هـذا الحجر الصـحى. و غالبا جـدّا ما تـذكروا أحاديث الحجاج السابقين، و مفادها ما يلى: فى زمن الوباء، إذا مات حجاج فى الأيام الأخيرة من الحجر الصـحى، كان رفاقهم يدفنونهم خفية فى الخيام؛ و كان الجميع موافقون تماما على انه هكذا ينبغى التصرف إذا توفى أحد ما فجأة، لا سمح اللّه!

و أخيرا حل يوم الفرح بالنسـبة للجميع، يوم إنتهاء مدة الحجر الصـحى؛ و نقلوا الحجاج بالطريقة نفسها و لكن بسرعة بالغة إلى الباخرة التى تعرضت هى أيضا فى هذه الأثناء للتعقيم العام.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۸۲

و قد أفادنى بعض من الحجاج ممن كانوا فى الطور فى السـنة الماضـية أيضا (سنة ۱۸۹۷) أن ظروف الحجر الصـحى فى السنة الجارية أخف إلى ما لا قياس له؛ فآنـذاك وصـلت من ينبع دفعة واحدة ۶ بواخر؛ و البواخر التى وصـلت بعد غيرها اضطرت إلى انتظار دورها لانـزال الركاب اكثر من ۱۰ أيام؛ و هـذه الأيام لم تـدخل فى حساب مـدة الحجر الصـحى (۱۵ يوما). و هكـذا، امضـى ركاب الباخرة «ماغنيت» فى الطور ۲۷ يوما. و أثناء التعقيم، أصاب التلف عددا كبيرا جدّا من شتى الأشياء.

مثلا، قدّر أحد المسلمين من رعايا روسيا خسائره بمبلغ يربو على ۵۰۰ روبل.

إن كل حجر صـحى هو بالطبع عبارة عن مضايقـة معينة، أى التأخر مدة متفاوتة الطول فى الطريق، و النفقات الإضافية، و الحرمانات، و الانتقـال مع جميع الأمتعـة إلى الشاطئ و العودة معها إلى الباخرة، و ما إلى ذلك؛ و لكن إذا تفحصـنا نظام الحجر الصـحى فى الطور، اتضـح لنـا جزئيّا لماذا ينظر الحجاج إليه باحتراس و حـذر و خوف. ليس من الصـعب اقناع الحجاج أن التعقيم ضـرورى لتحاشـى نقل الوباء إلى وطنهم، رغم أن لـديهم اعتراضا جاهزا مفاده انه لم يكن ثمـة أى وباء فى النقاط التى زاروها فى الحجاز. و لكن حين يرون أن بعض الأشـياء يجرى تعقيمها ببالغ الصـرامة و أن أشـياء أخرى مماثلـة تمر بـدون أى تعقيم أو تطهير؛ و حين يرون كيف يجبرونهم على التعرى تماما و يرسـلون جميع الألبسة إلى مقصورة، و كيف يسـمحون بابقاء الأشـياء الصغيرة، و كيف لا يغسلون أجسام الحجاج بأى شىء- حينذاك يفقد الحجر الصحى بالطبع كل ثقة.

إن التعرى أمـام الآخرين هو بحـد ذاته عمل مرهق جـدّا بالنسـبة للمسـلمين؛ و ارتـداء البياض القـذر، يمكنه بالطبع أن ينقل إلى الناس الاصـحاء عدوى شتى الأمراض الجلدية؛ فبين الحجاج، يوجد مصابون بالسـفلس؛ و قد يكون بينهم برص زاروا الأماكن المقدسة بحثا عن الشفاء؛ و أخيرا يتسبب

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۸۳

التعقيم الزاما ببعض الخسارة لأصـحاب الأشـياء إذ يبهت لونها و تحترق غلافاتها، الخ .. و العزلة نفسـها، القاسـية جدّا بالنسبة للحجاج، قلّما يتقيـد بها الخـدم. و كل هـذا معا يقنع الحجاج بأن هـدف الحجر الصـحى ليس البتة المقتضـيات الصـحية، بل مجرد التسبب لهم بالخسائر و تصعيب وصولهم إلى الحجاز.

و يستفاد من المعلومات الرسمية أن ۲۱ سفينة مرت فى هذه السنة عبر المحجر الصحى فى الطور، منها ۱۹ باخرة و مركبان شراعيان، و أنها نقلت بالاجمال ۱۶۹۵۲ حاجا. و بلغ عدد الذين ماتوا فى الطور ۱۹۵ شخصا و فى أبو زليم ۸ أشخاص.

و فى السـنة الجارية اعتمدت الحكومة المصـرية أكثر من ۳۰۰۰۰ ليرة (حوالى ۳۰۰۰۰۰ روبل) لبناء تخشـيبات خاصـة فى الطور. و لا ريب فى أن الظروف لأجل المحجورين فى المحجر الصحى ستتحسن كثيرا بعد بناء هذه التخشيبات.

بعد انتهاء الحجر الصحى فى الطور تبقى البواخر التى تستقبل الحجاج من سكان مصر و غيرها من اقطار افريقيا الشمالية لأجل الفحص فى جوار أبو زليم؛ أما البواخر التى تحمل حجاجا من بلدان أبعد إلى الشـمال، فإنها تتجه للهدف ذاته إلى بيروت التى كان يتعين علينا أن نمضى إليها.

و ممـا له دلالـته أن نسـبة الوفيـات بين ركـاب الباخرة كان أكبر نسـبة أثناء الانتقال من الطور إلى بيروت، و أنهم كانوا فى هـذه الأيام

الأربعة من السفر يرمون يوميا فى البحر جثث ثلاثة أو أربعة أشخاص. و مرد ذلك، أغلب الظن، إلى الحرمانات السابقة، و الضنك الأقصى، و كتمة الهواء التى لا تطاق و الضيق فى الباخرة، و لربما أيضا إلى التموج القوى جدّا الذى رافق هذه المرحلة.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۸۴

فى السويس أخذت الباخرة طبيبين صحيين و أوصلتهما إلى بور سعيد؛ و رافقتها فى القناة سفية خافرة لتحاشى فرار الركاب، الأمر الذى يصعب حدوثه فعلا.

المحجر الصحى فى بيروت

فى بيروت تتوقف الباخرة فى مكلأ مفتوح؛ و النزول صعب جدّا إذا هبت ريح شديدة نوعا ما. و لنقل الركاب، يأتى أصحاب زوارق من المرفأ و يقومون بهذه العملية على زوارقهم الصغيرة جدّا.

يقع المحجر الصحى فى بيروت فى محلة جميلة، بين البساتين، على ساحل البحر بالذات، على بعد زهاء فرستا اثنين إلى الشمال من المدينة؛ و عن حق و صواب يعتبر الحجاج إقامتهم فى هذا المحجر استراحة مستطابة. و عند دخول المحجر يجرى التعقيم هنا أيضا و لكن بصورة سطحية جدّا، و بصورة خفيفة بالنسبة للجميع. يوزعون الحجاج فى تخشيبات مريحة جدّا و رحبة و جزئيّا فى خيام منصوبة فى ظلال الأشجار. الماء جيد جدّا و موجود فى كل مكان. النسيم الذى يهب من البحر بارد نسبيّا و مستطاب على الدوام. أما المزية الرئيسية لمحجر بيروت الصحى، فهى الدكانة الواسعة المزودة بجميع السلع و المآكل الضرورية، و التى كل شىء فيها رخيص نسبيّا و من نوعية جيدة. و هنا اشترى الحجاج للمرة الأولى لحم الضأن الجيد («كما عندنا فى روسيا»، قال حجاجنا)، و وجدا شتى الخضراوات، و اكلوا الفواكه للمرة الأولى، و شربوا الحليب الممتاز، و رأوا الجليد. و لم يستطع قزغيزيونا إلا أن يشربوا حتى التخمة من اللبن البارد. و هنا انتعش الجميع، و مرحوا، و تحسنت صحتهم.

و للمحجر الصحى فى بيروت مزية كبيرة أخرى؛ فأن المرء لا يشعر

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۸۵

بيروت- ساحة البرج/ تصوير بونفيس سنة ۱۸۸۲

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۸۶

بانه محبوس، معزول، و لا يرى أى حرس، و أى خفر، و المجال إلى البحر مفتوح؛ و بفضل ذلك يتنعم الجميع بالاستحمام الرائع فى مياه البحر.

حوش المحجر الصحى نظيف كفاية؛ بيوت الخلاء المبنية فى أماكن مختلفة على شاطئ البحر ينظفونها و يعقمونها بعناية؛ و جميع الدروب و التخشيبات التى يسكن فيها الحجاج تنار ليلا؛ و لكن المرء يشعر هنا بالاهمال الكبير فيما يتعلق بالنظام الداخلى و المراقبة. المحجر الصحى يشرف عليه طبيب خاص يعيش فيه على الدوام. نفقات المحجر الصحى يغطيها رسم عن كل حاج قدره ۵، ۳۷ قرشا؛ و لكن فى هذه السنة على الأقل لم يدفع إلا من كان ضميرهم لا يطاوعهم فى الامتناع عن الدفع، لأنه لم يكن ثمة أية رقابة أو أى مطالبة بالوصل عند الخروج.

بين ركاب باخرتنا، لم تحدث فى بيروت أية وفاة؛ كذلك لم تحدث اية إصابات باية أمراض. و عند الرحيل قال الحجاج: من الأفضل لو أن الحجر الصحى كان فى بيروت فقط، عوضا عن الطور؛ و قالوا أنهم يوافقون على البقاء فى محجر بيروت و لو بضعة أشهر.

عند إنقضاء الأيام الخمسة، سمحوا للحجاج الذين أخذوا التذاكر حتى بيروت بالخروج من المحجر إلى المدينة، أما المسافرون إلى القسطنطينية فقد نقلوهم إلى الباخرة. و فى حال التموج، يجرى ركوب الباخرة فى مكلأ مغلق.

زيارة القدس و دمشق و القاهرة

يبقى بعض من حجاجنا فى بيروت لكى يمضوا من هنا إلى القدس و إلى دمشق حيث مدفن يحيى (يوحنا)، و يزورون كذلك القاهرة حيث مدفن رأس حفيد النبى محمد (صلى اللّه عليه و سلم)، الحسين و حيث مدفن أحد الأئمة

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۸۷

السنيين الأربعة، الشافعى، و لكن هذه الرحلات تتحقق على الأغلب قبل السفر إلى الجزيرة العربية، لأن الحجاج بعد إنتهاء الحج يشتاقون بشدة إلى الوطن.

عودة الحجاج إلى روسيا

فى طريق العودة يصل حجاجنا إلى القسطنطينية؛ و هى النقطة الأخيرة التى يمكن شراء التذاكر للسفر إليها، و هى كذلك مكان لأجل وقفة قد تطول أو تقصر. و إذا كان الحجاج العائدون من الحجاز لا يملكون الوثائق التى تتيح لهم حرية الدخول إلى روسيا، فإنهم يأخذون أمتعتهم من السماسرة و يحاولون أن يصنفوها بحيث يكون من الأسهل تمريرها عبر الحدود؛ مثلا، يسكبون قسما من ماء زمزم فى زجاجات، و يتركون القسم الآخر لأجل الارسال فيما بعد إذا سنحت الفرصة و يستعلمون عن أسهل السبل للعودة، و ما إلى ذلك.

و قد عرفت عن حجاج سنة ۱۸۹۸ أن أكثرهم يسرا عادوا إلى روسيا بالسكة الحديدية، عبر فيينا و فرصوفيا، أما الآخرون فقد انتظروا طويلا فى القسطنطينية، و استأجروا بواخر خاصة نقلتهم إلى فيودوسيا.

و الحجاج العائدون يستقبلهم أقاربهم و معارفهم بمهابة و احتفال كما فى حال توديعهم، و يكونون فى الأونة الأولى موضع انتباه و تقدير خاص فى أوساطهم. و يتوافد جميع الأقارب المقيمين فى المنطقة المعنية لرؤيتهم؛ المطلوب من الحاج الجديد الحديث بالتفصيل عما رآه و سمعه أثناء هذه الرحلة الطويلة.

تأثير الحج فى مسلمينا

أى تأثير يمارسه الحج فى مسلمينا؟

بقدر ما استطعت أن اراقب فى موطنى و أثناء المأمورية الأخيرة،

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۸۸

ينقسم حجاجنا إلى قسمين، القسم الأول يتألف عادة من الشيوخ، و هم أناس ذوو ثقافة ضعيفة جدّا، ينظرون بلا مبالاة و بلا مشاركة إلى كل ما يحيط بهم، و لا يبتغون غير الهدف النهائى من السفرة، و ينفذون على العمياء شعائر الحج بما فيها أقل التفاصيل؛ و هم يرون حتى فى عمليات النهب و السلب التى يقوم بها البدو سرا يستحيل فهمه و مكيدة من الشيطان للحيلولة دون إداء الشعائر المقدسة، و يعتبرون جميع التدابير الصحية أمرا غير ضرورى إطلاقا، لأنه لا ملاذ على كل حال من القضاء و القدر، و ما إلى ذلك. و إذا سألهم أحد بعد العودة من الحج عما رأوه أثناء الرحلة، فليس بمقدورهم أن يفيدوا شيئا غير بعض الحكايات و الخرافات التى سمعوها فى الطريق عن مختلف المعجزات. و بعد العودة إلى البيت، يتحلون ببالغ التصوّف و التقوى، هذا إذا لم يكونوا كذلك من قبل، و غالبا ما يكرسون بقية العمر للصلاة بوجه الحصر، و يتجنبون الشؤون و الهموم الدنيوية.

أما الآخرون، و عددهم يتزايد سنة بعد سنة، فهم أناس أكثر تطورا، و ذوو اهتمامات متنوعة، و يحللون و يفكرون، و لهم معيار معين. و منذ أولياالخطوات بالذات بعد الخروج من روسيا، ينفسح أمامهم مجال غنى و شيق لأجل المراقبة و المقارنة. فى البدء تتملكهم خيبة أمل مرة فى عاصمة الخلافة- أى فى القسطنطينية التى يعتبرها مسلمونا ضربا من العجائب. فإن الشوارع الضيقة و القذرة، و البيوت

الرديئة، و انعدام النظام، كل هذا يحمل على المقارنة عن غير قصد مع اوديسا المجاورة التى ينطلق منها حجاجنا فى أغلب الأحوال. ثم يتعرف حجاجنا على عمليات استحصال جوازات السفر و على النظم التركية و على الرشوة السائدة فى كل مكان، و يغادرون القسطنطينية بتصور مغاير تماما. و بعد ذلك يتسنى لهم أن يسمعوا و يروا حقارة البواخر التركية التى غالبا ما تحدث لها أحداث غريبة، كنفاد احتياطى الفحم فى وسط البحر، أو

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۸۹

التوقف أسابيع عند مدخل قناة السويس بسبب عدم دفع النقود المتوجبة عن المرور، و رفض تقديم الفحم لها فى المرافئ، و الخ .. و فى الحجاز ينذهلون لكون البدو، أبناء موطن النبى، ينهبون فى قلب الإسلام اخوانهم فى الدين القادمين ببالغ الصعوبة لاداء الشعائر المقدسة التى ينص عليها دينهم الحنيف؛ و تذهلهم كذلك جرأة عمليات النهب هذه و وقاحتها و غياب كل عقاب عليها و وقوعها فى وضح النهار و بحضور الجنود الاتراك؛ و يدهشون لما تبديه السلطات من لا مبالاة تامة و من انعدام كل تعاطف و اهتمام بمصائر الحجاج. و يعجبون بالغ العجب حين يرون من جانب سكان الحجاز الأصليين الذين اعتادوا فى الوطن اعتبارهم قديسين أو يكاد، موقفا طائشا من إداء شعائر الدين الأساسية و هيمنة المصالح النقدية بنظرهم على جميع المصالح و الاهتمامات الأخرى. و يبدو لهم من الغريب جدّا انعدام النظام و النظافة فى «أم القرى» و فى «مدينة النبى» بالذات، و لا يطيب لهم البتة غياب السكون و الإجلال فى المساجد بالذات، و قرب الكعبة المقدسة، و عند قبر النبى (صلى اللّه عليه و سلم)؛ و يتسنى لهم أن يسمعوا عن ارتشاء الشريف، و عن استئثاره بالاعلانات المالية المقررة لبعض قبائل البدو؛ و من جراء ذلك يضطر الحجاج التعساء إلى الدفع من جيوبهم و صحتهم.

لا- يجوز و لا يمكن أن ننكر أن الحج يساهم فى رفع الشعور الدينى نوعا ما؛ فإن قسما من الحجاج من الفئة الثانية يغيرون حياتهم الروحية كثيرا بعد عودتهم إلى الوطن، و يحاولون التقيد بقواعد الدين بمزيد من الدقة، و يؤمنون أنهم قد تخلصوا من الخطايا السابقة، و يحادلون عدم تفويت مواعيد الصلاة و الصيام فى السمتقبل، و تجنب الأشياء الممنوعة، كالخمر مثلا؛ و البعض يحرم نفسه حتى المتع البريئة كالمسرح أو السيرك. و لكن يمكن القول قطعا على العموم أن حجاجنا جميعهم تقريبا يعودون إلى الوطن بنظرات تغيرت كثيرا، و أكثر نضوجا و تبصرا،

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۹۰

و بموقف أوعى من وضع الأمور السياسى؛ فإن تلك الصبغة التى كانوا يتصورون بها من قبل تركيا الإسلامية و رأسها الخليفة تزول تماما.

تبدو الإشارة إلى أن أغلبية حجاجنا يتصرفون بعد العودة ببالغ التمالك بين أبناء شعبهم فيما يتعلق بانتقاد ما رأوه لاعتبارهم انه من غير اللائق التنديد بالبلدان الإسلامية و الأماكن المقدسة، و لعدم رغبتهم فى إثارة شتى الملامات؛ و إذا ما تحدثوا، ففى وسط الناس القريبين منهم فقط.

لقد اثارت اهتمامى بنحو خاص مسألة ما إذا كان للحج فى الظرف الراهن شأن سياسى ما من حيث تقارب المسلمين من مختلف القوميات؛ و لكن الحج فى مكة، باقتناعى الصادق، و على الأقل فى الظرف الراهن و نظرا لوضع الشعوب الإسلامية الحالى لا يؤدى إلى تقارب، بل أن فكرة مثل هذا التقارب نفسها لا- وجود لها. و فضلا عن الماليزيين و عن سكان الهند الغريبين تماما عن سائر الحجاج من حيث اللغة و من حيث الأصل، و عن سكان إيران المنعزلين بالخلاف الدينى، ينعزل الحجاج من جميع القوميات الأخرى بعضهم عن بعض بكل شدة، و يعاملون بعضهم بعضا.

إن أوضاع الحج نفسها، أى الفريضة ذات الطابع الدينى الصرف، و القصيرة جدّا و المتسرعة جدّا، و الحافلة بالهرج و المرج، و الادراك العام لوجود الخطر مثل نشوب وباء للتو- كل هذا لا يساعد فى ظهور هذه الفكرة و لا يدفع إلى القيام بالمظاهرات السياسية. و عند الجميع فكرة واحدة فقط- انجاز الشعائر بأسرع وقت، و التفوق بأسرع وقت.

إن التجمع فى مكـة لا يزال يحتفظ بالنسـبة لسـكان الحجاز وحـدهم دون غيرهم ببعض الأهميـة السياسـية الداخلية إلى جانب الأهمية الدينية و التجارية؛ فهنا يجرى التصالح بين مختلف القبائل المتعادية، و يدفعون الفدية عن الدم، و الخ ...

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۹۱

تأثير حجاجنا فى سكان الحجاز

تملكتنى دهشـة مسـتطابة جـدّا لكون وطننا العزيز يتمتع بجاذبيـة خاصـة أيضا بين سـكان الحجاز البعيد. فهناك كذلك يتحدثون عن جبروت القيصر الروسى و عن النظام فى روسيا، و الأهم، عن العدالة فى روسيا.

و غالبا ما تسـنى لى أن البى فضول السـكان المحليين الـذين يهتمون بالغ الاهتمام بالمعلومات عن عظمـة الامبراطوريـة الروسـية و عن مدنها، و عن عدد سـكانها و ما إلى ذلك. بأى سبيل أمكن أن تنتشـر شـهرة روسـيا و تصل حتى إلى هذا البلد البعيد؟ لا يمكن تفسير هـذا الواقع إلاـ بأحاديث حجاجنا الدائمـة المفعمـة إعجابا و اعتزازا بالوطن، و بنقلهم شـهرة روسـيا إلى الحجاز و أن بصورة غير واعية أحيانا. فإن مسلمينا، إذ يصلون إلى ربوع الجزيرة العربية الشحيحة و القائظة، الخالية من أبسط أسباب الرفاه و من أبسط المرافق، و التى تتبدى فيها ببالغ السـطوع افضليات الوطن البعيد فى جميع الميادين يتحولون فجأة إلى مواطنين فى منتهى الحماسة و يتغنون و يشيدون فى كل مناسبة بطبيعة روسيا و ثرواتها و نظمها و يرفعونها إلى السحب. و جميع النظم و الأوضاع فى الحجاز تستثير فى الحال المقارنة. «روسيا لن تجيز النهب فى أراضيها»، «القرى هناك تتمتع بنظام أكبر و بقدر من المرافق و أسباب الرفاه أكثر مما تتمتع بها المدن هنا»، «فى الطرق التى يمر بهـا عشـرات الآلاـف من الحجـاج، كانت امتـدت السـكك الحديديـة من زمان»، «المجرمون عنـدنا فى روسـيا لا يتخلصون من العقاب مهما دفعوا من النقود». و طبيعة الحجاز الشـحيحة التى لا تنتج أى شـىء تقريبا تعطى حجاجنا موضوعا لاحاديث لاـ عـد لهـا عن ثروات بلادنـا، عن وفرة و رخص المأكولاـت فيهـا، الأمر الـذى يسـتمع إليه بانتباه خاص البـدو شـبه الجياع. و إذا قال حجاجنا «كما عندنا فى روسـيا»، اعتبر قولهم هذا من فائق المديح. و تأثير روسيا هذا أصبح، على ما يبدو، ملحوظا فى الآونة الأخيرة. و يستفاد من الافيد فى السنوات

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۹۲

الأخيرة فقط أن يقول الحاج عن نفسه انه من رعايا روسيا، لأن هذا الإنتماء يوحى بقدر أكبر من الاحترام.

تأثير سائر الأمم الأوروبية

على نقيض روسـيا، لا يعطف سـكان الحجاز كثيرا على إنجلترا؛ فإن الإنجليز يشـتهرون هنا بأنهم أمة من الصحيح أنها متفننة و بارعة و لكنها غدارة و قاسـية. و فى جميع الأحاديث و القصص و الحكايات التى يعيش بها شعب الحجاز، يعود إلى الإنجليز دور الناس الأوفر دهـاء و مكرا، دور من لاـ يبتغـون سـوى نفعهم. و يعتـبر أهـل الحجـاز بصـورة قاطعـة و مبرمـة أن الإـنجليز أيضـا مسؤولون عن جميع الاضطرابات و الفتن. الحركة فى السودان، الإنتفاضة فى اليمن، هجوم إيطاليا على الحبشة، كل هذا، برأيهم، هو من صنع إنجلترا. و فى شهر كانون الأول (ديسـمبر) ۱۸۹۸ تقابلت صدفة فى القاهرة مع بضـعة أشـخاص من سـكان مكة النافذين، العائدين من القسـطنطينية، إلى حيث مضوا لشـراء البضائع. حكيت لهم عن الأحداث التى وقعت فى شهر أيار (مايو) عندنا فى انديجان، و رغبة فى معرفة ما يقال عنها فى القسـطنطينية سألت- من أين أمكن أن ظهرت عنـد السـرت مثل هـذه الفكرة الطائشة؛ فقرر سـكان مكة الإجلاء فى الحال أن هـذه بلاـ ريب من مكائـد الإـنجليز. من الصـعب أن أقول من أين ينتقـل إلى الحجاز هـذا النفور من الإنجليز- أغلب الظن، من مصـر، حيث، كما اقتنعت، لا يحبونهم كثيرا؛ و لربما من الهند.

عن هولنـدا لاـ يعرفون فى الحجـاز أى شـىء تقريبا، و مرد ذلك، على الأرجـح، إلى أن رعاياها، الماليزيين يعيشون فى عزلـة مفرطـة.

كذلك يتحدثون فى الحجاز قليلا جدّا عن الفرنسيين.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۹۳

الفصل السادس الحجاج من الدول الأخرى

القشغريون

القشغريون و سائر المسلمين من تركستان الصينية يتوافد إلى الحجاز باعداد قليلة جدّا نظرا لبعد البلد و لمصاعب الطريق.

و القشغريون، بقدر ما استطعت أن أعرف ممن سافرت معهم، يقومون بهذه الرحلة فى واحد من الطرق الثلاثة التالية.

۱- الطريق الأغلى و لكن الانسب و الأسهل و الأسرع إنما هو الطريق عبر معبر ترک- داوان إلى أوش و سمرقند و كراسنوفودسک و باكو و باطوم القسطنطينية و إلى أبعد. و إذ تعطيهم السلطات الصينية جوازات السفر تطلب منهم بالأقوال أن يكون لديهم من المال ما يكفى للسفر، الأمر الذى يشار إليه فى الوثائق المعنية. و عند قنصلنا فى قشغر يحصلون على التأشيرات اللازمة؛ و هناک أيضا يقايضون جميع نقودهم بالأوراق النقدية و النقود الذهبية الروسية.

۲- و فى الطريق نفسه يمضون إلى سمرقند و منها ركوبا عبر كابول إلى بيشاوار، ثم بالسكة الحديدية إلى بومباى أو كاراتشى، ثم على البواخر الإنجليزية إلى جدّة.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۹۴

۳- أخيرا، الطريق الثالث، عبر كوندجوت أو باداخشان إلى كابول دون الدخول إلى روسيا.

السفر فى الطريقتين الأخيرين لا- يكلف غاليا جدّا،- زهاء ۱۰۰ روبل فقط- و لكنه محفوف بمصاعب كبيرة و يقتضى الكثير من الوقت؛ إذ أنهم يمضون دائما على احصنتهم؛ و يبيعونها بفائدة بعد الوصول إلى بيشاوار؛ و فى أغلب الأحيان يبيعونها مسبقا فى كابول لأجل الخيالة الافغانية. و يلقى الحجاج فى البلدان التى يجتازونها الاستقبال الطيب و الدعم المادى من جانب السكان المسلمين.

و فى هذه السنة كان عدد القشغريين ۱۸ شخصا فقط. و لكن عدد الحجاج من هذا البلد، كما يقولون، يبلغ المائة فى بعض السنوات.

و فضلا عن القشغريين كان هناک شخصان من تشيغوتشاک، سافرا على الخيل مرحلة فمرحلة حتى مدينة أو مسک و منها بالسكة الحديدية، و ثلاثة أشخاص من شعب الدونغان الذين لا يربو أبدا عدد الحجاج منهم، كما قالوا لى، على ۵- ۶ أشخاص.

الفرس

يمضى سكان إيران إلى الحجاز فى الطرق الرئيسية الأربعة التالية.

۱- اقدم الطرق- عبر بغداد أو البصرة إلى جبل الشمّر و مكة؛ و العودة إلى المدن ذاتها عبر المدينة المنورة. هذا الطريق الصعب و الخالى من الماء لا يزال يستعمله سكان إيران الجنوبية أو سكان الأقاليم الأخرى، الراغبون فى السجود أثناء الطريق أمام المقدسات الشيعية الرئيسية فى كربلاء و النجف.

۲- الطريق الثانى- و هو أيضا طريق تاريخى و كان لا يزال منذ ۵۰- ۶۰ سنة الطريق الوحيد بالنسبة لإيران الشمالية- يمر عبر دمشق؛

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۹۵

حاج من الملايو/ تصوير هيروغرونيه سنة ۱۸۸۸

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۹۶

و على هذا الطريق يمضى المحمل السورى الذى يحظى بحماية مسلحة و يرافقه دائما عدد كبير من الحجاج و التجار. و هذا الطريق،

كما قالوا لى، أخذ ينتعش من جديد فى الآونة الأخيرة بعد تأسيس المحجر الصحى فى الطور و كمران؛ و شرع كثيرون من الحجاج يفضلون السفر شهرا من المدينة المنورة إلى دمشق على البقاء ۱۰- ۱۵ يوما فى أحد المحجرين الصحيين المعنيين.

۳- يسافر قسم من الحجاج من الأقاليم الجنوبية من إيران بحرا عبر البصرة، و بندر بوشير أو بندر عباس إلى جدّة.

۴- أخيرا الطريق الحديث و الأكثر انتعاشا؛ و هو يعبر حدود روسيا؛ فإن سكان خراسان يمضون إلى إحدى محطات سكة حديد ما وراء قزوين؛ و من أقليم استراباد أو من أقليم مازندران، يسافرون إلى باكو و من طهران و اذربيجان يسافرون بسكة حديد ما وراء القفقاس، و فيما بعد يسافرون إلى القسطنطينية عبر باطوم.

صحيح أنهم يصبرون على الشيعيين و يسمحون لهم، على قدم المساواة مع سائر الحجاج، باداء جميع الشعائر التى يقتضيها الحج، و لكن كره السنيين لهم، أى كره جميع الحجاج الباقين يتجلى فى كل حال. أما اساس هذه العداوة، فهو، عدا الأسباب التاريخية، موقف الازدراء من جانب الفرس أنفسهم حيال بعض المقدسات التى يجلّها السنيون؛ فأثناء قيامهم الطواف، مثلا، يشيحون بوجوههم عن الحجر الأسود؛ و أحيانا يثبتون عليهم تدنيس المقدسات بصورة افدح؛ فعند زيارة قبر النبى، يعبرون بجلاء عن احتقارهم للخليفتين المدفونين هناك مع النبى، الأمر الذى لا يندر أن يشبعوهم ضربا بسببه.

و ليس ثمة امة من الأمم تعرب عن مشاعرها الدينية بنفس القدر من الوضوح الذى يعرف به الفرس عنها، و تتميز بنفس القدر من الحمية و الهياج الذى يتميز به الفرس اثناء إداء شعائر الحج؛ فحول الكعبة،

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۹۷

ينحبون بأصوات مدوية، قارعين صدورهم بقبضاتهم، و يبوسون عتبات الحرم، و يلثمون البوابات، و ما إلى ذلك.

يشكل سكان إيران أكثر طبقات الحجاج يسرا؛ و إذا كان على البواخر ركاب فى الدرجة الأولى و الدرجة الثانية، فهم كلهم تقريبا من الفرس؛ كما أن الفرس وحدهم يستعملون أغلى واسطة للتنقل فى الحجاز و هى تختروان؛ و خيرة البيوت فى جدّة و مكة و المدينة المنورة و ينبع يشغلها هؤلاء الحجاج الفرس؛ و البيوت فى منى يستأجرها على الأغلب الفرس وحدهم. و هم يجلبون معهم خياما جيدة، و سجادات؛ و عند كثيرين منهم خدم.

و تجدر الإشارة إلى أن البدو يستحصلون من الشيعيين، لقاء حق المرور، رسما معينا؛ ففى هذه السنة، مثلا، أخذ رجال قبيلة بنى حرب من كل منهم ليرة و نصف ليرة فى الطريق من المدينة المنورة إلى ينبع.

و هذه السنة بلغ عدد الفرس الذين زاروا الحجاز، بمن فيهم النساء و الأطفال الذين يأخذوهم الكثيرون من الفرس معهم زهاء ۸۰۰۰ شخص.

الاتراك

يشكل الأتراك أكبر قسم من الحجاج الذين يتوافدون من الشمال.

أما النقاط الرئيسية التى يركبون فيها البواخر المنطلقة إلى الحجاز، هى القسطنطينية و أزمير، ثم ادنة و مرسين، و كذلك مرافئ صغيرة أخرى على سواحل البحر الأبيض المتوسط التى تدخل إليها البواخر التركية التى تنقل الحجاج. و نادرا ما يسافر الأتراك مع أفراد عائلاتهم؛ و هم يشكلون اهدأ طبقة من الحجاج.

و قد ترسخت عند أهالى الأناضول عادة مفادها أن الذين ينوون

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۹۸

الحج يقضون شهر رمضان كله فى مكة، و لذا يسبقون جميع الحجاج، إذ انهم يتوافدون قبل الموعد المقرر بأكثر من ثلاثة أشهر.

و فى هذه السنة بلغ عدد الترك زهاء ۱۰۰۰۰ شخص.

السوريون

عادة يسافر سكان سوريا و فلسطين عبر طرابلس و بيروت و يافا، و نظرا لقيام المحاجر الصحية شرعوا فى السنوات الأخيرة يفضلون، لأجل طريق العودة، سفرا أصعب و أطول مع المحمل.

و كل سنة يمضى كثيرون من دمشق الشام إلى الحجاز مع هذه القافلة بدافع المصالح التجارية حاملين إلى مكة و المدينة المنورة البضائع الحريرية و الفواكه المجففة على الأغلب، عائدين بالبن اليمنى و التمر.

فى سنة ۱۸۹۸ بلغ عدد الحجاج الشاميين قرابة ۴۵۰۰ شخص بينهم عدد كبير من النساء.

المصريون

يمضى سكان مصر إلى الحجاز بحرا عبر السويس، مستعملين بواخر الشركة الخديوية و يسترون التذاكر ذهابا و إيابا.

فى هذه السنة بلغ عددهم ۵۲۴۵ شخصا (المعطيات الرسمية للمحجر الصحى فى الطور)، ثلثهم أو ربعهم من النساء. فى السنوات المناسبة، كما يقال، يكون عددهم ثلاثة أمثال.

يتميز هؤلاء الحجاج بالفقر المدقع و غياب فئات أوفر ثقافة و اطلاعا بينهم؛ و فى جميع مدن الحجاز يقيمون فى خيام مرتجلة، فى أقذر الأحوال. و هم يقدمون أكبر عدد من الحجاج الذين يستفيدون من الطعام المجانى فى مكة و المدينة المنورة و الطور و أكبر عدد من الركاب المسافرين مجانا فى البواخر.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۲۹۹

حجاج من بورنيو الغربية/ تصوير هيروغرونيه سنة ۱۸۸۸

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۰۰

و لأجل الحد من حج الطبقة المعدمة التى لا تشكل الحج البتة بالنسبة لها واجبا الزاميا و التى ليس الحج بالنسبة لها غير عبء نافل و خطر، طبقت الحكومة المصرية فى سنة ۱۸۹۸ النظام التالى: يتعين على الراغب فى الحصول على جواز سفر للحج أن يعرض تذكرة سفر بالباخرة ذهابا و إيابا، و يقدم كفيلين يؤكدان أن الحاج يملك ما يكفى من المال لإعالة نفسه فى الطريق و فى الحجاز. و لسنة ۱۸۹۹، ظهر مشروع قانون يقضى بأن يقدم المسافرون إلى الحجاز، علاوة على تذاكر السفر بالباخرة، ليرة و نصف ليرة (زهاء ۱۵ روبلا)، منهما نصف ليرة يجب دفعه فى صالح المحجر الصحى، و ليرة يجب صرفها على إعالة الحاج أثناء إقامته فى المحاجر الصحية، و ذلك تحوطا لعد توفر المال لديه.

و إذا توفر عنده المال، يتعين إعادة المبلغ المذكور إليه.

عدا السكان الحضر، يسافر من مصر أيضا البدو الذين يمضى معظمهم كما من قبل فى القوافل عبر السويس و شبه جزيرة سيناء و العقبة، و رابغ حتى مكة و إيابا عبر المدينة المنورة و الوجه. و هذه السنة بلغ عدد هؤلاء الحجاج ۲۰۰۰ شخص.

المغاربة

جميع العرب القاطنين فى القسم الشمالى من افريقيا- طرابلس، تونس، الجزائر، فاس- المغرب- يسمونهم فى الحجاز «بالمغاربة» أى «الغربيين» خلافا لبدو الجزيرة العربية- «الشرقيين».

يأتون بحرا إلى الإسكندرية، و يعرجون على القاهرة، ثم يواصلون السفر بالطريق البحرى العادى عبر السويس، و لكن يوجد بينهم أيضا بعض القبائل التى تفضل السفر برا عبر شبه جزيرة سيناء.

و البدو الافارقة المتعادون مع الشرقيين يحملون معهم، لأجل

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۰۱

الدفاع عن النفس أثناء التنقل فى ربوع الحجاز، و فرة من الأسلحة المماثلة لأسلحة اعدائهم.

فى السنوات الأخيرة شرع سكان الجزائر يسافرون إلى الحجاز باكرا جدّا؛ ففى تشرين الثانى (نوفمبر) و كانون الأول (ديسمبر)، كانت تقع العين فى القاهرة على حجاج جزائريين ذاهبين إلى مكة. و قد فسروا لى السبب بالرغبة فى السفر فى الوقت المناسب تحوطا لمنع قد يصدر فيما بعد عن الحكومة الفرنسية.

فى هذه السنة بلغ عدد الحجاج من طرابلس زهاء ۶۰۰ و من تونس ۲۰۰ و من الجزائر ۲۰۰ و من فاس- المغرب ۳۰۰ شخص.

الافغان

عدد الحجاج من سكان افغانستان يكون عادة قليلا جدّا؛ و فى هذه السنة بلغ عددهم زهاء. ۲۰ طريقهم تمر عبر بيشاور، و عبر كاراتشى أو بومباى، رغم انه يوجد بينهم أفراد يشقون لأنفسهم طريقا عبر القارة متجنبين المحجر الصحى فى كمران.

سكان الهند

فى السنوات السابقة كان سكان الهند يشكلون قسما كبيرا من الحجاج، و لكن عددهم انخفض كثيرا فى الأونة الأخيرة من جراء و باء الطاعون فى بومباى و الحجر الصحى الشديد فى كمران؛ و فى هذه السنة وصلت باخرة واحدة حاملة هؤلاء الحجاج، و قد بلغ عددهم زهاء ألف راكب. و بين سكان الهند يأتى عدد كبير من التجار مع بضائعهم. الطريق الذى ينطلقون عليه إلى الحجاز طريق بحرى، عبر بومباى أو كاراتشى إلى جدّة و لكن فى السنوات الملائمة، كما قالوا لى فى دمشق، كان قسم منهم، أكثر من ۱۰۰۰ شخص، ينزل فى البصرة قصد زيارة مختلف

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۰۲

المقدسات خارج الجزيرة العربية، و من البصرة ينطلق فى طريق دائرى عبر بغداد إلى دمشق، و يزور القدس ثم مصر ثم يسافر إلى الحجاز.

الماليزيون

فى السنوات الأخيرة يشكل سكان جزر السند و شبه جزيرة ماليزيا الذين يسمونهم فى الحجاز «جاوه» العنصر المهيمن بين الحجاج.

و جميعهم يصلون بالطريق البحرى فقط عبر جدّة.

يشكل الحجاج الماليزيون مجموعات منعزلة تماما، متراصة بوثوق، على رأسها آمرون منتخبون. و هؤلاء الامرون يشرفون على كل اقتصاد مجموعاتهم: يشترون تذاكر السفر، يتزودون بالمؤونة على الباخرة أثناء السفر، يستأجرون الجمال، يجدون الغرف للاستئجار، و ما إلى ذلك، و هم يمضون بقافلتهم من مكة إلى المدينة المنورة، و يعودون منها على الجمال ذاتها. و غياب النساء و المعدمين بين هؤلاء الحجاج يستلفت النظر.

فى هذه السنة بلغ عدد الماليزيين ۱۵۰۰۰ شخص، أما فى السنوات الملائمة، فإن عددهم، كما يقال، يبلغ الضعف.

سكان الساحل الشرقى من افريقيا

من زنجبار و مدغشقر و الترانسفال، يكون عدد الحجاج صغيرا جدّا، و نظرا لعدم وجود اتصال مباشر بالبواخر مع جدّة، يمضى هؤلاء

الحجاج أولا إلى السويس و منها يسافرون إلى جدّة.

سكان الجزيرة العربية

الجزيرة العربية ذاتها تعطى هى أيضا عددا كبيرا من الحجاج، ناهيك عن سكان مكة و المدينة المنورة و الضواحى القريبة، الذين

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۰۳

يشتركون بنحو أو آخر فى أداء الشعائر. و قبيل الحج وصلت هذه السنة ثلاث قوافل كبيرة من اليمن (زهاء ۴۰۰۰ شخص)، و قافلة من عدن (۲۰۰ شخص) و قافلة من عمان (زهاء ۳۰۰ شخص) و بضعة ركب و قافلة من نجد و [.....] (حوالى ۴۰۰۰ شخص.

الحاصل و هكذا يبلغ عدد الحجاج فى سنة ۱۸۹۸:

من روسيا

القرغيز/ ۲۵۰/ شخصا

التتر/ ۱۰۰/ شخص

سكان ما وراء القفقاس/ ۱۰۰/ شخص

من تركستان الصينية/ ۲۰/ شخصا

الفرس/ ۸۰۰۰/ شخص

الأتراك/ ۱۰۰۰۰/ شخص

السوريون/ ۴۵۰۰/ شخص

المصريون/ ۵۲۴۵/ شخص

البدو المصريون/ ۱۵۰۰/ شخص

سكان

طرابلس/ ۶۰۰/ شخص

تونس/ ۲۰۰/ شخص

الجزائر/ ۲۰۰/ شخص

فاس- المغرب/ ۳۰۰/ شخص

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۰۴

الهند/ ۱۰۰۰/ شخص

الساحل الشرقى من افريقيا/ ۲۰/ شخصا

سكان مكة و الضواحى زهاء/ ۴۰۰۰۰/ شخص

سكان الجزيرة العربية

المدينة المنورة/ ۳۵۰۰/ شخص

اليمن/ ۴۰۰۰/ شخص

عمان/ ۳۰۰/ شخص

عدن/ ۲۰۰/ شخص

نجد و غيرها/ ۴۰۰۰/ شخص

الأفغان/ ۲۰/ شخصا

الماليزيون/ ۱۵۰۰۰/ شخص

حوالى/ ۱۰۰۰۰۰/ شخص

و إذا صدقنا الأقاصيص لا يقل عدد الحجاج فى السنوات الملائمة عن ۲۰۰۰۰۰ شخص، كما يبلغ عدد الحجاج فى الحج الكبير ۵۰۰۰۰۰ شخص.

أما قلة عدد الحجاج فى سنة ۱۸۹۸ فمردها، عدا إجراءات الحجر الصحى، إلى غياب العلف فى المراعى لأجل الجمال، الأمر الذى خفض كثيرا عدد الحجاج القادمين مع القوافل.

تجدر الإشارة إلى أن تقدير عدد الحجاج، و أن بصورة تقريبية جدّا، صعب و معقد جدّا نظرا لغياب الإحصاءات الرسمية، و نظرا للوقت

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۰۵

القصير الذى يقضونه معا فى مكة و فى عرفات و فى منى، و نظرا للازدحام و الهرج و المرج هناك فى أيام الحج. و الأسلوب الوحيد الذى لجأت إليه إنما هو الاستعلام، بعد إداء الشعائر، من مطوّفى كل قومية، إذ أنهم، يعرفون عدد حجاجهم التقريبى، على الأقل فى السنوات التى لا يكون عددهم كبيرا جدّا. و إحصاءات المحجرين الصحيين فى الطور و كمران لا تبيّن غير عدد العائدين بحرا.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۰۷

الفصل السابع الكوليرا فى الحجاز

اشارة

كان وباء الكوليرا و وباء الطاعون معروفين فى الجزيرة العربية من سحيق الأزمنة. و من بداية العهد الاسلامى حتى أيامنا وصل قول مشهور جدّا ينسب للنبى محمد (صلى اللّه عليه و سلم) يبدو كأنه يقرر الحجر الصحى، إذ قال أنه لا يجوز دخول بلد يتفشى فيه الطاعون و إذا كان المرء فيه فلا ينبغى أن يفر منه. و فى الوقت الحاضر، يستعمل العرب كلمة «الطاعون» لتعريف هذا المرض، و كلمة «الوباء» لتعريف الكوليرا؛ و لكن هذين المرضين أو الوبائين اختلطا من قبل، على ما يبدو، إذ أننا نجد مثلا العبارة التالية:

«قال الخليل: الطاعون هو الوباء»، و ما إلى ذلك.

فى السنوات المائة الأخيرة لم يسمع أحد عن الطاعون فى الحجاز، فتوطد بين السكان الاعتقاد بأن اللّه تقبل صلواته نبيّه و منع هذا المرض إلى الأبد من المساس بالمدينتين المقدستين مكة المكرّمة و المدينة المنورة، و لكن أوبئة الكوليرا تنشب أحيانا كثيرة فى وقت توافد الحجاج إلى الحج و ذلك، بالمتوسط، مرة كل ثلاث سنوات، فتسفر فى بعض السنوات عن نتائج رهيبة إذ تفتك بأكثر من نصف الحجاج و تمتد إلى أماكن ترحل البدو المجاورة و إلى نقاط آهلة أخرى فى الجزيرة العربية.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۰۸

طابع أوبئة الكوليرا المحلية

يستفاد من أقوال جميع من تسنى لى أن أتحادث معهم أن هذا الوباء يبدأ أحيانا عند عرفات، و لكن بشكل ضعيف، و لذا لا يسترعى الانتباه، و لكنه ينشب فى أغلب الأحيان فى منى و يبلغ هنا قوته القصوى. و قالوا لى أنه إذا سارت جميع الأموال على ما يرام عند الانطلاق إلى عرفات و حتى مساء اليوم الأول من الاقامة فى منى، فمن الممكن الأمل فى أن الوباء لن ينشب هذه السنة. و يتبين من

الآراء العامة أن هذا الوباء يتميز هنا بطابع الانفجار الرهيب و يتواصل بشدة مخيفة طوال ۵- ۷ أيام ثم يهدأ كذلك بسرعة. و بقدر ما استطعت أن أعرف من الأحاديث مع السكان و الأطباء المحليين، لا يوجد وباء الكوليرا فى الحجاز بصورة مرض دائم؛ و فى أغلبية الأحوال يلاحظ أن الحجاج من الهند يجلبونه معهم؛ و أحيانا ينشب بصورة مستقلة تماما، على ما يبدو، فى منى أو عند عرفات، أو لربمان، حتى فى مكة؛ و إذا كان فى مكة لا يسفر عن نسبة كبيرة جدّا من الوفيات، فإن مراقبته أصعب هناك مما عند عرفات أو فى منى حيث كل شىء ظاهر للعيان نظرا لتجمع الحجاج فى الخيام.

نشبت أرهب الأوبئة من حيث قوتها فى السنوات التى كان يقع فيها الحج الكبير، الذى يجتذب، كما سبق أن قلنا، عددا كبيرا جدّا من الحجاج، و فى السنوات التى يجرى فيها الحج فى فصل القيظ. كذلك سمعت من عدد كبير جدّا من الناس أن وباء الكوليرا ينشب عادة فى السنوات التى تكون فيها الجبال التى تحيط بفج منى مكسوة بالعتمة؛ و بقدر من تكون العتمة كثيفة، بقدر ما يكون الوباء قويا. و هذه الظاهرة تنجم، أغلب الظن، عن حالة الجو الخاصة و عن غياب التيارات فى الهواء: و على هذه الأساس تنبأوا عند وصولنا إلى منى بأن الحج سيجرى هذه السنة بسلامة؛ الأمر الذى تحقق فعلا.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۰۹

الأوبئة المعروفة فى القرن الحالى

أشهر أوبئة الكوليرا فى القرن الحكالى هو الوباء الذى نشب سنة ۱۸۳۱ و الذى جاء إلى الحجاز من الهند؛ و آنذاك، كما يقال، مات ثلاثة أرباع جميع الحجاج و انتشر الوباء فى عموم أوربا. و الوباء التالى نشب فى سنة ۱۸۳۴، ثم فى سنة ۱۸۳۷ و سنة ۱۸۴۰؛ ثم عاث الكوليرا فسادا طوال خمس سنوات على التوالى- فى سنوات ۱۸۴۶، ۱۸۴۷، ۱۸۴۸، ۱۸۴۹، ۱۸۵۰.

و لكن وباء سنة ۱۸۶۵ تميز بشدة خاصة؛ و قد بدأ من الحجاج القادمين من الهند و دام فى السنة التالية، ۱۸۶۶.

إليكم ما رواه لى شيخ شاهد هذا الوباء الرهيب بأم عينيه: «كان الحج الكبير (يوم الجمعة، ۵ نيسان- أبريل)، و قد توافد عدد خارق من الحجاج. الاقامة عند عرفات، كما بدا، جرت بسلامة؛ انتقلوا إلى منى، و هنا أيضا كان اليوم الأول هادئا. صحيح أن حجاجا ماتوا، و لكن عدد الموتى كان قليلا. و آنذاك لم تكن قد ظهرت القاعدة القاضية بطمر الخرفان المذبوحة على سبيل التضحية. كان كل حاج يذبح و يرمى قرب خيمته؛ و قرب الخيمة أيضا كانوا يرمون بقايا الأغنام المذبوحة لأجل الأكل. قبيل مساء اليوم الأول، انتشرت من تعفن جيف الأغنام رائحة كريهة إلى حد أنه كان من المستحيل التنفس. فى المساء ازداد فى الحال عدد الموتى المنقولة جثثهم للدفن؛ و فى الخيام المجاورة لنا وقعت أيضا حالات مرض و موت، و لكن لم يخطر بعد فى بالنا أن هذا وباء. فى اليوم التالى، ازداد عدد الموتى إلى حد أنه لم يكن يتسنى دفنهم؛ و قبيل مساء ذلك اليوم، ازداد عدد الموتى إلى حد أنه لم يكن يتسنى دفنهم؛ و قبيل مساء ذلك اليوم، كان شارع منى مكسوا بجثث الحجاج الذين ماتوا أثناء أداء شعيرة رمى الأحجار؛ و لأداء هذه الشعير كان يتعين السير على الجثث حقا و فعلا. من أصل ثمانية أشخاص كانوا فى خيمتنا، بقى اثنان

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۱۰

فقط قيد الحياة. بقى الحجاج فى منى بحكم العادة ثلاثة أيام؛ و عندما وصلوا فيما بعد إلى مكة، كان الوباء هناك أيضا على أشده. قمنا ببالغ السرعة بالطواف و السعى، و انطلقنا فى الطريق إلى جدة، و كانت الطريق مزروعة بجثث الحجاج الموتى؛ و فى جدة كان المرض قد سبقنا إليها.

رحنا بالباخرة المنطلقة إلى السويس. آنذاك لم تكن المحاجر الصحية قائمة؛ و الباخرة التى كانت تكتظ بالركاب فرغت كثيرا فى آخر الرحلة.

فى السويس لم يسمحوا لنا بالنزول إلى المدينة بل اركبونا فى القطار و أرسلونا إلى الاسكندرية؛ و هنا نقلونا بالطريقة نفسها إلى

باخرة راسية فى المكلأ. و أثناء مواصلة السفر، ظلوا يرمون فى البحر كل يوم بضع عشرات من الموتى؛ و لكن المرض، على ما يبدو، أخذ يضعف، و حدثت حالات نقاهة و شفاء. بعد زهاء ١٠ أيام من وصولنا إلى القسطنطينية بدأ الوباء فى هذه المدينة أيضا».

إن وباء الكوليرا الذى نشب سنة ١٨٦٥ و عمّ فيما بعد أوروبا بأسرها لفت الانتباه أخيرا إلى الحجاز؛ و فى ١٣ شباك (فبراير) ١٨٦٦ انعقد فى القسطنطينية مؤتمر قرر فيما قرر وجوب طمر جيف الخرفان المذبوحة فى منى فى حفر.

و بين الأوبئة التى نشبت فيما بعد، تميز وباء سنة ١٨٨٣، بنسبة خارقة العلو من لاوفيات، و ذلك حين وقع الحج يوم الجمعة أيضا (١٢ تشرين الأول- أكتوبر).

جميع التواريخ المذكورة ألاه تحققت من صحتها فى القاهرة بموجب المصادر الرسمية؛ أما الاشارات اللاحقة إلى السنوات، فإنها لا ترتكز إلى على أحاديث أشخاص مختلفين، متناقضة أحيانا كثيرة، رغم أن الماضى غير بعيد جدّا. و لكن سكان الحجاز يرون هذه البلايا مرارا و تكرارا إلى حد أنهم لا يتذكرون منها غير الرهيبة و الجائحة. و حسب

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ٣١١

هذه المصادر، نشبت أوبئة غير شديدة جدّا فى سنوات ١٨٨٤، ١٨٨٨، ١٨٩٠، ١٨٩١، ١٨٩٢.

و أخيرا وباء الكوليرا الأخير الذى تسبب هو أيضا بكثرة كثيرة من الضحايا وقع سنة ١٨٩٣ (الحج الكبير. يوم الجمعة. ٢٣ حزيران- يونيو). و يستفاد من أقوال شهود العيان أن هذا الوباء، مثله مثل وباء سنة ١٨٦٥، قد بدأ بصورة غير ملحوظة عند عرفات، و تفجر فى منى نحو مساء اليوم الأول من إقامة الحجاج هناك، و انتقل بسرعة إلى مكة و جدة، و لكن، بفضل المحاجر الصحية، لم يتجاوز حدود الحجاز.

فى سنة ١٨٩٥ نشب أيضا وباء ما يشبه، حسب الأوصاف، حمى التيفوئيد أو الزحار (الدوسنطاريا)؛ بدأ هذا الوباء فى قالة انطلقت من المدينة المنورة إلى مكة، و استمر بدرجة ضعيفة عند عرفات، و لكنه لم ينتشر فيما بعد، و انتهى فى منى، كما يفترضون. و من هذا الوباء الأخير عانى قرغيزيونا أشد من غيرهم. فمن أصل ٦٠ قرغيزيا جاؤوا فى تلك السنة من كوستاناى عاد ١٨ فقط، كما يقول شاهد عيان.

و غالبا جدّا ما تسنى لى أن أسمع من السكان المحليين أن القرغيز يصابون فى الحجاز بالكوليرا حتى حين لا وجود لأى أثر لهذا المرض فى هذا البلد، و يموت منه فى منى و عند عرفات عدد كبير منهم. و لذا إذا عاد إلى الوطن عشر الحجاج القرغيز، ترتب اعتبار هذا ظاهرة طيبة. أغلب الظن أنه يوجد أيضا مرض ما ترافقه آلام فى المعدة و يصيب أقل مواطنينا من الرحل تمالكا و احتراسا فى الأكل، السمان و غير المعتادين للمناخ المحلى. و فى السنة الجارية، الملائمة خارق الملاءمة، كما يستفاد من أقوال الجميع، تجاوزت نسبة الذين ماتوا فى الحجاز من القرغيز، بقدر ما استطعت أن احسب، ١٢ بالمئة، و من سائر حجاجنا زهاء ٨ بالمئة؛ و تميز المرض بالآلام المتواصلة فى المعدة المرفقة بدرجة عالية جدّا من الحرارة و بالهذيان.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ٣١٢

الأسباب التى تساهم فى نشوب و اشتداد الأوبئة فى الحجاز

الحجاج الذين يتوافدون من أقطار بعيدة يشكلون بيئة مستعدة تماما لتقبل شتى الأمراض- فإن السفر المضنى و الطويل، و الأزدحام الخارق و كتمة الهواء الفائقة فى البواخر، و المآكل السيئة و غير الصالحة، و المناخ الحار الرطب، و اللباس غير المألوف، المفرط الخفة (ثوب الإحرام)، كل هذا ينهك الجسم و يضعفه إلى أقصى حد. و منذ الخطوات الأولى بالذات، يصل الحجاج إلى جدّة أو إلى ينبع اللتين تتميزان بمناخ و خيم جدّا و بظروف صحية خارقة الرداءة؛ و فى هذا الوضع، يبقون، بانتظار إنطلاق القافلة، فى جدّة يوما أو يومين، و فى ينبع أسابيع أحيانا.

ثم السفر المضنى من جدّة إلى مكة أو السفر من ينبع عبر المدينة المنورة إلى مكة، و هو سفر اشد إرهاقا. إن الظروف الصحية غير المرضية فى مكة، و شرب الماء من بئر زمزم بصورة فائقة الحد، ثم الوضع الصحى الردىء بشكل لا يصدق عند عرفات، و بخاصة فى منى، و الطعام اللحمى الوفير لمناسبة العيد، و سوء نوعية المشروبات المباعة فى البازار، و الانقضاض على البطيخ و الشمام و غيرهما من الثمار- كل هذا يجعل الحجاج أناسا شبه مرضى و ذوى عضوية مستعدة لتقبل أى مرض كان.

إن اقدس المدن فى الحجاز- المدينة المنورة، و بخاصة مكة المكرّمة، حيث يقيم الحجاج أطول ما يقيمون، ليستا على الصعيد الصحى فى الأوقات العادية اقذر من مدن الشرق الأخرى كالأحياء القديمة فى دمشق أو القاهرة مثلا، و لكن تجمع عدد ضخم جدّا من الناس و المواشى، و ضيق موقعى هاتين المدينتين- مكة و المدينة المنورة- و المناخ الحار، كل هذا يخلق بيئة ملائمة جدّا لنشوب شتى الأوبئة.

من جراء التلوث الشديد، يمكن أن يشكل عرفات بؤرة من بؤر

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۱۳

العدوى، و لكن الشر الأكبر بالطبع يمكن فى منى، بسبب درجة الحرارة العالية جدّا، و غياب الريح، و مئات الآلاف من الجيف المتفسخة و المتعفنة التى تلوث الهواء، و تلوث الماء بالتأكيد.

عدا الأسباب الواضحة جدّا لآلام اختلال أجهزة الهضم مثل اللحم الردىء، و الماء غير المغلى، و البطيخ و الشمام، يوجد عدد كبير من الأسباب الأخرى. يقول البعض أن الخرفان الجائعة المساقة إلى مكة من أماكن بعيدة تأكل أوراق السنا المكى (الورق الاسكندرى) الذى ينبت بوفر فى ضواحى مكة، و يفترضون أن الخواص المسهلة الملازمة لهذه النبتة تنتقل مع اللحم إلى الإنسان. لا أعرف مبلغ صحة هذه الفرضية، و لكن الأغنام تأكل فعلا أوراق هذه النبتة.

إن الطبيب المصرى صالح صبحى الذى زار الحجاز بتكليف من حكومته فى سنة ۱۸۹۱ و سنة ۱۸۹۴ يرى سبب الأوبئة فى منى. و أطباء مكة الذين تسنى لى أن أتحادث معهم فى هذا الصدد، و كذلك سكان مكة الأكثر ثقافة و إطلاعا، يعتبرون هم أيضا أن الوباء عاقبة لتلوث الهواء من جيف الأغنام المتفسخة و المتعفنة فى منى. أما سواد السكان و الحجاج، فهم يرون فى الكوليرا عقابا من اللّه و حسب.

ماذا تمّ فعله حتى الآن للتجهيز بالمرافق الصحية

۱- منذ سنة ۱۸۶۶ بدأ تطبيق قاعدة تفرض على الحجاج تقديم أضاحيهم فى الأمكنة المعينة وحدها دون غيرها و طمر الجيف فيما بعد فى حفر مهيبة سلفا. و لكن هذا التدابير، و أن كان يبلغ هدفه من حيث الأساس، لم يوضع البتة تقريبا موضع التنفيذ؛ صحيح أن الحفر قد حفرت، و لكن الحجاج كانوا يستغلون غياب المراقبة و يفضلون الذبح قرب خيامهم. يستفاد، مثلا، من أقوال محمد صادق باشا الذى زار

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۱۴

الحجاز فى سنة ۱۸۸۰ أن الحجاج لم يرموا فى الحفر المحفورة وراء المسجد غير بضعة خرفان، بينما ملأت الجيف الباقية كل المدى بين الخيام؛ بل أن خيمة الشريف و خيمة الوالى كانتا محاطتين أيضا بجيف متفسخة و متعفنة؛ و منذ الساعة ۱۲ من اليوم الأول من الإقامة فى منى بدأت تنتشر رائحة كريهة رهيبة. و فى السنة الجارية، كما سبق أن اشرت، جرى الطمر بصورة سطحية جدّا و ببالغ الإهمال.

۲- فى زمن الحج يرسلون فى مأمورية ثلاثة أطباء إلى مكة و طبيبا إلى المدينة المنورة؛ و فى كل من هاتين المدينتين، يوجد ما يسمى بالمحجر الصحى («الكرنتينة»)، و توجد لوازم لأجل مستشفى متنقل يتسع لثلاثين سريرا يتعين فتحه فى الخيام إذا ما نشب وباء.

و المحجر الصحى المكى ينتقل مع الحجاج إلى عرفات، ثم ينتقل معهم إلى منى حيث يوجد مبنى مكيف خصيصا من أجله. و فى هذين المكانين، و كذلك فى مكة، يعطى المستشفى الادوية مجانا و يقدم الاسعاف الطبى الجوال للحجاج المرضى. و من النافل القول أن المستشفى الذى يتسع لثلاثين شخصا يكون عاجزا تماما إذا ما نشب وباء جدى، خطير بين مثل هذا العدد من الحجاج.

بوسع هذا المستشفى المتنقل أن يعود بمزيد من النفع فى المدينة المنورة، إذ انه لا يحدث تجمع كبير جدّا من الحجاج هناك، و إذ انه يمكن، بإغلاق البوابات، عزل المدينة كليا عن العالم الخارجى.

عدا الأطباء الأربعة المذكورين سابقا، يأتى أيضا، فى زمن الحج، طبيبان مع المحملين السورى و المصرى.

۳- فى كل من مكة و المدينة المنورة يوجد مستشفى دائم لأجل الفقراء فيه ۳۰ سريرا. و فى هذين المستشفيين يجرى أيضا استقبال المرضى بطريقة المستوصف و إعطاء الأدوية مجانا. و فى السنة الجارية كان فى مستشفى مكة طبيبان و فى مستشفى المدينة المنورة طبيب واحد.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۱۵

۴- فى جميع البواخر التى تقوم بنقل الحجاج يوجد أطباء يسعفون الركاب المرضى مجانا و تحت تصرفهم صيدليات صغيرة.

۵- ضمن حدود البحر الأحمر انشئت لأجل الحجاج يوجد محاجر صحية فى جدّة و كمران و الطور و أبو زليم.

۶- يبقى أن نشير أيضا إلى انه قامت محاولة لإنشاء مقصورة بخارية فى جوار مكة لأجل تعقيم البسة و أمتعة الحجاج العائدين من منى. و لكن مبنى المقصورة الذى انتهى بناؤه للتو دمره البدو فى سنة ۱۸۹۵ حين كان الحجاج عند عرفات؛ و لذا لم يتسن لهم اختيار هذه الوسيلة. و حين يشاهد المرء آثار المبنى المدمر، يعجب عفو الخاطر و يتساءل: بأى نحو كانوا يفترضون أن يتسنى لهم فى هذه المقصورة الصغيرة أن يعقموا مثل هذه الجمهرة الضخمة من الحجاج العائدين معا، دفعة واحدة، إلى مكة. أغلب الظن انه كان تعين كبحهم بالقوة المسلحة فى غضون بعضة أيام فى منى و تعريضهم لجميع فظائع الإقامة فى هذه المحلة المشؤومة. أضف إلى ذلك انه إذا ما نشب وباء، فإن التعقيم ما كان ليبلغ الهدف لأن العدوى، ناهيك عن الحجاج، تنتقل إلى مكة مع الماء بكل سهولة؛ و إذا ما هطلت أمطار غزيرة، فإن السيول ستجرف جميع النفايات من منى إلى مكة.

ما هى التدابير الصحية الضرورية الأخرى

اشارة

التدابير المذكورة أعلاه لا بعد بالطبع من أن تكون كافية لقيام نظام صحى مرض إلى هذا الحد أو ذاك فى الحجاز. و هذه التدابير، على ما يبدو، قد وافقت الحكومة التركية على معظمها بأقصى التردد وعد الرغبة، تحت الضغط الخارجى، كما أنها موضع تنفيذ بقدر أقل من الرغبة و الحرص، و ذلك لمجرد «رفع العتاب». و إذا لم تتخذ تدابير أشد

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۱۶

جذرية و حزما لأجل تنظيم أوضاع الحج الصحية، فإن الحجاز سيشكل دائما خطرا على البلدان الأخرى.

و فى عداد هذه التدابير يجب، برأيى، أن ترد فى المقام الأول التدابير التالية:

فى منى:

۱- إقرار نظام لمنع التلوث من جيف الأغنام. و قد يكون حرق الجيف أسلوبا اصوب، أكثر عقلانية؛ و هذا الأسلوب يدعمه الدكتور صالح صبحى بشدة، و تم تطبيقه جزئيا فى سنة ۱۸۹۶؛ و لكن توقف العمل به لسبب ما. و إذا بقى النظام السابق للطمر، فمن الضرورى

نقل الحفر إلى أبعد عن المقام السكنى و عن الماء، و حفر حفر أعمق، و الطمر بمزيد من العناية، و استعمال وسائل التعقيم.

۲- إنشاء خزانات لأجل الماء أكثر تجاوبا مع مقصدها من الأحواض المكشوفة المتواجدة حاليا، و تأمين الأدوات لاستقاء الماء دون استعمال الدلاء.

و من الممكن، مثلا، إنشاء خزانات لأجل احتياطيات الماء فى مكان أعلى من منى زهاء فرستا اثنين أو ثلاثة، و مد أنابيب من هناك إلى حنفيات لتوزيع الماء مركبة فى أماكن مختلفة.

۳- إنشاء بيوت خلاء عامة أفضل على الصعيد الصحى و بأعداد أكبر، و تعقيمها بدقة و عناية أحيانا كثيرة و منع إقامة المراحيض الموقتة قرب الخيام.

۴- نصب خيام الحجاج بموجب خطة مرسومة سلفا و حسب نظام معين لا يحول دون تيارات الهواء، و يسهل الرقابة على الخيام. و منع نصب الخيام فى الأحواش المغلقة و فى الشوارع.

۵- نقل السوق الذى يتاجر باللحوم إلى خارج المقام السكنى.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۱۷

۶- أبعاد جميع الجمال طوال مدة إقامة الحجاج فى منى إلى مكان ما فى الضواحى.

۷- بسط رقابة فى منتهى الدقة و الصرامة على النظافة سواء فى الشوارع و الأحواش أم بين الخيام، و بخاصة على نوعية المأكولات و المشروبات المباعة فى السوق.

۸- بما أن الحجاج الذين يقيمون فى الخيام طوال أيام الإقامة الثلاثة فى منى يعانون، أشد ما يعانون، من الحرارة العالية، فإن إنشاء أكواخ ما أو سقائف ما تحميها جيدا من الشمس من شأنه أن يعود نفع أكيد.

۹- من المرغوب فيه توزيع الأطعمة الجاهزة على الحجاج المعدمين و منعهم من تناول لحوم الأضاحى.

عند عرفات:

۱- من الضرورى إغلاق الأحواض المبنية لأجل الاستحمام الذى لا تنص عليه أية شعائر دينية.

۲- من الضرورى، كما فى منى، توفير أدوات لاستقاء الماء من الحنفيات.

۳- يجب نقل سوق اللحوم بعيدا، فى منحى عن موقع مخيم الحجاج و إنشاء مسلخ.

۴- يجب إنشاء مراحيض عامة خشبية منقولة و تعقيمها بدقة و عناية؛ و يجب فى الوقت نفسه منع إقامة بيوت الخلاء قرب كل خيمة.

۵- بما أن المكان عند عرفات رحب كفاية، فمن المرغوب فيه نصب مخيم الحجاج بمزيد من السعة، حسب خطة مرسومة و حسب نظام معين.

۶- و أخيرا من الضرورى أقصى الضرورة فرض رقابة عامة فى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۱۸

منتهى الدقة و الصرامة على النظافة سواء بين خيام الحجاج أم، بصورة خاصة، فى الأسواق، و فرض الرقابة على المشروبات و الأطعمة المباعة.

فى مكة:

التدابير الضرورية فى مكة هى التالية:

۱- تأمين حنفيات لتوزيع الماء، و أن، مثلا، من النوع المستعمل فى المدينة المنورة، و مد أنابيب مخفية عوضا عن المزاريب

المكشوفة.

۲- أسلوب نزح مواد برازية أكثر عقلانية من الأسلوب القائم حاليا، تعقيم بيوت الخلاء أحيانا كثيرة و بدقة و عناية، و بخاصة منها العامة.

۳- نظرا لا- مكان تسرب الأقذار عبر التربة من البالوعات إلى الماء، من الضرورى، على الأقل، بناء البالوعات الواقعة حول المسجد الكبير أو قرب خط أنابيب الماء على أساس من الأسمنت، الأمر الذى يستطيع الحجارون المحليون صنعه بنحو ممتاز من المادة المحلية بالذات.

۴- نقل أسواق اللحوم إلى أماكن أبعد عن الحرم.

۵- مراقبة التكيات، و إقرار معدلات لعدد النازلين يتعين على نظار هذه المؤسسات عدم تجاوزها.

۶- رش بعض الشوارع الرئيسية، و بخاصة حول الحرم و فى الأسواق حيث تقوم الحركة الاشد إنتعاشا.

۷- تبليط الأسواق و الشوارع حول الحرم.

۸- المراقبة الصارمة و الدائبة على النظافة فى المدينة، تكنيس الشوارع بانتظام، رمى النفايات فى عربات خاصة تطوف فى المدينة عوضا عن رميها فى الشوارع.

۹- جمال القوافل المتوافدة إلى مكة يجب أبعادها الزاما إلى خارج المدينة.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۱۹

۱۰- نزع جميع المنشآت الخشبية التى تصعّب المرور فى الشوارع الضيقة، و منع سد الشوارع بالرحال و ما إلى ذلك.

۱۱- نقل المسلخ إلى مسافة أبعد خارج المدينة و تعقيم البقايا.

فى المدينة المنورة:

بصدد التدابير الصحية الضرورية فى المدينة المنورة، يتعين تكرار ما قبل فيما يتعلق بمكة. بعض هذه التدابير تحققت فى المدينة المنورة كحنفيات توزيع الماء مثلا، و الأرصفة؛ بينما يتعين تنفيذ بعضها الآخر و أن لم يكن بنفس القدر من الألحاح و السرعة كما فى مكة.

فى ينبع:

ينبع: كما سبق أن قلنا، من مدن الحجاز من حيث التجهيز بالمرافق و من حيث الظروف المناخية الوخيمة، و هنا ينقص شرط من أهم شروط الحياة، و هو الماء الصالح للشرب إلى هذا الحد أو ذاك.

و لهذا يجب فى المقام الأول:

۱- تأمين التزويد بالماء. اقرب الينابيع التى تعطى الماء الجيد تقع على بعد ۲۰- ۲۵ فرستا تقريبا إلى الشرق من ينبع فى بلدة ينبع النخلة الواقعة فى ارتفاع عن سطح البحر أعلى بكثير من ينبع الأولى. و فى حال انفاق مبلغ معين، يمكن جر الماء بالأنابيب.

۲- تطبيق أسلوب احدث لنزح المواد البرازية مع نقل الزبالة إلى خارج المدينة.

۳- بما أن بيوت المدينة لا يمكنها أن تتسع لجميع الحجاج الذين يتجمعون هنا، يتعين، إذا ما رغب جميعهم فى استئجار الغرف، بناء سقائف أو شىء ما من هذا القبيل لأجلهم.

۴- تحاشيا لتلوث الشوارع ينبغى بناء مراحيض عامة.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۲۰

۵- هنا ينبغى أكثر مما فى سائر مدن الحجاز فرض الرقابة بمنتهى الدقة و العناية على النظافة فى المدينة و فى البيوت الخاصة، و لا سيما فى السوق.

۶- أخيرا، الحجاج محرومون أثناء إقامتهم فى ينبع من كل أسعاف طبى؛ و المرضى الخطيرون الذين لا يقبلونهم فى البواخر لا بد من تركهم لرحمة القدر عند ما يرحل رفاقهم. و لهذا من الضرورى أقصى الضرورة هنا طبيب لأجل الحجاج، و مستشفى صغير، يتسع على الأقل لخمسة عشر سريرا، و الاسعاف المستوصفى، و توزيع الأدوية.

فى جدة:

مدينة جدّة، المرفأ الرئيسى فى الحجاز، تعانى، بمجب الأوصاف و الأحاديث، نفس الظروف الصحية السيئة التى تعانى منها ينبع؛ و من الضرورى فى جدة اتخاذ نفس التدابير كما فى مكة.

فى نقاط صعود الحجاج إلى البواخر:

على البواخر التى تنقل الحجاج، يقبلون، كما سبق أن أشرنا، عددا من الركاب أكبر بكثير مما تتسع له الباخرة و مما يرد فى وثائق الباخرة.

و هذا الضيق الخارق، و القيظ الدائم، و بخاصة فى غرف العنابر، يضعفان إلى أقسى حد المسافرى، و يعرضانهم سلفا لخطر شتى الأمراض. اما بأى قدر تكتظ البواخر بالركاب، فمن الممكن تكوين فكرة عن ذلك، مثلا، من الواقع التالى: على متن ۱۹ باخرة نقلت هذه السنة الحجاج من الحجاز إلى الطور، كان بموجب وثائق البواخر ۱۴۲۹۰ شخصا؛ أما عند تعدادهم فى المحجر الصحى، فقد تبين أن عددهم ۱۶۹۱۰ أشخاص أى ما يزيد ۲۶۲۹ شخصا. يجب الظن أن هذا الفرق يبلغ أرقاما أكبر أيضا أثناء الرحلات إلى الحجاز. و لهذا من الضرورى فرض رقابة اصرم على البواخر المعنية.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۲۱

طبقة الحجاج المعدمة

هناك عامل آخر ييسر انتشار مختلف الأمراض الوبائية و يزيد من سوء الظروف الصحية فى جميع النقاط الآهلة فى الحجاز التى يجرى فيها تجمع الحجاج، هو النسبة الكبيرة من الحجاج المعدمين.

لقد سبق أن قلنا أن إداء فريضة الحج مرة واحدة فى الحياة ليس، بموجب الشريعة، فرضا الزاميا إلا على أولئك المسلمين الذين يملكون ما يكفى من الأموال لأجل القيام بهذه السفرة لأجل تأمين عيالهم حتى عودتهم؛ و هذه القاعدة تلقى تفسيرا واحدا عند جميع مذاهب السنيين الأربعة و عند الشيعيين. و لكن إلى جانب تفسير الشريعة، قامت عند بعض الشعوب عادات تتطلب إداء هذه الفريضة من قبل جميع الأفراد ممن يملكون الكفاءة البدنية، و لهذا يظهر فى الحجاز عدد كبير من الحجاج تتلخص جميع أموالهم و احتياطياتهم لكل مدة هذه السفرة الطويلة فى إناء لأجل الماء و قطعة من قماش ما لأجل توفير الظل فى أماكن التوقف. و أمثال هؤلاء الحجاج، كما قيل لى، تعطى أكبر عدد منهم اليمن (قبيلة حضر موت) و الهند و افريقيا الشمالية؛ و من قبل كانت مصر تعطى هذا العدد الكبير أيضا. و فضلا عن هؤلاء الأشخاص الذين يتوافدون إلى الحجاز تحقيقا للعادة المتبعة، يتوافد فى وقت الحج عدد كبير من شتى المتشردين و الفقراء من أبناء جميع القوميات و جميع البلدان. و أكبر عدد من هؤلاء يأتى بالطبع من الأماكن القريبة، و لكن يوجد بينهم أفراد من سكان آسيا الوسطى و قشغر و افغانستان و القفقاس و ايران و تركيا و غيرها، بل أنى تقابلت مع شخص من روسيا يقيم فى محافظة كوفنو . و جميعهم يأتون عادة سيرا على الأقدام، و بعض منهم

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۲۲

يتجوب عدة سنوات؛ المتحدرون من آسيا الوسطى و قشغر يأتون عبر افغانستان و ايران إلى بغداد أو دمشق حيث ينضمون إلى احدى قوافل الحجاج أو يمضون إلى القسطنطينية أو إلى أحد مرافئ آسيا الصغرى و سوريا لكى يركبوا هناك على البواخر التركية التى تحمل الحجاج؛ و سكان الهند و افغانستان و ايران يمضون عادة إلى بغداد أو البصرة، و سكان افريقيا الشمالية يذهبون مع قوافل مواطنيهم الذين يسافرون برا عبر السويس و العقبة.

و جميع هؤلاء الحجاج المعدمين يعيشون فى الطريق كله من جمع الحسنات بوجه الحصر؛ و حين يصلون إلى مكة، يقيمون عادة فى الحرم أو مباشرة فى الشوارع، و يأكلون جزئيا فى التكيات، و بصورة رئيسية من الحسنات من جديد، و لذا تكون شوارع مكة على الدوام حافلة بهم طوال اليوم كله.

و مع سائر الحجاج ينطلقون إلى عرفات و يتوزعون هناك، بعض تحت الجنبات، و بعض تحت الصخور، ثم يمضون إلى منى مدبرين أمورهم فى هذه الأيام الثلاثة تحت صخور السفوح الجبلية المحيطة.

و بعد حياة مديدة من الجوع ينقض هؤلاء الفقراء هنا بنهم على اللحم المجانى و يستغلون و فرته فلا يحاولون سد جوعهم بفيض و حسب، بل يحضرون أيضا اللحم المجفف لأجل مواصلة السفر. و قد قال لى طبيب من الأطباء المحليين عاش طويلا فى مكة و شهد كثرة من أوبئة الكوليرا فى منى أن هذا الوباء يبدأ دائما، حسب مراقباته، من أمثال هؤلاء الحجاج الذين لا مأوى لهم، رغم انه فسر السبب، لا بالظروف التى يواجهونها، بل بكونهم يرتدون البسة من قماش الأكياس التى ينقل بها

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۲۳

الرز من الهند؛ و مع هذه الأكياس، برأيه، تنتقل مسببات الأمراض.

بعد الحج يمضى قسم من الحجاج المعدمين إلى جدة حيث تجبر السلطات المحلية ربان كل باخرة بقبول بضع عشرات من هؤلاء الفقراء مجانا. و البواخر التركية التى تنقل الحجاج فى رحلة ثانية من الحجاز تكون على الأغلب مشغولة مجانا بأمثال هؤلاء الركاب. و قسم آخر من هؤلاء الحجاج ينضم إلى قافلة و ينتقل معها إلى المدينة المنورة؛ و هنا يقيمون، عادة، نهارا فى الحرم، و ليلا فى الشوارع المجاورة، حين يغلق الحرم أبوابه. أما المصدر الرئيسى لطعامهم فى المدينة المنورة فهو هنا أيضا الصدقة، و جزئيا التكية المصرية. و بقدر ما تنطلق قوافل الحجاج من المدينة المنورة، يتفرق هؤلاء الحجاج المعدمون تدريجيا فى جميع الاتجاهات؛ بعضهم يمضى مع المحمل السورى إلى دمشق، و آخرون يمضون إلى بغداد أو البصرة، و بعض ثالث إلى ينبع بأمل الحصول على مكان فى باخرة. و فى المحاجر الصحية، يتمتع الحجاج المعدمون بالمؤونة على حساب الحكومة.

يبدو أن كثيرين من هؤلاء الأفراد، إذ يصلون سيرا على الأقدام أو ركوبا إلى مدينة ما، يبقون فيها حتى الحج التالى و يعودون من جديد إلى الحجاز. فقد تسنى لى فى بيروت و دمشق أن اقابل فى أوقات مختلفة مع بضعة أفراد فقراء من إيرانيين و بخاريين و قشغريين عادوا من مكة.

و سألتهم: كيف يعتزمون السفر إلى أوطانهم البعيدة، فأجاب الجميع أنهم ينتظرون رمضان المقبل، و يركبون باخرة تركية و يعودون إلى مكة حيث قد يوافق مواطن من مواطنيهم القادمين إلى الحج بنقلهم إلى الوطن.

هذه الطبقة المعدمة من الحجاج التى تواجه اسوأ الظروف الصحية هى بلا ريب عنصر غير مرغوب فيه إطلاقا. و ليس من المتوقع أن تسنح الفرصة بمنعهم كليا من الدخول إلى الحجاز. و لكن إذا حظيت وسائل المسافر المادية بمزيد من الاهتمام لدن منح جوازات السفر للحج، و إذا

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۲۴

رفضت البواخر التركية نقل الحجاج مجانا إلى الحجاز، و إذا منع المحمل السورى الفقراء من اللحاق به، لقل كثيرا، أغلب الظن، عدد

هذا الطراز من الحجاج.

التدابير التى ينصح بها الدكتور المختص

لتنظيم قضايا الحج ينصح الطبيب باتخاذ التدابير التالية:

۱- «مطالبة كل حاج بشهادة تفيد انه يملك ما يكفى من الأموال لأجل رحلته و لأجل إعالة نفسه». هذا التدبير يجرى تطبيقه منذ حين فى مصر؛ فعند منح جواز السفر لأجل الحج، كان المطلوب فى سنة ۱۸۹۹ توفر تذكرة بالسفر ذهابا و إيابا على الباخرة و تقديم ضمانة قدرها ۱۵۰ قرشا، ۵۰ قرشا منها فى صالح المحجر الصحى، و ۱۰۰ قرش تنفق على أطعام الحاج إذا تبين انه صار خالى الوفاض. و لتقليل عدد الحجاج المعدمين، من المرغوب فيه أن تطبق الحكومات الأخرى أيضا هذا التدبير. أما المسلمون الروس، فإن المعدمين بينهم ظاهرة استثنائية، نادرة جدّا. و إذا هوى أحد منهم إلى هذا الوضع من جراء حادثة مشؤومة ما، فإن مواطنيه يساعدونه عادة.

۲- «بدون إذن خاص من السلطات المعنية على الأقل، يمنع الحج على:

أ- الأولاد ممن لم يبلغوا العشرة من العمر.

ب- النساء فى المرحلة الأخيرة من الحمل.

ج- العميان.

د- الشيوخ الهرمين.

ه- الأفراد الذين ليس لديهم إفادات بالتلقيح ضد الجدرى فى غضون السنوات الثلاثة الأخيرة».

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۲۵

و قد سبق أن ذكرنا انه من النادر جدّا أن يسافر الحجاج من روسيا مع عائلاتهم؛ و إذا سافروا مع زوجاتهم، فعادة يسافرون بدون الأولاد.

و لكن يوجد بينهم كثيرون من الشيوخ، علما بأن الشيوخ يموتون بمعظمهم أثناء هذه السفرة الصعبة.

۳- «تزويد الحجاج بتعليمات مطبوعة بصدد التدابير الصحية الرئيسية الضرورية أثناء السفر إلى الحجاز:

أ- أية مؤونة يصح أخذها.

ب- أية اساليب لتنقية الماء بواسطة المصافى.

ج- أية البسة مناسبة للمناخ.

د- أية اشياء ضرورية للسفر، كالأغطية و ما إلى ذلك.

ه- أية أدوية يجب أخذها تحوطا للأمراض المفاجئة».

۴- «من الضرورى تواجد الصيدليات فى مكة و منى و ينبع».

فى مكة توجد صيدليات منذ حين؛ فى منى يجرى توزيع الأدوية من الحجر الصحى.

۵- «الزام كل باخرة تنقل الحجاج بأن يكون على متنها طبيب مختص». الأطباء من هذا النوع يعملون منذ حين على جميع البواخر.

۶- «من الضرورى فى جدة و ينبع نقل قذر البواليع إلى خارج المدينة، عوضا عن طمرها فى الشارع، لأن الماء فى الأحواض المجاورة يتلوث نظرا للتربة الرخوة».

۷- «وصل ينبع التى يمر عبرها عدد كبير من الحجاج، بالتلغراف، مع جدّة أو نقطة آهلة أخرى».

۸- «حرق جيف الأغنام فى منى عوضا عن طمرها. أما إذا استحال تنفيذ هذا التدبير، تعين على الحجاج الامتناع عن تقديم الأحاضى فى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۲۶

جميع الأيام الثلاثة من الإقامة فى منى، و الأكتفاء بتقديمها فى اليوم الأخير قبل الرحيل من منى، الأمر الذى تسمح به الشريعة». التدبير الأخيرة، إذا لم يستتبع التسرع البالغ و الهرج و المرج و شتى ضروب الفوضى، من شأنه أن يمارس تأثيرا خيرا فى الوضع الصحى فى منى.

و لكن، من جهة أخرى، لا يستطيع الحجاج، بموجب الشعيرة، أن يخلعوا ثياب الأحرام إلا بعد تقديم الأضاحى. و لهذا سيتعين عليهم أن يبقوا خلال اليومين الأولين فى هذا اللباس غير المريح، الأمر الذى ينعكس بأقصى الضرر على صحة الأغلبية.

۹- «تجنبا للتماس بين الحجاج القادمين من الجنوب، مثلا، من الهند و جزر السند حيث الكوليرا يتواجد فى شكل مرض مستوطن، و بين سائر الحجاج القادمين من الأقطار السليمة، يجب أقرار دور يجيز لسكان الهند و غيرها الدخول إلى الحجاز فى سنة، و للحجاج من البلدان الشمالية فى سنة أخرى». هذا التدبير الهام من شأنه على كل حال أن يكون نافعا جدّا لأنه يقضى على خارق تجمع الحجاج فيمكة و عند عرفات و فى منى، الأمر الذى يشكل على الصعيد الصحى إحدى سلبيات الحج الرئيسية.

۱۰- أخيرا. لأجل تسهيل حركة الحجاج فى طريقهم الرئيسى، يوصى صالح صبحى بوصل جدّة بمكة بالسكة الحديدية. و لكن، أغلب الظن، لن يرى الحجاز عم قريب السكة الحديدية فى ربوعه.

هذه هى التدابير المرغوب، برأيى، فى تطبيقها بأسرع وقت ممكن؛ و هذه التدابير لا تتنافى، لا مع مفاهيم الجموع، و لا مع الشريعة، و لا تتطلب نفقات كبيرة جدّا.

و لو كان الحجاز خاضعا لحكومة أخرى، أشد همة و نشاطا من الحكومة العثمانية، لحظى أغلب الظن، بقدر معين من الرفاه و اليسر؛ و لتوفرت فى النقاط الآهلة التى يتجمع فيها الحجاج ظروف صحية

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۲۷

أفضل، و لجرى تعقيم الأغنام المذبوحة فى منى بأسلوب من الأساليب الفعالة، و لجرى استعمال هذه الأموال الكبيرة المصروفة عبثا فى مهب الريح لما فيه فائدة القضية، و لتم مد السكك الحديدية فى ربوع الحجاز و لجرى الحج كله، باستعمال واسطة المواصلات هذه، فى غضون ۷- ۱۰ أيام، و لصار ظاهرة عادية، و لفقد الحجاز سمعته الرهيبة كبؤرة للأمراض المعدية؛ و لكن، من جهة أخرى، لو كانت هناك حكومة أشد همة و نشاطا، لأستفادت، بالتأكيد، من تجمع الحجاج هذا فى أغراضها السياسية أيضا.

لا ـ ريب فى انه لن يكون من الممكن فى وضع الأمور القائم تطبيق هذه التدابير غير المعقدة من قبل السلطات التركية بالذات رغم جميع المطالب على الورق؛ و لهذا قد يكون من الأصوب تعيين قناصل أو نواب قناصل الدول الغربية فى مكة بالذات عوضا عن جدّة، و تعيينهم من عداد المسلمين و تكليفهم بالإشراف على كل الجانب الصحى و انفاق المبالغ المعتمدة لهذا الغرض.

أما فيما يتعلق بالجانب المالى من المسألة، فقد يكون من الممكن و العادل و الصائب أجبار جميع الحجاج المسافرين إلى مكة على دفع مبلغ خاص من المال، مثلا، خمسة روبلات، عند منحهم جوازات السفر، و نظرا لمتوسط عدد الحجاج- ۱۰۰ ألف شخص، يبلغ الرسم المحصل بالأجمال زهاء نصف مليون روبل، أى ما يكفى تماما لأجل تطبيق التدابير الصحية فى غضون سنة بكاملها.

و على العموم أعتقد أن تنظيم قضايا الحج حاجة حيوية و ملحة، و لربما تجد حكومتنا من الضرورى، نظرا لوضعها السياسى بين الشعوب الإسلامية، أن تأخذ زمام المبادرة فى هذا المجال الهام.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۲۸

رسالة فى يوم يوبيل دولتشين من ممثلى الرأى العام الإسلامى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۲۹

فرمان أمير بخارى بمكافأة دولتشين

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۳۰

خان خوى فى بطرسبرج سنة ۱۹۱۱/ و يبدو العقيد دولتشين الثانى من اليسار

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۳۱

الملاحق

اشارة

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۳۳

الملّا ميرزا عليم ابن دام الله ميرزا رحيم طشقندى يصف طريق الحج

[الورقة ۱۵۵- أ] فى السابع من شهر رجب ۱۳۰۵ (۲۱ كانون الثانى- يناير ۱۸۸۸) انطلقنا فى اتجاه المدينتين المقدستين، مكة المكرّمة و المدينة المنورة. خرجنا من مدينة قوقند و وصلنا إلى محلة بش أريك، و منها إلى ناحية محرم. غادرنا هذه الناحية، و دخلنا مدينة خوجند. و هنا زرنا الشيخ مصلح الدين، ثم واصلنا السفر. توقفنا فى ناحية بيقاباد، و بعدها فى ناحية جاما، ثم توقفنا فى دجيزاك. ثم واصلنا السفر و توقفنا فى ناحية يانغى كورغان، أجتزنا هذه النقطة و توقفنا فى ناحية آك تبه. ثم واصلنا السفر حتى مدينة سمرقند المحمية من شتى الأحوال الطقسية [.....]، و قضينا الليل فيها. هنا قمنا (الورقة- ۱۵۵ ب) بالحج إلى شاه زنده و إلى (ضريح) صاحب العظمة الأمير تيمور، و طلبنا العون من روحه، ثم واصلنا السفر، و وصلنا إلى ناحية الوديل.

و هنا توقفنا للاستراحة، ثم واصلنا السفر، و وصلنا إلى كاتّا- كورغان و توقفنا فى ناحية تشاخار شنبه. و من هنا انطلقنا و وصلنا إلى محلة أسمها كرنب- اتاباته، و من بعدها دخلنا إلى عاصمة الولاية، مدينة بخارى.

و هنا قمنا بالحج إلى ضريحى الولى بهاء الدين نقشبند و مير قولال، و صلينا كذلك أمامهما. فى جامع تك أب، قمنا بصلاة الظهر، و من بعدها واصلنا السفر. [الورقة ۱۵۶- أ] و توقفنا للاستراحة فى ناحية قره

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۳۴

قول، وصلنا إلى مدينة شاردجو حيث أمضينا الليل. ثم وصلنا بالقطار إلى مدينة مرو. دفعنا ثلاث روبلات بدلا للركوب. قبل ذاك كانت هاتان المدينتان تخصان يوسف بك و أحمد بك. و من هنا واصلنا السفر بالقطار. فى يوم واحد وصلنا بالقطار إلى عشق آباد، و هنا قضينا الليل.

هذه المنطقة القديمة كانت مدينة رستم دستان. ثم واصلنا السفر فى القطار المذكور، و فى غضون يوم واحد وصلنا إلى محلة اوزون آطا (كراسنوفودسك). دفعنا لقاء السفر بالقطار أحد عشر روبلا و عشرين كوبيكا. خرجنا من هناك، و ركبنا باخرة؛ فى غضون يوم وصلنا إلى مدينة باكو. و باكو هى بالفعل، كما يقولون، مدينة بلقيس. لقاء السفر بالباخرة دفعنا روبلين و نصف روبل. و ليعرف القارئ انه كان لهذه الباخرة (الورقة ۱۵۶- ب) مروحتان و أن هيكلها كان من طابقين. طول الباخرة تسعون خطوة.

شعر:

النبى رأى اللّه، و موسى سمعه،و هل يمكن تسبيه المسموع بالمرأى.

إن شاء اللّه، يذهب كل امرئ فى طريق الحج،و يؤكد كل هذا إذ يجربه بنفسه.

خرجنا من مدينة باكو المذكورة، و واصلنا السفر؛ و فى غضون يوم واحد وصلنا إلى مدينة تفليس، هذه المحلة كانت تخص السلطان ابن قور، و كانت مدينته. و من هنا واصلنا السفر و دخلنا مدينة باطوم. كانت هذه بالفعل مدينة أبى مسلم صاحب ل [.....] (أى أبو

مسلم المنتصر). بدل السفر إلى هاتين المدينتين بلغ ۱۸ روبلا. فى الطريق عبرنا انفاقا جبلية كبيرة منورة. ثم واصلنا السفر بالباخرة. فى غضون يوم واحد وصلنا بالباخرة إلى (الورقة ۱۵۷- أ) مدينة طرابزون؛ و قد كانت

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۳۵

من مدن الاسكندر (المقدونى). حجم الباخرة المذكورة: الطول مائة و أربعون خطوة، العرض ثلاثون خطوة، الهيكل من ثلاثة طوابق. و ليعرف القارئ أن مرفأ استنبول تدخله (كل يوم) مائة باخرة و يغادره العدد نفسه من البواخر. و من هنا واصلنا السفر بالباخرة؛ و فى غضون يوم واحد وصلنا إلى مدينة سمسون. بعد يوم وصلنا بالباخرة إلى مدينة انبولا و أمضينا الليل فيها. بعد يوم دخلنا بالباخرة إلى استنبول المحمية و توقفنا فيها. بدل الركوب إلى مدينة استنبول أثنا عشر روبلا.

فى استنبول يوجد جسر. طوله ألف خطوة و عرضه يكفى لسير العربات بثلاثة صفوف. المدخول اليومى من هذا المكان يبلغ ستمئة قطعة نقدية ذهبية (الورقة ۱۵۷- ب). منكل عربة يأخذون، كبدل المرور على الجسر، تانغا واحدة، و من كل فارس تانغا و نصف تانغا، و من كل ماش كوبكين. كذلك رأينا جامع آجيا صوفيا الشهير. طول هذا الجامع مائة و أربعون خطوة، عرضه مائة و عشرون خطوة، قسمه الأعلى- بشكل قبة. من جانبى المحراب توجد شمعتان طول كل منهما قولاتشان و سماكة كل منهما سبعة قاريشات ، و هناك أعمدة من المرمر سماكة كل منها أحد عشر قاريشا، و طوله خمسة قلاتشات. عدد الأعمدة الأجمالى فى الجامع المذكور سبعون؛ و فيه سبعون ثريا. و فى كل ثريا تشتعل سبعون شمعة.

حكينا عن استنبول بايجاز، و إلا لما كفت ۵- ۱۰ أوراق [الورقة ۱۵۸- أ] لأجل وصفها. و لهذا الوصف لم يتوفر الوقت.

خرجنا من استنبول، و ركبنا الباخرة [.....]، و بعد ثلاثة أيام

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۳۶

كنا فى الإسكندرية. و من الإسكندرية انطلقنا بالقطار، و بعد خمس ساعات وصلنا إلى القاهرة. دفعنا لقاء السفر بالقطار خمسة روبلات.

أيها الأعزاء، أعلموا أننا قمنا بالحج إلى قبور بيبب زينب، ابنة صاحب العظمة على، و الإمام حسن و الإمام الشافعى، و شاهدنا بئر صاحب العظمة يوسف، فليحل السلام عليه. طول البئر مائتان و خمسون خطوة. شاهدنا كذلك جامع [.....] على. طول السجادة فيه ثلاث و عشرون خطوة و عرضها ست عشرة خطوة. يقولون أن معلمى العمار بنوا هذا الجامع فى غضون ستين سنة. إنطلقنا من القاهرة بالقطار. بعد عشر ساعات بلغنا السويس. دفعنا عن السفر ستة روبلات [الورقة ۱۵۸- ب]. الباخرة الراسية فى السويس تتسع لألف راكب. خرجنا من السويس على متن الباخرة، و بعد يومين وصلنا إلى رائق (؟)، و دفعنا عن السفر سبعة و عشرين روبلا، لبسنا لباس الحجاج، بعد يوم دخلنا مدينة جدّة المقدسة. فى مدينة جدّة المقدسة، أمضينا ليلتين. قمنا بالحج إلى ضريح صاحبة العظمة امنا حواء. ثم، بعد صلاة الظهر، إنطلقنا على الجمال باتجاه مدينة مكة المكرّمة. فى الطريق توقفنا فى ناحية [....]. بعد الصلاة، و قبل مغيب الشمس راكبنا الجمال من جديد، و وصلنا قبل الفجر إلى مدينة مكة المكرّمة. بعد وصولنا، توضأنا فى الحال بموجب الشعيرة، و دخلنا رواقا مكشوفا، و هنا رأينا ساحة الحرم الشريف [الورقة ۱۵۹- أ]. قلنا ثلاث مرات: «اللّه أكبر». بعد هذا، اقتربنا من مقام صاحب العظمة إبراهيم، عليه السلام، و رأينا هنا الكلمات: «و من دخل كان أمينا»؛ و فى الحال ركعنا ركعتين. تذكرنا الأصدقاء و الأقارب و صلينا من أجلهم. بعد هذا شرعنا فى الطواف حسب الشعائر حول المكان المقدس و طفنا حوله سبع مرات بكل تقوى، و فى كل مرة كنا ننحنى أمام الحجر الأسود. ثم صلينا وقوفا بين «الملتزم الشريف» و أبواب الحرم. و بعد الصلاة أمام الكعبة، اقتربنا جميعا من

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۳۷

ضريح إبراهيم، عليه السلام، و ركعنا هنا ركعتين. و بعد ذاك سعينا سبع مرات بين الصفا و المروى، و قصصنا شعرنا، و بعد العودة إلى حيث منا قد توقفنا، [الورقة ۱۵۹- ب] خلعنا الاحرام و لبسنا البستنا. ثم نزلنا فى بيوت جيدة و تمتعنا بضعة أيام ب [...] المستطاب،

و كل يوم كنا نأكل معا حتى التخم البطيخ و الخندلاق و الخيار و نشرب العصائر، و من جراء ذلك ارتفعت حرارتنا و مرضنا مدة يومين تقريبا. و وزعنا الصدقات باسم اللّه، و بعد ذلك شفى الجميع أى أن طبيعتنا صارت متناسبة مع طبيعة مكة العظيمة. و بعد هذا، صلينا خمس مرات فى المسجد. و كما من قبل قمنا خمس مرات بالطواف. تذكرنا جميع الرفاق، و صلينا من أجلهم، ثم رحنا باتداه المدينة المنورة. يا رب، لتكن سفرتنا على خير و سلامة.

و هنا يصف بوابات كعبة اللّه و الأماكن المقدسة.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۳۹

وصف بوابات كعبة اللّه و الأماكن المقدسة حيث يمكن أن يقبل [اللّه] صلوات المؤمنين

بعد تمجيد اللّه و أنبيائه زمنا طويلا، يرد: [الورقة ۱۶۰- ب] الحجر الأسود، الكعبة، مقام إبراهيم، عليه السلام، و بئر زمزم المقدسة، فى القسم الشرقى من كعبة اللّه، أى الحرم الشريف. اضرحة الأنبياء المقدسين نوح عليه السلام، و هود عليه السلام، و شعيب عليه السلام، و صالح عليه السلام، تتواجد هنا. و هذه قصة الشيخ التقى حسن البصرى. و هذا القسم يسمى ركيزة الحجر الأسود. الخاتم المقدس، ماسورة تصريف الماء عليها رحمة اللّه، [الورقة ۱۶۱- أ] مقام (اتباع) أبو حنيفة، عليه رحم- اللّه، حجر إسماعيل (.....) عليه السلام، ضريح بيبى حجر، عليها رضى اللّه، تتواجد فى القسم الشرقى من حرم اللّه، و هذان القسمان يسميان بالركيزة العراقية. (مقام) المالكيين يقع فى القسم الغربى من حرم اللّه؛ و هنا تقع مدافن سبعين نبيا؛ هذا القسم يسمى بالركيزة اليمنى. لكعبة اللّه- حرم اللّه، أربعة و أربعون بابا. باب السلام يتألف من ثلاثة أبواب، باب على يتألف من ثلاث أبواب، باب البعلى يتألف من بابين، باب [.....] يتألف من بابين، باب الصفا يتألف من خمسة أبواب، باب الشريف يتألف من بابين، باب الجهاد يتألف من بابين، باب التكية يتألف من بابين، باب الأمهات يتألف من بابين، باب الوداع يتألف من بابين، باب إبراهيم يتألف [الورقة ۱۶۱- ب] من باب

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۴۰

واحد، باب النقيب الأشرف يتألف من باب واحد، باب العتيق يتألف من باب واحد، باب الماسك يتألف من باب واحد، باب البيطار يتألف من باب واحد، باب [.....] يتألف من باب واحد، باب زياد يتألف من ثلاثة أبواب، باب القاضى يتألف من باب واحد، باب مدرسة السليمانية يتألف من باب واحد، باب الداودية يتألف من (ثلاثة) أبواب. الحاصل ۴۴ بابا.

لبوابة المكان المقدس سبع مآذن. لكل مئذنة مؤذن واحد يؤذن بوقت كل من الصلوات الخمس. و ليكن واضحا و مفهوما أننا سنحكى [أدناه] عن مكانين للحج فى مكة المكرّمة. فى جنة (الجنة المعلا) يوجد مدفن أم المؤمنين خديجة الكبرى و مدفن آمنة بنت وهب، أم نبى اللّه،- صلى اللّه عليه و سلم؛ و مدفن صاحب العظمة عبد الرحمن أبن أبو بكر، و مدفن السيد عثمان المرغينانى، و مدفن مالك الأجدر. جميع هذه المدافن هى محجات [الورقة ۱۶۲- أ]. يتلو الناس سورة و جيزة و يصلون، و بخاصة من أجل المذكورين أعلاه و الباقين الموجودين فى جنة المعلا. المسجد (هنا هو ذلك) المكان الذى أصبح فيه شياطين الليل مسلمين بعد أن اتفقوا مع النبى، و لهذا فإن جميع الأماكن من هذا النوع هى محجات.

فى جبل أبو قبيس توجد علامة هى محج. المكان الذى أقيم فيه مؤقتا الحجر الأسود، أثناء الطوفان العالمى فى عهد صاحب العظمة نوح عليه السلام، هو محج. بيت العجب هو أيضا محج. مكان ولادة النبى صلى اللّه عليه و سلم- هو محج.

مكان ولادة صاحب العظمة على و الغرفة التى كان يصلى فيها (عادة)؛ محراب خديجة العظيمة؛ مضرب أبو بكر الصديق، عليه رضى اللّه؛ الحجر الحاكى أى حجر الذى كان شاهدا على عظمته (محمد)؛ مكان ولادة صاحب العظمة الأمير حمزة؛ [الورقة ۱۶۲- ب] المكان الذى كان يصلى فيه صاحب العظمة عمر (عادة)؛ مدرسة صاحب العظمة

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۴۱

عثمان ابن عفان؛ المكان الذى ولد فيه صاحب العظمة الأمام جعفر الصديق و مدفن مولانا محجوب؛ و مدفن القحافة؛ و مدفن مولانا تاج الإمام الربانى؛ و مدفن السيد حسنى؛ مدفن تلامذة السيد عبد القادر الكيلانى و اخوته الصغار؛ مدرسة صاحب العظمة [.....] الأعظم رضى اللّه عنه، جميع الأماكن المذكورة هى محجات.

بين بوابات مكة المكرّمة، المسماة باسم الشيخ محمود ابن إبراهيم أدهم حيث يرتدى الحجاج ثياب الاحرام فى حال الحج الصغير و بين مكة المكرّمة توجد مدافن أحد عشر ممن استشهدوا فى الدهاد و بينهم عبد اللّه ابن عمر رضى اللّه عنه، هذه المدافن هى أيضا محجات.

و ليعرف القارئ أيضا امكنة الحج فى منطقة منى. مسجد [....]. يقولون أن نبى اللّه كان هناك و قد الأضاحى. هنا كهف نزلت فيه آيات «و المرسلات». أثناء التضحية بصاحب العظمة إسماعيل عليه السلام [الورقة ۱۶۳- أ] أرسل اللّه العظيم لأجل التضحية خروفا (عوضا عنه).

تكريما لقبول الضحية، أدى الصلاة، و ركع ركعتين. ذلك المحراب الذى صلى قربه (إسماعيل) صار مكانا للعبادة.

ليعلم القارئ أيضا جبل الرحمة. إنه مكان توقف فيه النبى، صلى اللّه عليه و سلم.

على جبل الرحمة يوجد مكان القى فيه النبى صلى اللّه عليه و سلم الخطبة. و يتناقلون فى إحدى الأساطير أن والدنا صاحب العظمة آدم، عليه السلام، و امنا حواء تعارفا هنا. على الجبل يوجد مبنى بديع يذهب إليه للعبادة المنتمون إلى مذهب الإمام الشافعى. أما نحن، فلا توصينا الشريعة بذلك. و فى مدينة جدّة زرنا قبر صاحبة العظمة حواء. و فى جبل النور يوجد مكان نزلت فيه آيات سورة القرآن «سورة الشرح». و فى جبل النور يوجد كهف نزلت فيه آيات «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ». و فى جبل النور يوجد كهف تخفى فيه صاحب العظمة [الورقة ۱۶۳- ب] نبى اللّه صلى اللّه عليه و سلم و صاحب العظمة أبو بكر الصديق من الكفار. هذا الكهف هو محجة. بعد زيارة هذه الأماكن،

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۴۲

أيها الأخوة الأعزاء، انطلقنا صوب المدينة المنورة. الهدف الأساسى من زيارة المدينة المنورة يتلحص بالنسبة لنا فى قرع جباهنا الخاطئة على الضريح المقدس لصاحب العظمة، النبى محمد، صلى اللّه عليه و سلم ...

نأمل فى أن يسمح اللّه العظيم للنبى بعد إداء هذه الشعائر برعايتنا نحن الخطأة فى يوم الحساب.

[الورقة ۱۶۴- أ] إن شاء اللّه، سنحكى بإيجاز عن مواقف و أماكن العبادة التى رأيناها حيث كنا. أيها الأخوة الأعزاء، على الطريق السلطانى المؤدى إلى المدينة المنورة، توجد المواقف التالية: «وادى فاطمة»، «محسنة»، «اسفهان»، «أخلاص»، «كريمة»، «رابغ»، «مستورة»، «حسالى»، «صفراء»، «بئر عباس»، «بئر شريف». عن السفر إلى المدينة المنورة دفعنا عشرين روبلا. قبل مدخل المدينة المنورة، توجد محجة؛ أنها قبة صاحب العظمة الخضر، عليه السلام. دخلنا المدينة المنورة و نزلنا فى بيت حيث توضأنا حسب الأصول، و ذهبنا إلى نبى اللّه لأجل الصلاة و السجود (و مررنا) عبر بوابة باب السلام، مرددين الآيات:

«اللّهم أنت السلام و منك السلام و اليك يرجع السلام، تباركت ربنا و تعاليت يا ذا الجلال و الاكرام». و قرب محراب النبى صلينا فى ركعتين، ثم رحنا إلى السجود أمام ضريح نبى اللّه، ثم قمنا بالحج إلى أبو بكر الصديق، رحمة اللّه عليه، ثم كنا عند مدفن صاحب العظمة عمر، رحمة اللّه عليه. ثم قمنا بالحج إلى المكان الذى نزلت فيه الملائكة. ثم قمنا بالحج إلى ضريح فاطمة الزهراء، البريئة من كل خطيئة. بعد الحج إلى جنة الباقى، سجدنا صوب جبل أحد. و قمنا بالحج إلى مدفن الأمير الحمزة و سائر الشهداء. ثم اقتربنا عن كثب من غرفة صغيرة قائمة تحت مئذنة و صلينا و وجوهنا إلى القبلة. ثم صلينا و وجوهنا صوب الضريح المقدس. ثم ابتعدنا منه أربع أو خمس خطوات و صلينا مرة أخرى و وجوهنا صوب الضريح. ثم صلينا و وجوهنا صوب ضريح صاحب

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۴۳

العظمة نبى اللّه، صلى اللّه عليه و سلم و انهينا الصلاة؛ و هكذا بعد كل صلاة قمنا بالسجود بالطريقة الموصوفة أعلاه. يوم الجمعة [الروقة ۱۶۵- أ] قمنا بالحج إلى مقبرة «جنة الباقى». القبة الأولى فيها هى قبة الولى عثمان، عليه بركة اللّه، و هى أول مكان للعبادة. القبة التالية، قبة الولية حليمة السعدية. ثم توجد خارج المقبرة قبتان، و هما أيضا مكانان للعبادة. الشهداء المدفونون فى مقبرة جنة الباقى يعتبرون هم أيضا جديرين بالتقدير و الإجلال. و من الأماكن المقدسة يعتبرون أيضا: قبة الإمام مالك، عليه بركة اللّه، الذى كان مؤسس مذهب؛ مقبرة خوجه محمد [...]؛ قبة الولى عباس، عليه بركة اللّه العلى؛ (مقبرة) الائمة الاثنى عشر؛ قبة الولية عائشة و مدفن زوجات النبى؛ (مقبرة) عم النبى القائمة بين بوابة المقبرة و المدينة أى أنها تقع قرب مدخل المدينة المنورة؛ إلى اليسار، على بعد خمس أو ست خطوات؛ قبة إسماعيل ابن الإمام ابن الإمام جعفر الصادق، عليه بركة اللّه، و تقع فى الغرب من باب الرحمة [الورقة ۱۶۵- ب] مدرسة [.....] و مدفن عبد اللّه أى والد نبى اللّه؛ مدرسة فى دار غوث الأعظم، عليه بركة اللّه.

و أعلموا، أيها الأخوة المؤمنون، أن الحج إلى الأمير حمزة فى جبل أحد و إلى المكان الذى انكسرت فيه سن النبى الكريم بسبب الإيمان يجرى يوم الأربعاء. سجدنا أمام قبة ولينا الأمير الحمزة و جميع أولاده و أحفاده الموجودين هناك. و سجدنا أيضا أمام مدفن الولى [.....] و المستشهدين فى سبيل اللّه الأحد. و بئر الولى عثمان، بركة اللّه عليه؛ و المدينتين المقدستين (القدس و مكة)؛ و مسجد الأربعين؛ كهف غاز الخزن؛ مسجد القبة و مسجد [....]. جميع هذه الأماكن تقع فى القسم الخلفى من مقبرة جنة الباقى. كما يجدنا أمام محراب نبى اللّه، صلى اللّه عليه و سلم محراب فاطمة الزهراء، و المنبر؛ المكان الذى ركعت فيه ناقة نبى اللّه، و الواقع ما وراء مقبرة «جنة الباقى». مسجد على؛ و المسجد

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۴۴

الأخضر [الورقة ۱۶۶- أ] لعمر، بركة اللّه عليه؛ أشجار النخيل التى تملك موهبة الكلام، و التى جاءت بلا أقدام و أدلت بشهاداتها. و تقول الأسطورة أن عثمان أسقط فى بئر خاتم النبى؛ و هذه البئر تسمى بئر الخاتم؛ جميع الأماكن المذكورة آنفا هى أماكن للعبادة، و كذلك مسجد جرت فيه صلاة الجمعة و هو أيضا مكان للعبادة.

و ليعلم القارئ أيضا انه يوجد فى المسجد ثلاثة محاريب. الأول منها محراب نبى اللّه. صلى اللّه عليه و سلم؛ المحراب الثانى، محراب السلطان سليم.

المحراب الثالث، محراب الولى عثمان، بركة اللّه عليه. بوابات المسجد خمس- باب السلام، باب الرحمة، باب المجيد، باب النساء، باب جبرائيل. مآذن المسجد ثلاث- المئذنة المجيدة، و المئذنة الرئيسية، و مئذنة بلال. ثريات المسجد خمسمئة [الورقة ۱۶۶- ب] منها اثنتان بيضاوان، اثنتان حمراوان. قياسها عشر شارقات تقريبا، اللّه وحده يعلم.

الباقية مختلفة المقاييس. قبب المسجد مائتان. عدد الأعمدة أربعمئة .

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۴۵

منطقة المسلمين المقدسة فى الجزيرة العربية مقتطفات من ذكريات الحاج سليم غيرى سلطانوف

النبذ التى أعرضها على القراء كتبتها بموجب تسجيلات و جيزة قمت بها أثناء السفر، و بموجب ذكرياتى الشخصية.

المعلومات التاريخية و المرتبة زمنيا اقتبستها من مؤلفات مختلف العلماء المسلمين، و كذلك من تاريخ الإسلام للمستعرب الألمانى البروفسور موللر. فلأجل دراسة الشريعة، أى علم الدين الإسلامى و قوانينه، عشت زهاء سنتين فى قرية صغيرة تقع فى أعماق بشكيريا حيث توجد من قديم الزمان مدرسة دينية إسلامية شهيرة فى أقليم أوفا. و هنا تعرّفت على ملّا بشكيرى اسمه خير اللّه راح غير مرة إلى المنطقة المقدسة فى الجزيرة العربية. و قد حكى لى الملّا خير اللّه الكثير عن أسفاره، و هذه الأحاديث أثارت فى نفسى الرغبة فى زيارة أماكن المسلمين المقدسة.

فى الصباح الباكر من الرابع من آذار (مارس) سنة ۱۸۹۳، انطلقنا نحن ستة مسلمين من محافظة أوفا، بعد أن تمنى لنا جمع غفير من المودعين السلامة و اغدق علينا النصائح، من محطة أوفا الحديدية إلى مكة المكرّمة البعيدة لكى نؤدى هناك الفريضة الدينية- أى السجود و الصلاة أمام المقدسات التى تشغل بينها الكعبة أو بيت اللّه المرتبة الأولى فى عيون اتباع الإسلام.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۴۶

بفضل وسائط المواصلات الحالية، كنا بعد أسبوع فى القسطنطينية.

لن أصف القرن الذهبى و البوسفور و جمال و روعة ضواحيه العجيبة و المناظر من البحر إلى المدينة العالمية الجليلة. و قد ارجأت مشاهدة المدينة و طرائفها بصورة مفصلة إلى طريق العودة. و الاحظ أن الحجاج فى القسطنطينية يرون واجبهم الأول فى زيارة ضريح أبى أيوب الأنصارى، الشهير فى تاريخ الإسلام، و من أخلص أصحاب النبى (صلى اللّه عليه و سلم) [...].

ثم يزور المسافرون المسلمون المساجد- مسجد آيا صوفيا، مساجد السلاطين: سليمان، محمود، أحمد، سليم، بايزيد، و غيرهم، و أخيرا يتسنى لبعض الحجاج فقط مشاهدة المتاحف و القصور، الأمر الذى قمنا به فى طريق العودة بفضل تلطف ياور البلاط العقيد صادق بك [...].

فى ۲۹ آذار (مارس) كنا فى بيروت حيث غادرنا باخرتنا «ناخيموف» لكى نسافر إلى دمشق. و من بيروت إلى دمشق كان السفر يجرى آنذاك فى عربة كبيرة تجرها ستة بغال. أما الآن فقد بنيت هناك سكة حديدية.

تعبر الطريق جبال لبنان، بخط متعرج، متلو، أولا ۵۰ فرستا نزولا من الجبال، ثم الجبال، ثم، بعد معبر عبر الجبال، ۶۰ فرستا نزولا من الجبال، ثم الفرستات ال ۱۰ الباقية فى وهدة، على ضفة سيل مائى، عابرة أياه غير مرة من ضفة إلى أخرى ...

أعظم طرائف دمشق جامع الأمويين القديم الباقى من حيث خطوطه الكبرى حتى أيامنا هذه. و هو يتميز بعظمته و مهابته الخارجية، و روعة الزينات من الذهب و الفيسفساء فى الداخل، و كبره الذى لا يصدق إذ يتسع ل ۱۸ ألفا من المصلّين. و فوق الجامع تنتصب بضع منارات رشيقة اسطوانية الشكل. و أحداها تعتبر الأهم؛ عليها، كما تقول

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۴۷

الأسطورة، سينزل يسوع المسيح حين يحل زمن التنكيل بالمسيح الدجال أى حين يحل يوم القيامة أو يوم الحساب [...].

القصور و الجنائن و البساتين، و الكثير من العمارات الفخمة، و السوق البديعة، و مخازن الأسلحة ، و المقاهى، زهاء ۲۰۰ مسجد- كل هذه تشكل زينة المدينة القديمة. بيوت المالكين الخصوصيين الذين تسنى لى أن أزورهم لا تسترعى النظر بشىء من الخارج، و لكنها فى الداخل تتغندر بالزخارف و بالفسيفساء المتنوعة الألوان و بالبذخ حسب الذوق الشرقى.

جمال دمشق الرئيسى موقعها. فمن الثلوج الذائبة من الجبال اللبنانية تتشكل كثرة من السواقى التى تصب فى واحدة و تشكل مسيلا اسمه بردى، و عرضه ۳۰ ساجينا تقريبا. يسيل نهر بردى فى وسط المدينة ثم ينقسم إلى سواعد، و يتشعب فى عموم المدينة و بذلك يتيح إنشاء الأحواض و الفوارات فى كل مكان. و فى كل حوش تقريبا توجد فوارة، و فى كل بستان حوض مائى تتلاعب فيه «اسماك ذهبية»، و فى كل بيت، و حتى فى كل غرفة تقريبا توجد مجارير المياه.

التربة الخصبة، و وفرة الماء و المناخ الحار تعطى نباتا سريع النمور و متنوع الأصناف، و زهورا و ثمارا عجيبة إلى حد أن العرب يسمون دمشق عن حق و صواب «جنة الدنيا».

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۴۸

و فى دمشق تعرّفت على تترى من قازان يعيش و يشتغل هنا من زمان بعيد. و قد رحت معه إلى جبل واقع قرب المدينة يدلون منه على المكان الذى قتل فيه قايين اخاه هابيل. ثم زرنا قبر ولى مسلم يحكون عنه ما يلى.

منذ سنوات عديدة جدّا دفن إمام دمشقى شخصا غير معروف كان يعيش فى دمشق. و حين طمروا الجثة بالتراب، طرح الإمام على

الحاضرين السؤال العادى: هل كان المتوفى طيبا. الجميع ذكروه بالخير و تمنوا له المملكة السماوية (الجنة)، و لكن واحدا منهم قال عن المتوفى الكثير من السوء. فى هذه الأثناء اطلت من القبر قدم بسرعة البرق. لم تكن للدهشة حدود بالطبع، الجميع آمنوا بقداسة المتوفى، و بنوا فوق رفاته ضريحا لائقا لا يزال يزوره إلى الآن كثيرون من المسلمين.

و انقضت سنوات عديدة. ذات مرة زار باشا تركى عجوز القبر، و كان يشك، نظرا للقدم المطلة، فى أن تبقى الجثة مئات السنين. حفروا القبر فتصاعد منه نور ساطع. رأى الباشا و جميع من معه بأم عيونهم جثة الرجل المقدس، و ندموا زمنا طويلا جدّا، مرددين الصلوات الحارة.

و بعد هذا، لم يطمروا القبر من جديد بل غطوه بالقطن تاركين القدم فى وضعها السابق. و أنا رأيتها بأم العين، و عجبت كثيرا بالطبع، بنما الفرنسى الواقف بقربى هز رأسه دليل الشك.

فى أوائل نيسان (ابريل) عدنا من دمشق إلى بيروت؛ و فى اليوم نفسه انطلقنا إلى يافا و منها إلى القدس. من يافا إلى القدستوجد سكة حديدية هى ملك شركة فرنسية. السكة تمتد طوال الوقت كله تقريبا فى الجبل و القسم الأخير منها فى فج ضيق و عميق.

فى القدس أمضينا أسبوعا بكامله، و شاهدنا الأماكن المقدسة و صلينا فى مسجد عمر و فى المسجد الأقصى.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۴۹

المسجدان المتجاوران ينتصبان فوق ساحة عريضة، مطوقة بحائط حجرى- الحرم الشريف الواقع فى قمة جبل [...] الممهدة و المبلطة بصفائح من المرمر و الغرانيت، و المحاطة بكثرة من الانشاءات العجيبة.

و بمسجد عمر المشيد فى مكان هيكل سليمان ترتبط الأسطورة عن سفر النبى ليلا من مكة إلى القدس. و فى هذا المسجد يدلون أيضا إلى الصخرة التى تشكل كلّا واحدا مع الجبل الذى صعد منه محمد إلى السماء [...].

الأماكن المقدسة فى القدس موصوفة مرارا و تكرارا؛ و فى الأدب الروسى توجد عنها كتب عديدة مختلفة من حيث المستوى و المزايا، و لذا اتحاشى تكرار المعروف. و لكن اكتفى بالقول أن الأماكن المقدسة تبدو حسب الوصف كأنما موزعة فى مساحة كبيرة بينما هى فى الواقع متقاربة بشدة.

لا يمكن و لا يجوز الصمت عن أن مقدسات المدينة العالمية يشوبها أقصى القذر. و المدينة نفسها تحدث بعد دمشق إنطباعا مرهقا سواء بمظهرها الوسخ أم بتجهم و برود سكانها المتنوعى القوميات و الأديان؛ و بقدر ما نرى سكان دمشق مضيافين و لطفاء و خدمين بقدر ما نرى سكان القدس الحاليين، بدءا من اليهود و إنتهاء بالروس أو ممن يتظاهرون بأنهم روس، طماعين، بخلاء، ميالين إلى ابتزاز أكثر ما يمكن من المسافرين و الحجاج، و إلى خداعهم بنحو ما. و قد اعتاد السكان النظر إلى الحجاج نظرتهم إلى دجاجات تبيض بيضات ذهبية. و يستحوذ الحياء و الغضب على القلب و الروح حين يرى المرء كيف يسود الفساد إلى جانب المقدسات، و إلى ما قيل يجب أن أضيف مناخ القدس الردىء، غير الصحى، و غياب الماء الجيد فيها.

من القدس قمنا برحلة إلى بيت لحم و إلى حبرون (الخليل) الواقعة على مسافة ۷ ساعات ركوبا فى طريق بديع. و فى بيت لحم رأينا كنيسة

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۵۰

المهد، و فى الكنيسة معلف. و المعلف عبارة عن حجر محفور و منحوت، من الغرانيت على ما يبدو، طوله زهاء أرشين واحد. و فى هذه الكنيسة يعرضون أيضا المكان الذى نمت فيه شجرة كانت تجلس تحتها العذراء مريم و الطفل يسوع فى يديها.

و فضلا عن الكثرة من مختلف المقدسات و الطرائف المعمارية، زرنا فى حبرون هيكلا بديعا ترقد فيه، كما تقول الأسطورة، رفات بطاركة المقدس الأوائل- إبراهيم، يعقوب، يوسف، و غيرهم. و القبور تقع فى كهف مستواه أدنى من مستوى أرضية المسجد، و إليه ينزلون على سلاسل بضعة مشاعل صغيرة مشتعلة.

قضينا الليل فى حبرون وعدنا إلى القدس ثم إلى يافا، و منها إنطلقنا على متن الباخرة «اوديسا» التابعة لشركة روسية إلى بور سعيد.

و عند وصولنا إلى بور سعيد زرنا فى الحال القنصل الروسى لكى نسأل عن البواخر الذاهبة إلى ينبع. و قد تبين أن قنصلنا السيد براون المانى و لا يعرف أية كلمة روسية. أعرب عن استعداده لخدمتنا و مساعدتنا المعلومات التى يملكها؛ و لكن من جراء عدم فهم اللغة بصورة متبادلة و غياب المترجم فى القنصلية، جائت خدمات السيد براون مثل خدمة الدب بالذات أى جاءت بعكس القصد منها؛ أى أنها لم تنفع بل أضرت. فمن توضيحاته نجم أن هناك باخرة وحيدة تقلع قبل مضى أسبوعين. و فى الوقت نفسه تطوع السيد براون لتزويدنا بالتذاكر، توافقنا بطبيعة خاطر. و لكن تبين فيما بعد أن الباخرة الوحيدة التى ستقلع فى ۱۶ نيسان (ابريل) إلى ينبع، تخص الشركة النمساوية «لويد» التى يقوم السيد براون بدور عميل لها؛ و أن هناك بواخر تابعة لشركات أخرى و أننا لو سافرنا على متن أحداها لدفعنا أجرة أقل.

فى ۱۶ نيسان أقلعت الباخرة «اغلايا» من بور سعيد عبر قناة السويس؛ و فى صباح اليوم التالى كنا فى السويس، ثم عبرنا البحر

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۵۱

الأحمر خلال يومين. و أثناء هذه الرحلة، تقابلنا للمرة الأولى مع مؤشرات الدخول فى المنطقة الاستوائية. كان ميزان الحرارة حسب معيار ريومور يشير إلى ۲۷ درجة الظل. الأبخرة التى ترتفع من البحر تترسب ليلا- بصورة ندى صمغى يثير إحساسا غير مستطاب إطلاقا، و لاذعا نوعا ما، حسب كل احتمال، لأنه يثير طفحا أحمر سواء على الوجه أم على الأقسام المكشوفة من اليدين المعرضة لتأثيره. و لا يمكن فى أى حال من الأحوال القول عن السفر فى البحر الأحمر بأنه مستطاب؛ فإن القيظ نهارا، و كتمة الهواء ليلا يرافقان المسافرين طوال الوقت كله لأن الندى الذى ذكرته للتو لا يسمح بفتح أبواب و نوافذ ليلا. و سواحل البحر تعرض منظرا صحراويا تماما. و للماء لون محلول الزاج؛ و لا تقع العين على الطيور و لا حتى على طيور النورس، و لا نرى الأسماك التى تتلاعب عادة على سطح الماء فى البحار الأخرى؛ و لذا يبدو البحر الحمر نفسه فى الطقس الهادئ عديم الحياة كليّا [...].

ينبع قلعة غير كبيرة. عدد سكانها خمسة آلاف. و هنا مقر القائمقام، معاون عامل المدينة المنورة (الوالى). و فى القلعة حامية تركية من ۵۰۰ جندى.

بأنتظار تشكيل القافلة أمضينا فى ينبع خمسة أيام، و اشترينا كل ما يلزم لأجل مواصلة السفر الطويل إلى المدينة المنورة على «سفن الصحراء» [...].

حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر انطلقنا من بوابة القلعة فى اتجاه المدينة المقدسة [...].

كانت الوقفات على العموم غير طويلة. كانت القافلة تسير نهارا و ليلا. خطوة الجمل كبيرة نسبيّا، و لكن رغم كل هذا تسير القافلة ببطء.

سبب بطء الحركة امتداد القافلة الكبير. يكفى أن يقف جمل لسبب ما

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۵۲

حتى يتعين أن تقف كل السلسلة السائرة وراءه. فى اليوم الواحد كنا نقطع بالاجمال ۳۰- ۳۵ فرستا، لا اكثر.

فى ۲۵ نيسان (ابريل) اقتربنا مساء مع غروب الشمس من المدينة المنورة، أى من اقدم مراكز الإسلام. انتعشت القافلة. أشعل الجميع المصابيح و المشاعل و بدأ إطلاق النار من البنادق، و انشد البعض أناشيد دينية، و تلا آخرون غيبا آيات من القرآن الكريم، و تنادوا بأصوات مدوية، و اطلقت النساء الهنديات و المصريات من الحلق ترانيم غريبة جدّا.

و على بعد ۱۰ فرستات تقريبا من المدينة، استقبلنا المسلمون المهاجرون الروس المقيمون هنا على الدوام. و فى الساعة الحادية عشرة كنا جالسين فى صالون مواطننا اللطيف المضياف عبد الستار أفندى إلى سماور روسى يفح بمرح و إلى مآكل قومية متنوعة.

فى صباح اليوم التالى صليت بدموع الفرح و الحنان و الرقة و بكل حرارة عند قبر محمد، الذى كان فى التاريخ العالمى كله الإنسان

الوحيد الذى جمع فى نفسه النبى و الشاعر و الحقوقى و المشترع و الطبيب و الخبير الصحى و مؤسس دين و امبراطورية، و أضفى القوة و الوحدة على جميع القبائل فى الجزيرة العربية و من خلالها على العديد من الشعوب الأخرى فى آسيا و افريقيا و أوروبا، و يتقيد بمذهبه و تعاليمه الآن أكثر من ثلث البشرية جمعاء [...].

عامل المدينة المنورة عثمان باشا تحدر من روسيا؛ فهو شركسى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۵۳

القومية، و قد غادر القفقاس طوعا و اختيارا. حموه، الأبن البكر للشخصية الشهيرة شميل، غازى محمد، الذى يعيش على الدوام فى مدينة النبى، يتمتع بالشعبية الواسعة، و الإنتباه و الاحترام بين العرب. إن مسلما مثقفا ذكيا يشغل مكان الصدارة فى رفقتنا الصغيرة زار مرارا شميل عثمان باشا. و هو يقول أن الحديث العام كان غالبا ما يعود إلى الذكريات عن روسيا، الموطن السابق، و هى ذكريات مفعمة بالعطف العميق.

تشغل المدينة رقعة غير كبيرة نسبيّا، و مرد ذلك إلى أقصى تزاحم العمارات؛ فإن البيت يلتصق بالبيت دون أية فسحة بينهما. لا أحواش.

الشوارع ضيقة إلى حد انه لا يمكن فى بعضها إلا بصعوبة أن يتلاقى و يتفارق حماران محملان.

و من غير المريح أبدا بالنسبة لأبن الشمال غياب الزجاج فى الغرف، و لذا يطير الغبار إليها مباشرة من الشارع؛ و الغبار كثير لأن الحركة فى الشوارع هائلة و متواصلة فى غضون أربعة أشهر، بدءا من شهر رمضان حين يتوافد إلى هنا الحجاج من شتى أقطار العالم الإسلامى.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۵۴

إن الموضوع الذى يجتذب إلى هنا مئات الآلاف من الحجاج إنما هو الجامع الذى يتواجد فيه قبر النبى محمد. قبره يقع فى الجانب الجنوبى من الجامع. و فوقه يوجد مرتفع غير كبير مكسو بغطاء حريرى مطرز بغنى و وفرة، و محاط بشبكة من الحديد الصب المطلى بالذهب، و عاليا فوق السطح تشع قبة (السعادة). و إلى جانب النبى دفن خليفتاه الأولان-، الخليفة أبو بكر و الخليفة عمر- و إلى أبعد، ابنة النبى، زوجة الخليفة على، فاطمة [...].

أمضينا فى المدينة المنورة خمسة أسابيع بانتظار قافلة دمشق لأننا لم نتجرأ على مواصلة السفر مع قافلة البدو نظرا لغياب التنظيم فيها، ثم لأن قوافل البدو لا تراعى البتة أية قواعد صحية. و الآبار التى تمر بها هذه القوافل فى طريقها محاطة بكثرة من الأقذار و الأوساخ، و حتى جثث الذين يموتون فى الطريق يطمرونها كيفما اتفق فى مكان التوقف بالذات.

اغتنمت فرصة الإقامة المديدة فى المدينة المنورة فتعلمت اللغة العربية لأنى حسبت أن أبقى بضع سنوات فى الجزيرة العربية رغم أنى غيرت رأيى فيما بعد. اللغة العربية عسيرة المنال على الكثيرين و لكنى كنت أعرفها نوعا ما على الصعيد النظرى، و هذا ما ساعدنى فى استيعاب الكلام الدارج بسرعة.

يكنّ العرب للكفار، أى لغير المسلمين اشمء زازا غريزيا، و فضلا عن ذلك ينظرون بعدم الرضى إلى جميع من لا يتكلمون بالعربية. و هم

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۵۵

يعتبرون لغتهم، و ليس بدون بعض المبررات أغلب الظن، لغة فائقة الغنى، قوية التعبير، و أحسن لغات العالم وقعا على الاذن، و أكثرها اناقة.

فضلا عن دراسة اللغة العربية بصورة عملية، أخذت دروسا فى «علم التجويد» الذى يتلخص فى صحة نطق آيات القرآن الكريم، لأن أهل المدينة المنورة يعتبرون خيرة قراء و مفسرى الكتاب المقدس.

و كثيرون منهم يعرفونه بكليته غيبا. تعلمت عند معلم، من سلالة النبى، اسمه على أفندى زغيرى. اخلاف النبى يسمونهم «بالأسياد» و لذا كانوا يسمون معلمى «بالشيخ السيد على زغيرى». و لكل سيد، عدا ذلك، لقب «الشريف»؛ و الاسياد يحملون فى الحزام خنجرا أعوج دليلا على تميزهم.

و قد تبين أن السيد على أفندى، كما كان ينبغى التوقع نظرا لأصله الرفيع، كان إنسانا متعلما، محبّا للاطلاع، و لطيفا جدّا. فى سنة ۱۸۹۸ جاب فى ربوع آسيا الوسطى و روسيا، و زار مدينة أوفا حيث كان من حسن حظى أن ازوره. و قد عرفنى فى الحال، و سرّ باللقاء على ما يبدو.

أمضينا معا أمسيتين، متحادثين عن روسيا و عن الجزيرة العربية، و متذكرين، فيما تذكرنا، المدينة المنورة و دروسنا. و غنى عن البيان انه لقى من جانب المسلمين فى كل مكان، بوصفه ضيفا رفيع المقام، و مبجلا، و نادرا، الاحترام اللائق و الاستقبال المناسب [...].

فى المدينة المنورة تسنى لى أن احضر محاكمة، و لكن بصفة شاهد.

قبل سفرنا ببضع سنوات توفى فى المدينة المنورة حاج، بشكيرى من انحائنا، تاركا زوجة و أولادا. و بموجب القاعدة العامة السارية المفعول، أخذوا أموال المتوفى، حتى حضور و مطالبة ورثته الشرعيين إلى بيت المال أى إلى مؤسسة تشرف على أموال و تركات الموتى.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۵۶

أعطت زوجة المرحوم أحد رفاقى وكالة للحصول على الأرث. طلبت المحكمة شاهدين بوسعهما أن يؤكدا صحة الوكالة. و كنت أنا أحد الشاهدين. استجوبونا بعد القسم. جرت المحاكمة فى حجرة متواضعة، علنا، أمام الحضور، و عند الفصل فى الدعاوى يفصل فيها قضاة تعينهم الحكومة التركية. و عند الفصل فى الدعاوى يسترشدون بلوائح خاصة تسمى «بالدساتير»؛ و هذه تضعها المحكمة التركية على أساس أحكام الشريعة.

طريقة وضع الدستور الذى يتجاوب مع الحياة الواقعية هى التالية.

توجد فى القسطنطينية لجة خاصة من حقوقيين مسلمين يضعون، كما أشرنا أعلاه، على أساس أحكام الشريعة، مشروع قانون فى فرع معين من الحق، عارضينه فى شكل عقائدى. مشروع القانون الموضوع هنا يطبعونه و يرسلونه إلى المحافظات العامة و المحافظات فى الامبراطورية حيث توجد لجان ثانوية. و هذه تدرس المشروع المرسل و تعيده مع اعتباراتها و آرائها. و لجنة العاصمة تدرس هذه الاعتبارات و الآراء حول مشروعها و تضع نهائيا وثيقة تكتسب قوة القانون تصبح سارية المفعول ما أن يصادق عليها السلطان.

فى أواخر أيار (مايو) وصلت إلى المدينة المنورة قافلة حكومية تركية يجرى تجهيزها سنويا فى دمشق و إرسالها عبر المدينة المنورة إلى مكة المكرّمة مع هدايا عادية لشريف مكة و رؤساء (شيوخ) البدو، و هدايا الكعبة و للجوامع، و مع النقود لإعالة الموظفين الأتراك.

هذه المرة كانت القافلة تتألف من ألفى جمل و سارت بقيادة عبد الرحمن باشا و برفقة بضع مئات من الجنود المسلحين بالبنادق و راكبين على البغال. و كانت القافلة مزودة بمدفع و لذا كانت مضمونة تماما على صعيد السلامة و الأمن دون هجوم البدو. و إلى هذه القافلة انضممنا نحن المسلمين الروس و عددنا ۴۲ شخصا. و معنا سافر مهاجر

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۵۷

روسى، طبيب تعلم على نفسه، و ساعد كثيرا و مجانا أثناء السفر بنصائحه و أدويته.

فى ۳۰ أيار (مايو) مساء، إنطلقت القافلة من البوابة الشرقية للمدينة المنورة فى طريق لا تمضى عليه قوافل البدو لأن هذا الطريق أطول من الطريق العادى. قطعنا الطريق من المدينة المنورة إلى مكة المكرّمة فى الشقادف، و لكن توجد فى قافلة دمشق تختروانات أيضا. التختروان إنما هو حمالة يركبون عليها لأجل ركوب المسافر كشكا غير كبير له نوافذ صغيرة جدّا يمكن فتحها. هذا الكشك يشدونه

بين جملين سائرين الواحد تلو الآخر.

كانت القافلة تسير نهارا فقط، منطلقة من الموقف بعد صلاة الفجر أى قبل طلوع الشمس بساعة و نصف ساعة تقريبا؛ و كانت تتوقف لربع ساعة لأجل إداء صلاة الظهر ثم كانت تسير بلا توقف حتى صلاة المساء و إدائها قبل غياب الشمس و تتوقف لقضاء الليل. و قبل توقف القافلة، يرسلون إلى الإمام لأجل الاستكشاف أفرادا من حرسها المرافق و الخدم الذين ينصبون الخيام.

كان الوقت أثناء الوقفة ينقضى بما يكفى من المرح فى تبادل الزيارات و إحتساء الشاى (كانت معنا سماورات روسية) و فى الأحاديث التى غالبا ما كانت تستطيل إلى ساعة متأخرة من الليل. و قد اجتزنا الطريق كله بهدوء و انشراح و بشاشة، و لم يكن ثمة شىء، على ما يبدو، ينذر بويلات الوباء الذى كان ينتظرنا فى مكة ...

ركوب الجمال لا يطاق البتة. يهتز الراكب و أى إهتزاز. و لدى كل خطوة من الجمل يتأرجح الراكب تارة إلى جانب و طورا إلى آخر و لذا يصاب كثيرون فى الأيام الأولى بمرض دوخان البحر. و هذا الركوب أزعجنى لفترة من الزمن إلى حد أنى طلبت من سواق الجمل، و هو عربى سورى، أن يتنازل لى عن حصانه لمدة يوم واحد. وافق و أن لم يكن ببالغ

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۵۸

من طيبة الخاطر، و حل محلى فى الشقدف، و أخذ يراقبنى منه بين الفينة و الفينة طالبا أن أمضى بمزيد من الهدوء و البطء، رغم أنى لم أكن أفكر البتة بحث حصان لا أعرفه ...

إن العرب يحبون و يقدّرون أحصنتهم إلى أقصى حد. و لا يمكن أن نجد عند أى شعب آخر مثل هذا التعلق بهذه الحيوانات الضرورية فائق الضرورة لأجل القبيلة، المترحلة على الأغلب. و هذا التعلق ليس غريبا لا على الحكام و لا على الشعب البسيط، و لا على النساء و لا على الأولاد. و كثيرون من الشعراء العرب تغنوا بالحصان. و هناك أدلة كثيرة على حب العرب و تعلقهم برفاقهم فى الفرح، فى المجد و التعاسة- الأحصنة [...] ...

فى اليوم الحادى عشر مساء اقتربت قافلتنا من مكة و توقفت فى محلة شهادة؛ و سرعان ما جاء دليل المسلمين الروس محمد على سروجى مع أحد معاونيه. و الأدلة هم قادة الحجاج فى زمن إداء شعائر الحج و فى زمن زيادة الأماكن المقدسة فى المدينة و ضواحيها. محمد على سروجى عربى أصيل من مواليد مكة و سكانها الدائمين. آنذاك كان عمره أكثر من ۶۰ سنة. و أنا لا أعرف ما إذا كان لا يزال الآن قيد الحياة. كان سروجى يتكلم بالتركية بطلاقة، و لكن اللغة الروسية أيضا لم تكن غريبة عليه. فقد تعلم التكلم الروسية فى سجن طشقند حين زجوا به فيه بسبب عدم وجود الوثائق اللازمة أثناء تجوبة فى ربوع آسيا الوسطى. و فى السجن أمضى سنتين كاملتين إلى أن أنتهت المراسلات الدواوينية بشأنه؛ و هذا واقع يدل على غلاظة و قساوة الأوضاع البيروقراطية.

و الأدلة يعينهم شريف مكة، و هذا اللقب ينتقل بالوراثة من الأب إلى الأبن [...].

[...] حين وصلنا إلى عرفات، كان الوادى مغطى كليا بالخيام إذ تجمع هنا حوالى نصف مليون من الحجاج من مختلف القوميات: من

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۵۹

العرب المحليين، و البدو، و الأفارقة من مصر و الجزائر و المغرب، و الهنود، و سكان جزيرتى سومطرة و جاوه، و سكان بخارى، و الفرس الشيعيين، و سكان بوسنيا، ثم نحو الفين من المسلمين الروس، و عدد أقل من الافغان، و أخيرا نحو ۱۰ صينيين. و للمناسبة أقول أن جميع القوميات تساوت هنا باللباس العام الذى يرتديه الحجاج- ثوب الأحرام.

إن الحادثة التالية قد تعطى فكرة عن كبر المخيم. راح أحد المسلمين الروس يتنزه فى المخيم فأضاع مكان خيمته. و حين كان يسأل عن كيف يجد جماعته، كانوا يسألونه من أى بلد جاء. و هذا لأنه بوسع المرء، إذا عرف وطن السائل، أن يخمن القافلة التى وصل معها و المكان الذى توقفت فيه. و لكن هذا الساذج لم يخطر فى باله أن يجيب عن جميع الأسئلة انه «قازانلى أى قازانى»، من قازان، و كان يجيب انه «بوغولمى»، دون أن يخطر فى باله أن عدد قليلا جدّا من الناس، لا فى الجزيرة العربية و حسب، بل أيضا فى روسيا

أغلب الظن، سمعوا بوجود بلدة بوغولما الصغيرة فى محافظة سامارا .. و لذا لم يستطع أن يتلقى جوابا من أحد على أسئلته، و أمضى أكثر من نصف اليوم فى البحث؛ و نحو المساء فقط وصل بالصدفة إلى خيام مواطنيه.

طوال ليلة الحادى عشر إلى الثانى عشر من حزيران (يونيو) صدحت الموسيقى فى مخيم الحجاج، و شعت الألعاب النارية و الصواريخ و دوت طلقات المدافع بين الفينة و الفينة. كانت هناك ثلاثة مدافع. و أحد فى قافلتنا، و الثانى فى القافلة المصرية، و الثالث فى القافلة المكية.

اليوم الثانى، يوم عرفات، بدأ بإلقاء موعظة دامت حتى الساعة الرابعة قريبا من بعد الظهر. و قد ألى الموعظة إمام معين خصيصا، و صعد إلى الجبل على جمل أبيض و توقف على بعد بضعة ساجينات من

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۶۰

العمود الحجرى المنصوب على الجبل. لم أعرف مضمون الموعظة بسبب الضجة المحتمة فى مثل هذا الحشد الجمّ من الناس، و بسبب بعد الامام [...].

عند الظهر تكشفت بين الحجاج إصابات مرض. كان المرضى الأوائل من عداد اليمنيين؛ و بعد بضع ساعات، سرت فى المخيم بسرعة البرق إشاعة عن حالات وفاة. تكدّر الجميع، و لكن خضوع المسلمين لمشيئة اللّه كان له الغلبة. فلم يخالف النظام العادى للاحتفال بالعيد العظيم و النادر إلى أقصى حد بالنسبة للاغلبية الساحقة. و عدا ذلك، لقى الجميع العزاء من الإيمان فى أن من أمضى الليل فى عرفات قد لقى الغفران عن جميع الخطايا التى اقترفها قبل ذاك.

قبل غياب الشمس بدأ جميع الحجاج، باستثناء الشيعيين، يتجمعون للرحيل؛ و حين دوت طلقة المدفع أطلق جميع الحجاج، و عددهم نصف مليون شخص، هتافا مدويا بالتشيد، و انطلقوا بلا نظام فى طريق مكة إلى وادى منى.

كان الجمع فى منتهى التنوع. مضى البعض سيرا على الأقدام، و مضى بعض آخر على ظهور الحمير أو على ظهور الجمال، و مضى بعض ثالث فى شقادف بسيطة، و بعض رابع فى تختروانات مزينة بسخاء و غنى؛ و بعض خامس على أحصنة بديعة و حتى فى عربات مطلية بالذهب.

و على بعد قرابة عشرة فرسخات عن عرفات، توقف الجميع لبضع ساعات فى وادى المزدلفة حيث تلاقى آدم مع حواء، كما تقول الأسطورة، بعد طردهما من الجنة، و حيث قضيا الليلة الأولى. يقع الوادى بين الجبال. و هنا توجد بلدة صغيرة، و يوجد مسجد محاط بحائط. بعد إداء صلاة المساء و صلاة الفجر، واصلنا السير عند الفجر علما بأن كلا من الحجاج اختار لنفسه عددا معينا من الأحجار الصغيرة.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۶۱

و على بعد بضعة فرسخات من المزدلفة تقع بلدة منى الصغيرة جدّا فى واد بالاسم نفسه. هذا الوادى يحفل بالذكريات؛ و المؤرخون المسلمون يذكرونه غير مرة. هنا، كما يقال، كان قبر آدم، و هنا قدم قايين و هابيل الأضاحى، و هنا ولدت هاجر أبنها إسماعيل فى أحد الكهوف، و هنا أراد إبراهيم أن يضحى بابنه، و لكن الشيطان المتجسد بصورة شيخ مسن حال دون ذلك، و لذا أخذ البطريرك إبراهيم يرجمه بالحجارة. و هنا أخيرا أغرى الشيطان نفسه إسماعيل على الانتحار، و قطع الطريق ثلاث مرات أمام إبراهيم و إسماعيل حين عادا من عرفات إلى مكة بعد أداء فريضة الحج، الأمر الذى كان لا بد من أن يجازى عليه؛ فإن النبيين- الأب و الأبن- أخذا يرجمانه بالحجارة. ثم، كما تقول الأسطورة، راح إسماعيل طوعا و اختيارا إلى المكان الذى كان يجب أن يضحى به فيه و لكن الشيطان إغراه ثلاث مرات محاولا- أن يصرفه عن إطاعة والده و عن عزمه على التضحية بنفسه. و مكان كل من لقاءات إسماعيل الثلاثة هذه مع الشيطان معلّم بعمود حجرى يرميه الحجاج (فى غضون الأيام الثلاثة من الإقامة فى منى) بالاحجار المجلوبة من المزدلفة تذكيرا بأن إسماعيل رد على إغراء الشيطان برميه بالاحجار .

فى وادى منى توقفت قافلة الحجاج بأسرها لمدة ثلاثة أيام، ما عدا الشيعيين الذين بقوا فى عرفات، و كانت تلك أكبر وقفة. هبت «السموم» ارتفعت الحرارة من ۲۷ درجة بمقياس ريومور إلى ۳۵ درجة فى الظل بسرعة بالغة.

الوادى- و الأصح القول- الفج ضيق جدّا، و لذا تلامست خيام الحجاج المنصوبة و تماست تقريبا إحداها بالأخرى. و الصخور العارية

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۶۲

التى تطوق الوادى و التى تسخنها الشمس حولته حقا و فعلا إلى فرن هائل مشددة القيظ الذى لا يطاق و كتمة الهواء الخانقة فوق ما هما عليه من شدة. و ازداد عدد المرضى و ازداد عدد الموتى.

و كان اليوم التالى يوم تقديم الأضاحى .

صحيح أن تقديم الأضاحى هو بمثابة العمل الأخير فى جميع أعياد الحج، و صحيح انه كان ينبغى على القافلة أن تعود إلى مكة فى اليوم الثالث، عند غياب الشمس، و لكن هذه المرة اجيزت مخالفة النظام العادى بسبب تزايد عدد الوفيات أكثر فأكثر، و لذا عدنا إلى مكة بعد يوم من الموعد، و ذلك فى ۱۵ حزيران (يونيو).

لا بد من الإشارة إلى أن القيظ الذى لا يطاق فى وادى منى كانت له جوانب طيبة أيضا. فإن التجمع الهائل من الناس و الحيوانات فى واد عميق ضيق و كثرة النفايات بعد الذبح كان لا بد لهما أن يتسببا، فى أوضاع أخرى، بتنانة رهيبة، الأمر الذى لم يحدث هنا؛ فإن شمس الجزيرة العربية قد ادت واجبات الوقاية الصحية بشكل ممتاز؛ إذ أن جميع النفايات قد جفت آنيا و فقدت القدرة على نشر التنانة و الروائح الكريهة فى الهواء ...

من مجموعة المسلمين الروس الذين جاؤوا مع قافلة دمشق، و عددهم ۴۲، وصل أربعة إلى مكة مرضى، و مات ثلاثة منهم فى اليوم نفسه متضورين فى آلام رهيبة من التشنجات. ثم أخذت تتوارد معلومات عن الجديد و الجديد من الإصابات و الوفيات بين الحجاج من المسلمين الروس.

علاوة على الظروف المناخية، يشكل خطرا كبيرا على القادمين إلى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۶۳

مكة لحم الأغنام المحلية الذى هو لذيذ جدّا، و الحق يقال، و لكنه يثير اختلالا شديدا فى المعدة. و مرد ذلك، كما يقولون، إلى أن الأغنام تأكل ما يسمى العشب المكى (السنا المكى) أى الورقة الاسكندرى. هذه النبتة، كما هو معلوم، تملك خاصية مسهّلة. و للحيلولة دون التأثير المضر للحم المحلى فى الجسم ينصحون بتقطيعه قطعا صغيرة و قليه أو شويه، قبل طبخه، ثم باستعماله فى الطعام. و إن الحساء من هذا اللحم و المآكل الأخرى منه لم تمارس بالفعل تاثيرا ضارا فى المعدة فى حال تناولها باعتدال.

تجلى المرض بالضعف العام، و السهال، و القىء، و التشنج. و كان الموت يحل بعد ساعتين أو ثلاث. ولى كثرة من المبررات للقول أن هذا المرض هو الكوليرا الاسيوية الحقيقية .

أخذ القيظ يشتد يوما بعد يوم؛ كذلك ازداد عدد الوفيات، و لذا أسرع الجميع إلى مغادرة المدينة بخير و سلامة [...].

بعد العودة من منى إلى مكة اشترينا فى اليوم التالى بعض الأشياء ثم اغتسلنا بعد الظهر بماء زمزم، و قمنا بطواف الوداع، و قبلنا للمرة الأخيرة الحجر الأسود، و عتبة بيت اللّه، و كسوته، و ادينا الصلاة، و خرجنا من المسجد ناظرين إلى بيت اللّه حتى توارى عن أنظارنا.

عند غياب الشمس انطلقت مع واحد من رفاقنا و برفقة ثلاثة من العرب إلى جدّة لكى نركب الباخرة هناك و نسافر إلى وطننا روسيا. رحت راكبا على بغل؛ و بما أننا قطعنا المسافة كلها بين المدينتين (۷۰ فرسخا) فى الليل، فانى لم أر شيئا عدا المسافرين فى الاتجاه المعاكس، المنطلقين مجموعات على الحمير بضجة و ضوضاء بين الفينة و الفينة.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۶۴

فى الصباح الباكر وصلنا إلى جدّة. تقع مدينة جدّة على ساحل البحر الأحمر، و هى مرفأ لمدينة مكة، كما أنها أكبر مركز تجارى فى

منطقة الحجاز كلها. و النشاط فى المدينة كبير نسبيّا. و هنا توجد قنصليات الدول الأوروبية، بما فيها القنصلية الروسية. شغل السكان الرئيسى صيد المرجان و على الأغلب المرجان الأسود.

و قرب المدينة يدلون على قبر جدة جميع الكائنات البشرية، حواء؛ طول القبر زهاء ۶۰ ارشينا. فى وسطه ينتصب مسجد يؤدى فيه الزوار الصلاة. و فى المقبرة نفسها، دفن، فى عداد من دفنوا، القنصل الروسى الأول فى جدّة، المستشار الحكومى الفعلى إبراهيموف (تترى من تركستان).

و قد توفى بصورة مأساوية فى الطريق بين جدّة و مكة من الكوليرا فى السنة الأولى بالذات من تعيينه، سنة ۱۸۹۲. و يقال أن المرحوم كان قنصلا متحمسا و هماما يحرص على مصالح مواطنيه الحجاج، المسلمين الروس.

كان القنصل الروسى الكسندر دمتريفيتش ليفيتسكى لطيفا إلى حد انه عرض بسرور النزول فى شقته، رغم أننا جئنا من محلة عصف فيها مرض لم تكن خواصه معيّنة بعد بدقة، و سموه بالكوليرا فى جدّة نظرا لعدد الوفيات الهائل.

اغتنمنا ضيافة القنصل الروسى، و اقمنا هنا ثلاثة أيام بانتظار رفاقنا الذين بقوا فى مكة و بانتظار اقلاع أولى البواخر بالحجاج. و بين أولى البواخر التى أقلعت، كانت الباخرة «عبد القدير»؛ و قد ركبنا فيها مع الركاب الآخرين و أغلبهم من الترك و المسلمين الروس و اهل البوسنيا.

و فيها سافر أيضا الصينيون العائدون من مكة. و قد جاؤوا إلى مكة عبر الهند؛ أما الآن فقد اختاروا طريقا آخر لكى يشاهدوا القسطنطينية؛ و لكن هذا الفضول كلفهم غاليا بسبب الحجر الصحى. أقلعنا من جدّة فى ۲۱

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۶۵

حزيران (يوينو) و توقفنا قرب جبال سيناء على بعد ۱۲ ساعة فى الطريق من مدينة السويس و بداية قناة السويس.

و قد تبين أن اختيار الباخرة «عبد القدير» لم يكن موفقا؛ فقد صعد إلى متنها زهاء الفى راكب أى ما يوازى ضعفى ما يصح لها من حيث حجمها. ناهيك بانهم قبلوهم على متنها دون أى تميز، سواء منهم الأصحاء أم المرضى الذين رفضت البواخر الأخرى قبولهم. و سرعان ما تكشفت عواقب ذلك؛ فقد كان الضيق شديدا إلى حد أن ركاب الدرجة الثالثة كانوا ممددين حقا و فعلا مثل السمك فى برميل، بل أن كثيرين منهم حتى انولوهم فى العنبر الذى نعته الركاب بجهنم نظرا للقيظ و كتمة الهواء اللذين لا يطاقان فيه. و بما انهم قبلوا على الباخرة ركابا مرضى، فسرعان ما ظهرت الوفيات أثناء السفر من جدّة إلى سيناء رموا فى البحر ۲۵ جثة ببركاب الموتى.

و قرب سيناء وجدنا أربع بواخر موقوفة بسبب الحجر الصحى.

و كانوا قد انزلوا ركابها إلى الساحل و وزعوهم فى الخيام بحيث أن ركاب كل باخرة شكلوا جماعة منفردة، معزولة تماما عن الجماعات الأخرى، علما بأن حراسا مسلحين كانوا يحافظون على هذه العزلة. أما نحن، فقد بقينا طوال وقت الحجر الصحى على الباخرة، و لم نشعر نحن شخصيا بمنغصات هذا الحجر الصحى [...].

كان للمحجر الصحى مستشفى و لكن المرضى راحوا إليه بأقصى المضض و النزعاج لأن الأطباء و الخدم فيه عرب لا يفهمون لغات المرضى. و أثناء الحجر الصحى كان اليهود يستجلبون من مصر المأكولات و يبيعونها باسعار رابحة جدّا بالنسبة لهم: سعر رطل اللحم ۴۰ كوبيكا، سعر الدجاجة روبل و ۲۰ كوبيكا و أغلى، بينما سعر رطل اللحم فى السويس، على بعد ۱۲ ساعة فى الطريق ۱۰ كوبيكات فقط، و بينما شتى أصناف الدواجن- الدجاج، الأرانب، الحمام- إلّا أن

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۶۶

الطعام كان مؤمنا للمعدمين، و الحق يقال، على حساب الحكومة التركية.

اثر باخرتنا «عبد القدير» أخذت تتوافد بواخر أخرى و تتوقف كذلك للتقيد بالحجر الصحى. نحو اليوم الخامس عشر من التوقف قرب جبال سيناء، تجمعت ۲۵ باخرة. و فى هذه الأثناء، سمحوا للبواخر التى وصلت قبل «عبد القدير» بالسفر ثم بدأت تقلع شيئا فشيئا

البواخر التى وصلت بعدها، و لكن اعتبروا أنها خضعت للحجر الصحى. و محل البواخر التى اقلعت، حلت بواخر جديدة، و لذا وصلت أثناء توقفنا قرب جبال سيناء قرابة أربعين باخرة حاملة الحجاج العائدين من مكة.

و بالنسبة لنا نحن ركاب «عبد القدير» دام الحجر الصحى ۳۳ يوما؛ و فى ۲۵ تموز (يوليو) فقط أعلن أن بوسع الباخرة أن تستأنف سفرها.

نقلوا الركاب من الساحل بالزوارق إلى الباخرة. و لكن نقلوا معهم زهاء ۶۰ مريضا بقوا من البواخر الأخرى. أكان هذا سوء استعمال للوظائف أم مجرد نقص فى القيام بها؟ على كل حال كان من الغريب أن يبقونا فى الحجر الصحى ۳۳ يوما و أن ينتهى هذا الحجر الصحى بضم مرضى من بواخر أخرى إلينا من جديد. و بالطبع، ما لبثت النتائج أن ظهرت؛ فبعد يوم، كانت على «عبد القدير» خمس جثث.

فى ۲۶ تموز (يوليو) مساء، أقلعت «عبد القدير»، و فى صباح اليوم التالى اقتربت من مدخل قناة السويس. و هنا صعد إلى الباخرة أعضاء اللجنة الصحية الدولية، و فحصوا المرضى و تحققوا من عدد الركاب، ثم دخلت الباخرة قناة السويس التى هى عبارة عن شريط مائى ضيق بين ضفتين رمليتين منخفضتين. و القناة ضيقة إلى حد انه لا يمكن لباخرتين أن تتلاقيا، بل يجب أن تنتظر احداهما الأخرى فى أمكنة معينة أوسع.

مضينا فى القناة يوما بكامله بحراسة باخرة صغيرة و حرس مسلح

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۶۷

من على ضفتى القناة. و أثناء عبور القناة، تلاقينا مع باخرة حربية فرنسية و باخرة حربية أخرى، إنجليزية. و كان على متن الباخرة الأخيرة طلاب عسكرية فى رحلة تدريبية.

فى ۲۸ تموز (يوليو)، نقلوا جثث الركاب الموتى إلى الباخرة الصحية لأجل دفنها، و ذلك أثناء المرور بمحاذاة الإسماعيلية. و فى مساء اليوم ذاته تجاوزنا بور سعيد و دخلنا البحر الأبيض المتوسط، المر الذى تجلى فورا سواء فى تغير الهواء أم فى منظر نبات السواحل الذى لم نره قبل ذاك و لو مرة واجدة طوال سفرنا على الباخرة «عبد القدير».

انعطفنا إلى الشرق و خلفنا إلى اليمين مدينة يافا و مدينة صيدا؛ و فى ۳۰ تموز (يوليو) مساء وصلنا إلى بيروت. فى اليوم التالى جاء إلى الباخرة ترجمان من القنصلية العامة الروسية فى بيروت و أعلمنا انه اعد لنا على الساحل مبنى نظيف يجب قضاء مدة الحجر الصحى فيه. أمضينا ذلك اليوم كله على الباخرة. و فى الصباح التالى (فى أول آب- أغسطس) نقلونا إلى مخيم المحجر الصحى.

و فى بيروت كيفوا للحجر الصحى ثكنات قديمة تشغل مساحة كبيرة جدّا، يحيط بها من ثلاثة جوانب سور حجرى، و من الجانب الرابع البحر. و ضمن هذه الرقعة، توجد بضعة إنشاءات حجرية. فى واحد منها مكيف بهذا القدر أو ذاك للسكن، كان يعيش الدكتور العامل فى المحجر الصحى. و هنا أيضا خصصوا غرفة لنا. و كل مساحة المخيم مقسمة فى داخله بحواجز من الشعريات إلى ثلاثة أقسام لكى لا يتصل و يتعاشر ركاب باخرة مع ركاب البواخر الأخرى.

و المحجر الصحى مزود بوفرة من الماء النقى الممتاز؛ و فى داخله تنتصب الأشجار. و من حيث الظروف الطبيعية، يمكن على العموم نعت المحجر الصحى فى بيروت بانه مرض، و لكن الترتيب و النظام كانا فى منتهى القباحة. فقد انزلوا ركاب الباخرة «عبد القدير» و عددهم أكثر من

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۶۸

۱۳۰۰ شخص، فى أحد أقسام المحجر الصحى، و لم يكن من الممكن بالطبع أن تتسع لهم جميعا الإنشاءات الحجرية المتواجدة فى هذا القسم، ناهيك بأن عدد الخيام كان قليلا، و لذا تأتى لعدد كبير جدّا من الركاب أن يتحملوا الحجر الصحى فى الهواء الطلق.

كان الطبيب واحدا لكل هذا الجمع من سكان المحجر الصحى و عددهم ألف و خمسمئة تقريبا؛ و كان بدون معاونين و بدون

ممرضين، ناهيك بانه لم يكن يفهم أى لغة من لغات الشعوب التى كان أبناؤها من عداد ركاب «عبد القدير». كذلك الخدم الصحيون كانوا لا يعرفون اية لغة عدا اللغة العربية. و بوسع القارئ أن يتصور إلى أى حد مؤسف كان وضع أولئك الذين كان من سوء حظهم أن ينزلوا فى مستشفى لا- يمكنهم فيه حتى أن يطلبوا الماء من الخدم الذين لا- يفهمون لغاتهم. الرحلة السرية للعقيد الروسى ؛ ص۳۶۸

ن المستشفى على مقربة من الإنشاءات السكنية. كانوا يغسلون جثث الموتى كيفما اتفق قرب الأبواب بالذات تحت نوافذ الإنشاءات السكنية. و كانت المرحيض، غير المنظفة أبدا على ما يبدو تنشر رائحة كريهة رهيبة. و كان التطهير يجرى بصورى سيئة للغاية. و زيادة فى الطين بلة، لم يكن المستشفى مجهزا حتى بالأسرّة و كان المرضى ينامون مباشرة على الأرضية.

بفضل القنصل الروسى المرحوم ك. د. بياتكوفيتش و تدخله الحازم، بعد أن أبلغناه عن أوضاع المحجر الصحى، أخذت هذه الأوضاع تتغير نحو الأحسن. فقد زودوا المحجر الصحى بعدد كاف من الخيام، و اتخذوا التدابير لحفظ النظافة و لإزالة النتانة السائدة. و نقلوا المستشفى إلى عمارة واقعة بعيدا عن الإنشاءات السكنية و الخيام.

و ظهرت الأسرّة، و لذا لم يعد المرضى ينامون على الأرضية. و من جراء ذلك قل عدد الوفيات فى المستشفى. فى الآونة الأولى بلغت الوفيات ۱۰۰٪؛ و لذا أخذ سكان المحجر الصحى يسمون المستشفى، لا

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۶۹

«كاستاخانة» بل «كاسابخانة» ؛ و كل من كان يدخله كانوا يعبرونع على كل حال ميتا. و عندما أخذ بعض المرضى يشفون بعد تحسين الخدمة الصحية فى المحجر الصحى، تعجب الجميع من ذلك بوصفه ظاهرة غير عادية.

كذلك وقعت حوادث طريفة. كان معنا اثنان من تتر القرم. مرض أحدهما فوضعوه فى المستشفى. و بما أن رفيقه كان على يقين بانه لا مخرج من المستشفى غير مخرج واحد هو الطريق إلى القبر، و بما انه افترض أن رفيقه لم يعد بحاجة إلى أمواله، فقد أقام ضربا من بيع بالمزاد العلنى و باع كل امتعته؛ و لكن المريض، لما فيه دهشة رفيقه، شفى بعد ۱۳ يوما و خرج من المستشفى و وجد أن كل امتعته انتقلت إلى أناس آخرين، و بقى بدون أى لباس تقريبا.

و يوما بعد يوم أخذ يتزايد عدد الذين يشفون، و يقل عدد الذين يمرضون، و أخيرا اعتبروا أن الحال الصحية العامة لركاب «عبد القدير» مرضية تماما، فاطلقوا سراحنا من المحجر الصحى. و إجمالا بقينا فى المحجر الصحى فى بيروت ۴۳ يوما. و على امتداد كل هذه الحقبة من الزمن كان المعدمون يحصلون على الطعام مجانا، و أن يكن شحيحا جدّا: فى اليوم رغيفان صغيران من عجين القمح و قطعة متناهية الصغر من الجبنة المالحة جدّا.

أقلعت الباخرة السيئة الحظ «عبد القدير» من بيروت فى ۱۵ أيلول (سبتمبر)، و كان لا بد لها أن تخضع فى اورله، بجوار أزمير، لحجر صحى آخر مدته يومان. و هنا انزلت قسما من ركابها، قرابة خمسمئة شخص، ثم تابعت سفرها. و فى الدردنيل جرى فحص الركاب، الأمر الذى تسبب بوقفة غير طويلة. و أخيرا، بعد كثرة من المحن، وصلنا فى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۷۰

۲۰ أيلول إلى القسطنطينية. و هنا استقبلنا على متن الباخرة موظف السفارة، السيد ياكوفليف، و معه نزلنا إلى الساحل.

زرنا فى القسطنطينية أقاربنا المقيمين هنا من زمان بعيد و اقمنا عندهم أسبوعا. و فى ۲۷ أيلول اقلعنا إلى أوديسا و فى أول تشرين الأول (اكتوبر) نزلنا فى أرض الوطن؛ و بعد أسبوع كنت فى اوفا، فى بيتى، بين أهلى و أقاربى و اصدقائى و معارفى .

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۷۱

مكة مدينة المسلمين المقدسة مقتطفات من ذكريات الحاج عيشايف

الفصل الأول مدينة جدّة

فى سنة ۱۸۹۵ خدمت فى مدينة جدّة الواقعة على ساحل البحر الأحمر، فى منطقة من الجزيرة العربية، أسمها الحجاز. جدّة مدينة كبيرة نسبيّا، و النقطة التجارية الرئيسية فى الحجاز. فى مكلّئها غالبا ما ترسو البواخر و السفن التى تقيم الإتصالات بين أوروبا و بين افريقيا الشرقية و ايران الجنوبية و الهند و الشرق القصى. عبر جدّة تتحرك كذلك إلى مكة جماهير الحجاج المسلمين القادمين من مختلف البلدان على السفن و البواخر. و فى جدّة ينزلون و يسافرون برا إلى مكة التى يفصلها عن جدّة ما لا يزيد عن سبعين فرستا. و لحماية مصالح الحجاج توجد فى جدّة قنصليات من الدول الأوروبية التى عندها رعايا مسلمون؛ و فى عداد القنصليات القنصلية الروسية التى خدمت فيها [...].

على الصعيد الإدارى و العسكرى يدير جدّة معاون محافظ مكة، القائمقام. و فى المدينة ترابط حامية تركية من ۵۰۰ فرد و توجد بضعة مدافع. و لسكن الجنود توجد ثكنتان، أحداهما تقع على ساحل البحر، قرب المكان الذى ينزل فيه الحجاج منالبواخر، الأخرى قرب قبر حواء.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۷۲

لا وجود فى المدينة لطرائف خاصة، ما عدا قبر حواء الواقع خارج المدينة، وسط مقبرة كبيرة. لمدفن أم البشر أجمعين نحو ۶۰ أرشينا بالطول؛ فى مقدمة القبر (أى فى موضع الرأس فى القبر) يوجد ضرب الآخر من صفيحة من المرمر عليها كتابات عربية؛ و تنتصب نخلة. فى الطرف الآخر من القبر تنمو شجيرات ما. فوق وسط المدفن يوجد بناءان تحت سقف واحد، أحدهما يعتبرونه مسجدا، و فى الثانى يوجد مدفن يتوافد إليه الحجاج و يلثمونه. قرب المدخل، يوجد، فى الخارج، خزان محفور فى صخرة كبيرة يشبه الجرن الذى تشرب منه الخيول. و فى الخزان يصبون الماء و يعتبرونه زمزم حواء. و هنا يعيش عدد عديد من الشيوخ، و عدد أكبر من النساء و الأولاد الفقراء؛ و هؤلاء يجمعون الحسنات من الحجاج الذين يتوافدون لأداء الشعائر الدينية.

مدفن حواء، كما سبق أن قلنا، تحيط به مقبرة دفن فيها، مثلا، القنصل الروسى الأول فى جدّة المستشار الحكومى الفعلى شاهيمردان ميرياسوفيتش إبراهيموف الذى توفى من الكوليرا فى العام الأول بالذات من تعيينه (عام ۱۸۹۲). و على مدفنه حجر عليه كتابة بالروسية و العربية نصبه القنصل الذى خلفه، السيد ليفيتسكى.

و بما أن المرحوم إبراهيموف كان معروفا جدّا فى تركستان و عموما فى آسيا الوسط حيث خدم زمنا طويلا، فانى أرى انه ليس من النافل أن اسوق معلومات جمعتها من بعض الأفراد عن وفاته، خصوصا و أنها تصح عموما على وضع الحجاج فى زمن الأوبئة من حيث عجزهم التام عن تدبير سبيل للاتصال بين جدّة و مكة، و من حيث نقص الاهتمام و العناية بهم من جانب العرب المحليين و الحكومة التركية.

و بما أن إبراهيموف كان يعيش على مقربة من مكة، فقد كان ملزما، بوصفه مسلما، أن يقوم فى السنة الأولى بالذات بالحج إليها، أى برحلة دينية لأجل السجود للمقدسات الإسلامية. و لسوء حظه نشب فى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۷۳

ذلك العام وباء الكوليرا شديد، تأجج أواره بخاصة فى مكة فى «يوم عرفات»- أى فى ذلك اليوم الذى يمضى فيه الحجاج، بموجب نظام إداء شعائر الحج، إلى وادى عرفات الواقع على بعد ۲۰ فرستا من مكة.

و خاف المسكين إبراهيموف خوفا شديدا و توجه رأسا من عرفات إلى مكة بدون توقف. و هنا مرضت زوجة القنصل، أما الكوليرا و أما من الأرهاق أثناء الحرك السريع من عرفات. ترك إبراهيموف زوجته فى مكة، و مضى إلى جدّة مع فارسين (خادمين) و مع أحد التركستانيين و معهم مضى أيضا طبيب مصرى. و عند الرحيل كانوا جميعا بخير الصحة و العافية، و مضوا ركوبا مع قافلة. فى المقهى الأول بالذات توقفوا للاستراحة. احتسوا القهوة و الشاى و اكلوا. و تابعوا السير، و ما كادوا يقطعون بضع مئات من الساجينات حتى

أصيب إبراهيموف فجأة باختلال فى المعدة، إذ أصابه اسهال دموى قوى. انزله الخادمان عن السرج و وضعوه أرضا. بدأ الطبيب يدلكه و عرض عليه تناول دواء، و لكن المريض رفض قطعا.

شعر إبراهيموف باقصى الضعف، فامر بوضعه على تختروان أى على مسند خاص مصنوع من عارضتين ممددتين على بغلين أو على جملين. البون بين العارضتين يجدلونه بحبال مثلما يفعلون فى اسرّة السرتيين. و على التختروان يمكن الجلوس و التمدد أثناء السير بصورة مريحة نوعا ما. وضعوا المريض و تابعوا السفر. بعد بعض الوقت، أمر الطبيب أحد الخادمين بمعاينة المريض و جس جسده. قال الخادم أن جسد المريض قد برد. أسرع الطبيب إلى الأمام و قال انه سينتظر فى المقهى التالى و لكن لن تقع عليه العين فيما بعد. فقد راح إلى جدّة تاركا المريض المحتضر فى يد القضاء و القدر. مات إبراهيموف قبل الوصول إلى محطة حدة. نقلوا جثمانه إلى جدّة، حيث دفنوه قرب مدفن حواء.

و عن سبب موت إبراهيموف تنتشر شائعة أخرى لن أرويها أنا لأنى لا املك أية مستندات.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۷۴

إن المرحوم إبراهيموف كان يؤدى واجباته القنصلية، كما يقولون، بغيرة حماسة، و كان يصرّف الأمور بهمة و حزم؛ و لذا يتذكره بالسوء حتى الآن شتى الادلة و الوكلاء، أى تركستانيونا الذين يأخذون فى جدّة من الحجاج السذج، السريعى التصديق، النقود لأجل صيانتها و حفظها أثناء سفر الحجاج إلى مكة؛ و كذلك على العموم جميع الانذال الذين لا يعيشون إلا من نهب الحجاج و استثمارهم بكل الوسائل. و قد حاول إبراهيموف، بوصفه قنصلا روسيا، أن يحمى مواطنيه من هذا الجراد الذى ينقض عليهم فى الحجاز، و كان على العموم يساعدهم بقدر الإمكان. تجدر الإشارة إلى أن السياسة الإسلامية فى الحجاز تبدو فى الظاهر بسيطة و ساذجة جدّا، و لكنها فى الواقع معقدة و داهية جدّا. أما قنصليتنا فى جدّة، فهى مؤسسة حديثة جدّا، و ضمانتها ضعيفة جدّا، الأمر الذى يتضح، مثلا، من هجوم العرب على قناصل الدول المسيحية فى جدّة سنة ۱۸۹۵. و على القنصل الأوروبى أن يكون هنا محترسا خارق الاحتراس [...].

الفصل الثانى من جدّة إلى محطة حدّة

[...] فى ۳۰ نيسان (ابريل) حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر، انتظرتنا قافلتنا ماوراء البوابة المكية فى جدّة، قرب المقهى الأخير الواقع غير بعيد عن البوابة. رحت مع العائلة. و قد رافقنا إلى المقهى: مدير أعمال قنصلية امبراطورية روسيا فى مدينة جدّة، و السيد الفائق الطيبة غ.

ف. براندت و السكرتير ف. ف. نيكيتنيكوف، و كذلك كثيرون من التركستانيين القاطنين فى مدينة جدّة. قرب القافلة تقدم منى سواق الجمال و الجندى التركى رئيس الخفر [...].

و بما أن القافلة لم تكن جاهزة للرحيل، فقد رحنا إلى المقهى. كنا

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۷۵

جميعا مرتدين بدلات أوروبية صيفية خفيفة؛ كان السيد براندت فى سدارة روسية بيضاء، و السيد نيكيتنيكوف فى قبعة من القش، و أنا فى طربوش تركى. البدلة الأوروبية هنا ليست على العموم بالأمر النادر. و لا تبهر عيون السكان المحليين بالجدة و الغرابة، و لكن عمرة الرأس، الطربوش، هو العلامة المميزة المعترف بها عموما على التبعية التركية.

صحيح أنى كنت فى عداد الأجانب، و لكن كانوا يعرفوننى هنا كمؤمن، من أبناء الدين نفسه؛ و الأتراك لا يحترمون المسلمين الذين يرتدون على الرأس عمرة ما غير الطربوش. و حين كنت فى القسطنطينية و كنت أذهب إلى القنصلية أو إلى السفارة لابسا القبعة، رآنى الأتراك الذين يتلاقون معى فى الشارع و اشاروا غير مرة إلى عدم لياقة عمرة رأسى، الأمر الذى اضطررت إلى التقيد به مع

ذلك نزولا على رغبة سفيرنا السيد نليدوف الذى نفر من الطربوش. و حين وصلت إلى الحجاز، اضطررت تحاشيا لملامات الأتراك و العرب، إلى لبس الطربوش، رغم كل نفورى منه لأنى كنت قد اعتدت على القبعة، و هى عمرة رأس انسب و أسهل، و بخاصة فى الوقت الحار [...].

الفصل الثالث محطة حدّة و الوصول إلى مدينة مكة

فى صباح الأول من أيار (مايو) وصلت قافلتنا نحو الساعة السابعة إلى محطة حدّة، حيث توقفت للاستراحة ليوم بكامله.

هنا استقبلنا كبير الأدلة المكيين محمد على سروجى مع تلامذته.

و هنا الاحظ أن الأدلة هم قادة الحجاج أثناء قيامهم بالحج، و عن الأدلة سأتحدث بمزيد من التفصيل فيما بعد.- جلب لنا محمد على من مكة الكثير من ماء نبع زمزم المقدس و اعد غدا من بضعة مآكل و اهدى الأولاد بيضات مصبوغة و شتى الحلويات. و قد تبين انه كان يعرف، قبل

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۷۶

رحيلى من طشقند، عن سفرى للخدمة فى جدّة، و من جدّة تلقى خبرا عن سفرى إلى مكة، فراح إلى لقائى، و استقبلنا هنا بكل مودة و ترحاب.

و فى الغداء روى الكثير من الأخبار [...] و قد أعرب، فيما أعرب، عن استيائه من شريف مكة و كذلك من القنصل الروسى السابق فى جدّة، شاهيماردان إبراهيموف. و محمد على عربى أصيل، عمره أكثر من ۶۰ سنة، و يعرف اللغة التركية؛ و هو على العموم شيخ محترم جدّا و كثير الكلام. منذ نحو عشرين سنة كان فى روسيا؛ و هو الآن يعمل دليلا لجميع التتر و القرغيز من امبراطورية روسيا، حاصلا منهم على دخل عن القيادة فى اداء فرائض الحج أثناء زيارتهم لمكة. و هو يحظى بين التتر و القرغيز بكبير الاحترام، و لا يعرف من يأتون هنا لأجل أداء فريضة الحج و حسب، بل يعرف أيضا جميع التجار و الأغنياء المعروفين من التتر، و كذلك الايشانات و الملّات القاطنين فى المدن الروسية و السهوب القرغيزية. و عفو الخاطر دهشت لمعرفته الشاسعة هذه عن روسيا و تركستان. فانا، المقيم فى تركستان، لا أعرف الكثيرين من التتر المحليين، بينما هو يعرف الجميع. و لكن كان من السهل تفسير ذلك، فيما بعد، لكون محمد على يملك مجلدات كبيرة بقوائم المسلمين الروس. و هو يتراسل مع كثيرين منهم و أحيانا يرسل مع الحجاج العائدين إلى روسيا تلامذته لأجل جمع التبرعات.

تقع محطة حدّة فى وسط الطريق بين جدّة و مكة. و هى تتألف من بضع منشآت شاسعة مبنية من احجار غير منحوتة مشدودة بالاسمنت.

الحوش مسيج بسياج من الحطب القشاش. و فى الحوش، بمحاذاة السياج، توجد كثرة من الأكواخ المصنوعة من المادة ذاتها. و فيها يتوقف عادة الحجاج متسترين من أشعة الشمس الحارقة. إلى يسار الحوش الرئيسى يوجد حوش آخر مماثل تماما و لكنه أصغر. و فى عداد المنشآت الأخرى توجد مشأة من غرفة واحدة مع قاعة انتظار و مع حوش

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۷۷

بقربها. و هى معدة لأجل الحجاج الأغنياء المسافرين مع عائلاتهم، و هى تؤجر عادة لقاء مبلغ كبير من النقود، و بخاصة إذا كان بين القادمين مع القافلة موظفون و أغنياء اتراك. و بما انه يتعين على القادمين إلى الحج أن يمكثوا فى حدّة يوما بكامله فإن هؤلاء لا يضنون، عادة، بالنقود فى الصيف، فى القظ الرهيب، لأجل النزول فى هذه المنشأة، فينقذون بذلك حياتهم و صحتهم. القيظ الرهيب، لأجل النزل فى هذه المنشأة و فينقذون بذلك حياتهم و صحتهم. القيظ فى هذه الصحراء العارية، الخالية من الماء يكون أحيانا رهيبا حقا و فعلا مهددا الانسان غير المتعود بضربة شمس و على العمو مباختلال و استضعاف الجسم. فى طريق العودة، أخذ الموظفون

الأتراك الذين وصلوا بعدنا يطالبون بالضجيج و الصياح بهذه المنشأة الثمينة لأنفسهم- مع أنها خالية من المفروشات، و عارية الجدران، و قذرة كفاية؛ و لكن سرعان ما هدئوا حين قالوا لهم أن موظفا قنصليا روسيا يشغلها. و حتى فى الحجاز الموحش يحظى الاسم الروسى بالمكانة و الاحترام ...

فى حدّة يوجد مسجد يسمى بمسجد النبى. يقولون أن محمد صلى اللّه عليه و سلم كان هنا، و انه من هنا انطلق إلى المدينة المنورة. و المسجد عبارة عن بناية حجرية كبيرة نسبيّا مرفقة بحوش غير كبير، و لكنه مهمل جدّا. يبدو أن أحدا لا يصلى فى هذا المسجد، و لكن لم يخطر فى بالى ذلك فرحت إليه لأصلى صلاة الظهر غير أننى وجدت هناك جنديّا من الحرس العسكرى عنده، كما تبين، شقة فى المسجد بالذات، رغم أن لديه على مقربة مبنى خاصا به مرفقا بمصطبة وحوش. بيت الصلاة يستخدمونه بصورة غريبة جدّا ...

تقع حدّة فى واد جبلى شاسع تبدو فيه أكواخ العرب الحقيرة فى جوار المحطة. و غير بعيد من محطة حدّة، يوجد دغل كبير من أشجار النخيل و وراءه يسيل نهر صغير ينبع من منابع جبلية. عرض النهر نحو

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۷۸

ثلاثة ارشينات فقط، و عمقه زهاء نصف ارشين. مياهه تروى المحطة، و حقل البرسيم، و مزارع من القرع حقيرة المنظر، و مزرعة قطن. و هو من الأنهر القليلة فى الحجاز. و لكم طاب لى أن أرى فى هذا البلد القائظ و الصحراوى، الخارق الجفاف، نهرا، و أن صغيرا، نهرا حقيرا بالنسبة لى أنا الذى ترعرعت بين السيول الزرقاء و الوبداء لنهر تشيرتشيك الذى يحتوى الذهب، مع ضجته و هديره المستطاب على الاذن، و جريانه وسط واد جميل ذى نباتات ساطعة و خضراء ... و حين وقفت على ضفة النهير الحجازى، تذكرت عفو الخاطر مدينتى طشقند الغارقة فى أخضر بساتينها الزمردى، و قدّرت كل أهمية و فرة مياهها التى يقدمها تشيرتشيك الذى لا ينضب معينه ... و لكن خيل إلينا أننا فقدنا طشقند إلى الأبد ...

[...] وصلت قافلتنا إلى مكة فى الثانى من أيار (مايو) عند طلوع الفجر. و عند دخول المدينة توقفت فى ساحة كبيرة؛ أما نحن، فاننا لم نتوقف بل رحنا إلى شقتنا؛ و قد قادونا إليها عبر المدينة كلها تقريبا. كان الجو لا يزال معتما، و فى عتمة الفجر لم أستطع أن أرى شيئا بنحو جيد نوعا ما. كانوا يسوقون الجمال فى شوارع ضيقة و متعرجة. كانت تصعد تارة إلى جبل و طورا تنزل. على جانبى الطريق كانت تنتصب جدران و بيوت. فى بعض الأماكن اصطدمنا بأناس نائمين فى الشارع مباشرة.

و لدن اقتراب جمالنا كان الناس شبه النيام يقفزون بذعر و ينهضون على اقدامهم و يطلقون اللغط و الضجيج و الصياح، و لكن الحراس السائرين، شاهرى البنادق على جانبى جمالنا كانوا سرعان ما يقطعون بنحو ما حبل الضجيج و الصياح، و كنا نواصل السير بهدوء حتى الكومة التالية من المشردين الذين اختاروا الشارع منامة لهم [...] و أخيرا توقفت الجمال قرب بيت من طابقين كان يعيش فيه أحد معارفنا التر، المدعو عبد الرحمن سلطانوف الذى انتقل من طشقند إلى السكن فى مكة. استقبلنى قرب بوابة البيت. و كان معه الدليل محمد على الذى استقبلنا فى حدّة و سبقنا.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۷۹

كل حاج يصل حديثا إلى مكة ملزم قبل كل شىء باداء الطواف أى السير سبع مرات حول الكعبة (بيت اللّه) و بين الصفا و المرو ؛ و بعد ذاك يخلع ثوب الأحرام. و رغم خارق الأرهاق من السفر على «سفينة الصحراء»، فى موكب لا يشرف كثيرا العرب المشهورين بذكائهم و فطنتهم، اضطرت إلى الخضوع للقواعد المقدسة لشعيرة الدخول، و اديتها فى عتمة الصباح باشراف الدليل محمد على. دام طوافى طويلا جدّا، و لذا عدت إلى شقتى نحو الساعة السابعة صباحا. و جاءنى حلاق و حلق شعر رأسى، و بعد ذاك خلعت ثوب الاحرام. كانت زوجتى و أولادى لا يزالون نائمين. و كان سلطانوف و زوجته مشغولين باعداد الدسترخان أى المآكل من شتى الحلويات، الأمر الذى يعرفه جميع التركستانيين جيدا.

كان الوقت يناهز الثامنة حين أخذ يظهر الواحد تلو الآخر الأدلة المكيون، و موزعو مياه بئر زمزم المقدسة، و خدم بيت اللّه، و التتر

أصحاب التكيات، (و هى ضرب من خانات)، و الباخريون، و السرتيون، و القرغيز، و سائر الحجاج من آسيا الوسطى. ثم أرسل جميع الأدلة الغداء من بيوتهم. فهناك توجد العادة التالية: كل دليل يرحب بأغنى حجاجه بغداء و فير نسبيّا يرسله إلى الشقة التى يشغلها القادم. بوصفى ممثلا عن الحجاج بين الأدلة حسب القبائل و القوميات. و لكنى، بوصفى ممثلا عن جميع قبائل المسلمين من رعايا روسيا، تلقيت المآكل من جميع الأدلة الذين وزعوا فيما بينهم حجاجنا. و مقابل هذه المآكل كان

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۸۰

ينبغى بالطبع تقديم الهدايا فيما بعد. و فى هذا يتلخص بالضبط كل مغزى مجاملة ارسال الأطعمة إلى المسافر القادم. و لا اثر البتة للضيافة فى كل هذا، بل مجرد أمل فى الحصول مقابل الطعام على ما يوازى سعر المآكل مثلين أو ثلاثة أمثال على الأقل. و صاحب البيت الذى نزلت فيه، سلطانوف، بوصفه رجلا محنكا و تاجرا، كان يقيّم كل طعام بعناية و دقة، مطبقا أسعار السوق المحلية، و كان يحدد ثمن الغداء بمبلغ يتراوح بين مجيديتين و ثلاث مجيديات. و بما أن العملة التركية، المجيدية، توازى بالعملة الروسية روبلا و ۶۰ كوبيكا، تعيّن علىّ أن أدفع مبالغ لا يستهان بها مع إضافة الفائدة، لقاء مجاملة الأدلة و بشاشتهم و ضيافتهم، خصوصا و أنهم كانوا يرسلون إلىّ زهاء عشرة غداءات، و منها كنت احتاج مع عائلتى إلى غداء واحد فقط، و لذا صرفت النافل كله على تضييف مواطنى و غيرهم من الضيوف القادمين لزيارتى. و فى عداد الضيوف كان كبير الأدلة فى مدينة مكة، و اسمه محمد على. و فجأة أخذ يتكلم معى بالروسية لما فيه دهشتى. و قد تبين انه اعتقل حين تجوب فى ربوع أقليم تركستان بدون جواز سفر و أمضى أكثر من سنتين فى سجن مدينة طشقند بانتظار نتيجة المراسلات بشأنه؛ و فى السجن تعلم اللغة الروسية. فيا للقاءات الغريبة التى تحدث أحيانا! ..

كانت شقتى تقع فى القسم الجنوبى الشرقى من المدينة، و كانت واجهتها تطل على ساحة كبيرة نسبيّا. و بالمقابل، فى الجانب الآخر من الساحة، كانت شقة والى مكة حسن حلمى باشا. و من الجانب الأيسر كانت تقع ثكنات الجنود الاتراك، و من الجانب اليمن، بعد بضعة بيوت، كانت تقع صيدلية حكومية بقربها روضة صغيرة كان الضابط الأتراك و الأفراد المدنيون يتنزهون عادة فى الأمسيات. كانت شقة الوالى تلاصق الجبل من جانبها الخلفى، و كان الجبل يعلو، على الأقل، زهاء ۵۰ ساجنا فوق سطح هذا المبنى الثلاثى الطوابق. و على الجبل كانت تنتصب

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۸۱

قلعة، و بقربها سجن المدينة الذى كانت على مدخله مدافع. و بقرب بيت الوالى، كانت تقوم، من الجهة الشمالية، عمارة ضخمة من طابقين (تكية)، شبه مدمرة، كانت تنزل فيها أغلبية الحجاج القادمين من مختلف أنحاء آسيا الوسطى؛ و من الجهة اليمنى كانت تقوم مرابض عسكرية لأجل بغال الركوب التى يركبها هنا الخيالة الأتراك. و إلى أبعد كانت تنتصب عمارات عسكرية مختلفة، ثم إلى أبعد أيضا، على سفوح الجبال، كانت تبدو خيام بيضاء يعيش فيها الجنود الأتراك الذين يؤلفون حامية مكة. و بما أننا أقمنا على هذا النحو بين العساكر التركية و على مقربة من شقة الوالى، فقد كنا مؤمّنين إلى هذا الحد أو ذاك م حيث السلامة الشخصية، الأمر الذى لا يشغل المرتبة الخيرة فى مكة؛ فعنا جمهرة من الناس الجياع جاءت عن جهل بالوضع بدون أى وسائل للعيش، و لذا ليس من النافل أبدا اتخاذ تدابير الحيطة و الاحتراس. و فى الساحة الواقعة مقابل شقتى، كانت تتجمع دائما قبيل المساء جموع من الحجاج العرب و الهنود من عداد الذين لا مأوى لهم. فى الليل كانوا ينامون فى الساحة المكشوفة متمددين على التربة مباشرة، دون أى فراش. و بما أن هذه الساحة هى فى مكة المكان الوحيد الذى يمكن فيها استنشاق الهواء النقى نسبيّا، فقد كان كثيرون من الحجاج ممن لا مأوى لهم يتوافدون إليها نهارا أيضا؛ كانوا يسكبون الماء على أنفسهم دون أن يخلعوا ثياب الاحرام. و كان من المؤسف حقا النظر إلى هؤلاء المساكين! كانوا يرتدون ملابس فقدت لونها بسبب الوسخ و العرق، و بالكد تصل حتى الركاب. و كان كل ما يملكونه عبارة عن صرر صغيرة جدّا، و أباريق صغيرة من الصفيح للشاى، و مظلات مكسرة. كانوا سودا و صفرا بحكم الطبيعة، قذرين بشكل لا يصدق، جياعا، منهوكى القوى إلى أقصى حد؛ كانوا عبارة عن كائنات تشبه حقا الأسماك المدخنة [...] و مهما كان المرء يشفق عليهم، كان

لا بدّ له من أن يأخذ منهم

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۸۲

جانب الحذر و الاحتراس، لأن بمقدور الجوع أن يدفع الإنسان إلى اقتراف أى فعل و جرم [...].

الفصل الرابع مدينة مكة

تقع مدينة مكة المكرّمة فى واد، و تحيط بها الجبال العالية من جميع الجهات. و هى مبنية على تربة رملية حجرية و تشغل مساحة قدرها ثلاثة فرسخات مربعة تقريبا. بيوتها من طابقين إلى خمسة طوابق، و جميعها تقريبا من أحجار جبلية بصورة قطع غير صحيحة الأضلاع، غير منحوتة، و مصفوفة و مرصوصة جدرانا بالاسمنت. السقوف و كذلك الأرضيات فى الغرف هى أيضا من الأسمنت. و البيوت جميعها تقريبا مكيفة لأجل التأجير، و حقيرة جدّا من حيث المنظر و الترتيب؛ و البيوت تسبه من حيث منظرها الخارجى ناهيك عن منظر الغرف الداخلى و عن أحوالها الصحية، ضربا من قصور قديمة كبيرة متروكة بدو تصليح، و بدون أية عناية على العموم. و واضح أن أصحابها ينظرون إليها كمصدر للدخل؛ و بما أن تدفق الحجاج دورى و دائم، و بما أن دخل أصحاب البيوت مضمون بالتالى، فهى لا يهتمون لا بمنظر البيوت الخارجى و لا بالأسباب الداخلية للراحة و الرفاه [...].

التجار فى مكة هم على الأغلب من السوريين و الفرس و سكان دمشق و المسلمين الهنود. و السوق يحفل بشتى بضاءع المصانع و المعامل الأوروبية؛ و هناك أيضا كثرة من الآنية النحاسية الهندية الصنع.

و الخردوات هى على الأغلب من إنتاج المصانع الإنجليزية، عنينا بها الخرز و الاساور و الخواتم و الحلق و المطرازات و الاشرطة و الجوارب و القصب و اللآلئ الاصطناعية و القناديل و السلطانيات و الفناجين و الكؤوس و غير ذلك من الآنية الزجاجية، و الآنية من البورسلين

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۸۳

و الخزف، و كذلك الآنية المعدنية و المطلية بالميناء. و هناك وفرة من الدهان و العطور و الصابون و خلافه و كذلك من الأحذية من أحدث موضة، فضلا عن الكثير من شتى الحلويات و المقبلات: مختلف المخللات، و المربيات، و السردين، و مختلف السكاكر و الحلويات؛ و مختلف الأجهزة و آلات الخياطة و آلات صنع الثلج، و خلافها. و جميع هذه البضائع ينقلونها إلى الحجاز، بالطبع، على السفن الأوروبية عبر مرفأ جدّة. الشرف و المجد للإنجليز على نشاطهم و همتهم، و الأهم، على مهارتهم فى تعويد الشعوب شبه البربرية على منتوجاتهم! و من بين منتوجات المصانع الروسية، لا يقدّر السكان المحليون غير الاقفال التى يجلبها أحيانا بعض الحجاج، و ببضع العشرات فقط. و هذا كل ما يأتى إلى هنا من روسيا ...

و نظرا لطبيعة الأرض الصحراوية المحيطة بمدينة مكة، و لنمط معيشة سكان البلد الترحلية، يستجلبون إلى مكة جميع المنتوجات الحيوية من بلدان أخرى و مدن أخرى؛ فإن الفواكه الطازجة، مثلا، و العنب، و المشمش و الدراق و العنبيات و خلافها يستجلبونها من الطائف؛ و التمر من المدينة المنورة؛ و مختلف الخضراوات و الشمام و البطيخ و خلافها من محلة وادى فاطمة؛ و مختلف الحبوب و كذلك البطاطا و الملفوف جزئيّا من القاهرة، و أغلها من بومباى. و لطحن الحبوب المستجلبة توجد فى مكة مطاحن، تصاميمها فى منتهى البساطة، و تحركها الحمير و الغال. و لا وجود فى المدينة بالذات و لا فى ضواحيها لأية بساتين و مباقل و أحواض للخضراوات و لا اية مزروعات على العموم، إذ أن كل هذا رهن قبل كل شىء بقلة الماء لأجل الرى.

و عدا هذا، لا ينبت فى البلد غير النخيل و النباتات البرية أى الأعشاب و الشجيرات الشوكية [...].

و فى مكة توجد لأجل الحجاج الفقراء على اختلاف قومياتهم

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۸۴

مساكن مجانية تسمة «التكيات»، و هى بصورة بيوت. و هذه التكيات بناها فى أزمان مختلفة المسلمون الأغنياء و الشعوب التى تدين بالإسلام و جعلوها وقفا على الحجاج. و هذه التكيات يشرف عليها أفراد خصوصيون. منظرها الخارجى و الداخلى غير مرض إطلاقا، مثله مثل أغلبية البيوت فى المدينة على العموم. و الأجانب، سواء فى مكة أم فى عموم الحجاز، لا يملكون الحق، بموجب القانون، فى اقتناء الأموال غير المنقولة؛ و الكفار، أى غير المسلمين، لا يسمحون لهم لا بدخول مكة و لا بدخول المدينة المنورة [...] و هنا يملك العرب كل شىء؛ و نظرا لبربريتهم و غياب المزاحمة، قلما يحرصون على حسن بناء العمارات السكنية و صحة صيانتها؛ أما الحكومة التركية، فإنها، بسبب الضعف و اختلال المالية، لا تتخذ أية تدابير، لا لتوفير أسباب الراحة و الوثار للحجاج، و لا علة العموم لتحسين معيشة السكان المحليين.

و الاستثناء الوحيد هو المؤسسات الحكومية التالية: محطة البريد و البرق، التى تستقبل و ترسل الرسائل و البرقيات إلى شتى أقطار العالم؛ و لا تقبل غير الرسائل البسيطة، غير المضمونة؛ و البريد فى جدّة و سار مدن الحجاز ينقله مكارون خصوصيون على الحمير [...] و من هذا تبين أن المواصلات البريدية لا تتميز بحسن التنظيم و لا بالسرعة [...] و هناك صيدليتان أحداهما حكومية، و الثانية خاصة. و هناك مستشفى نهبه العرب ... و هذا كل شىء.

و من حيث تجهيز المدينة بالمرافق و تحسين معيشة السكان، قلما تحقق هنا على العموم مثلها فى ذلك مثل سائر المدن الآسيوية البحتة.

و هنا لا وجود البتة للحوذيين، و لا توجد عربات إلا عند والى مكة و شريف مكة. و لا وجود البتة للخيل. و السفر فى المدينة يجرى ركوبا على الحمير؛ و الخيالة التركية، كما سبق أن قلت، تركب البغال. أما لماذا لا وجود للخيل هنا، فى أهم مدن البلاد التى تشتهر بخيلها، فلم

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۸۵

أستطع أن أفهم السبب، و لكن بوسعى أن اؤكد أن الحصان فى مكة ظاهرة نادرة جدّا. كذلك لا وجود البتة للإنارة فى الليالى فى شوارع المدينة. و فى البيوت يلجأون إلى الإنارة بالكاز بواسطة القناديل الإنجليزية و الكاز الأميركى.

يبلغ عدد السكان الدائمين فى مكة زهاء ثلاثين ألف نسمة.

و الرياش فى البيوت بسيطة جدّا على العموم. و لا وجود تقريبا للمفروشات فى الغرف؛ و العرب بمعظمهم يجلسون و يتمددون على الأرضية، مثلهم مثل جميع الشعوب الشرقية. و لا يملكون البتة تقريبا اقتصادا منزليّا إذ يشترون من السوف جميع المؤن. و لهذا السبب توجد فى المدينة كثرة كثيرة من المقاهى و دكاكين المأكولات و المخابز.

و فى مكة يعيش عدد كبير نسبيّا من مواطنينا من آسيا الوسطى. و هم يمارسون مختلف الحرف و لا يفكرون فى العودة إلى الوطن.

و على العموم يعيش سكان المدينة بدون ملل كبير. ففى الأعياد، و فى أثناء صيام رمضان، و عيد الأضحى، و غير ذلك من المناسبات، تقام نزهات و احتفالات شعبية كبيرة مرفقة بالاراجيح و رقصات الرجال من سرادق خاصة. و أثناء الاحتفالات الشعبية تقام المقاهى و دكاكين و اكشاك المأكولات و تباع شتى الخردوات و شتى النوافه و اللعبات لأجل الأطفال؛ خلاصة القول انه يقام بازار عيدى. و فى هذه النزهات و الاحتفالات تتجمع على الأغلب النساء و الاولاد فى ألبسة مبرقشة و لامعة. و علة الخصوص تنذهل العين غير المعتادة من ألبسة الأولاد الغريبة من الديباج و الشاش. و هم مزينون من الرأس حتى القدمين بشتى العقود، و النقود المعدنية الفضية، و مختلف التفائه. و هذه ضرب من حفلات راقصة مقنعة للأولاد مقامة فى الهواء الطلق ... صحيح أن النساء يحجبن وجوههن، و لكنهن يتنزهن بكل حرية، و يتنادين بأصوات مدوية فى الجموع، و يتحادثن، و يضحكن. و وحدهن حصرا يركبن المراجيح.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۸۶

و عادة يركبن عليها أزواجا، و يغنين الأغانى، و يقرعن الدفوف. و لا يمنعهن أحد من ذلك، و لا يندد بهن أحد، و ليس هذا و

حسب، بل بالعكس، فإن الرجال يقفون بوقار و رزانة إلى جانب و يستمعون إلى أغانيهن و قرعهن على الدفوف (و هنا لا توجد عادة أية موسيقى أخرى).

و عفو الخاطر دهشت لهذه الحرية التى تتمتع بها النساء فى مدينة مكة و عموما فى الحجاز. و فى النزهات و الاحتفالات الشعبية يتجمع أناس من عموم المدينة؛ و فى عدادهم ضباط و موظفون و جنود. و كذلك يأتى بالطبع الحجاج الوافدون من شتى أنحاء الدنيا، و التجار؛ و أيضا القضاة و الأئمة و الرؤساء و خلاصة القول، ممثلو جميع طبقات مجتمع المدينة و ممثلو جميع الأقوام و الشعوب الإسلامية فى الكرة الأرضية. و جموع الرجال تسلك و تتصرف ببالغ التواضع و اللياقة كأنما لا ترحظ البتة النساء اللواتى يمرحن. و عادة يطلقون الصواريخ النارية فى الأمسيات، و يشعلون النيران البنغالية، الرخصية جدّا. ثمن الوحدة من ۵ إلى ۱۰ كوبيكات. و أحيانا يصنعها العرب أنفسهم؛ اما أكبر كمية منها، فيستجلبها التجار الهنود من بومباى. و على العموم تكون الأمسيات أثناء النزهات الشعبية مرحة جدّا. تطقطق و تنفقع الصواريخ، تشتعل النيران البنغالية المتنوعة الألوان، الأخيرة، حدّ السلطان التركى تماما من سلطة شرفاء مكة. فهم مجرد رؤساء دينيين، و لا يملكون أية سلطة مدنية، و يخضعون للمحافظ (الوالى) التركى و يعينهم السلطان التركى فى الوظيفة بناء على توصية من الوالى.

فى سنة ۱۸۹۵ كان عون الرفيق شريفا فى مكة. و كان يناهز الستين من العمر، و كان له مقر دائم فى مدينة الطائف- الواقعة على بعد ۷۰ فرستا تقريبا من مكة باتجاه الشرق، وراء عرفات.

و الشريف يرافقه عادة خفر تركى من ۵۰ جنديّا برئاسة ضابطين يعتبران ياورى الشريف و يرتديان حمائل ذات أطراف معدنية مثل ياورى

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۸۷

والى مكة. و يقال أن الشريف يعيل خفره من الجنود و الياورين من مداخيله غير القليلة. و عادة يلبى بدلة آسيوية طويلة الأطراف، و لكن له لأجل المناسبات الاحتفالية زيا خاصا بصورة معظف رسمى يزور به، مثلا، الشخصيات الأجنبية الرفيعة المقام. و هو يحمل عبر كتفه شريطا من نوع شريط و سام القديس اندرى فى روسيا و كثرة من الأوسمة و النجوم المرصعة بأحجار الألماس و اللآلئ.

و عادة يخرج الشريف من بيته فى عربة تجرها البغال. و مما له دلالته انه حين يرغب فى زيارة أحد ما، يرسل سلفا إلى الأمام قبل وصوله ببعض دقائق بضعة جنود مسلحين مع صابط. و هؤلاء يقفون فى الغرفة المعدة لأجل استقبال الشريف، و حين يصل، يقدمون له التحية:

يقدمون السلاح، و يقفون هكذا أمام الشريف و رب الدار طالما تستمر الزيارة. و ليس من النادر فى هذه الزيارات أن يحملوا مسبقا إلى البيت الذى يمضى إليه نارجيلته، كما تفعل النساء، الأمر الذى سبق أن تحدثنا عنه [...].

تعقد المحكمة جلساتها علنا. و نظام و شكل النظر فى الدعاوى فى غرف المحكمة بسيطان جدّا، غير معقدين، كما أن الوضع كله بسيط أيضا. كل شىء يجرى ببالغ الهدوء و بكل لياقة. و عند النظر فى القضايا و الفصل فيها يسترشد القضاة بكتب الشريعة بل بأنظمة خاصة وضعتها الحكومة التركية على أساس أحكام الشريعة. و هذه الأنظمة تسمى «الدستور» و مكتوبة بشكل مواد منفردة، مثل قوانينا الروسية، أو على العموم مثل المجموعات الأوروبية من القوانين. و مواد «الدستور» تتغير و تتكامل وفقا لمقتضيات الحياة العملية و روح العصر و لا تشكل بالتالى أحكاما جامدة لا تتغير مثل الشريعة . و المدعى أو المدعى عليه،

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۸۸

اللذان لا يرضيان على قرار القاضى الوحيد الواحد، يملكان الحق فى استئناف الدعوى إلى محكمة أعلى تسمى «حكومة» تقوم بوظيفتها لدى الوالى، كما سبق أن قلنا.

و الحجاز على العموم بلد لا يميل إلى التقاضى. و مما له دلالته أن مواطنينا من تركستان يشغلون اهتمام المحاكم أكثر من جميع

السكان الآخرين. و من الجلى أنهم يحملون إلى هذا البلد و لعهم بالمجادلات و حبهم الحار للتقاضى بدافع من أمور تافهة فى أغلب الأحيان. و ليس عبثا يقال إن العادة طبيعة ثانية.

[...] يمكن تقسيم جميع الحجاج إلى أربع فئات: الفعليين، الاختصاصيين، التجار، المحتالين. الحجاج الفعليون أو الحقيقيون يذهبون إلى مكة بالدافع الدينى فقط، كما يذهب المسيحيون إلى القدس و البوذيون إلى التيبت، إلى لهاسا، و خلافهم. و هم مشغولون حصرا بأداء فريضة الحج فقط أى بأداء الشعائر و الوجبات الدينية؛ و بعد ذلك، يعودون فورا إلى الوطن. و هؤلاء هم بالطبع خيرة الحجاج. الحجاج الاختصاصيون يقومون بالحج بالنيابة عن الآخرين، الأمر الذى تجيزه الشريعة؛ و بما أنهم أناس ذوو خبرة فى هذا المجال فإنهم يقومون بدور الأدلة لأجل المبتدئين؛ و يسمونهم «البدلاء»، أى أنهم يقومون بالحج

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۸۹

بالنيابة عن الآخرين، بدلا عنهم، و ليس بدون مكافأة بالطبع. و «بدلاؤنا» يتنقلون على الدوام بين روسيا و مكة محولين الحج إلى ضرب من حرفة.

و هذه الحرفة يتعاطاها على الأغلب الملّات و الائمة و خلافهم، أى رجال الدين المسلمون. و على العموم قلما يسافرون للحج من أجل أنفسهم بالذات، بل يذهبون فى أغلب الأحوال بدور البدلاء. و هذه الحرفة- البدالة- متطورة بخاصة بين تترنا رغم أنها بدأت فى الآونة الأخيرة تتطور بين سكان السهب القرغيز أيضا. الباهرة، منيرة الجموع المبرقشة، المنتعشة، الصاخبة، و ألبسة الأولاد الغريبة. و فى كل مكان يتعالى قرع الدفوف و تنداح أغانى النساء ... الضجة، التبرقش، الانتعاش. و كل شىء أصيل، فريد إلى أقصى حد [...].

و لكن لا بدّ من الإشارة إلى أن اخلاق النساء فى مكة لا تتميز بصرامة خاصة. و مفهوم للجميع بالطبع أن الحال لا يمكن أن يكون على نحو آخر فى مدينة يتجمع فيها العديد من الرجال ممن لا نساء و لا عائلات لهم. هناك رأى شائع مفاده أن بوسع الحجاج هنا أن يتزوجوا لمدد مختلفة، من بضعة أيام حتى بضعة أشهر، و لكنى لا أستطيع أن أؤكد هذا الرأى؛ بيد انه معروف أن الطلب يستتبع فى كل مكان العرض ... و فى المدينة عدد كبير من العبدات؛ و فى جوار المدينة أوكار من أدنى و احقر المستويات ...

و فى معرض الكلام عن نساء مكة، لا أستطيع امتناعا عن الإشارة عادة من عاداتهن الفريدة. جميعهن يدخنّ؛ و إذا أردن الذهاب فى زيارة، فإنهن يرسلن سلفا نارجيلاتهن؛ و حين يصلن، يجلسن، و يدخنّ و يثرثرن مع ربة البيت، كما يجرى فى كل مكان و عند جميع الشعوب. و عموما يشغل تدخين النارجيلة فى الحجاز دورا مماثلا تقريبا للدور الذى يشغله عندنا السماور و احتساء الشاى أى القرى و تمضية الوقت [...] و لهذا يستعمل الجميع هنا التبغ، و غالبا ما لا يجده الراغب فى الدكاكين.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۹۰

[...] إن ضباط الحامية التركية المرابطة فى مكة، لا يتقيدون إطلاقا، على ما يبدو، بوحدة اللباس العسكرى و لون قماشه. جميعهم يرتدون ما تقع عليه ايديهم، جميعهم فى ألبسة متنوعة الألوان، رغم أنهم دائما يحملون السلاح: سيفا ذا حد واحد او ذا حدين من الطراز الإنجليزى فى حمائل فضية و ذهبية. و على الأكتاف يحملون كتافات من الجوخ مع نجيمات معدنية. و الجنود يرتدون قمصانا بيضاء. كتافاتهم من الجوخ دون اية علائم. و الانضباط و الهيئة العسكرية غير ملحوظين بينهم.

و فى معرض الكلام عن الجنود الاتراك، لا يسعنى لزوم الصمت عن تمرداتهم غير النادرة ضد رؤسائهم. تنشب التمردات بصورة رئيسية لسببين: لعدم تقاضى الراتب فى الموعد المعين، و لعدم تسريح من خدموا المدة الشرعية و لابقائهم فى الخدمة بصورة غير صحيحة. و أثناء الفتنة، لا يندر أن يحتل الجنود بيت اللّه بقوة السلاح، و أن ينهبوا سكان المدينة و ضواحيها و ينصرفوا إلى اقتراف شتى الموبقات. و لتهدئتهم، يلجأون عادة إلى محاولات الاقناع، المر الذى يشارك فيه، عدا الضباط، رجال الدين، مؤثرين فى شعور الجنود الدينى. و الجنود المرابطون هنا هم على العموم شعب مستهتر جدّا، و ذلك، طبعا، بذنب من رؤسائهم الذين لين دائما يتصرفون بصورة عادلة و قانونية.

فى سنة ۱۸۹۰، تمردت حامية المدينة المنورة لأنهم لم يسرحوا الجنود من الخدمة بعد إنتهائها. رموا أسلحتهم و راحوا إلى حوش قبر النبى و عاشوا هناك أكثر من أسبوع إلى أن أفلح الرؤساء فى اقناعهم و تهدئتهم. و فى هذا الأسبوع حولوا حوش قبر النبى إلى ثكنة و لم يسمحوا لأحد بالأقتراب و الصلاة؛ و نهبوا السوق و دكاكين المأكولات لتامين المؤونة لأنفسهم. و قد نشب تمرد مماثل تماما فى مدينة جدّة سنة ۱۸۹۱. و احتل الجنود جامعا كبيرا فى المدينة و نهبوا المأكولات أيضا فى السوق.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۹۱

و فى مكة توجد مطبعة حكومية لا- تطبع غير الكتب الدينية الفحوى، و كذلك صورا بمناظر مكة و المدينة المنورة و بيت اللّه و خلافها. و الطبع كله يكلف رخيصا جدّا؛ فلا يأخذون سوى ثمن الورق و القليل لقاء العمل. و عند بوابتى بيت اللّه الرئيسيتين توجد بازارات للكتب. و الكتب و الرسوم التى يشتريها الحجاج يوزعونها فى شتى أقطار المعمورة. و عندنا، فى آسيا الوسطى، نجد منها الكثير، كما هو معلوم، و ذلك فى الجوامع و فى منازل السكان [...].

الفصل الخامس شريف مكة. المحكمة. الحجاج و الأدلة

شريف مكة، إنما هو الشخصية الدينية العليا فى عموم العالم الإسلامى. و من حيث أصله سليلا و وريثا مباشرا للنبى محمد (صلى اللّه عليه و سلم).

و فى الأزمنة الغابرة لعب الشرفاء دور الأمراء أى دور الحكام المستقلين، الأعلين. أما فى الوقت الحاضر، فإن هذا اللقب قد بقى لهم و لكنه لا يتسم بأية أهمية عملية. و اللقب يكتب على الورق فقط. و فى السنوات العشرين.

الحجاج التجار يتعاطون على الأغلب التجارة، و ينقلون البضائع من مدينة إلى مدينة و يقيمون لمدة غير معينة حيث يرون فائدة لهم. و لا يهمهم البتة حقا و فعلا سواء وصلوا قبل زمن الحج أو تأخروا عنه.

و بالنحو نفسه يعودون إلى ديارهم. و غالبا ما يتزوجون فى الطريق و يبقون للإقامة فى تلك المدن من الجزيرة العربية أو من تركيا على العموم حيث

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۹۲

و جدوا مأوى لأنفسهم. الحجاج المحتالون اختاروا لأنفسهم حرفة الابتزاز و النهب من السذج من اخوانهم فى الإيمان و بخاصة ممن جاؤوا من مختلف الأماكن النائية، الموحشة. و هم يستقبلون هؤلاء الحجاج و يرافقونهم فى طريق سفرهم، و يحرصون على سلامتهم و مصالحهم، و يتظاهرون بأنهم أطيب الرفاق و أكثرهم مودة و حسن نية، و بخاصة على متن البواخر. و هؤلاء المحتالون يدرسون طبع رفيق الطريق و يعرفون قدر أمواله؛ و حين تسنح أول فرصة ينهبون الضحية الساذجة و غالبا ما يتركونها فى يد القضاء و القدر بين أناس غرباء، بعيدا عن الوطن. و هذه الحرفة تمارسها النساء أيضا [...].

فى خاتمة هذا الحديث، أرى من الضرورى أن اتحفظ. فعن كل ما رأيته أحكى كشاهد عيان، دون أن أضيف شيئا، و حتى مقللا نوعا ما، لكى لا أمسّ بنحو ما، عن غير قصد، المسلمين فى مشاعرهم الدينية، إذ أنهم، بعد العودة من الحج، يعتبرون عادة من واجبهم أن يرووا مختلف المعجزات [...] و أنا أحكى عما رأيته و سمعته، متقيدا بأكبر قدر ممكن من الدقة .

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۹۳

الحج (من وجهة نظر روسية)

- ۱- يوجد فى روسيا أكثر من ۱۴ مليونا من المسلمين، أى اكثر من ۱۰٪ من عموم السكان.

على الصعيد الاقليمى يشغل المسلمون مناطق مشارف الأورال و مناطق مشارف القفقاس، و السهوب القرغيزية، و المناطق المضمومة

إلى روسيا فى القرن الماضى من آسيا الوسطى. و فى معرض الكلام عن توزع العنصر الإسلامى على الصعيد الاقليمى، يجب إلا يغيب عن البال أن مسلمى آسيا الوسطى من رعايا روسيا هم على صلة وثيقة من القربى مع مسلمى بخاى و خوى شبه المستقلتين.

و فى سياق تعميم الظروف الاقليمية و الاتنوغرافية لا بد أن نرى انه يتعين على الحكومة الروسية، فيما يتعلق بالحج، أن تأخذ بالحسبان أن فئة المسلمين تتالف من ۲۰۰۰۰۰۰۰ شخص.

- ۲- فيما يتعلق بالحج ينقسم جميع هؤلاء العشرين مليونا من المسلمين إلى جماعتين دينيتين رئيسيتين: إلى معتنقى مذهب السنّة و معتنقى مذهب

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۹۴

الشيعة. من الناحية العددية، يربو عدد السنيين فى الممتلكات الروسية بصورة ساحقة على عدد الشيعيين.

يتجمع الشيعة فيما وراء القفقاس و السنيون الذين يشغلون مساحات شاسعة متواصلة فى آسيا يظلون فى روسيا الأوروبية منغرسين جزئيًا فى وسط السكان الروس الذين يؤلفون هنا الأغلبية الساحقة، و مستقرين جزئيًا فى مناطق سلسلة جبال القفقاس. و القرم يستكمل مجموعة مسلمينا الجنوبيين.

- ۳- كل مسلم ملزم بموجب تعاليم محمد باداء فريضة الحج و لو مرة واحدة فى العمر، بصرف النظر عن اية عقبات و حوائل. و القوى القاهرة وحدها هى التى تسمح للمسلم بالاستعاضة عن الحج شخصيا بتكليف شخص آخر للقيام به بالنيابة عنه، أو بارسال التبرعات فى صالح الأماكن المقدسة.

و هذه الفريضة يجب أداءها- بموجب مذهب السنيين- [ص ۷] قرب الكعبة، فى مكة، أى قرب حرم بنى، حسب أساطير الجزيرة العربية، فى مكان المعبد الأولى الذى بناه إبراهيم.

تتلخص شعائر العيد فى الطواف حول الكعبة، فى السير- و الأصح، فى السعى بين صخرة الصفا و صخرة المرو، فى السير من مكة إلى جبل عرفات و فى موسم رجم الشيطانم فى وادى منى على ما يبدو.

و هنا أيضا يقدمون الأضاحى فيذبحون عددا كبيرا من المواشى.

فى معرض الكلام عن الحج، يجدر التذكير بأن محمد منع الذى يقوم بالحج الكثير من الأمور العادية كحلق شعر الرأس أو الصيد مثلا، و لكنه لا يسمح و حسب، بل يبارك أيضا التجارة فى زمن الحج و هذا «السعى وراء هبات الرب» محبب جدّا جدّا إلى قلب كل مسلم.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۹۵

- ۴- إن المسلمين السنيين فى روسيا الأوروبية و القفقاس و القرم لا يواجهون المصاعب فى الحج عبر القسطنطينية التى يمضون إليها عبر مرافئ البحر [ظهر ص ۷] الأسود و التى ينطلقون منها بطريق القوافل إلى الجزيرة العربية. أما المسلمون الشيعيون، فإنهم يمضون إلى اماكنهم المقدسة بطريق القوافل على الأغلب عبر الحدود الايرانية، رغم أن المسلمين الشيعيين من مشارف قزوين قد يركبون البواخر، أغلب الظن، حتى انزلى و رشت.

أما أغلبية السنيين فى روسيا الآسيوية و بخاصة فى مناطق آسيا الوسطى، و كذلك مجمل سكان بخارى و خوى، فمن المشكوك فيه أن يكون من الممكن اجتذاب هذه المجموعة الهائلة بالتدابير الادارية أو غيرها من التدابير إلى مرافئ البحر الأسود. سيكون من الممكن بالطبع توجيه مسلمى آسيا الوسطى أيضا بالقوة عبر باطوم إلى القسطنطينية، و لكن هذا التدبير سيكون ضارا مباشرة من جميع النواحى، و ضارا فى المقام الأول بمصالح السياسة الروسية.

- ۵- إن سفر المسلمين السنيين عبر القسطنطينية غير مرغوب فيه إطلاقا، و إذا كان لا بدّ من احتماله، فيقدر [ص ۸] الضرورة المحتمة فقط، و ليس البتة فى أى حال من الأحوال بوصفه امرا نافعا أو مرغوبا فيه.

إن الحج هو ظاهرة ذات طابع دينى سياسى. و بفضل الحج ينتعش المسلمون باستمرار. لا فى عقائدهم و حسب، بل أيضا فى عدائهم لغير المؤمنين أى لعموم العالم الذى لا- يعتنق تعاليم القرآن. و فى هذا المجال يأتى المسيحيون و اليهود أعلى نوعا ما من الوثنيين و لكنهم مع

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۹۶

ذلك أعداء اللّه، اللّه عدو لهم، و هم أصدقاء الشيطان، و الحرب ضدهم عم يرضى اللّه الذى لا يقبل حتى صلوات المؤمنين من أجل خلاص الكفار.

إن من يؤدى فريضة الحج يبلغ بالتالى وضع القداسة، و إذا ما حالفه الحظ و حمل إلى وطنه شعرة كانت فى لحية النبى (لا يندر أن تكون ليفا من جوز الهند)، فإن الحاج يلبس باعتزاز عمامته الخضراء، و يرشد الشعب بالهام، و يأخذ منه جزية لا بأس بها.

و لهذا لا يجوز البتة النظر إلى الحج من وجهة نظر واحدة ما، مثلا، من وجهة النظر الصحية، بل يجب النظر إليه من وجهة مصلحة عموم الدولة، التى تصغر حيالها وجهة النظر الصحية [ظهر ص ۸] إلى أدنى حد. و لهذا، إذا كان من المفيد من وجهة النظر الصحية توجيه كل جمهرة المسلمين إلى نقطتين أو ثلاث، فليس منالمفيد إطلاقا فى مصلحة السياسة تمرير هذه الجمهرة عبر بوابة استنبول.

إن القسطنطينية تنتظر بفارغ الصبر دافعى الجزية هؤلاء، لا عند سفرهم إلى الجزيرة العربية و حسب، بل أيضا عند العودة، حين يستطيع العلماء أن يستميلوا و يحولوا عقول السنيين البسيطة حسب مقياسهم هم بالذات. إن القسطنطينية بالنسبة للحاج إنما هى أكاديمية إضافية لنزعة الجامعة الإسلامية. فإن الحاج الذى استماله علماء القسطنطينية إنما يعود إلى موطنه مسلما ولد من جديد، تغير تماما. فهو يتحول من إنسان بسيط، شريف، و حتى من تاجر طيب إلى بروفسور، أستاذ، يدعو إلى أفكار متسامية إلى حد أن السنة الجمع تنعقد من سماعها، و بما أن الجمع لا يفهم ما لا يفهم الواعظ أيضا، فإنه ينظر عفو الخاطر إلى استنبول بوصفها مركز الإيمان الصحيح الذى سينتقل إليه عاجلا أم آجلا صولجان الملكية المطلقة العالمية.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۹۷

- ۶- إن توجيه جميع مسلمى آسيا الوسطى الراغبين فى الحج، بالتدابير الادارية أو حتى بالتأثير فى الأمير و الخان ، [ص ۹] إلى مرافئ البحر الأسود يقابله الاستياء فى وسط اعتاد على طرق القوافل المنطلقة عبر افغانستان و بومباى. و فى هذه السبل يسعى الحجاج وراء «هبات اللّه» أى أنهم يتاجرون، الأمر الذى لا يستطيعون القيام به فى سبل السفر البخارية.

لا ريب فى أن بمقدور التأثير الروسى أن يجبر الأمير و الخان على اصدار الأوامر بتوجيه حج السكان الخاضعين لسلطتهما إلى حيث يشآن، و أن إلى مرافئ البحر الأسود أيضا، و لكن هل هذا ضرورى لأجل سياستنا فى آسيا الوسطى؟ كلا. يجب أن يبقى الأمير و الخان فى وسط السكان الخاضعين لسلطتهما مسلمين طيبين، صادقى الإيمان، لا يمسان العادات و الأعراف الدينية من أى ناحية. و إذا كان بوسع الحاكم المسلم أن يقطع الرؤوس بلا حسيب و لا رقيب، فإنه يمعن الفكر مرارا و تكرارا قبل أن يخالف القواعد الدينية و الشعائر و المراسم الدينية.

قد لا تكون تذمر سكان بخارى أو سكان خوى هاما بحد ذاته، و لكن نحن الروس تهمنا صداقة الشعوب الإسلامية الحدودية و اخلاص حكامها سواء بسواء. [ظهر ص ۹] و فضلا عن ذلك، نرى أن ذلك القسم من السكان الذى يزدرى شتى المخاطر حيال قداسة الحج يمكنه أن يزدرى أيضا حتى الأوامر الصارمة للغاية، بل و يقوم بالحج خفية عبر الممتلكات الآسيوية. و بحكم هذه الاعتبارات اعتقد انه من الأفضل الامتناع كليا عن أغلاق سبل القوافل من آسيا الوسطى، و الاكتفاء بانشاء مراكز حدودية لأجل إجراء فحص طبى للحجاج العائدين من الحج.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۹۸

- ۷- ينبغى إلّا يلقى الحج أية حماية من جانب أصحاب السلطة، و لهذا يبدو المشروع القائل بواجب المحافظين الاهتمام بتأمين

المأكولات و بتسهيلات السفر أمرا غير مفهوم اطلاقا. و هل هناك شيء من هذا القبيل بالنسبة للحجاج المسيحيين؟ كلا، على ما يبدو. لنتذكر أن التنظيمات المضبوطة كفاية ليس دائما تتجاوب مع مصالح السياسة السائدة. فإن التنظيم المضبوط للشؤون الدينية الإسلامية في اورنبورغ و قازان قد اسفر عن اعتناق الملايين من السكان القرغيز للدين الإسلامي.

[ص ۱۰] و لماذا هذا الجهد الجهيد لكي يصل المسلمون الحجاج إلى اكاديمية التعصب العمى بصورة مريحة جدّا؟ فإذا كان ذلك لأهداف محمودة، مفعمة بالروح الإنسانية، فمن الضروري بذلك القدر نفسه من الجهد او حتى قدرا أكبر من صالح الحجاج المسيحيين. أما إذا كانت هذه التدابير صحية بوجه الحصر، فينبغي أن تكتفي بالتوصل إلى هدف واحد فقط هو أن لا يجلب الحجاج المسلمون معهم أمراضا معدية من الجزيرة العربية أو من بلاد ما بين النهرين.

إن نية التأكيد من سلامة صحة المسلمين عند اجتياز الحدود في الطريق إلى الأماكن المقدسة تتجاوز حتى حد المرغوب فيه من وجهة النظر الإسلامية. فإن المسلمين الذين يموتون في أثناء الحج يتطهرون بالتالي من كل ارضي، من كل دنس. و لهذا لن يقابل المسلمون الحرص على معالجة المرضى (إذا لم يكونوا مصابين بأمراض معدية) بالتعاطف.

- ۸- إن الأنظمة [ظهر ص ۱۰] المضبوطة لا بعد من أن تبلغ دائما و على

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۳۹۹

العموم الأهداف المنشودة. أما التنظيم المصمم في القضية موضوع البحث، فإنه بتمادى إلى حد أن العمد (الشيوخ) و الجاويشية سيقتربون من وضع الموظف الحكوممي حتى مع الحق في المكافآت.

الجاويشية ضارون على العموم لأنهم «يدعون الحاح» إلى الأماكن المقدسة مبتزين من مهنتهك الكثير من المنافع. و الجاويش المنتخب طوعا و اختيارا يحظى بقسط من الاحترام من جانب جماعة الحجاج السائة و وراءه، و لكن الجاويش المعيّن من فوق لن يحظى بهذا الأحترام.

و إذا خطر في باله عند اجتياز الحدود أن يطبق أنظمة اوحوا له بها أو أمروه بتطبيقها، فإن رفاقه الحجاج سيعلنونه بالكافر و يطردونه على الأرجح من بيئتهم. و يبقى للجاويش أو للعمدة (فيما وراء الحدود) أن يذعن لمتطلبات الجمهور، و إذا كان في الجمهور حاج محنك فإنه لن يبقى للجاويش المعين غير أن يكون خادمه المطيع.

و دون الاستغراق في محاكمات شاسعة و متعددة الجوانب بصدد هذه المسألة البالغة الشأن من الناحية السياسية كما هو عليها الحج، أرى من الممكن الاكتفاء بالمبادئ التالية:

۱- الامتناع في كل حال من الأحوال عن اللجوء إلى التدابير غير العقلانية في توجيه الحجاج عبر مرافئ البحر الأسود و القسطنطينية.

۲- الامتناع عن اغلاق سبل القوافل القائمة في آسيا الوسطى من أجل الحج.

۳- إنشاء مراكز عبور على الخطوط الحدودية مع فرض رقابة صحية جدية على الحجاج العائدين.

۴- الامتناع عن اللجوء إلى أية تدابير حماية في صالح الحجاج المسلمين و بخاصة إلى تدابير تتفوق على تدابير العناية بالحجاج المسيحيين.

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۴۰۰

۵- ترك قضية تنظيم الحج للمسلمين مع منحهم الحق في تقديم المساعدة الطبية لمواطنيهم و اقربائهم و أبناء قبائلهم .

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۴۰۱

فهرس المحتويات

حياة الرحالة العقيد الروسى عبد العزيز دولتشين ۵

تمهيد ۱۳
قائمة الحجاج المسلمين (ما عدا حجاج روسيا) من ۱۶ تموز (يوليو) ۱۸۹۰ إلى أول تموز ۱۸۹۴ م ۳۸
قائمة السفن التى دخلت مرفأ جدة بالحجاج
من ۱۶ تموز (يوليو) ۱۸۹۰ إلى أول تموز ۱۸۹۴ م ۳۹
قائمة الادلة و الوكلاء (بموجب تقرير القنصل فى جدّة) عن سنة ۱۸۹۳ ۴۰
يوميات الرحلة إلى مكة المكرّمة ۵۳
الفصل الأول: سرى: تقرير دولتشين عن رحلته إلى الحجاز ۱۳۳
الحدود ۱۳۳
طوبوغرافية السطح ۱۳۳
النباتات و الحيوانات ۱۳۵
المناخ ۱۳۶
السكان (خارج المدن) ۱۳۸
التجارة و الصناعة عند السكان الرحل ۱۴۳
الوضع السياسى فى الحجاز ۱۴۴
التقسيم الإدارى ۱۴۸
القوات المسلحة ۱۴۹
ميزانية الحجاز ۱۵۲
الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۴۰۲
الفصل الثانى: أساليب و سبل حركة الحج فى الحجاز ۱۵۵
خصائص ظروف المواصلات ۱۵۵
القافلة و الركب ۱۵۵
البدو و عمليات النهب و الإعتداء ۱۵۷
المحملان السورى و المصرى ۱۶۰
سبل الحجاج فى الحجاز ۱۶۲
الطريق من جدّة إلى مكة و منها إلى عرفات ۱۶۳
السبل بين مكة و المدينة المنورة ۱۶۶
الطريق بين المدينة المنورة و ينبع ۱۷۵
مسيرة المحمل السورى ۱۷۷
مسيرة المحمل المصرى (من المدينة المنورة إلى الوجه) ۱۷۸
الفصل الثالث: مكة المكرّمة و المدينة المنورة و غيرهما من النقاط الآهلة فى الحجاز و أهميتها من حيث الحج ۱۷۹
مكة المكرّمة ۱۷۹
موقع المدينة ۱۷۹
البيوت ۱۷۹

المبانى العامة ۱۸۲

الشوارع ۱۸۳

السكان ۱۸۳

أشغال سكان مكة ۱۸۸

النظام النقدى ۱۹۱

تجارة الرقيق ۱۹۲

الظروف الصحية فى مكة. الماء ۱۹۶

حالة البيوت ۱۹۷

حالة الشوارع و البازارات ۱۹۸

المسلخ ۱۹۸

المقبرتان ۱۹۹

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۴۰۳

الظروف المناخية فى مكة ۱۹۹

المستشفى و الصيدليات ۲۰۰

السلطات الادارية و القضائية فى المدينة ۲۰۱

البريد و البرق ۲۰۲

مدينة الطائف ۲۰۳

المدينة المنورة ۲۰۳

الشوارع ۲۰۴

البيوت ۲۰۶

سكان المدينة و أشغالهم ۲۰۶

الظروف الصحية فى المدينة المنورة ۲۱۰

الماء ۲۱۰

حالة البيوت ۲۱۱

حالة الشوارع ۲۱۱

المسلخ ۲۱۲

المقبرة ۲۱۲

الظروف المناخية ۲۱۲

المستشفى ۲۱۴

المدارس الدينية فى المدينة المنورة ۲۱۴

المكتبات ۲۱۹

سلطات المدينة ۲۱۹

البساتين فى ضواحى المدينة المنورة ۲۲۰

المدينة المنورة بوصفها منفى ۲۲۱
ينبع. موقع المدينة و البيوت ۲۲۲
السكان و أشغالهم ۲۲۲
الظروف الصحية فى ينبع ۲۲۳
الظروف المناخية ۲۲۵
سلطات المدينة ۲۲۵
جدّة ۲۲۵
الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۴۰۴
الفصل الرابع: عن الحج عموما ۲۲۷
ما هو الحج ۲۲۷
المسجد الكبير فى مكة ۲۲۸
الآيات القرآنية المتعلقة بالحج ۲۳۵
شعائر الحج ۲۳۸
زيارة الآثار فى ضواحى مكة ۲۴۲
السجود أمام قبر النبى صلى اللّه عليه و سلم فى المدينة المنورة ۲۴۲
المسجد الكبير فى المدينة المنورة ۲۴۳
زيارة الآثار الأخرى فى ضواحى المدينة المنورة ۲۴۴
الفصل الخامس: حج المسلمين الروس ۲۴۷
عدد الحجاج المسلمين الروس سنة ۱۸۹۸ م ۲۴۷
أصناف الحجاج ۲۴۷
الأسباب الرئيسية التى تحمل على الحج ۲۴۹
مقدار المبلغ الضرورى لأجل الحج ۲۵۰
الاستعدادات للسفر ۲۵۱
الحصول على جوازات السفر ۲۵۲
الخروج من حدود روسيا ۲۵۳
القسطنطينية بوصفها نقطة متوسطة هامة ۲۵۵
السفر إلى جدّة ۲۵۵
النزول فى جدّة أو فى ينبع ۲۵۷
الرأس الأسود ۲۵۸
الانتقال إلى مكة ۲۶۰
الوصول إلى مكة و الإقامة ۲۶۱
الإقامة فى مكة قبل الإنطلاق إلى عرفات ۲۶۱
الإنطلاق إلى عرفات ۲۶۲

الإقامة فى عرفات ۲۶۳

المزدلفة ۲۶۴

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۴۰۵

منى ۲۶۴

العودة إلى مكة و رحيل الحجاج ۲۶۸

الانتقال إلى المدينة المنورة ۲۶۹

الإقامة فى المدينة المنورة ۲۶۹

الذهاب إلى ينبع ۲۷۰

الإقامة فى ينبع ۲۷۲

المحجر الصحى فى الطور ۲۷۵

المحجر الصحى فى بيروت ۲۸۴

زيارة القدس و دمشق و القاهرة ۲۸۶

عودة الحجاج إلى روسيا ۲۸۷

تأثير الحج فى مسلمينا ۲۸۷

تأثير حجاجنا فى سكان الحجاز ۲۹۱

تأثير سائر الأمم الأوروبية ۲۹۲

الفصل السادس: الحجاج من الدول الأخرى ۲۹۳

القشغريون ۲۹۳

الفرس ۲۹۴

الاتراك ۲۹۷

السوريون ۲۹۸

المصريون ۲۹۸

المغاربة ۳۰۰

الافغان ۳۰۱

سكان الهند ۳۰۱

الماليزيون ۳۰۲

سكان الساحل الشرقى من افريقيا ۳۰۲

سكان الجزيرة العربية ۳۰۲

الفصل السابع: الكوليرا فى الحجاز ۳۰۷

الأوبئة المعروفة فى القرن الحالى ۳۰۹

الرحلة السرية للعقيد الروسى، ص: ۴۰۶

الأسباب التى تساهم فى نشوب و اشتداد الأوبئة فى الحجاز ۳۱۲

طبقة الحجاج المعدمة ۳۲۱

الملاحق ۳۳۱
الملّا میرزا علیم ابن دام الله میرزا رحیم طشقندی یصف طریق الحاج ۳۳۳
وصف بوابات کعبة الله و الأماکن المقدسة حیث یمکن أن یقبل [الله] صلوات المؤمنین ۳۳۹
منطقة المسلمین المقدسة فی الجزیرة العربیة مقتطفات من ذکریات الحاج سلیم غیری سلطانوف ۳۴۵
مکة مدینة المسلمین المقدسة: مقتطفات من ذکریات الحاج عیشایف ۳۷۱
الفصل الأول: مدینة جدّة ۳۷۱
الفصل الثانی: من جدّة إلی محطة حدّة ۳۷۴
الفصل الثالث: محطة حدّة و الوصول إلی مدینة مکة ۳۷۵
الفصل الرابع: مدینة مکة ۳۸۲
الفصل الخامس: شریف مکة. المحکمة. الحجاج و الأدلة ۳۹۱
الحج (من وجهة نظر روسیة) ۳۹۳

درباره مرکز تحقیقات رایانه‌ای قائمیه اصفهان

بسم الله الرحمن الرحیم
جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (سوره توبه آیه ۴۱)
با اموال و جانهای خود، در راه خدا جهاد نمایید؛ این برای شما بهتر است اگر بدانید حضرت رضا (علیه السّلام): خدا رحم نماید بنده‌ای که امر ما را زنده (و برپا) دارد ... علوم و دانشهای ما را یاد گیرد و به مردم یاد دهد، زیرا مردم اگر سخنان نیکوی ما را (بی آنکه چیزی از آن کاسته و یا بر آن بیافزایند) بدانند هر آینه از ما پیروی (و طبق آن عمل) می کنند
بنادر البحار-ترجمه و شرح خلاصه دو جلد بحار الانوار ص ۱۵۹
بنیانگذار مجتمع فرهنگی مذهبی قائمیه اصفهان شهید آیت الله شمس آبادی (ره) یکی از علمای برجسته شهر اصفهان بودند که در دلدادگی به اهلبیت (علیهم السلام) بخصوص حضرت علی بن موسی الرضا (علیه السلام) و امام عصر (عجل الله تعالی فرجه الشریف) شهره بوده و لذا با نظر و درایت خود در سال ۱۳۴۰ هجری شمسی بنیانگذار مرکز و راهی شد که هیچ وقت چراغ آن خاموش نشد و هر روز قوی تر و بهتر راهش را ادامه می دهند.
مرکز تحقیقات قائمیه اصفهان از سال ۱۳۸۵ هجری شمسی تحت اشراف حضرت آیت الله حاج سید حسن امامی (قدس سره الشریف) و با فعالیت خالصانه و شبانه روزی تیمی مرکب از فرهیختگان حوزه و دانشگاه، فعالیت خود را در زمینه های مختلف مذهبی، فرهنگی و علمی آغاز نموده است.
اهداف :دفاع از حریم شیعه و بسط فرهنگ و معارف ناب ثقلین (کتاب الله و اهل البیت علیهم السلام) تقویت انگیزه جوانان و عامه مردم نسبت به بررسی دقیق تر مسائل دینی، جایگزین کردن مطالب سودمند به جای بلوتوث های بی محتوا در تلفن های همراه و رایانه ها ایجاد بستر جامع مطالعاتی بر اساس معارف قرآن کریم و اهل بیت علیهم السّلام با انگیزه نشر معارف، سرویس دهی به محققین و طلاب، گسترش فرهنگ مطالعه و غنی کردن اوقات فراغت علاقمندان به نرم افزار های علوم اسلامی، در دسترس بودن منابع لازم جهت سهولت رفع ابهام و شبهات منتشره در جامعه عدالت اجتماعی: با استفاده از ابزار نو می توان بصورت تصاعدی در نشر و پخش آن همت گمارد و از طرفی عدالت اجتماعی در تزریق امکانات را در سطح کشور و باز از جهتی نشر فرهنگ اسلامی ایرانی را در سطح جهان سرعت بخشید.

از جمله فعالیتهای گسترده مرکز :

الف)چاپ و نشر ده ها عنوان کتاب، جزوه و ماهنامه همراه با برگزاری مسابقه کتابخوانی

ب)تولید صدها نرم افزار تحقیقاتی و کتابخانه ای قابل اجرا در رایانه و گوشی تلفن سهمراه

ج)تولید نمایشگاه های سه بعدی، پانوراما ، انیمیشن ، بازیهای رایانه ای و ... اماکن مذهبی، گردشگری و...

د)ایجاد سایت اینترنتی قائمیه www.ghaemiyeh.com جهت دانلود رایگان نرم افزار های تلفن همراه و چندین سایت مذهبی دیگر

ه)تولید محصولات نمایشی، سخنرانی و ... جهت نمایش در شبکه های ماهواره ای

و)راه اندازی و پشتیبانی علمی سامانه پاسخ گویی به سوالات شرعی، اخلاقی و اعتقادی (خط ۲۳۵۰۵۲۴)

ز)طراحی سیستم های حسابداری ، رسانه ساز ، موبایل ساز ، سامانه خودکار و دستی بلوتوث، وب کیوسک ، SMS و...

ح)همکاری افتخاری با دهها مرکز حقیقی و حقوقی از جمله بیوت آیات عظام، حوزه های علمیه، دانشگاهها، اماکن مذهبی مانند مسجد جمکران و ...

ط)برگزاری همایش ها، و اجرای طرح مهد، ویژه کودکان و نوجوانان شرکت کننده در جلسه

ی)برگزاری دوره های آموزشی ویژه عموم و دوره های تربیت مربی (حضوری و مجازی) در طول سال

دفتر مرکزی: اصفهان/خ مسجد سید/ حد فاصل خیابان پنج رمضان و چهارراه وفائی / مجتمع فرهنگی مذهبی قائمیه اصفهان

تاریخ تأسیس: ۱۳۸۵ شماره ثبت : ۲۳۷۳ شناسه ملی : ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

وب سایت: www.ghaemiyeh.com ایمیل: Info@ghaemiyeh.com فروشگاه اینترنتی: www.eslamshop.com

تلفن ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۳۱۱) فکس ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱) دفتر تهران ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱) بازرگانی و فروش ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹ امور کاربران ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

نکته قابل توجه اینکه بودجه این مرکز؛ مردمی ، غیر دولتی و غیر انتفاعی با همت عده ای خیر اندیش اداره و تامین گردیده و لی جوابگوی حجم رو به رشد و وسیع فعالیت مذهبی و علمی حاضر و طرح های توسعه ای فرهنگی نیست، از اینرو این مرکز به فضل و کرم صاحب اصلی این خانه (قائمیه) امید داشته و امیدواریم حضرت بقیه الله الاعظم عجل الله تعالی فرجه الشریف توفیق روزافزونی را شامل همگان بنماید تا در صورت امکان در این امر مهم ما را یاری نمایندانشاالله.

شماره حساب ۶۲۱۰۶۰۹۵۳ ، شماره کارت :۶۲۷۳-۵۳۳۱-۳۰۴۵-۱۹۷۳و شماره حساب شبا : IR۹۰-۰۱۸۰-۰۰۰۰-۰۰۰۰-۰۶۲۱-۰۶۰۹-۵۳به نام مرکز تحقیقات رایانه ای قائمیه اصفهان نزد بانک تجارت شعبه اصفهان – خیابان مسجد سید

ارزش کار فکری و عقیدتی

الاحتجاج - به سندش، از امام حسین علیه السلام -: هر کس عهده دار یتیمی از ما شود که محنتِ غیبت ما، او را از ما جدا کرده است و از علوم ما که به دستش رسیده، به او سهمی دهد تا ارشاد و هدایتش کند، خداوند به او می‌فرماید: «ای بنده بزرگوار شریک کننده برادرش! من در کَرَم کردن، از تو سزاوارترم. فرشتگان من! برای او در بهشت، به عدد هر حرفی که یاد داده است، هزار هزار، کاخ قرار دهید و از دیگر نعمت‌ها، آنچه را که لایق اوست، به آنها ضمیمه کنید».

التفسیر المنسوب إلی الإمام العسکری علیه السلام: امام حسین علیه السلام به مردی فرمود: «کدام یک را دوست‌تر می‌داری: مردی اراده کشتن بینوایی ضعیف را دارد و تو او را از دستش می‌رَهانی، یا مردی ناصبی اراده گمراه کردن مؤمنی بینوا و ضعیف از پیروان ما را دارد، امّا تو دریچه‌ای [از علم] را بر او می گشایی که آن بینوا، خود را بِدان، نگاه می‌دارد و با حجّت‌های خدای متعال،

خصم خویش را ساکت می‌سازد و او را می‌شکند؟».

[سپس] فرمود: «حتماً رهاندن این مؤمن بینوا از دست آن ناصبی. بی‌گمان، خدای متعال می‌فرماید: «و هر که او را زنده کند، گویی همه مردم را زنده کرده است»؛ یعنی هر که او را زنده کند و از کفر به ایمان، ارشاد کند، گویی همه مردم را زنده کرده است، پیش از آن که آنان را با شمشیرهای تیز بکشد».

مسند زید: امام حسین علیه السلام فرمود: «هر کس انسانی را از گمراهی به معرفت حق، فرا بخواند و او اجابت کند، اجری مانند آزاد کردن بنده دارد».

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹